

قطر العسل

تأليف
محمد عبد الحليم
مكتبة دار الفقه

الطبعة الأولى

الطبعة الأولى



قصص العرب

قَصَصُ الْعَرَبِ

تَأْلِيفُ

مُحَمَّدُ أَحْمَدُ جَادُ الْمَوْلَى عَلَى مُحَمَّدٍ الْجَاوِي مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ الْبَرَاهِمِ

الجزء الثالث

طَبْعَتُهُ جَدِيدَةٌ

بِهَا إِضَافَةٌ قَصَصَ وَفِيهَا زِيَادَةٌ حَبِيطٌ وَشَرْحٌ وَتَحْقِيقٌ

دار الحجية

بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

تُعَدُّ القِصَّةُ أَقْدَرُ الْآثَارِ الْأَدَبِيَّةِ عَلَى تَمْثِيلِ الْأَخْلَاقِ ، وَتَصْوِيرِ الْعَادَاتِ ، وَرِسْمِ خَلَجَاتِ النُّفُوسِ ؛ كَمَا أَنَّهَا - إِذَا شَرُفَ غَرَضُهَا ، وَنُبِلَ مَقْصَدُهَا ، وَكُرِّمَتْ غَايَتُهَا - تُهْدِبُ الْعُلْبَاعَ ، وَتُرْفِقُ الْقُلُوبَ ، وَتُدْفِعُ النَّاسَ إِلَى اللَّئْلِ الْعَلِيَا ؛ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْوَجَابِ ، وَالْحَقِّ وَالتَّضَعُّعِ وَالسَّكَرَمِ وَالشَّرَفِ وَالْإِثَارِ .

وَقَدْ كَانَتْ الْقِصَّةُ - وَلَا تَزَالُ - ذَاتَ الشَّأْنِ الْأَسْمَى فِي آدَابِ الْأُمَمِ قَدِيمِهَا وَحَدِيثِهَا ؛ فَقَدْ وَرَدَتْ فِي التَّوْرَةِ ، وَجَاءَتْ فِي الْإِنْجِيلِ ، وَزَخَرَتْ بِهَا آيُ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ . ثُمَّ هِيَ فِي شِعْرِ الْإِغْرِيْقِ ، وَمُخَلَّفَاتِ الرُّومَانِ ، وَآثَارِ الْمَصْرِيِّينَ الْقَدَمَاءِ . وَالْعَرَبِ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي أَخَذَتْ بِنَصِيبٍ مِنْ هَذَا الْفَنِّ الْجَمِيلِ ، وَأَثَرُهَا فِيضٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ ؛ بَيِّنَدٌ أَنْ بَعْضًا مِنَ الْبَاخِثِينَ الْحَدِيثِينَ قَدْ جَعَلُوا نَصِيحَتَهُمْ مِنْ هَذَا الْفَنِّ ، وَهَضَمُوهُ حَقَّقَهُمْ فِي ذَلِكَ الْبَابِ ، وَوَصَمَوْهُ بِالْخِيَالِ الْعَقِيمِ ، وَعَابَوْا عَلَيْهِمُ الْفِكْرَ الْقَرِيبَ ؛ وَلَكِنَّ النُّصَيْبِينَ مِنْهُمْ قَدْ هَالَهُمْ هَذَا الْجَعْدُ ، وَلَمْ يَرْفُقْهُمْ ذَلِكَ النُّكْرَانُ ، فَاعْتَرَفُوا لِلْعَرَبِ بِالتَّقْصِصِ الَّتِي تَرْجُوها عَنْ الْفَرَسِ وَالْهِنْدِ ، وَتَزِيدُوا عَلَيْهَا فِي الْقَاهِرَةِ وَبَغْدَادَ ، وَتَحَدَّثُوا لِلنَّاسِ عَنْ قِصَصِ عَنَتْرَةَ وَذَاتِ الْهَمَةِ ، وَجَلَّوْا عَلَيْهِمُ أَلْفَ لَيْلَةٍ وَأَخْبَارَ ابْنِ ذِي يَزَنَ .

وَهَذِهِ الْقِصَصُ ، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ نَجَحَتْ نَجَاحًا تَامًّا فِي تَصْوِيرِ الْعُصُورِ الَّتِي وَضَعَتْ فِيهَا ، وَرَزَمَتْ لَنَا الْبَيْتَةَ الَّتِي نَبَتَتْ مِنْهَا ، كَثِيرٌ مِنْهَا تَأْفَهُ الْفَرَضُ ، مُبْهِمٌ الْقَصْدُ ،

ردى اللغة والأسلوب . وفي قصر قصص العرب عليها جعد للآداب العربية فضلها ، وإنكار عليها مفاخرها . . . وإلا فإن هناك قصصاً زخرت بها مجالس الخلفاء وسوامر الأمراء ، وملأت الكتب التي انحدرت إلينا عن المؤلفين القدماء ؛ وما منع الناس أن يردوا شربتها ، أو يجنوا أطايبها إلا مأمِنت به هذه الكتب من اضطراب الترتيب ، وردى الطبع ، وتحريف الناسخين .

وكتابتنا هذا جعنا فيه القصص : ما انتبذ منها وما شرد ، وألفنا ما تنافر وافترق ، وجعلناه أفساساً ، وقسمناه أبواباً ؛ جعنا كل قصة إلى مثالا ، وضمنا كل طُرقة إلى شبهها ؛ ليجتمع إلى غرض القصة - من تهذيب الطباع وترقيق النفوس - عرض شامل لحياة العرب : مدينتهم وحضارتهم ، وعلومهم ومعارفهم ، وأديانهم وعقائدهم ، وذكورهم وإناثهم وشعثهم ، وما طعموا عليه من كريم الفرائز ، وحسنة الذكاء ، ثم ما كان للمرأة عندهم من ماضى للمكانة وعظيم المنزلة ، وما أثر عنهم من أخبار صوروا بها حبهم العفيف وشرآهم الرقيق وشققهم الشريف ، ولم يخلُ كتابنا مما كان لهم من محاورات ومساجلات ومطالبات ومُناتلات ، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملك وطُرف التضاة والولاة ، وأخبار الأيام والحروب ، وغير هذا مما سيعرض مفصلاً في أبواب الكتاب .

ولم تنف في اختيار القصة على تعريف خاص ، أو جدٍ مرسوم ، فنيا اخترناه ما ذكروه من طريق الأخبار وشائق الأحداث ، وما وضعوه مصورين به المجالس والأشخاص ، وما صنعوه على ألسنة الطير والحيوان ، وما تخيلوه من أخبار الشياطين والجان ؛ إذ كان الغرض تنقيف الأذهان بذكر الطرائف ، وانشراح الصدور بعرض اللطائف مع كشف نواحي التاريخ ، وإظهار مفاخر العرب .

ولعلّ القارئ يروقه مандسى فيها من شريف الخصال فيحتذيه ، أو تعجبه
كرائم المادات فيطبع نفسه عليها ، إلى ما في هذا من بئث فصيح الألفاظ ، وإحياء
رائع الأساليب . ولعله يكون فيها مبادئ صالحة وأسس قويمة لمن يريد أن ينشئ
قصصاً طويلة على أساس ، أو يقيم روايات على بناء .

وكان من ههنا أن نحرص على اختيار القصص كما وضعوها ، إلا ما كان من
زيادة اقتضاها اختلاف الروايات ، أو تفسير لكلمات لا تألفها الآداب ، أو حذف
عبارات لا غناء فيها .

وقد بذلنا من الجهد في ضبط الألفاظ ، وكشف النقاب عن المعاني ، وتراجم
الأشخاص ، وذكر المراجع ما نرجو أن يكون به جنى الكتاب قريباً ومنهله عذبا ،
وورثه سائفاً ، وطريقه سهلاً معبداً .

ونسأل الله أن ينفع به على ما صدقنا في النية ورجونا ؟

المؤلفون

ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ هـ
مايو سنة ١٩٣٩ م

مقدمة الطبعة الخامسة

وهذه هي الطبعة الخامسة من كتابنا « قصص العرب » تقدمه بعد أن نفذت طبعاته السابقة .

وفي هذه الطبعة أضفنا إلى الكتاب بعض القصص الطريفة التي انتخبناها في أثنائنا قراءتنا لكتب الأدب والتاريخ ، وقد أردنا بذلك أن يكون للكتاب مدد جديد يزيد من رونقه ، ويبقى على جذته .

أما الشرح والضبط ، فقد زدناه فيه ، لتقربه إلى القراء جميعا ، ولينهله منه شبابنا وناشئتنا الذين ينشدون للمورد الصادق للثقافة العربية ، ويودّون لو عرفوا مصادر هذه الثقافة ، وقرءوا من تراثها ما يشبع رغبتهم ، ويقفهم على حياة أسلافهم ، وأجداد عربيتهم .

والله نسأله التوفيق ، إنه سميع مجيب .

المؤلفون

دو القعدة سنة ١٣٩١
يناير سنة ١٩٧٢

البَابُ الْأَوَّلُ

في القصص التي تمرَّب عما كان يقع بين العامة
والملوك ، والقواد والرؤساء والقضاة ومن إليهم ،
من كل ذى صلة بالحكم والحكام ، مما يتناول حيلهم
في المنازعات والخصومات ، ويوضح طرائقهم في رفع
الظلومات ، ورجع الحقوق ، وما يجري هذا المجرى .

١ - متى تعبدتم الناس؟*

قال أنس : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب^(١) قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين؛ هذا مقام المائذ بك . فقال عمر : لقد عذت بحُجيب : فاشأنك ؟ قال : سأبْتُ على فرسي ابناً لعمر بن العاص - وهو يومئذ أمير على مصر - فجعل يُقْنَعُنِي^(٢) بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ! فبلغ ذلك عمرًا أباه ، فحَسَى أن آتَيْكَ ، فحَسَى في السجن ، فانفلت منه ، وأتَيْتَكَ .

فكتب عمرُ بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فاشهد اللوِّسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصري : أقيم حتى يأتِكَ . فقدم عمرو ، فشهد الحاج . فلما قضى عُمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه ، قام المصري ، فرمى إليه عمر بالدَّرَّةِ^(٣) .

قال أنس : ولقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه ، فلم يَنْزِعْ^(٤) حتى أحببنا أن يَنْزِعَ من كثرة ما ضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ! ثم قال للمصري قد استوفيت واشتفيت . قال عمر : ضَمَّها على صَلمة^(٥) عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد ضربتُ الذي ضربني . فقال عمر : أما والله لو فعلت لما منعتُ أحد حتى تكونَ أنت الذي تَنْزِع . ثم قال : يا عمرو ؛ متى تعبدتم الناس وقد وَلَدَتْهُمُ أمهاتهم أحرارًا !

• المقعد الفريد للذك السعيد : ٥٩ •

(١) ثاني الخلفاء الراشدين ، المضروب ببدله للشل ، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين ، ووليع بالخلافة سنة إحدى عشرة ، قُتل أبو لؤلؤة المجوسي سنة ٢٣ هـ . (٢) قنمه بالسوط : غشاه به (٣) الدرة : السوط . (٤) يكف ويتهى . (٥) يريد موضع الصلع من الرأس .

٢ - أحب الولاة إلى عمر بن الخطاب*

قال الربيع بن زياد الحارثي : كنتُ عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يأمره بالتدوم عليه هو وعُملُه، وأن يَسْتَخْلِفُوا^(١) جميعاً .

فلما قدِمْنَا أتيتُ يَرْفَأُ^(٢) ؛ فقلت : يَا يَرْفَأُ ؛ مسترشدٌ وابنُ سبيل ؛ أئى الهيئات أحبُّ إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عَمَلَهُ ؟ فأومأ إلى بالخشونة . فأتخذتُ خَفَيْنِ مُطَارَقَيْنِ^(٣) ، وليستُ جُبَّةٌ صوف ، ولئتُ^(٤) عمامتي على رأسي .

فدخلنا على عمر فصفا بين يديه ، فصعدَ فينا وصوبَ ، فلم تأخذ مِنهُ أحداً غيرى ؛ فدعاني فقال : مَنْ أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثي ، قال : ماتتولى ؟ قلت : البحرين . قال : كم ترتزق ؟ قلت : أُلَاك . قل : كثير ، فأتصنعُ به ؟ قلت : أتقوتُ منه شيئاً ، وأعودُ به على أقارب لي ، فما فَضَّلَ عنهم فلي قراء المسلمين . قال : فلا بأس ! ارجع إلى موضعك .

فرجعتُ إلى موسى من الصف ؛ فصعدَ فينا وصوبَ ، فلم تقع عينه إلا على ؛ فدعاني وقال : كم سينك ؟ قلت : خمس وأربعون سنة . قال : الآن حين استَحْكَمْتَ أئم دعا بالطعام - وأصحابي حديثٌ عهدٌم بِلَيْنِ العيش، وقد تجوَّعتْ له - فَأَتَيْتُ بِحُبْزٍ وَأَكْكَارٍ^(٥) بغير ، فجعل أصحابي يعافون ذلك ، وجعلت آكل

* السكامل للبرد : ١ - ٨٩

(١) يجعلوا بدلهم خلفاء عنهم . (٢) يرفأ : مولى عمر بن الخطاب . (٣) طارق نلين : أطبق نلأ على نعل نلغرزها . (٤) لئتها على رأسي : أدرت يعضها على بعض على غير استواء .

(٥) أككار بغير : الكسر : العظم ينفصل بما عليه من اللحم .

فأجيد ، ثم جعلتُ أبطر إليه بالحقن من بينهم ، ثم سبقت مني كلمة تمنيتُ أني
سُخِّتُ في الأرض ؛ إذ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن الناس محتاحون إلى صلاحك ،
فلو عمدتُ إلى طعامِ ألين من هذا ! فزجرني .

ثم قال : كيف قلت ؟ قلت : أقول يا أمير المؤمنين : تنظر إلى قورتك من الطحين
فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم ، ويطبخ لك اللحم كذلك ، فتؤتى بالخبز لئناً
واللحم غريصاً^(١) ، فسكن من غربه^(٢) ، وقال : أهنا غرت^(٣) ! قلت : نعم !
فقال : ياربيع ؛ إنالو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلاتك^(٤) وسبائك^(٥)
وصناب^(٦) ، ولكني رأيت الله عز وجل نهي على قوم شهواتهم ، فقال : ﴿ أَذْهَبْتُمْ
طَبِيبًا تَسْكُمُ وَحَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾^(٧) .

ثم أمر أبا موسى الأشعري بإقرارى وأن يستبدل بأصحابي .

(١) الغريص : الطرى . (٢) سكن من غربه : أي هدأ من غضبه . (٣) أهنا غرت :
أي ذهبت . (٤) صلاتك : ما عمل بالنار طبخاً وشياً . (٥) سبائك : يريد ما يسبك من الدقيق
فيؤخذ خالصه ، وكانت العرب تسمى الرقاق السبائك . (٦) الصناب : الحردل الممول بالزبيب
ويؤتم به . (٧) سورة الأحقاف ٢٠

٣ - عُمر يتفقد رعيته *

خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ليلة ، يطوف ويتفقد أحوال المسلمين ، فرأى بيتاً من الشعر مضرّوباً ، لم يكن قد رآه بالأمس . فدنا منه ؛ فسمع فيه أنين امرأة ، ورأى رجلاً قاعداً ، فدنا منه وقال له : من الرجل ؟ فقال : رجل من البادية ، قدمت إلى أمير المؤمنين ، لأصيب من فضله ، قال : فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تحضت ^(١) ! قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا .

انطلق عمر فجاء إلى منزله ، فقال لامرأته - أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : هل لك في أجر قد ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تحضت ليس عندها أحد ! قالت : إن شئت ! قال : فخذى مئكة ما يصلح للمرأة من الخرق والدُّهن ، واثنتى بقدر وشحم وجُبوب . فجاءته به ، فحمل القدر ، ومشت خلفه ، حتى أتى البيت ، فقال لها : ادخلى إلى المرأة .

ثم قال للرجل : أو قد لى ناراً ، فقل ، فوضع القدر بمافيها ، وجعل عمر ينفخ النار ويضرمها ، والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضجها ، وولدت المرأة ، فقالت أم كلثوم : بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بفلان : فلما سمها الرجلُ قول : يا أمير المؤمنين ارتاع وحجل ، وقال : يا حَبَلَتاه منك يا أمير المؤمنين ! أهلكذا

• المتطرف : ٢ - ٩٣

(١) تحضت : أتاهم الحيض ، وهو ما نشر به المرأة قبل الوضع .

تفعلُ بنفسك ! قال : يا أخا العرب ، من وُلِّي شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يطلع على صغير أمورها وكبيرهم ، فإنه عنها مسئول ، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر ، وأخذ القدر ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم . وأطعمت المرأة ، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم ، فدل عمر رضى الله عنه الرجل : ثم إلى بيتك وكل ما بقي في البرمة^(١) ، وفي غدِ انت إلينا .
فلما أصبح جاءه جُزه بما أغناه به .

(١) البرمة : القدر .

٤ — عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَحَاسِبُ نَفْسَهُ*

قال الأحنف بن قيس : قدمنا على عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بفتحٍ عظيمٍ نبشّره به ، فقال : أين نزلتم ؟ قلنا : في مكان كذا .

فقام معنا حتى انتهينا إلى مُناخ^(١) ركبنا ، وقد أضعفنا السلال ، وجهدها^(٢) السير ؛ فقال : هلا اتقيتم الله في ركبكم هذه ! أما علمتم أن لها عليكم حقاً ؟ هَلَّا أُرْحَتُمُوهَا فَأَكَلَتْ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ !

قلنا : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إنا قدِمْنَا بفتحٍ عظيمٍ ، فأَحْبَبْنَا التسرعَ إليك وإلى المسلمين بما يَسُرُّهم . فانصرف راجعاً ، ونحن معه .

فأتى رجل فقال : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إن فلاناً ظلمني فأَعْدَيْ عليهِ^(٣) . فرفع في السماء دِرَّتَهُ^(٤) ، وضرب بها رأسه ، وقال : تَدْعُونِ عِمْرَ ، حتى إذا شُفِلَ في أمورِ المسلمين أنيتموه وقلتم : أَعْدَيْ أَعْدِي ! فانصرف الرجلُ يتذمر ، فقال عِمْرُ : على بالرجل ! فحَيَّ^(٥) به فألقى إليه المِخْنَفَةَ^(٦) ، فقال : انتص . قال : بل أدعُ الله ولك . قال : ليس كذلك بل تدعُ إمامَ الله وإرادةَ ماعنده ، وإما تدعُ لي ؟ قال : أدعُ الله . قال : انصرف .

ثم جاء حتى دخل منزله ، ونحن معه ، فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم جالس ، فقال لنفسه : يا بْنَ الْخَطَّابِ ، كنتَ وضيعاً فوفك الله ، وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، فجاء رجلٌ يَسْتَعْدِيكَ

* ابن أبي الحديد : ٣ - ٩٧

(١) المناخ هنا : مراكب الإبل ، والركاب : الإبل . (٢) جهد دابته : أجهدها . (٣) أعدى فلاناً عليه : نصره وأعانه وقواه . (٤) الدرة : السوط . (٥) الحففة : الدرة أو سوط من خشب .

على مَنْ ظَلَمَ ففرضته ؛ ماذا تقول لربك غداً ؟ لجعل يَمَانِيْبُ نفسه معاتبةً ، فظننت
أنه من خير أَهْلِ الْأَرْضِ !

٥ — جثثك من عند أزهْد الناس *

استعمل عمرُ رَضِيَ اللهُ عنه على حِصْنِ رجلٍ يقال له عُيَيْرُ بْنُ سَعْدٍ ^(١) ؛ فلما
مضتِ السَّنَةُ كُتِبَ إليه : أَنْ أَقْدِمُ عَلَيْنَا ؛ فلم يَشْرُحْ إِلَّا وَقَدْ قَدِمَ عُيَيْرٌ مَا شَبَّ
حَافِيَاً ، عُسْكَازَتُهُ ^(٢) بِيَدِهِ ، وَإِدَاوَتُهُ ^(٣) وَمِزْوَدُهُ وَقَصَعَتُهُ عَلَى ظَهْرِهِ . فلما نظر
إليه عمرُ قال : يَا عُيَيْرُ ؛ أَجَبْتَنَا أَمْ الْبِلَادُ بِلَادٌ سُوءٌ ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛
أَمَا نَهَكَ اللَّهُ أَنْ نَجْهَرَ بِالسُّوءِ وَتُنْأَى عَنِ سُوءِ النَّظَرِ ، وَقَدْ جِثَّتْ إِلَيْكَ بِاللَّهِ الدُّنْيَا أَجْرُهَا
بِقَرَابِهَا ؛ أَفَقَالَ لَهُ : وَمَا مَعَكَ مِنَ الدِّينِ ؟

قال : عُسْكَازَةُ أَنْوَأَتْهُ عَلَيْهَا ، وَأَدْفَعُ بِهَا عَدُوًّا إِنْ لَقِيْتُهُ ؛ وَمِزْوَدٌ أَحْمَلُ فِيهِ
طَعَامِي ، وَإِدَاوَةٌ أَحْمَلُ فِيهَا مَاءً لَشْرْبِي وَطُهُورِي . وَقَصْعَةٌ أَنْوَضَافِيهَا ، وَأَنْغْسِلُ فِيهَا
رَأْسِي ، وَآخَرُ كُلِّ فِيهَا طَعَامِي فَوَا اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا الدُّنْيَا بَعْدُ إِلَّا اتِّبِيعُ
لِسَامِعِي .

فقام عمرُ رَضِيَ اللهُ عنه إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَى بَصْتَرٍ
رَضِيَ اللهُ عنه ؛ فبَكَى بَسْكَاً شَدِيداً . ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ اخْلُفْ بِصَاحِبِي ؛ غَيْرِ
مُفْتَضَحٍ وَلَا مَبْدُلٍ .

* المستطرف : ١ - ١١٠

(١) شهد فتوح الشام ، واستعمله عمر على حمص . وكان عمر يقول فيه : وددت لو أني ورجلا
مثل عُيَيْرِ بْنِ سَعْدٍ أُسْتَعِينُ بِهِمْ عَلَى أَعْمَالِ الْمَدِينِ . (٢) العسكازة : عصاً في أسفلها رَجٌّ يَتَوَكَّدُ
عَلَيْهَا رَجُلٌ ، وَإِدَاوَةٌ : إِياء صغير من جلد يتغذى للماء .

ثم عاد إلى مجلسه ، فقال : ما صنعتَ في عَمَلِكَ يَا عُمَيْرُ ؟ فقال : أَخَذْتُ الْإِبِلَ من أهل الإبل ، وَالْجَزْيَةَ من أهل الذِّمَّةِ عن يَدِ^(١) وهم صاغرون ، ثم قَسَمْتُهَا بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ؛ فواللهِ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لو بقى عندى منها شئ . لَأَتَيْتُكَ بِهِ .

فقال عمر : عُدْ إِلَى عَمَلِكَ يَا عُمَيْرُ ، فقال : أُنْشِدُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى أَهْلِ . فَأَذِنَ لَهُ فَأَتَى أَهْلَهُ .

فبعث عمر رجلاً ، يقال له حبيب ، بمائة دينار ، وقال : اخْبِرْ لِي عُمَيْرًا ، وَاذِلْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى تَرَى سَالَهُ : هَلْ هُوَ فِي سَعَةٍ أَوْ ضَيْقٍ ؟ فَإِنْ كَانَ فِي ضَيْقٍ فَادْفَعْ إِلَيْهِ الدَّنَانِيرَ .

فأتاه حبيب ، فَنَزَلَ بِهِ ثَلَاثًا ، فَلَمْ يَرَ لَهُ عِيشًا إِلَّا الشَّعِيرَ وَالزَّيْتَ ؛ فَلَمَّا مَضَتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ ، قَالَ عُمَيْرُ : يَا حَبِيبُ ؛ لِمَنْ رَأَيْتَ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى جِيرَانِنَا فَلَعْلَهُمْ يَكُونُونَ أَوْسَعَ عِيشًا مِنَّا ؛ فَإِنَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عِنْدَنَا غَيْرُ هَذَا لَأَتَرْنَاكَ بِهِ .

فَدَفَعَ إِلَيْهِ الدَّنَانِيرَ ، وَقَالَ : قَدْ بَعَثَ بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، فَدَعَا بَقَرًا وَخَلَقَ لَأَسْرَاتِهِ ؛ فَجَعَلَ يَصُرُّ مِنْهَا الْخَمْسَةَ الدَّنَانِيرَ وَالسَّتَةَ وَالسَّبْعَةَ ، وَيَبْعُثُ بِهَا إِلَى إِخْوَانِهِ مِنَ الْفُقَرَاءِ إِلَى أَنْ أَقْضَاهَا .

فَقَدَّمَ حَبِيبٌ عَلَى عُمَرَ وَقَالَ : جِئْتُكَ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِنْدِ أَزْهَدِ النَّاسِ ، وَمَا عِنْدَهُ مِنَ الدَّنِيَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ . فَأُصِرُّ لَهُ عُمَرُ بَوْسَقَيْنِ^(٢) مِنْ طَعَامٍ وَثَوْبَيْنِ . فَقَالَ : يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَا الثَّوْبَانِ فَأَقْبِلُهُمَا ، وَأَمَا الْبَوْسَقَانِ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا ؛ عِنْدَ أَهْلِ صَاحٍ مِنْ بَرٍّ هُوَ كَافِيهِمْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ .

(١) عَنْ يَدِ : عَنْ قَرَرٍ وَذَلِ ، وَعَنْ اعْتِرَافٍ لِلْمَسْكِينِ بِأَنْ يُعْطِيَهُمْ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . (٢) الْبَوْسَقُ : سِتْرَانِ صَاعًا ، أَوْ حُلَّ الْبَعِيرِ .

٦ - تأديبُ عمر بن الخطاب لعماله*

كان عمرُ بن الخطاب جالساً في المسجد فمرَّ به رجل فقال : ويلٌ لك يا عمر من النار ! فقال : قربه إليّ . فدنا منه ، فقال : لِمَ قُلْتَ ما قلت ؟ قال : تستعملُ عمالَكَ وتشرطُ عليهم ، ثم لا تنظر : هل وفوا لك شَرَطاً أم لا ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : عاملك على مصر اشترطت عليه فترك ما أمرته به ، وارتكب ما نهيته عنه ؛ ثم شرح له كثيراً من أموره .

فأرسل عمر رجلين من الأنصار ، فقل لهما : انهما إليه فاسألاه عنه ، فإن كان كَذَبَ عليه فأعلماني ، وإِن رَأَيْتَما ما يسوءكما فلا تُملِّكاه من أمره شيئاً ، حتى تأتيَا به .

فذهبا فسألاه عنه ، فوجداه قد صدق ؛ فجاءا إلى بابهِ ، فاستأذنا عليه ، فقال صاحبه : إنه ليس عليه اليوم إذن . قالَا : لِيُخْرِجَنَّ إلينا أو لنَحْرِقَنَّ عليه بابه ، وجاء أحدهما شَمْلَةً من ناز .

فدخل الآخرُ فأنذره ؛ فخرج إليهما . فقالَا : إننا رسولاً عمر إليك لتأتيه . قال : إن لي حاجة ، تمهلاني إلى أن أتزود . قالَا : إنه عَزَمَ علينا ألا نُمهلَكَ .

فاحتلما وأتيا به عُرَى ، فلما أُنْذِرَ سلم عليه فلم يعرفه ، وقال له : من أنت ؟ وكان رجلاً أسمر ، فلما أصب من ريف^(١) مصر ايضاً وسمن - فقتل : أنا عاملك على

* ابن أبي الحديد : ٣ - ٩٨

(١) الريف هنا : أرض فيه روع وخصب .

مصر ، أنا فلان . قال : وَنَحْكَ ا رَكِبْتَ مَا يُهَيِّتُ عَنْهُ ، وَتَرَكْتَ مَا أُمِرْتَ بِهِ ،
وَاللَّهِ لَأَعْقِبَنَّكَ عَقُوبَةٌ أَتِيْلُغُ إِلَيْكَ فِيهَا .

آتَوْنِي بِكَاءٍ مِنْ صُوفٍ وَعَصَاوِثَ ثَمَانِيَةِ شَاةٍ مِنْ غَنَمِ الصَّدَقَةِ ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْبَسْ
هَذِهِ الدَّرَاعَةَ^(١) ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ أَبَاكَ ، وَهَذِهِ خَيْرٌ مِنْ دُرَاعَتِهِ ، وَخُذْ هَذِهِ الْمَصَافِي
خَيْرٌ مِنْ عَصَايِكَ ، وَادْهَبْ بِهَذِهِ الشِّيَاءِ فَارْزَعْهَا فِي مَكَانٍ كَذَا . وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ
صَائِفٍ^(٢) . وَلَا تَمْنَعْ السَّابِلَةَ^(٣) مِنْ أَلْبَانِهَا شَيْئًا إِلَّا آَلَ عَمْرٌ ، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَخَذًا
مِنْ آَلَ عَمْرٍ أَصَابَ مِنْ أَلْبَانِ غَنَمِ الصَّدَقَةِ وَلَحُومِهَا شَيْئًا .

فَلَمَّا ذَهَبَ رَدَّهُ ، وَقَالَ : أَفْهَيْتَ مَا قُلْتُ ؟ فَضَرَبَ بِنَفْسِهِ الْأَرْضَ ، وَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لَا أُسْتَطِيعُ هَذَا ، فَإِنْ شِئْتَ فَاضْرِبْ عَنُقِي . قَالَ : فَإِنْ رَدَدْتُكَ فَأَيُّ
رَجُلٍ تَكُونُ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَلْبِسُكَ بَعْدَهَا إِلَّا مَا تَحِبُّ . فَرَدَّهُ فَكَانَ نَعَمَ الرَّجُلُ !

(١) الدَّرَاعَةُ : جَبَّةٌ مَشْقُوقَةٌ مِنَ الْقَدَمِ . (٢) يَوْمٌ صَائِفٌ : شَعْبِيدُ الْحَرِّ . (٣) السَّابِلَةُ : أَبْنَاءُ
السَّيْلِ الْمُتَخَلِّفُونَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ فِي حَوَائِجِهِمْ .

٧ - أَخْطَاتُ فِي ثَلَاثَ

خرج عمر بن الخطاب في ليلة مظلمة ، يَمْسُ^(١) بنفسه ؛ فرأى في بعض البيوت ضَوْءَ مِرَاجٍ ، وسمع حديثًا ؛ فوقف على الباب يتجسس ؛ فرأى عبداً أسود قدَّامه إناء فيه مِرْزٌ^(٢) وهو يشرب ، ومعه جماعة ؛ فهم بالدخول من الباب فلم يقدر من تحصين البيت ؛ فتسور السطح ، ونزل إليهم ، ومعه الدرة^(٣) .

فلما رأوه قاموا وفتحوا الباب ، وانهمزوا ؛ فأمسك بالأسود ؛ فقال له : يا أمير المؤمنين ، قد أخطأت وإني تائب ؛ فأقبل نوبي . قال : أريد أن أضربك على خطيئتك ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن كنت قد أخطأت في واحدة ، فأنت أخطأت في ثلاث ، فإن الله تعالى يقول : « لا تجسسوا » ، وأنت تجسست ، ويقول : « وأنوا البيوت من أبوابها » ، وأنت أنيت من السطح ، ويقول : « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا^(٤) وتستأنسوا على أهلها » ، وأنت دخلت وما سللت ؛ فمب هذه لثلك ؛ وأنا تائب إلى الله تعالى ، على ألا أعود ! فاستتابه^(٥) واستحسن كلامه .

* المستطرف : ٢ - ٩٤

(١) يمس : يطوف بالليل . (٢) المِرْز : ضرب من الأشربة . (٣) السوط الذي يضرب به .

(٤) تستأنسوا . (٥) استتابه : سأله أن يتوب .

٨ - تَنَصَّرَتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارِ لَعْنَةٍ*

رَوَى أَنَّ جَبَلَةَ^(١) بْنِ الْأَيْمَمِ بْنِ أَبِي شَيْمٍ النَّسَافِيَّ نَا أَرَادَ أَنْ يُسَلَّمَ ، كَتَبَ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ مِنَ الشَّامِ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ وَيَسْنِأُذَنَهُ فِي الْقُدُومِ عَلَيْهِ ، فَسَرَّ بِذَلِكَ عَمْرٌو وَالْمُسْلِمُونَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَنْ أَقْدِمَ وَلَكَ مَا لَنَا وَعَلَيْكَ وَمَا عَلَيْنَا .

فَخَرَجَ جَبَلَةُ فِي خَمْسَمِائَةِ فَارَسٍ مِنْ عَمَلٍ وَجُفْنَةٍ : فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ أَلْبَسَهُمْ ثِيَابَ الرَّشَى الْمَنْسُوجِ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَبَسَ يَوْمَئِذٍ جَبَلَةُ ثَاغَةً فِيهِ قِرْطُ مَارِيَةٍ - وَهِيَ جَدَّتُهُ - وَدَحَلَ الْمَدِينَةَ فَلَمْ يَبْقَ مَعَهَا أَحَدٌ إِلَّا خَرَجَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ حَتَّى النَّسَاءُ وَالصَّبِيَّانَ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عَمْرِو رَحَّبَ بِهِ وَأَدْنَى مَجْلِسَهُ ! ثُمَّ أَرَادَ الْحُجَّجَ ، فَخَرَجَ مَعَهُ جَبَلَةُ .

فَبَيْنَا هُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ إِذْ وَطِئَ عَلَى إِمَارِهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي قَزَاةٍ لَحْلَهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ جَبَلَةُ مُغْضَبًا ، فَلَعَنَهُ فَهَشَمَ أَنْفَهُ ، فَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ الْقَرَارِيُّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؛ فَبِمَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ : مَا دَعَاكَ يَا جَبَلَةُ إِلَى أَنْ لَعَنْتَ أَخَاكَ هَذَا الْقَرَارِيَّ فَهَشَمْتَ أَنْفَهُ ! فَقَالَ : إِيَّاهُ وَطِئَ إِزَارِي لَحْلَهُ ؟ وَلَوْلَا حُرْمَةُ الْبَيْتِ لَضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ^(٢) . فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو : أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَقْرَرْتَ ؛ فَلَمَّا أَنْ تَرْضِيهِ ، وَإِلَّا أَقْدَنْتُهُ مِنْكَ . قَالَ : أَتَقِيدهُ مِنِّي وَأَنَا مَلِكٌ وَهُوَ سَوْقَةٌ ! !

* المِزَانَةُ : ٤ - ٢٩٨ ، الْأَغْنَى : ١٤ - ٤ ، الْقَدِيدُ : ٢ : ٥٦ ، طَبْعَةُ بَيْتِ التَّأْلِيفِ .

(١) جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْمَمِ آخر ملوك النُصَافَةِ فِي بَادِيَةِ الشَّامِ . عَاشَ زَمَنًا فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ ، وَلَا ظَهَرَ الْإِسْلَامَ أَسْلَمَ فِي أَيَّامِ عَمْرٍو ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَعَادَ إِلَى الشَّامِ وَمِنْهَا إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ حَيْثُ أَقَامَ عِنْدَ هِرَقْلَ إِلَى أَنْ تَوَفَّى سَنَةَ ٢٠ هـ . (٢) يَرِيدُ رَأْسَهُ .

قال عمر : يا جَبَلَة : إنه قد جمعك وإياه الإسلام ، فما تفضله بشيء إلا بالتقوى والمافية ، قال جبلة : والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية . قال عمر : دَعْ عنك هذا ، فإنك إن لم تُرضَ الرجل أقدته منك ، قال جبلة : إذن أنصّر . قال : إن تنصرت ضربت عنقك . واجتمع قوم جبلة وبنو قزارة فسكادت تكون فتنة . فقال جبلة : أخرني إلى غد يا أمير المؤمنين . قال : ذلك لك .

ولما كان جُنح الليل خرج جبلة وأصحابه من مكة ، وسار حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتصعّر ، وأقام عنده ؛ وأعظم هرقل قدوم جبلة ، وسرّ بذلك ، وأقطعته الأموال والأرضين والرباع^(١) ، وجعله من محدثيه ومُتَمَارِهِ .

فلما بعث عمر بن الخطاب رسولاً^(٢) إلى هرقل يدعو إلى الإسلام ، وأجابه إلى المصالحة على غير الإسلام ، أراد أن يكتب جواب عمر ، وقال للرسول : أَلَيْتَ ابنَ عمك هذا الذي يبلدنا - يعني جبلة - الذي أئانا راعباً في ديننا ؟ قال : ما لقيته ، قال : ألقه ، ثم اتفنى أعطك جواب كتابك .

وذهب الرسول إلى باب جبلة ، فإذا عليه من التهمارة والحجاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب هرقل . قال الرسول : فلم أزل أتلطف في الإذن حتى أذن لي ، فدخلت عليه ، فرأيت رجلاً أصهب^(٣) اللحية ذا سِبَال^(٤) ، وكان يهدي به أسمر أسود اللحية والرأس ، فنظرت إليه فأنكرته ، فإذا هو قد أتى بسُحَالَةٍ^(٥) الذهب ، فزرها في لحيته حتى عاد أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير^(٦) ، قوائمه أربعة أسود من ذهب .

(١) الرباع جمع ربع : النار . (٢) هوجشامة بن مسحق الكنتاني . (٣) الصبهة : حمرة يطوها سواد . (٤) السبال : جمع سبلة وهي ما على الشارب من الشر . (٥) السحالة : ماسط من الذهب والفضة ونحوها إذا بردا . (٦) القوارير : شجر تمل من الرجال والموائد والقوارير من الزجاج أيضاً .

فلما عرفني رفعتني معه في السرير ، ورحب بي ، ولامني على تركي النزل عنده ، ثم جعل يسألني عن المسلمين ، فذكرتُ خيراً وقلت : قد أضعفوا^(١) أضعافاً على ما تعرف ؛ فقال : كيف تركتَ عمر بن الخطاب ؟ قلت : بخير ، فرأيت النعم قد تبين فيه ، لما ذكرتُ له من سلامة عمر . ثم انحدرتُ عن السرير ، فقال : لم تأبى الكرامة التي أكرمناك بها ! قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا . قال : نعم ؛ صلى الله عليه وسلم ، ولكن تق قلبك من الناس ولا تبالي علام قدمت . فلما سمعته يقول : صلى الله عليه وسلم طمعتُ فيه ، قلت له : ويحك ! يا جيلة ، ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله . قال : أبعد ما كان مني ؟ قلت : نعم : قد فعل رجلٌ من قزاة أكثر مما فعلت : ارتد عن الإسلام ، وضرب وجوه المسلمين بالسيف ، ثم رجع إلى الإسلام ، وقُبِل ذلك منه ، وخلفته بالمدينة مسلماً . قال : ذرني من هذا ، إن كنت تضمن لي أن يزوجه ابنه ، ويوليني الإمرة بعده رجعتُ إلى الإسلام . قال : ضمنت لك التزويج ، ولم أضمن لك الإمرة . قال : لا .

فأومأ إلى خادم بين يديه ، فذهب مسرعاً . فإذا خَدَم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام ، فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف النضة ، وقال لي : كُلْ فقبضت يدي ، وقلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة ، فقال : نعم ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن تق قلبك وكل فيما أحببت . وأكل في الذهب والفضة ، وأكلت في الخليج^(٢) .

(١) أضعف الشيء : زيد على أصله فيجعل مثلي أو أكثر . (٢) الخليج : الجنة .

فلما رُفِعَ الطعامُ جىءَ بِطَاسٍ^(١) الفضة وأباريق الذهب ، وأومأ إلى خادم بين يديه ، فرمى سرعاً ، فسمعت حساً ، فالتفت ، فإذا خدَمٌ منهن الكراسى مرصعة بالجواهر ، فوضعت عشرة عن يمينه ، وعشرة عن يساره ، ثم سمعت حساً ، فإذا عشر جوار قد أُنِيلن مَطْمُومَاتٍ^(٢) الشعر متكسراتٍ في الخلى ، عليهن ثياب الدُّبِج ، فلم أرَ وجوهاً قط أحسنَ منهن ، فأقمدهن على الكراسى عن يمينه ، ثم سمعت حساً فإذا عشر جوارٍ أخرى فأجلسن على الكراسى عن يساره ، ثم سمعت حساً ، فإذا جارية كأنها الشمس حسناً وعلى رأسها تاجٌ ، وعلى ذلك التاج طائر لم أرَ أحسنَ منه ، وفي بَها المني جامّة^(٣) فيها مسك وعنبر ، وفي بَها اليسرى جامّة فيها ماء ورد ، فأومات إلى الطائر ، فوقع في جامّة ماء الورد فاضطرب فيه ، ثم أومات إليه فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة ، فلم يزل يُرَفِّف حتى نفص مافي ريشه عليه ؛ وضعت جبلة من شدة السرور ، حتى بدت أنباه ، ثم التفت إلى الجوارى التي عن يمينه ، فقال : بالله أطر بئني ؛ فاندفنن بتغنين يخففن بعيداً منهن وَيَقُنُّ^(٤) :

للهِ دُرٌّ عِصَايَةِ نَادِمَتُهُمْ يَوْمًا بَجَلَقٍ^(٥) فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيضِ عَلَيْهِمْ بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالْحَقِيقِ السَّائِلِ^(٦)
أَوْلَادُ جَنَّةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةِ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
يُفْشُونَ حَتَّى مَاتَهُمْ كَلَابِهِمْ^(٧) لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

(١) الطاس جمع الطلس ، وهو الطست . (٢) طمت شعرها : عقمته وهو مطموم ، والعقم أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ، ثم تمقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها .

(٣) إماء من فضة . (٤) الشعر لحان بن ثابت . (٥) جلق : دمشق .

(٦) البريضي : نهر بدمشق . ووردي : نهر بدمشق أيضاً . ووصفيق الشراب : مزجه ، الرحيق : الخمر . سلسل : لبن . (٧) نهر كلابهم : هو نهر الكلب : صوته دون النباح .

بيضُ الوجوه كريمُهُ أَحْسَابُهُمْ شَمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّارِزِ الْأَوَّلِ
فَضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرِي مَنْ قَائِلُ هَذَا ؟ قُلْتُ : لَا ،
قَالَ : قَائِلُهُ حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ شَاعِرُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى
الْجَوَارِي اللَّاتِي عَنْ يَسَارِهِ ، فَقَالَ : بِاللَّهِ أَبْكِينَا . فَأَتَدَقَّمْنَ يَتَفَنِينَ ، وَهَنَ يَحْتَفَنَ
بِمِيدَانِهِنَّ .

فَبَكَى حَتَّى جَعَلَتْ الدَّمْعُ نَسِيلَ عَلَى خَدَّيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرِي مَنْ قَائِلُ هَذَا
الَّذِي تَتَفَنِينَ بِهِ ؟ قُلْتُ : لَا أَدْرِي ، قَالَ : حَسَنُ بْنُ ثَابِتٍ ، ثُمَّ أُنْشَأَ يَقُولُ :
تَنْصَرَّتِ الْأَشْرَافُ مِنْ عَارٍ لَطَمَةٍ وَمَا كَانَ فِيهَا - لَوْ صَبَرْتُ لَهَا - ضَرْزُ
تَكْتَفَنِي مِنْهَا بِلَجَاجٍ وَخَوَّةٍ وَبِئْتُ لَهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوَزِ
فِيَالَيْتِ أُحْيَى لَمْ تَلْدُنِي وَلِيَقْنَى رَجَعْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي قُلْتُ لِي عُمَرُ
وَبِالْيَقْنَى أُرْعَى لِلْخَاضِ^(١) بِقَفْرَةٍ وَكُنْتُ أَسِيرًا فِي رَيْبَةٍ أَوْ مُفْرٍ
وَبِالْيَقْنَى لِي بِالشَّامِ أَدْنَى مَيْبَةِ أَجَالِنُ قَوْمِي ذَاهِبِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
ثُمَّ سَأَلَنِي عَنْ حَسَنَ : أَحْيَى هُوَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، تَرَكْتُهُ حَيًّا . فَأَمَرَنِي بِكُفَّةٍ
وَمَالَ ، وَنَوَقَ مُوقَرَةً بَرًّا ، ثُمَّ قَالَ لِي : إِنْ وَجَدْتَهُ حَيًّا فَادْفَعْ إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ ، وَأَقْرِئْهُ
سَلَامِي ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ مَيِّتًا فَادْفَعْهَا إِلَى أَهْلِهِ ، وَانْحَرْ الْجَمَالَ عَلَى قَبْرِهِ .

فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى عَمْرٍو أَخْبَرْتُهُ خَبْرَ جَبَلَةٍ ، وَمَا دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْلَامِ ،
وَالشَّرْطَ الَّذِي شَرَطَهُ ، وَأَتَى ضَمِنَتْ لَهُ التَّزْوِيجَ ، وَلَمْ أَضْمِنْ لَهُ الْإِمْرَةَ قَالَ :
هَلَا ضَمِنْتَ لَهُ الْإِمْرَةَ ؟ فَإِذَا أَفَاءَ اللَّهُ بِهِ إِلَى الْإِسْلَامِ قَضَى عَلَيْهِ مُحْكَمَةً عَزَّ وَجَلَّ !
ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُ الْهَدِيَّةَ الَّتِي أَهْدَاهَا إِلَى حَسَنَ بْنِ ثَابِتٍ . فَبِعَثَ إِلَيْهِ ، وَقَدْ كُفَّ

(١) الخاض ، نوق غلظ : حوامل .

بصره فَأَتَى به ، وقائذ يقوده . فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ؛ إني لأجد رياح
آل جَنَّة عندك . قال : نعم ؛ هذا رجل أقبل من عند جيلة ، قال : هات يابن أخي ؛
إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية ، خلف أن لا يلقى أحدا يعرفني إلا أهدي
إليّ معه شيئاً . فدفعُ إليه الهدية : اللال ، والثياب ، وأخبرته بما كان أمر به في ،
الإبل إن وُجد ميتاً . فقال : وددت أني كنتُ ميتاً فنُحِرْتُ على قبري ؛ وانصرف
بقول :

إِنَّ ابْنَ جَنَّةٍ مِنْ بَقِيَّةِ مَمَشَرٍ لَمْ يَفْزَحْ أَبَاؤُهُم بِاللُّؤْمِ
لَمْ يَنْسَى بِالشَّامِ إِذْ هُوَ رُبُّهَا مَلِكًا وَلَا مُتَنَمِّرًا بِالرُّؤْمِ
يُعْطَى الْجَزِيلَ وَلَا يَرَاهُ عِنْدَهُ إِلَّا كِبْعُ عَطِيَّةٍ لِلنُّعُومِ

فقال له رجل كان في مجلس عمر : أتذكرُ مَلوكاً كَفَرُوا بأبائهم الله وأفساهم ؟
قال : بمن الرجل ؟ قال : مُزَيِّ . قال : والله لولا سوابقُ قومك مع رسول الله صلى
الله عليه وسلم لعاقبْتُكَ حَتَّى تَكُونَ الحَمَامَةَ .

قال : ثم جهزني عُمرُ إلى قيصر ، وأمرني أن أضمن جيلة ما اشترط به ، فلما
قَدِمْتُ القسطنطينية وجدتُ الناس منصرفين من جنازته ، فعلتُ أن الشَّقاء غَلَبَ
عليه في أمِّ الكتاب .

٩ — بصيرة العباس *

كان بين العباس^(١) بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب مباحدة ، فاقى ابن عباس علياً ، قال : إن كان لك في النظر إلى عمك حاجة فأنه ، وما أراك تلقاه بعدها لها . فقال علي : تقدمني واستأذن . فتقدم ابن عباس واستأذن ليلي ، فأذن له ودخل ، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه ، وأقبل علي يد العباس ورجله يقبلهما ، ويقول : يا عم ! أرض عني - رض الله عنك - قال : قد رضيت عنك . ثم قال : يا ابن أخي ! قد أشرت عليك بأشياء ثلاثة فلم تقبل ، ورأيت في عاقبتها ما كرهت ، وهأنذا أشير عليك برأي رابع ، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله . قال : وما ذاك يا عم ؟ قال : أشرت عليك في مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نسأله . فإن كان الأمر فينا أعطانا ، وإن كان في غيرنا أو مضى بنا ، قلت : أخشى إن ممتننا لا يعطيناه أحد ، فحقت تلك !

فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة فدعوناك إلى أن نبأيمك ، وقلت : ابسط يديك أبايمك وبيأيمك هذا الشيخ ، فإننا إن يأيمناك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف ، وإذا يأيك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قريشي ، وإذا يأيتمك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب . قلت : لنا بجهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم شغل ، وهذا الأمر

* ابن أبي الحديد : ١ - ١٣١

(١) كان من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام ، كان شديد الرأي ، واسع النقل ، وأسلم قبل الهجرة كتم إسلامه ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد موقعة حنين وفتح مكة ، توفي سنة ٣٢ هـ .

لا يُخْشَى عَلَيْهِ ، فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة^(١) ، فقلت ياعم : ما هذا ؟ قلت : مادَّعُونَكَ إِلَيْهِ ! فأبيتَ وقلت : سبحان الله أو يكون هذا ؟ قلت : نعم ، قلت : أفلا يُرَدُّ ؟ قلتُ لك : وهل رُدُّ مثل هذا قط .

ثم أشرتُ عليك حين طُعنَ همر ، قلتُ : لا تُدْخِلْ نَفْسَكَ فِي الشُّورَى ؛ فَإِنَّكَ إِنْ اعْتَزَلْتَهُمْ قَدَّمُوكَ ، وَإِنْ سَاوَيْتَهُمْ تَقَدَّمُوكَ ، فَدَخَلْتَ مَعَهُمْ ، فَكَانَ مَا رَأَيْتَ .

ثم أنا الآن أُشيرُ عليك برأى رابع ، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك مما كان قبله : إني أرى أنَّ هذا الرجل - يعني عثمان - قد أخذ في أمورِ الله ؛ وكأني بالعرب قد سارت إليه حتى يُنَحَّرَ في بيته كما يُنَحَّرُ الجمل ، والله إن كان ذلك وأنت بالمدينة لزمك الناسُ به ، فإذا كان ذلك لم تنل من الأمر شيئاً إلا من بعد شرٍّ لا خير منه .

قال ابن عباس : فلما كان يوم الجمل عرضتُ لعلِّي ، وقد قُتِلَ مُلْحَعَةٌ ؛ وقد أكثر أهلُ الكوفة في سبِّه وعَمَصِهِ^(٢) . فقال هلي : أما والله لئن قالوا ذلك لقد كان كما قال :

فَتَى كَانَ يُدْنِيهِ النَّبِيُّ مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَفْتَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ

ثم قال : لكَأَنِّي هَمِي يَنْظُرُ إِلَى الْغَيْبِ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِ رَقِيقٍ ، وَاللَّهِ مَا نَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ شَيْئاً إِلَّا بَعْدَ شَرٍّ لَا خَيْرَ مَعَهُ .

(١) السقيفة : هي المكان الظليل ، واسمها العفة ، وسقيفة بني ساعدة هي التي يبيع فيها لأبي بكر بعد حواري طويل بين المهاجرين والأنصار . (٢) عَمَصَهُ : احتقره ، وعابه ، رثاؤن يحته .

١٠ - أثرُ المَروُف *

وفد أهلُ الكوفة على معاوية في دمشق حين خطب لابنه يزيد بالمهد بملده ،
وفي أهل الكوفة هانيُ بنُ عروة المرادي^(١) ، وكان سيداً في قومه ، فقال يوماً في
مسجد دمشق ، والناسُ حوله : المعجبُ لمعاوية يريد أن يقسِرنا^(٢) على بيعة
يزيد ، وحاله حاله ، وما ذاك والله بكائن .

وكان يجلس في القوم غلامٌ من قريش ، فتحلَّ^(٣) الكلمة إلى معاوية ،
فقال معاوية : أنت سمعت هانئاً يقولها ؟ قال : نعم ! قال : فاخرج فأتِ حلقته ،
فإذا خفَّ الناسُ عنه ، قتل له : أيها الشيخ ، قد وصلتُ كَلْتُكَ إلى معاوية ، ولست
في زمن أبي بكر وعمر ، ولا أحبُّ أن تكلم بهذا الكلام ، فإنهم بنو أمية ،
وقد عرفتُ جُرأتهم وإفدامهم ، ولم يدعُنِي إلى هذا القول لك إلا النصيحة
والإشفاق عليك . ثم انظر ما يقول ، فأنبئ به .

فأقبل الفتى إلى مجلس هانيُ ، فلما خفَّ مَنْ عنده دنا منه ، قصص عليه
الكلام ، وأخرجه مُخرَجَ النصيحة له ، فقال هانيُ : والله يابن أخي ما بلغتُ
نصيحتُكَ كلَّ ما أسمع ، وإن الكلام لكلامُ معاوية أعرفه . فقال الفتى : وما
أنا ومعاوية ! والله ما يعرفني . قال : فما عليك ! إذا لقيته قتل له : يقول لك هانيُ :
والله ما إلى ذلك من سبيل ، انهض يابن أخي راشداً .

* ابن أبي الحديد : ٤ - ٣٢٧

(١) هانيُ بنُ عروة المرادي : أحد سادات قريش وأشرفهم ، قتل عبد الله بن زياد سنة ٦٠ هـ

(٢) يكرهنا عليها . (٣) حمل : بمعنى حل .

فقام الفقي فدخل على معاوية ، فأعلمه ، فقال : نستعين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجكم ، وهاني فيها ، فعرض عليه كتابه فيه ذكر حوائجه . فقال : يا هاني ؛ ما أراك صنعت شيئاً ؛ زد . فقام هاني فلم يدع حاجة عرضت له إلا ذكرها . ثم عرض الكتاب عليه ، فقال : أراك قصرت فيما طلبت . زد ، فقام هاني ، فلم يدع حاجة لقومه ، ولا لأهل مصره إلا ذكرها ، ثم عرض عليه الكتاب ، فقال : ما صنعت شيئاً ، زد ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ حاجة بقيت ! قال : ما هي ؟ قال : أن أتولى أخذ البيعة ليزيد بن أمير المؤمنين بالعراق ، قال : افعل ، فارتلت لئلا ذلك أهلاً .

فلما قدم هاني العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمعونة من المغيرة بن شعبه وهو والى العراق يومئذ .

١١ — في البيعة ليزيد بن معاوية*

كتب معاوية إلى الأمصار أن يَفِدُوا عليه ؛ فوفد من كل مِصْر قوم ،
ثم جلس في أصحابه وأذن للوفود فدخلوا ، وقد تقدّم إلى أصحابه أن يقولوا
في يزيد^(١) .

فكان أول من تكلم الضحاكُ بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لا بد
للناس من والٍ بعدك والأنس يُفدى عليها وبرّاح ، وإن الله قال : « كل يوم
هو في شأنٍ » ، ولا تدرى ما يختلف به الصّمران^(٢) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين ،
في حُسن مَمدِنه ؛ وقصد حيرته^(٣) من أفضلنا حِلماً ، وأحكنا علماً ، فولّه عَمَدك ،
واجعله لنا علماً بعدك ؛ فإنّا قد بلّونا الجنة والألفة فوجدناها أحفّن للدماء ، وآمن
للشبل ، وخيراً في العاقبة والآجلة .

ثم تكلم عمرو بن سعيد فقال : أيها الناس ؛ إن يزيد أَمَلُ ناملونه ، وأجل
نأتمونه^(٤) ، طويلُ الباع ، رَحْبُ الدَّرَاع ، إذا صرتم إلى عدله وسِعَمكم ، وإن
طلبتم رِفْذه أغناكم ، جدّع^(٥) قارح ؛ سوبق فسبق ، وموجِدَ فمَجِد ، وقورع

* ذيل الأمل : ١٧٥ ، المقد الفريد ٤ : — ٣٦٩ طبعة لجنة التأليف .

(١) هو يزيد بن معاوية ، وكنيته أبو خالد ، كان أحور العينين بوجه آثار جدري ، حسن النحية
خفيها ، ولّى الخلافة بعد موت أبيه سنة ٦٠ ، ومات سنة ٦٤ هـ . (٢) الصمران : الليل والنهار .
(٣) استقامتها . (٤) يشير إلى ما ينتظر من طول مدة ولايته ، فقد ولّى فقد ولّى حدثاً .
(٥) قال في اللسان : قال ابن الأعرابي : إذا استقم الفرس سنين ودخل في الثالثة فهو جدّع . وقرح
الفرس يقرح إذا انتهت أسنانه ، والمراد أن يزيد فني قوى .

فَقَرَعَ ، خَلَفَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا خَلَفَ مِنْهُ . قَالَ : اجلس أبا أُمَيَّةَ ؛ فَلَقَدْ أَوْصَتَ وَأُحْسِنَتْ .

ثُمَّ قَامَ يَزِيدُ بْنُ الْقَنْعَمِ فَقَالَ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى مَعَاوِيَةَ - . فَإِنْ هَلَكَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ - فَمَنْ أَتَى هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ - قَالَ مَعَاوِيَةُ : اجلس ، فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخَطِيَاءِ .

ثُمَّ تَكَلَّمَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ^(١) ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَنْتَ أَعْلَمُ بِيَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَمَذْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ اللَّهُ رِضًا وَلِهَذَا الْأُمَّةُ فَلَا تَشَاوِرِ النَّاسَ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا تَزُودُهُ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَنْهَبُ إِلَى الْآخِرَةِ . ثُمَّ بَايَعَ النَّاسُ لِيَزِيدَ .

وَلَمَّا اسْتَقَامَ الْأَمْرُ لِمَعَاوِيَةَ بِالشَّامِ وَالْعِرَاقِ بَيْعَةَ يَزِيدَ كَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ عَامِلَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ : أَنْ ادْخُلْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ ؛ فَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ قَدْ بَايَعُوا . فَقَرَأَ كِتَابَهُ وَقَالَ : « إِنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ كَبَّرَتْ سِنُّهُ ، وَدَقَّ عَظْمُهُ ، وَقَدْ خَافَ أَنْ يَأْتِيَهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَدْعُ النَّاسَ كَالنَّعَمِ لَا رَاعِيَ لَهَا ، فَأَحَبُّ أَنْ يُعْلِمَ عُلَمَاءًا ، وَيَقِيمَ إِمَامًا » ، فَقَالُوا : وَفَقَّ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَدَّدَهُ ، لِيَفْعَلَ .

فَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَنْ سَمَّ يَزِيدَ . فَقَرَأَ الْكِتَابَ عَلَيْهِمْ وَسَمَّى يَزِيدَ ، وَقَالَ : سَنَةُ أَبِي بَكْرٍ الْهَادِيَةُ الْمُهْدِيَةُ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ : كَذِبَتْ ! إِنْ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ وَالْعَشِيرَةَ . وَبَايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ . وَاخْتَارَهُ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَذَبَتْ وَاللَّهُ يَا مَرْوَانَ ، وَكَذَبَ مَعَاوِيَةُ مَمْلُوكٌ ! لَا يَكُونُ ذَلِكَ : لَا تُجَدِّثُوا عَلَيْنَا سَنَةَ الرُّومِ ، كَلَامَاتٍ هِرَقْلُ قَدْ مَكَانَهُ هِرَقْلُ .

(١) لُقِبَ الضَّحَّاكُ ، وَالْأَخْنَفُ اسْمُهُ .

قال مروان : أيها الناس ؛ إن هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه : « والذي قال لِدَابِّهِ أَفٍ كَكَمَا أَتَعِدَّائِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » .
 قال عبد الرحمن : يا ابن الزبير ؟ أفينا تتأول القرآن ؟

وتكلم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وأنكروا
 بيمّة يزيد ، وتفرق الناس . فكتب مروان إلى معاوية بذلك .

ولما علم معاوية خرج إلى المدينة في ألف ، وحينما قَرُبَ مِنْهَا تَلَّاهُ الناس .
 فلما نظر إلى الحسين قال : مرحباً بسيد شباب المسلمين ، قَرَّبُوا دَابَّةً لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ .
 وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر : مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق . وقال
 لابن عمر : مرحباً بصاحب رسول الله وابن الفاروق ، وقال لابن الزبير : مرحباً
 بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته . ودعا لهم بدوابّ لحملهم
 عليها ، وخرج حتى أتى مكة ، ففُضِيَ حَجُّهُ .

ولما أراد الشخصُوصُ أمره بأمره^(١) قَدَّمْتُ ، وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة ،
 وأرسل إلى الحسين وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير . فاجتمعوا .
 وقالوا لابن الزبير : اكفينا كلامه . فقال : عَلَى أَنَا تَخَالَفُو؟ قالوا : لك ذلك .

ثم أتوا معاوية ، فرحب بهم وقال لهم : قد علمتم نظري لكم ، وتعطف
 عليكم ، وصليتي أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم . وإنما أردت أن أقامه
 باسمي لاختلافه ، وتكونوا أنتم تأمرئون ونهون ؛ فسكتوا .

وتكلم ابن الزبير فقال : محبّك بين إحدى ثلاث ؛ أيها أخذت فهي لك
 رغبة . وفيها خيار ؛ إن شئت فاضنع فينا ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛

قَبْضَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَخْلِفْ ، قَدَحَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ لَأَنْفُسِهِمْ . وَإِنْ شِئْتَ فَمَا صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ ، عَمِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَاصِيَةِ قُرَيْشٍ وَتَرَكَ مِنْ وَلَدِهِ وَمِنْ رَهْطِهِ الْأَذْنَيْنِ مَنْ كَانَ لَهَا أَهْلًا . وَإِنْ شِئْتَ فَمَا صَنَعَ عُمَرُ ، صَيَّرَهَا إِلَى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، يَخْتَارُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ ، وَتَرَكَ وَلَدَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ وَفِيهِمْ مَنْ لَوْ رَئَاهَا لَكَانَ لَهَا أَهْلًا .

قال معاوية : هل غيرُ هذا ؟ قال : لا . ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابنُ الزُّبَيْرِ ! قتال معاوية : إني أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذرنا إني قاتلُ مقاتلة ، فأقسم بالله لئن ردَّ عليَّ رجلٌ منكم كلمةً في معاملي هذا لا ترجع إليهِ كلمته حتى يضربَ رأسه ! وأمر أن يقومَ على رأس كلِّ رجلٍ منهم رجلانُ بسيفيهما ، فإن تكلم بكلمة يرُدُّ بها عليه قوله قَتَلَاهُ .

وخرج وأخرجهم معه حتى رقى للنهر ، وحَفَّ به أهلُ الشام ، واجتمع الناس ، فقال بعد حمد الله والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديثَ الناس ذاتَ عَوَارٍ ^(١) ، قالوا : إن حُسَيْنًا وابنَ أبي بكرٍ وابنَ عمرَ وابنَ الزُّبَيْرِ لم يبايعوا يزيدَ ، وهؤلاء الرُّهْطُ سادةُ المسلمين وخيارُهم ، لا نُبْرِمُ أمرا دونهم ، ولا نقضى إلَّا على مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعينَ مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا .

فقال أهلُ الشام : وما يَظُنُّ من أمر هؤلاء ؟ ائذن لنا فنضربَ أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية . فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرعَ الناس إلى قُرَيْشٍ بالشرِّ وأخلى دماءهم عندهم ! أنصتوا ، فلا أسمعَ هذه المقالةَ من أحد . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا . ثم قرأت رِواحلُهُ ، فركب .

(١) العوار هنا : العيب .

فقال الناس للحسين وأصحابه : قَلْتُمْ لَا نَبَايِعَ ، فَلَمَّا دُعِيتُمْ وَأَرْضِيْتُمْ بَابِعْتُمْ^١ .
قالوا : لَمْ نَفْعَلْ . قالوا : بَلَى ، فَعَلْتُمْ وَبَابِعْتُمْ ، أَفَلَا أَنْكَرْتُمْ ! قالوا : خَفِئْنَا الْقَتْلَ ،
وَكَادَ بَنَّا وَكَادَ بِكُمْ .

١٢ — ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا*

لَمَّا نَصَبَ مَعَاوِيَةُ يَزِيدَ لَوْلَايَةِ الْمَهْدِ أَقْعَدَهُ فِي قُبَّةٍ حَرَاءَ ، فَعَمِلَ النَّاسُ يَسْلُمُونَ
عَلَى مَعَاوِيَةَ ، ثُمَّ يَمِيلُونَ إِلَى يَزِيدَ ، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ فَعَمِلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَعَاوِيَةَ
فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، اعْلَمْ أَنَّكَ لَوْ لَمْ تُؤَلَّ هَذَا أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ لَأَضْمَمَهَا !
وَالْأَحْنَفُ^(١) جَالِسٌ .

فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : مَا بِأَنَّكَ لَا تَقُولُ يَا أَبَا بَجْرٍ ؟ فَقَالَ : أَخَافُ اللَّهَ إِنْ كَذَبْتُ ،
وَأَخَافُكُمْ إِنْ صَدَقْتُ ؛ فَقَالَ : جَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الطَّاعَةِ خَيْرًا ! وَأَمْرٌ لَهُ بِالْوُفِّ .

فَلَمَّا خَرَجَ الْأَحْنَفُ لِقِيَةِ الرَّجُلِ بِالْبَابِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا بَجْرٍ ؛ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ شَرَّ
مَنْ خَلَقَ اللَّهُ هَذَا وَابْنَهُ ، وَلَسْكَنْهُمْ قَدْ اسْتَوْثَقُوا مِنْ هَذِهِ الْأَمْوَالِ بِالْأَبْوَابِ
وَالْأَقْفَالِ ؛ فَلَسْنَا نَطْمَعُ فِي اسْتِغْرَاجِهَا إِلَّا بِمَا سَمِعْتُ .

فَقَالَ لَهُ الْأَحْنَفُ : يَا هَذَا ؛ أُمِّكَ ، فَإِنَّ ذَا الْوَجْهَيْنِ خَلِيقٌ إِلَّا يَكُونُ عِنْدَ
اللَّهِ وَجِيهًا .

* السَّكَاكِلُ لِلْمَبْرَدِ : ١ - ٣٠

(١) اسمه الضحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ ، وَالْأَحْنَفُ لِقِيَةِ ، سَيِّدِ تَيْمٍ وَأَحَدِ الْمَغْلَاءِ الدَّهَاقَةِ الْفَصْحَاءِ الشَّجَمَانَ
الْفَاتِحِينَ ، يَضْرِبُ بِهِ اللَّيْلُ فِي الْحِلْمِ ، وَلَهُ فِي هَذَا الْبَابِ نَوَاحِرُ مَشْهُورَةٌ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٦٧ هـ .

١٣ - الحجاج وأهل العراق*

ولما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق ، جمع أهل بيته وأولى النجدة من جنده ، وقال : أيها الناس ، إن العراق كدّر ماؤها ، وكثّر غوغاؤها ، واهلّولّح عذّبتها ، وعظّم خطبها ، وظهر ضرامها^(١) ، وعسر إجماد نيرانها ؛ فهل من مُمهّد لهم بسيف قاطع ، وذهبن جامع ، وقلب ذكي ، وأنفٍ حمي ، فيخمد نيرانها ، ويردّع غيلانها ، وينصف مظلومها ، ويداوي الجرح حتى يندمل ، فتصفو البلاد ، ويامن المباد ؟

فسكت القوم ، ولم يتكلم أحد . وقام الحجاج^(٢) ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا للعراق . قال : ومن أنت ؟ لله أبوك ! قال : أنا الحجاج بن يوسف . قال : ومن أين ؟ قال : من ثقيف . قال : اجلس ، لا أم لك ! فلست هناك ! ثم قال : مالي أرى الروس مطرقة ، والألسن معتقلة ! فلم يجبه أحد .

فقام إليه الحجاج ، وقال : أنا مجدل^(٣) الفسّاق ، مطفي نار النفاق ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا قاضم^(٤) الظلمة ، الحجاج بن يوسف ، معدنُ العفو والعقوبة ، وآفةُ الكبر والريبة . قال : إليك عني وذاك ! فلست هناك !

ثم قل : من للعراق ؟ فسكت القوم ، وقام الحجاج ، وقال : أنا للعراق . فقال : إذن : أظنك صاحبها والظافر بضائعها ؛ وإن لكل شيء - يابن يوسف - آية وعلامة .

* المخطوط : ٥١-١ ، الكامل : ١- ٢٢٣ ، رغبة الأمل : ٤ - ٧٥ .

(١) ضمرت النار : اشتعلت . (٢) الحجاج بن يوسف الثقفي ، نزل بالطائف واتصل بعبد الملك ابن مروان ولم يزل يرقى إلى أن ولي العراق والمشرق ، وطار ذكره وعظم سلطانه ، وهلك بواسط سنة ٩٥ هـ . (٣) جدله : صغره . (٤) التضم : الأكل بأطراف الأسنان .

فما آيتك؟ وما علامتك؟ قال: المقوبة والعفو والافتقار والبسط والازورار^(١)، والإدناء والإبعاد، والجفاء والبر، والتأهب والخزم، وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته، ومن خالفني ترعته، ومن دنأني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيه، ومن سارع إلى الطاعة مجلته، فهذه آيتي وعلامتي؛ وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبؤني، فإن كنت للأعناق قطاعاً، وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك في الأشياء نفاعاً، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، واسكن من يقوم بهذا الأمر قليل.

فقال عبد الملك: أنت لها، فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال.

فدعا عبد الملك صاحب جنده: وقال له: هيئ له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحذروهم مخالفته. ثم دعا الخزن، فأمره بمثل ذلك.

نفرج الحجاج قاصدا العراق، فبينما الناس في المسجد الجامع بالكوفة، إذ أتاهم آت، فقال: هذا الحجاج؛ قدم أميراً على العراق، فتناولت الأعناق نحوه، وهو يمشي، وعليه عمامة قد غشي بها أكثر وجهه، متقلداً سيفه، متشككاً^(٢) قوساً، حتى صعد المنبر، فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف، حتى غص^(٣) المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة، وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته ومواليه وأتباعه، عليهم الخز^١ والد يبايع.

(١) ازور عن الشيء: عدل عنه وانحرف. (٢) تشكك القوس: ألغى على منكبه.

(٣) غص بأهله: ضاق.

فقال الناسُ بعضهم لبعض : قَبَّحَ اللهُ بَنِي أُمِيَّةٍ حَيْثُ تَسْتَعْمَلُ مِثْلَ هَذَا عَلَى الْعِرَاقِ ! حَتَّى قَالَ عُمَيْرُ بْنُ ضُبَّانٍ الْبُرْجُمُجِيُّ : أَلَا أَحْصِيهِ^(١) لَكُمْ ؟ قَالُوا : أَمْهَلْ حَتَّى نَنْظُرَ ، فَلَمَّا رَأَى عَيُونَ النَّاسِ شَاخِصَةً إِلَيْهِ ، حَسَرَ اللَّثَامَ عَنْ فِيهِ ، وَنَهَضَ فَقَالَ :

أَنَا ابْنُ جَلَا^(٢) وَطَّلَاعُ الثَّنَائِيَا^(٣) مَتَى أَضْمَرَ الْعِمَامَةَ^(٤) تَعْرِفُونِي
نَمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ؛ إِنِّي لَأَرَى رُءُوسًا قَدْ أُيْنِئَتْ^(٥) ، وَحَانَ قَطَافُهَا ،
وَإِنِّي لَصَاحِبُهَا ، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الدَّمَاءِ بَيْنَ الْعِمَامِ وَاللَّحَى ؛ ثُمَّ قَالَ :
هَذَا أَوَّانُ الْحَرْبِ فَاشْتَدَّ زَيْمٌ^(٦) قَدْ لَقَمْنَا اللَّيْلَ بِسَوَاقٍ حَطَمٌ^(٧)
لَسْتُ بِرَاعِي إِبْسَالٍ وَلَا غَنَمٍ وَلَا بِحِزَّارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٌ^(٨)
إِنِّي وَاللَّهِ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، مَا يُقَعِّقُ عَلَى الشَّنَانِ^(٩) ، وَلَا يُعْمِرُ جَانِبِي كَتَمَازِ التَّيْنِ ،
وَلَقَدْ فُرِرْتُ عَنْ ذَكَاءٍ^(١٠) ، وَفُقِئْتُ عَنْ تَجْرِيَةٍ ، وَإِنِّي أُمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ
بِقَاءَهُ - نَزَّ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَمَجَّعَ^(١١) عِيْدَانَهَا ، فَوَجَدَنِي أَمْرُهَا عَوْدًا ، وَأَصْلَبَهَا
مَسْكِيرًا ، فَرَمَا كَمِي ؛ لِأَنكُمْ ظَلَمْتُمْ أَوْ ضَمَمْتُمْ^(١٢) فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مِرَاقِدِ

-
- (١) حصيه : رماه بالحصي . (٢) أي أنا الظاهر الذي لا يخفى وكل أحد يعرفني ، وجلا اسم رجل سمي بالقليل الماضي ، وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع في الغارات من ثنية الجبل .
(٣) الثنايا : جمع ثنية ، والثنية : الطريق في الجبل ، وقد أراد أنه جلد . (٤) العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم . (٥) أيئنت : أهدرت ونضجت . (٦) زيم : اسم ناقة أو فرس وهو يحاطبها بأمرها بالمدو ، وحرف النداء عذوف . (٧) هو الغيب برعاية الإبل في السوق والإيراد والإصدار ويبنى بعضها على بسى ، ضربه مثلا لوالى السوء . (٨) الرضم : كل ما قطع عليه اللحم . (٩) الشنان : واحد شنان . وهو الجلد اليابس ، فإذا قفقه به نفرت الإبل منه ، فضرِبَ ذلك مثلا لنفسه . (١٠) ذكاء : تمام السن ، والذكاء على ضربين : أحدهما تمام السن ، والآخر حدة القلب . (١١) اختبرها لينظر أيها أصلب .
(١٢) الإضباع : ضرب من السير .

الضلال ، والله لأخزمنكم حَزَمَ السَّلَمَةُ^(١) ، ولأضربنكم صَرْبَ غَرَابِ^(٢) الإبل ؛ فإنكم لسكاهل قَوِيَّةٌ كاتِ أَمَنَةً مَطْمَئِنَةً بِأَيْتِهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرْتُمْ بِأَنفُسِكُمْ فَادَّأَمَهُ اللَّهُ لِبَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

وإني والله ما أقول إلا وَفَيْتُ ، ولا أَهْمُ إلا أَمْضَيْتُ ، ولا أَخْلُقُ^(٣) إلا فَرَيْتُ^(٤) ، وإنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرُنِي بِأَعْطَايَكُمُ أَغْطِيَانِيَكُمُ ، وأن أَوْجَّهَكُمْ لِحَارِبِي عَدُوَّكُمْ مَعَ الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، وإني أقسم بالله لا أُجِدُّ رَجُلًا تَخَلَّفَ بَعْدَ أَخْذِ عَطَائِهِ إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ .

يا غلام ؛ اقرأ عليهم كتابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَرَأْ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . من عبدَ اللَّهَ عَبْدَ الْمَلِكِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ بِالْكُوفَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . سلامٌ عليكم . فلم يقل أحدٌ منهم شيئاً ، فقال الحجاج : أكْفُفْ يا غلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : أَسَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَمْ تَرُدُّوا عَلَيْهِ شَيْئاً ! هَذَا أَدَبُ ابْنِ نَهْيَةٍ^(٥) ! أما والله لأُوَدِّبَنَّكُمْ غَيْرَ هَذَا الْأَدَبِ ، أو لَتُسْتَقِيمَنَّ !

اقرأ يا غلام كتابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فلما بلغ إلى قوله : سلامٌ عليكم ، لم يبق في المسجد أحدٌ إلا قال : وعلى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ السَّلامُ .

ثم نزل فوضع للناس أَعْطِيَانَهُمْ ، فجعلوا يأخذون ، حتى أتاه شَيْخٌ يَرْعَشُ كِبَرًا ؛ فقال : أيها الأَمِيرُ ، إني من الضَّعِيفِ عَلَى مَاتَرِي ، ولي ابْنٌ هُوَ أَقْوَى عَلَى الْأَسْفَارِ ، فَتَقَبَّلْهُ بَدَلًا مِنِّي ؟ فقال له الحجاج : فَعَلْ أَيُّهَا الشَّيْخُ .

(١) السَّلَمَةُ : شَجَرَةٌ شَاكَةٌ ، يَسْرُ خُرُوطُ وَرْقِهَا ، فَيَشَدُّ بِضُفْرِهَا إِلَى بَعْضِ ، ثُمَّ يُضْرِبُ بِهَا الْحَابِطَ فَيَتَنَاقَرُ وَرْقُهَا . (٢) ضَرْبُ عَرَائِبِ الْإِبِلِ : هُوَ مِثْلُ ضَرْبِهِ يَهْدِي بِهِ رِعْيَتَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِبِلَ إِذَا دَخَلَتْ بَيْنَهَا غَرَبِيَّةٌ وَهِيَ تَرُدُّ الْمَاءَ ضَرْبِهَا رَاعِيَهَا ضَرْبًا مَوْلاً حَتَّى تَخْرُجَ . (٣) أَخْلُقُ : أَقْدِرُ . (٤) فَرَاةٌ : حَقَّقَهُ سَالِحًا أَوْ غَاسِدًا . (٥) ابْنُ نَهْيَةٍ : رَجُلٌ كَانَ عَلَى الشَّرْطَةِ بِالْبَصْرَةِ قَبْلَ الْحَجَّاجِ .

فلما وُلِّيَ قال له قاتل^(١) : أتندري مَنْ هذا أيها الأمير ؟ قال : لا ، قال : هذا
عمير بن ضائب البرجعي الذي يقول أبوه :

مَهْمَتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكَتُ عَلَى عُمَانَ تَبْكِي حَلَاثَتَهُ

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فَوَطِئَ بطنه ، فَكَسَرَ ضِلْعَيْنِ
من أضلاعه ! فقال : ردّوه . فلما رُدَّ قال الحجاج : أيها الشيخ هَلَّا بُمْتَ إِلَى
أمير المؤمنين عثمان بدلًا يوم الدَّار^(٢) ؟ إِنْ فِي قَتْلِكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ لَصَلَاحًا لِلْمُسْلِمِينَ .
يَا حَرَسِي^(٣) اضْرِبْ عُنُقَهُ .

(١) هو عنبة بن العاص الأموي . (٢) هو اليوم الذي قتل فيه عثمان .

(٣) الحرسى : واحد من حرس السلطان .

١٤ — نصيحة*

رَحَلَ الحجاج إلى عبدِ الملك بن مروان ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة ،
فلما قدم على عبدِ الملك سَلَّم عليه بالخلافة ، وقال : قدمتُ عليك يا أمير المؤمنين
برَجُل الحجاز في الشرف والأبوة ، وكال مروءة والأدب ، وحسن المذهب والطاعة ،
والنصيحة مع القراية ، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة ، فافضِلْ به يا أمير المؤمنين
ما يستحقُّه مثله في أبويته وشرفه .

فقال عبد الملك : يا أبا محمد ؛ قد أذكرتنا حقًّا واجِبًا ، ائذنوا لإبراهيم !
فلما دخل وسَلَّم بالخلافة أمره بالجلوس في صدرِ المجلس ، وقال له : إن أبا محمد
ذكرنا ما لم نَرَلْ نعرفه منك من الأبوة والشرف ، فلا تدع حاجة في خاصة أمرك
وعامتة إلا سألتها .

فقال إبراهيم : أما الحوائجُ التي نبتغي بها الزُلْفَى ، ونرجو بها الثواب ، فما كان
خالصًا فهِ وَلَنَبِيَّه .

ولكنَّ لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحةٌ ، لا أجدُ بُدًّا من ذكرى إياها !
قال : أهي دون أبي محمد ؟ قال : نعم . قال : قم يا حجاج .
فنهض الحجاجُ خجلًا لا يُبْصِرُ أين يضع رِجْلَه .

ثم قال له عبد الملك : قل يا بنَ طلحة قال : تافه يا أمير المؤمنين ، إنك
نمّدت إلى الحجاج ، في ظلمه وتعدّيه على الحق ، وإصفاؤه إلى الباطل ، فولّيته

الْحَرَمِينَ ، وفيهما مَنْ فِيهما مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَأَبْناءُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ،
يَسُومُهُمْ ^(١) الْخُسْفَ ، وَيَطْوَهُمْ بِطَنَامٍ ^(٢) أَهْلُ الشَّامِ ، وَمَنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِي إِقَامَةِ
الْحَقِّ ، وَلَا إِزَاحَةِ الْبَاطِلِ .

فَأُتِرِقَ عَبْدُ الْمَلِكِ سَاعَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ : كَذَبْتَ بِاطْلَعَةٍ ، ظَنَنْتُ فِيكَ
الْحِجَاجُ غَيْرَ مَا هُوَ فِيكَ ! قُمْ فَرُبَّمَا ظُنُّ الْخَيْرُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ !
قَالَ ابْنُ طَلْحَةَ : قَعَمْتُ وَأَنَا مَا أَبْصِرُ طَرِيقًا ، وَأَتَبِعُنِي حَرَسِيَّةً ^(٣) ، وَقَالَ لَهُ :
اشْدُدْ يَدَكَ بِهِ . فَمَازَلْتُ جَالِسًا حَتَّى دَعَا الْحِجَاجُ .

فَمَا زَالَ يَتَنَاجِيَانِ طَوِيلًا ، حَتَّى سَاءَ ظَنِّي ، وَلَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي أَمْرِي ، ثُمَّ
دَعَانِي ، فَلَتَعَنَى الْحِجَاجُ فِي الصَّخْرِ ^(٤) خَارِجًا ، فَقَبِلَ مَا بَيْنَ عَيْنِي ، وَقَالَ : أَحْسَنَ اللَّهُ
جَزَاءَكَ أَقَلْتُ فِي نَفْسِي : إِنَّهُ يَهْتَرُ أَيْ . وَدَخِلْتُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَجْلَسَنِي مَجْلِسَ
الْأَوَّلِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا بَنَ طَلْحَةَ ، هَلْ أَطْلَعَ عَلَى نَصِيحَتِكَ أَحَدٌ ؟ قُلْتُ : لَا وَاللَّهِ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا أَرَدْتُ إِلَّا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالسَّالِحِينَ ، وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسْمَعُ ذَلِكَ .
فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : قَدْ عَزَلْتُ الْحِجَاجَ عَنِ الْحَرَمِينَ لِمَا كَرِهْتَهُ قَبْلَهُ ، وَأَعْلَمْتُهُ
أَنَّكَ اسْتَقْلَلْتَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَسَأَلْتَنِي لَهُ وَلَايَةً كَبِيرَةً ، وَقَدْ وَلَيْتُهُ الْعِرَاقِينَ ، وَقَرَّرْتُ
أَنْ ذَلِكَ بِسُؤَالِكَ ، لِيُزَامَهُ مِنْ حَقِّكَ مَا لَا بَدْلَ لَهُ مِنَ الْقِيَامِ بِهِ ، فَأَخْرَجْتُهُ مَعَهُ غَيْرَ ذَائِمٍ
لِصُحْبَتِهِ .

(١) يسومهم : يوليهم إياه ويريدهم عليه . (٢) الطنم : أوغاد الناس . (٣) الحرسي : واحد
حرس السلطان . (٤) صحن الدار : وسعها .

١٥ - من حِيلَ الحجاج*

دخل عمرُ بن عبد العزيز قبل أن يُستخلف على الوليد بن عبد الملك ، فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ إن عندى نصيحةً ، فإذا خلا لك عقلك ، واجتمع فهمك فسلنى
عنها ؛ قال : ما يمنعك منها الآن ؟ قال : أنت أعلم أنه إذا اجتمع لك ما أقول فإنك
أحق أن تفهم .

فكث أياً ما ثم قال : يا غلام ؛ مَنْ بالباب ؟ فقال له : ناس وفيهم عمرُ
ابن عبد العزيز ، فقال : أَدْخِلْهُ ، فدخل عليه فقال : نصيحتك يا أبا حفص ، قال
عمر : إنه ليس بعد الشُّرك إثمٌ أعظمُ عند الله من الدم وإن عمَّالك يقتلون ،
ويكثبون : إنا ذنبُ المقتول كذا وكذا ، وأنت المسئول عنه والمأخوذُ به ،
فاكتب إليهم : ألا يقتل أحدٌ منهم أحداً حتى يكتب إليك بذنبه ، ثم يشهد
عليه ، ثم تأمر بأمرك على أمرٍ قد وضع لك .. قال : بارك الله فيك يا أبا حفص .
فكتب إلى الأمصار فلم يخرج^(١) من ذلك إلا الحجاج ، فإنه أمضه^(٢) ،
وشقَّ عليه وأقلَّعه ، وظن أنه لم يُكتب به إلى أحدٍ غيره ، فبحث عن ذلك فقال :
من أين دُهِينا ؟ ومن أشار على أمير المؤمنين بهذا ؟ فأخبر أن عمرَ بن عبد العزيز
هو الذى فعل ذلك ، فقال : هيهات ! إن كان عمر فلا نقص لأمره .

ثم إن الحجاج أرسل إلى أعرابي حرورى^(٣) جافٍ من بكر بن وائل ، ثم قال
له : ما تقول فى معاوية ؟ فقالَ منه . قال له : ما تقول فى يزيد ؟ فسبّه . قال :

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ١٣٩

(١) خرج : ضاق . (٢) أمضه : آله وأوجهه . (٣) الحرورية : فرقة من الخوارج ؛ ينسبون
إلى حروراء ، موضع بظاهر الكوفة ، كان به أول اجتماعهم .

فما تقول في عبد الملك ؟ فظلمه^(١) . قال : فما تقول في الوليد ؟ فقال : أجورهم حين
وَلَاك ، وهو يعلم عَدَاكَ^(٢) وظلمك . فسكت عنه الحجاج ، واقتصرها^(٣) منه .
ثم بعث إلى الوليد وكتب إليه : أنا أحوط لديني وأرعى لما استرعىني ،
وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك ، وقد بعثت إليك ببعض من كنتُ
أقتلُ على هذا الرأي ، فتأذك وإياه .

فدخل الحروري على الوليد ، وعنده أشرافُ أهل الشام وعمرُ فيهم ، فقال له
الوليد : ما تقول في ؟ قال : ظالم جائر جبار ! قال : ما تقول في عبد الملك ؟ قال :
جبار عاتٍ ، قال : فما تقول في معاوية ؟ قال : ظالم .

قال الوليد لابن الرِّبَّان : اضرب عنقه ، فضرب عنقه ، ثم قام فدخل منزله ،
وخرج الناسُ من عنده ، قال : يا غلام : اردد على عمر ، فردّه عليه فقال :
يا أبا حفص : ما تقول في هذا ؟ أصبنا فيه أم أخطأنا ؟ فقال عمر : ما أصبتَ بقتله ،
ولم يُبْرُ ذلك كان أرشد وأصوب ، كنتَ تسجنه حتى يرجع الله عز وجل ، أو تدركه
منيته . فقال : شتَمَني وشتَمَ عبد الملك ، وهو حروري ؛ أوتستحل ذلك ؟ قال :
لعمري ما أستحلّه ؛ لو كنتَ سجنته - إن بدا لك - أوعفوت عنه كان أرشد ! فقام
الوليد مضطرباً ، فقال ابنُ الرِّبَّان لعمري : يفرُّ الله لك يا أبا حفص ، اتقد راددت
أمير المؤمنين حتى ظننتُ أنه سيأمرني بضرب عنقك ! فقال عمر : ولو أمرتك كنتُ
نفعل ؟ قال : إني لعمري !

(١) ظلمه : نسب إليه الظلم . (٢) العداة : تجاوز الحد في الظلم . (٣) اقتصرها : انتهى بها .

١٦ - لَا أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ *

أتى الحجاجُ بقومٍ من خرجوا عليه ، فأمر بهم ففُصِرَتْ أعناقهم ، وأقيمتُ صلاةُ المغرب وقد بقي من القوم واحد ، فقال لِقُتَيْبَةُ بْنُ مَسْلَمٍ : انصرف به معك حتى تَفْدُو به عليّ .

قال قُتَيْبَةُ : فخرجتُ والرجلُ معي ، فلما كنّا ببعض الطريق قال لي : هل لك في خير ؟ قلت : وما ذلك ؟ قال : إني والله ما خرجتُ على المسلمين ، ولا استعَلَّتُ قِتَالَهُمْ ؛ ولكن ابْتُلِيتُ بما ترى ، وعندى ودائع وأموال ، فهل لك أن تُخَلِّيَ سبيلِي ، وتأذن لي حتى آتي أهلي ، وأرُدَّ عليّ كل ذي حقٍّ حقّه ، وأوصي ؛ ولك عليّ أن أرجع حتى أضع يدي في يدك ؟ ففجبتُ له ، ونضاحكتُ لقوله ، ومَضَيْنَا هُنَيْهَةً ، ثم أعادَ عليّ القول ، وقال : إني أعاهدك الله ، لك عليّ أن أعودَ إليك . فما ملكتُ نفسي حتى قلتُ له : اذهب !

فلما توارى شَخْصُهُ أَشَقِطَ في يدي ، فقلت : ماذا صنعتُ بنفسي ؟ وأتيتُ أهلي مهموماً مغموماً ؟ فسألوني عن شأني فأخبرتهم ، فقالوا : لقد اجترأتُ على الحجاج .

فبَقِيتُ بأطولِ ليلة ، فلما كان عند أذانِ الفجر إذا الباب يُطْرَقُ ، ففُرجتُ فإذا أنا بالرجل ، فقلت : أرجعتَ ؟ قال : سبحان الله ! جعلتُ لك عهداً الله عليّ ،

أفأخونك ولا أراجع ! قلت : أما والله إن استطعتُ لأنفَعَنَّكَ . واطلقتُ به حتى
أجلستُهُ على باب الحجاج ، ودخلت !

فلما رآنى قال : يا قتيبة ؛ أين أسيرُك ؟ قلت أصلح الله الأمير - بالباب ،
وقد اتفق لى معه قصةٌ عجيبية ، قال : ما هى ؟ لحدثته الحديث ، فأذن له فدخل ،
ثم قال : يا قتيبة ، أتعجبُ أن أهَبَ لك ؟ قلت : نعم ، قال : هو لك ، فانصرفَ به
معه .

فلما خرجت به قلتُ له : خذ أىَّ طريقٍ شئتَ ، فرفع طرفه إلى السماء وقال :
لك الحمدُ يارب ، وما كأمى بكلمة ، ولا قال لى أحسنتَ ولا أسأتُ ! فقلت فى
نفسى : مجنون والله ! فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءنى ، وقال لى : جزاك الله خيراً ،
أما والله ما ذهبَ عني ما صنعت ، ولكن كرهتُ أن أشركَ مع محمد الله حمدَ أحد .

١٧ — لا أسألكم عليه أجر*

قال عثمان بن عطاء الخراساني : انطلقت مع أبي نريد هشام بن عبد الملك ، فلما قرُبنا إذا بشيخ على حمارٍ أسود عليه قميص دَنَس ، وجُبَّة دَنَسَة ، وقلنسوة لاطئة^(١) دَنَسَة ، وركاباه من خشب ؛ فضحكت منه ، وقلت لأبي : مَنْ هذا الأعرابي ، قال : اسكت ، فهذا سيدُ فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح^(٢) .

فلما قرب منازل أبي عن بَنَلته ، ونزل هو عن حماره ، فاعتنقا ونساء لا ، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب هشام ؛ فما استقرَّ بهما الجلوس حتى أذن لهما .

فلما خرج أبي قلتُ له : حدِّثني ما كان منك . قال : لما قيل لهشام : إن عطاء بن أبي رباح بالباب أذن له ؛ فوالله ما دخلتُ إلا بسببه .

فلما رآه هشام قال : مرحباً مرحباً ، ههنا ، ههنا ، ولا زال يقولُ له : ههنا ههنا ، حتى أجَلَسه معه على سريره ، ومسَّ بركبته ركبته . وعنده أشرفُ الناس يتحدثون فسكتوا . فقال له : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهل الحرمين أهلُ الله وجيرانُ رسوله تُقسَم عليهم أرزاقهم وأعطيتهم . قال : يا غلام : اكتب لأهل مكة والمدينة بمطابهم وأرزاقهم لِسَنَة .

* غرر الحقائق : ١١٧ .

(١) لاطئة : لازقة . (٢) تابعي من أجلاء فقهاء ولد باليمن ونشأ بمكة ، فكان مفتي أهلها ، وعُدَّهَم . وتوفى فيها سنة ١١٥ هـ .

ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ! قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، أهلُ الحجاز وأهلُ نجد هم أصلُ العرب ، وقادةُ الإسلام ، تردُّ فيهم فضولُ صدقاتهم . قال : نعم ، يا غلام ! اكتب بأن تردَّ فيهم فضولُ صدقاتهم . هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهلُ الثغور يرُدُّون من ورائكم ، ويقاقلون عدوكم ، تجرِّي لهم أرزاقاً تدرّها عليهم ؛ فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور . قال : نعم ، يا غلام ؛ اكتب بحمل أرزاقهم إليهم . هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أهلُ ذمتكم لا يُكَلَّفُونَ مالا يطيقون ؛ فإن ماتَجِبُوهُ مِنْهُمْ مَعُونَةً لَكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ . قال : نعم ، يا غلام ؛ اكتب لأهل الذمة بالآبِ كَلْفُوا مالا يطيقون ! هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ ؛ فَإِنَّكَ خَلَقْتَ وَحْدَكَ ، وَمَوْتَ وَحْدَكَ ، وَتُحْشَرُ وَحْدَكَ ، وَتَحَاسَبُ وَحْدَكَ ، وَلَا وَاللَّهِ مَا مَعَكَ مِنْ تَرَى أَحَدًا !

فَأَكْبَّ هَاشِمٌ يَنْكُتُ^(١) فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ يَبْكِي ؛ فَقام عطاء .

فلما كنا عند الباب إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه ؛ فقال : إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا . فقال : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فوالله ما شرب عنده قطرة ماء .

(١) النكيت : قرعك الأرض يمود أو ياصبع ، وهو فعل للفكر المبهوم .

١٨ — خليفة بين يدي قاض *

قال العُتبي : إني لقاعد عند قاضى هشام بن عبد الملك إذ إبراهيم بن محمد ابن طلحة ، وصاحب حرس هشام^(١) ، حتى قعدا بين يديه ؛ فقال الحرسي^(٢) : إن أمير المؤمنين جرّاني في خصومة بينه وبين إبراهيم .
فقال القاضي : شاهدك على الجرّاية^(٣) .
قال : أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقبل ! وليس بيني وبينه إلا هذه الشّرة^(٤) !

قال : لا ، ولكنه لا يثبت الحق لك ، ولا عليك ، إلا بينة .
فقام الحرسي فدخل إلى هشام فأخبره ؛ فلم نلبث أن قعّعت الأبواب ، وخرج الحرسي ، فقال : هذا أمير المؤمنين .
فقام القاضي فأشار إليه هشام فعد ، وبسط له مصلى ، فعد عليه هو وإبراهيم ، وكنا حيث نسمع بعض كلامهما ، ويخفى علينا بعضه !
فتكلمنا ، وأحضر البينة ، فقضى القاضي على هشام ؛ فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخرق^(٥) ؛ فقال : الحمد لله الذي أبان للناس ظلمك !

* انقد : ٤ — ٤٤٧ ، (طبعة جنة التأليف) .

(١) هشام بن عبد الملك من ملوك الدولة الأموية ، ولد في دمشق وبويع له فيها وتوفى سنة ١٢٥

(٢) الحرسي : واحد حرس السلطان . (٣) الجرّاية : الركاثة . (٤) السرة : ما يدر به .

(٥) الخرق : الخفى .

فقال هشام : لقد همتُ أن أضرب عنقك ضربةً يفتثر منها لحمك عن عظمك . قال : أما والله لئن فعلتَ لفعلته بشيخ كبير السن ، قريب القرابة ، واجب الحق !

فقال هشام : استرها على يا إبراهيم ، قال : لا ستر الله على ذنبي يوم القيامة إن سترتها .

قال : فإني مُعطيك عايتها مائة ألف ! قال إبراهيم : فسترتها عليه طولَ حياته نمنا لِمَا أخذتُ منه ، وأدعتها بعد مماته ، تريئنا له ؟

١٩ — العهد لعمر بن عبد العزيز*

كان لسلیمان بن عبد الملك ابنُ بقال له أيوب بن سليمان، فقد له ولاية العهد من بعده ؛ ثم إن أيوب توفى قبل سليمان ، ولم يبقَ لسلیمان إلا ولدٌ صغير . فلما حضرته الوفاة أراد أن يستخلف ، فحضره عمرُ بن عبد العزيز ورجاء ابن حيوة ، فقال لرجاء : اعرض على ولدي في التمس والأردية ، فعرضهم عليه ، فإذا هم صفار لا يحتملون ما لبسوا من التمس والأردية ، بسجبنها سحبا . فنظر إليهم وقال : يارجاء :

إِنْ بَنَى صَبِيَّةٌ صِفَارًا أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ كِبَارُ

فقال له عمر بن عبد العزيز : بأمر المؤمنين ؛ يقول الله تبارك وتعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ^(١) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

ثم قال : يارجاء ، اعرض على بنى فى السيوف ، قد دؤم السيوف ، ثم عرضهم عليه ، فإذا هم صفار لا يحملونها ، يجرؤنها جراً ؛ فنظر إليهم وقال :

إِنْ بَنَى صَبِيَّةٌ صَبِيئُونَ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رِبْعِيُونَ ^(٢)

فقال له عمر بن عبد العزيز : يقول الله تبارك وتعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى » .

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٢٩

(١) تزكى : تطهر من الشرك والماسى . (٢) يقال : أصاف الرجل ، إذا ولد له على كبر سنه وولده صبيون . وأربع الرجل ، إذا ولد له فى فتاه سنه ، وولده ربيعيون .

فلما لم يرَ في ولده ما يريدُ حدث نفسه بولاية عمر بن عبد العزيز^(١)؛ لما كان يعرف من حاله؛ فشاوَر رجاءَ فيمن يُعَدُّ له، فأشار عليه بعمر، وسدَّد له رأيه فيه، فوافق ذلك سايجان، وقال: لأعقدنَّ عَقْدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب.

فلما اشتدَّ به وجعُه عهدَ عهداً لم يُطْلِع عليه أحداً إلا رجاءَ بن حيوةَ الكندي، استخلف فيه عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر.

فدخل سعيد بن خالد مع عمر بن عبد العزيز وبعض أهل بيته يهودون سايجان؛ فرأوا به الموت، فشى عمر وسعيد بن خالد ورجاءَ بن حيوةَ، ثم تخلف عمر كأنه يعالج نعلَيْه، حتى أدركه رجاءُ فقال له: يارجاءُ إني أرى أمير المؤمنين في الموت، ولا أحسبه إلا سيَّهَد، وأنا أناشدك الله إن ذكرني بشيء من ذلك إلا صدَّته عني، وإن لم يذكرني ألا تذكرني له في شيء من ذلك. فقال رجاءُ لعمر: لقد ذهب ظنُّك مذهباً ما كنتُ أحسبك تذهب، أنظنُّ بني عبد الملك يدخلونك في أمورهم! وقد كان سايجان فرَّغ من ذلك ولكنه أراد إخفاءه عن عمر!

فلما اختُصر^(٢) سايجان، واشتدَّ ما به أمر بالبيعة ابن كان في كتابه من عهد إليه، فبايع الناس ولا يعلمون من في كتابه.

ثم قضى الله على سليمان بالموت، فلما مات كتم موته رجاءُ بن حيوةَ، ثم خرج إلى الناس فقال: أمير المؤمنين بأمركم بتجديد البيعة لمن كان عهداً إليه، وقد أصبح بحمد الله صالحاً. فقالوا: أوصِلنا إلى أمير المؤمنين لننظرَ إليه، وننفذَ أمره؛ فدخل وأمر به فأُسند بالوسائد وأقام عنده خادماً، وأمر بالنس فأدخلوا عليه،

(١) هو الخليفة الصالح العادل، ولد بالمدينة ونشأ بها، ورويع له بالخلافة سنة ٩٩ هـ وأخباره في عمله وحسن سياسته كثيرة. توفى سنة ١٠١ هـ. (٢) اختُصر: حضره الموت.

فيفقون عند الباب فيسلّمون من بعيد ، وهم يرون شخصه ، فيردّ الخادم عنه ردّ المريض وهم ينظرون إليه .

ثم قال : بأمركم أمير المؤمنين أن نبأيعوا لمن عهد إليه ، ونسموا له وتطيعوا ، فخرجوا إلى المسجد والناس مجتمعون : وجوه بني مروان وبني أمية ، وأشراف الناس ، فبايعوا ، حتى إذا رضى رجاء من ذلك نظر فإذا هو لا يرى عمر ؛ فخرج يلتصقه في المسجد حتى رآه قاصياً ، فوقف عليه ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! قم إلى المنبر ، فقال : أنشدك الله يا رجاء ، فقال رجاء : أناشدك الله أن يضطرب بالناس حبّ ، فقد لقي سليمان ربه ، وقضى الله عليه بالموت .

فقام عمر حتى جلس على المنبر ، فبنى للناس سليمان ، وفتح الكتاب ، فإذا فيه استخلاف عمر ويزيد بن عبد الملك من بعد عمر .

فلما قرأ ذكر عمر جثا هشام بن عبد الملك على ركبتيه وقال : هاهنا^(١) ! فسلّ رجل من أهل الشام سيفه ، وقال : تقول لأمر قد قضاه أمير المؤمنين هاهنا ! فلما قرأ : « ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر » قال هشام : سمعنا وأطعنا . فسمع الناس وأطاعوا ، وقاموا فبايعوا لعمر .

٢٠ - عمر بن عبد العزيز يحمل الناس على الحق *

لما دُفِنَ سليمان ، وقام عمر بن عبد العزيز قُرْبَتْ إِلَيْهِ المراكب ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : مراكب لم تُركَب قطَ يركبها الخليفة أولَ ما يلي . فتركها وخرج يلمسُ بَقْلَتَهُ ، وقال : يا مُزَاهِمُ ؛ ضُمَّ هذه إلى بيتِ مالِ المسلمين . ونصبت له سُرَادِقَاتٍ وَحُجَرٍ لم يجلس فيها أحد قط ، كانت تُضرب للخليفة أولَ ما يلي ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : سُرَادِقَاتٍ وَحُجَرٍ لم يجلس فيها أحد قط ، يجلس فيها الخليفة أولَ ما يلي . قال : يا مُزَاهِمُ ، ضُمَّ هذه إلى أموال المسلمين . ثم ركب بَقْلَتَهُ ، وانصرف إلى الفُرُشِ والوطاء^(١) الذي لم يجلس عليه أحد قط والذي يفرش الخليفة أولَ ما يكون ، فجعل يَدْفَعُ ذلك برجله حتى بُفِقِيَ إلى الحَصِيرِ . ثم قال : يا مُزَاهِمُ ، ضُمَّ هذا لأموال المسلمين .

وبات عيالُ سليمان يَفْرِغُونَ الأدهان والطيب ، من هذه القارورة إلى تلك القارورة ، ويابسون ما لم يُلبَس من الثياب حتى تنكسر . وكان الخليفة إذا مات فإلبس من الثياب ، أو مسَّ من الطيب كان لولده ، وما لم يُلبَس من الثياب وما لم يُمسَّ من الطيب فهو للخليفة بعده .

فلما أصبح عمر قال له أهلُ سليمان : هذا لك وهذا لنا . قال : وما هذا ؟ وما هذا ؟ قالوا : هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومسَّ من الطيب وهو لولده ، وما لم يمسَّ ولم يلبس فهو للخليفة بعده ، وهو لك .

(*) سيرة عمر بن عبد العزيز : ٣٥ .

(١) الوطاء : ضد النطاء .

قال عمر : ما هذا لي ، ولا لسيان ، ولا لكم ، ولكن يا مزامم ؛ ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين .

فتأمّر الوزراء فيما بينهم، فقالوا : أمّا المراكبُ والسرادات والحجّج والشوَّارُ (١)
والوطّاء فليس فيه رجاءٌ بعد أن كان منه فيه ما قد علمتُ ، وبقيت خَصلة وهي
الجواري ، نمرضهن فمسي أن يكون ما تريدون فيهن ؛ فإن كان وإلا فلا طمع لكم
عنده . فأثّرتُ بالجواري فعرّضتُ عليه كأمثال الدّميّ ؛ فلما نظر إليهن جعل يسألنّ
واحدةً واحدةً : مَنْ أنتِ ؟ ولِمَ كنتِ ؟ ومن بَثَّ بك ؟ فتخبره الجاريةُ بأصلها ،
ولِمَ كانت ، وكيف أخذت ، فيأمرُ بردهن إلى أهلن ويحمّئن إلى بلادهن ،
حتى فرغَ منهن . فلما رأوا ذلك أيسوا منه ، وعلموا أنه سيحصلُ للناس على الحق .
واحتجبَ عن الناس ثلاثاً ، لا يدخلُ عليه أحد ، ووجوهُ بني مروان
وبني أمية ، وأشرافُ الجنود والعرب ، والقوادِ يبابه ينظرون ما يخرجُ عنهم .
فجلس للناس بعد ثلاث ، وحلّهم على شريعةٍ من الحق ففرغوها ؛ فردّ الظالم ،
وأحيا الكتاب والسنة ، وسار بالعدل ، ورفض الدنيا ، وزهد فيها ، وتجرّد لإحياء
أمر الله عز وجل ، فلم يزل على ذلك حتى قبضَ (٢) .

(١) الشوار: اللباس والزينة ومتاع البيت . (٢) قبض ، أى مات .

٢١ — لَا تَلُومُوا إِلَّا أَنْفُسَكُمْ*

اجتمعت بنو أمية ، فكلّموا رجلاً أن يكلم عمر بن عبد العزيز في صلّة أرحامهم والمعلّفين عليهم ، وكان قد أمر لهم بعشرة آلاف دينار فلم تقّع منهم .
فدخل عليه الرجل ، فكلّمه وأعلّمه بمقاتلتهم ، فقال : أجل ! والله لقد قسمتها فيهم ، وقد ندمتُ عليها ألا أكون متّعّتهم إياها ، وقسمتها فكانت تكفي أربعة آلاف بيت من المسلمين .

فخرج إليهم الرجل وأعلّمهم بمقاتلته ، وقال : لا تلوّموا إلا أنفسكم يا معشر بني أمية ؛ عمدتم إلى صاحبكم فزوّجتموه بنت ابن عُمَر^(١) ، فجاءتكم بعمراً ملفوفاً في ثيابه ، فلا تلوّموا إلا أنفسكم .

* سيرة عمر بن عبد العزيز : ٥٠ .

(١) عمر بن الخطاب .

٢٢ - ذَكَرْتُني الطَّمَنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا*

لَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخِلَافَةَ رَدَّ الْمَظَالِمَ وَالنِّعَاطِمَ . وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ قَدْ أَمَرَ لَعْنَتِيَّةَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِبَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَدَارَتْ فِي الدَّوَابِ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى دِيْوَانِ الْخَطْمِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَبْضُهَا ، فَتَوَقَّى سُلَيْمَانُ قَبْلَ أَنْ يَقْبِضَهَا .

وَكَانَ عَنبَسَةُ صَدِيقًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَغَدَا يَرِيدُ كَلَامَ عُمَرَ فَيَأْتِيهِ بِأَمْرٍ لَهُ بِهِ سُلَيْمَانُ ؛ فَجُودَ بَنِي أُمَيَّةَ حُضُورًا بِبَابِ عُمَرَ ، يَرِيدُونَ الْإِذْنَ عَلَيْهِ لِيَكْلُمُوهُ فِي أُمُورِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوْا عَنبَسَةَ قَالُوا : نَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ بِهِ قَبْلَ أَنْ نَكْلُمَهُ ، وَقَالُوا لَهُ : أَعْلِمِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَكَانَتَنَا ، وَأَعْلِمْنَا مَا يَصْنَعُ بِكَ فِي أُمُورِكَ .

فَدَخَلَ عَنبَسَةُ عَلَى عُمَرَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانُ قَدْ كَانَ أَمْرًا لِي بِبَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى دِيْوَانِ الْخَطْمِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَبْضُهَا ، فَتَوَقَّى عَلَى ذَلِكَ ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أُولَى بِاسْتِمَاءِ الصَّنِيعَةِ عِنْدِي ، وَمَا يَبْنِي وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سُلَيْمَانَ .

قَالَ لَهُ عُمَرُ : كَمْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ عُمَرُ : عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ تُنْفِي أَرْبَعَةَ أَلْفِ بَيْتٍ مِنَ السَّلِينِ وَأَدْفِئَهَا إِلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ وَاللَّهِ مَا لِي إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ .

قَالَ عَنبَسَةُ : فَرَمَيْتُ بِالْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ الصَّلَاةُ . قَالَ لِي عُمَرُ : لَا عَلَيْكَ أَنْ يَكُونَ مَعَكَ ، فَلَمَّا أَنْ يَأْتِيكَ مَنْ هُوَ أَجْرًا عَلَى هَذَا الْمَالِ مَنِي فَيَأْمُرُكَ بِهَا .

قال عَنبِة : فأخذته تبرُّكاً برأيه . وقلت له : يا أمير المؤمنين : فما بال جبَلِ
الورس ؟ - وكان جبَلِ الورس قطيعةً لعمر بن عبد العزيز - فقال عمر : ذَكَرْتُني
الطَّعْنَ وكنت ناسياً ! يا غلام : هاتِ ذلكَ القَفَصَ ، فأُتِيَ بقَفَصٍ من جريد فيه
قَطَانِعُ بنى عبد العزيز ، فقال : يا غلام ؛ اقرَأْ علىّ ، فكلما قرَأَ قطيعة قال : شَقُّها ،
حتى لم يبقَ في القَفَصِ شيءٌ إلا شَقُّه .

قال عَنبِة : فرجعتُ إلى بنى أمية ، وهم وقوفٌ بالباب ، فأعلمتهم ما كان
من ذلك ، فقالوا : ليس بعد هذا شيء ، ارجعْ إليه فاسأله أن يأذنَ لنا أن نلحق
بالبلدان .

فرجعتُ إليه فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن قومك بالباب يسألونك أن تُجْزى
عليهم ما كان من قَبْلِكَ يُجْزى عليهم ، فقال عمر : والله ما هذا المال لى ، وما لى
ذلك من سبيل . قلت : يا أمير المؤمنين ؛ فيسألونك أن تأذنَ لهم يضرُّبون فى
البلدان .

قال : ما شاءوا ، ذلك لهم ، وقد أذنتُ لهم . قلت : وأنا أيضاً؟ قال : وأنت أيضاً
قد أذنتُ لك ، ولستنى أرى لك أن تقيمَ فإنك رجلٌ كثيرُ النُفْدِ ، وأنا أبيعُ
تركةَ سليمان ، فعَلَّك أن تشتريَ منها ما يكون لك فى وجهِ عَوْضٍ مما فاتك .

فأقتَ تبرُّكاً برأيه ، فابتعتُ من تركةِ سليمان بمائة ألف ، فرجعتُ بها إلى
المراق فبعتها بمائتى ألف وحبستُ الصلَّةَ .

فلما توفى عمر وُوُتِيَ يزيد بن عبد الملك أنيقه بكتاب سليمان فأنفذ لى
ما كان فيه .

٢٣ — الولدُ سِرُّ أبيه *

كان بيدُ عُمر بن عبد العزيز قبل الخلافة ضَيْعَتُهُ المعروفة بالسَّهْلَة ، وكانت بالجمامة . وكانت لها غَلَّةٌ عظيمة كثيرة ، عَيْشُهُ وعَيْشُ أَهْلِهِ مِنْهَا . فلما وَلِيَ الخِلافة قال لُمَزَّاحُ مَوْلَاهُ : إني عَزَمْتُ أَنْ أُرَدَّ السَّهْلَة إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ . فقال مَزَّاحُ : أَتَدْرِي كَمْ وَلَدْتُكَ ؟ إِنَّهُمْ كَذَا وَكَذَا ! فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمْعَةَ بِإصْبَعِهِ الْوَسْطَى ، وَيَقُولُ : أَكَلَهُمْ إِلَى اللَّهِ ، أَكَلَهُمْ إِلَى اللَّهِ .

فَضَى مَزَّاحُ ، فَدَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَا تَعْلَمُ مَا قَدْ عَزَمَ عَلَيْهِ أَبُوكَ ، إِنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَرَدَّ السَّهْلَة . قَالَ : فَمَا قُلْتَ لَهُ ؟ قَالَ : ذَكَرْتُ لَهُ وَلَدَهُ ؟ فَجَعَلَ يَسْتَدْمِعُ وَيَمْسَحُ الدَّمْعَةَ بِإصْبَعِهِ الْوَسْطَى ، وَيَقُولُ : أَكَلَهُمْ إِلَى اللَّهِ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : بئسَ وَزِيرٌ الدِّينَ أَنْتَ ! ثُمَّ وَتَبَ وَانْطَلَقَ إِلَى أَبِيهِ ، فَقَالَ لِلْأَخْنَسِ : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ . فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ وَضَعَ رَأْسَهُ السَّاعَةَ لِلْقَائِلَةِ ^(١) . فَقَالَ : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ . قَالَا : أَمَا تَرَاهُونَهُ ؟ لَيْسَ لَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِلَّا هَذِهِ السَّاعَةُ . قَالَ : اسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ ، لَا أُمُّ لَكَ !

فَسَمِعَ عَمْرُكَامَهُمَا ، فَقَالَ : أَتُذِنُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ ، فَدَخَلَ فَقَالَ : عَلَامَ عَزَمْتَ ؟

* ابن أبي الحديد : ٤ - ١٤٧

(١) القائلة : نصف النهار ، والنوم في الظهيرة .

قال : أردت السهلة ! قال : فلا تؤخر ذلك . قم الآن ، فجعل عمر يرفعُ يديه ، ويقول : الحمد لله الذي جعلَ لي من ذريتي من يُعِينِي على أمر ديني . نعم ، يا بني ؛ أصلي الظهر ، ثم أصعد المنبر ، فأردّها علانية على رؤوس الناس .

قال : ومن لك أن تمشيَ إلى الظهر ، ثم من لك أن تَسَلَّمَ نَبْتُكَ إلى الظهر إن عشتَ !

فقام عمر ، فصعد المنبر وخطب الناس ، وردّ السهلة^(١) .

(١) السهلة : قرية بالبحرين .

أوارث أنت بنى أمية*

قال أحمد بن موسى : ما رأيت رجلاً أُنْبِتَ جناحاً من رجل رُفِعَ فيه عندَ المنصور^(١) ، وقالوا : إنَّ عنده ودائعَ وأموالاً وسلاحاً لبنى أمية . فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره ، فأخضر بين يديه .

فقال له المنصور : قد رُفِعَ إلينا أنَّ عندك ودائعَ وأموالاً وسلاحاً لبنى أمية ، فأخرجْ لنا ما عندك ، واحمل جميعَ ذلك إلى بيت المال . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ؛ أنت وارثُ بنى أمية ؟ قال : لا . قال : فوصيُّ أنت ؟ قال : لا . قال : فإِ نسألُ عن ذلك ؟ فأطرقَ المنصور ساعة وقال : إنَّ بنى أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين ، وأنا آخذها فأردها إلى بيت المال للمسلمين . قال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى إقامة بينةٍ بقبلها الحاكم على أنَّ للمال الذى لبنى أمية هو الذى فى يديّ ، وأنه هو الذى اغتصبوه من الناس ؛ وأمير المؤمنين يعلمُ أن بنى أمية كانت معهم أموالٌ لأنفسهم غيرُ الأموال التى اغتصبوها على ما يزعمُ أمير المؤمنين .

فسكت المنصورُ ساعة ثم قال : ياربيع ؛ صدق الرجل ما يجب لنا عليه شيء ، ثم قال للرجل : ألك حاجة ؟ قال : نعم . قال : ما هى ؟ قال : أن تجمع بينى وبين

* المختار من نوادر الأخبار .

(١) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد ، ثاني خلفاء بني العباس وأعطهم حدة وبأساً وبقظة وثباتاً توفى سنة ١٥٨ هـ .

مَنْ سعى إلى إيليك ؛ فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أُمِّيَّةٌ عندي ودائع ولا مال ولا سلاح ؛ ولما حضرتُ بين يدي أمير المؤمنين ، وعلتُ ما هو عليه من العدل والإنصاف ، واتباع الحق ، واجتناب الباطل ، أيقنتُ أن هذا الكلام الذى صدر مني هو أنجحُ وأصلحُ لما سألني عنه ، وأقربُ إلى الخلاص .

فقال المنصور للربيع : اجتمع بينه وبين الرجل الذى اتهمه . ولما جئُ بالرجل عرفه ، وقال : هذا غلامى ، أخذ لى خمسمائة دينار وهرب ، ولى عليه كتاب بها ، ثم استنطق المنصور السلام ، فأقرَّ أنه غلامه وأنه أخذ المال الذى ذكره مولاه ، وأبقى^(١) به ، وسعى بمولاه ليجرى عليه أمرُ الله ، ويسلم هو من الوقوع فى يده . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد وهبتها له لأجلك ؛ وأدفعُ له خمسمائة دينار أخرى لحضوره مجلس أمير المؤمنين .

فاستحسن المنصور فعله ، وكان فى كل وقت يقول : ياربيع ؛ ما رأيتُ مَنْ حاجَّنى مثله .

(١) أبى البعد : استغنى وذهب .

٢٥ — حذر عيسى بن موسى *

لما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس، قال لعيسى بن موسى (١): أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك، وأريد أن أسلم لك عمي وعمك عبد الله بن علي؛ فخذهُ وأقتله: وإياك أن تجبن في أمره.

ثم مضى المنصور إلى الحج، وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك، فكتب إليه: قد أنفذت أمر أمير المؤمنين! فلم يشك أبو جعفر أنه قتله.

ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس؛ فقال له: إن المنصور دفع إلى عمه، وأمرني يقتله. فقال له: إنه يريد أن يقتلك به فقد أملك بذلك سرّاً، وبدعي عليك به علانية. والرأى أن تستر في منزلك، ولا تطلع عليه أحداً؛ فإن طلبه منك علانية، دفعتك إليه، ولا تدفعه إليه سرّاً أبداً! افعل ذلك.

وقدم المنصور؛ فدمس على عموته من يحركهم أن يسأله أن يهب لهم أخاه عبد الله؛ ففعلوا ذلك، واستشفعوا له. فقال: نعم، على بعيسى بن موسى، فأتاه.

فقال: يا عيسى؛ كنت قد دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج، وأمرتك أن يكون في منزلك مكرماً! قال: قد فعلت ذلك. قال: قد كلفني فيه عمويتك؛ فرأيت الصفح عنه، فأتني به.

(*) المتطرب: ١ - ٦٥

(١) هو عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ولد ونشأ بالجبلية من أرض الشام، وكان من فحول أهله وشجعانهم وذوى النجدة والباس فيهم.

قال : يا أمير المؤمنين ؛ ألم تأمرني بقتله ؛ قال : لا ، بل أمرتك بحبسه عندك .
ثم قال المنصور لمُؤمته : إن هذا قد أقرّ لكم بقتل أخيكم ، وادّعى ألى أمرته
بذلك ، وقد كذبوا ؛ قالوا : دعّه لنا فقتله . قال : شأنكم .

فأخرجوه إلى صحن الدار ، واجتمع الناس ، واشتهر الأمر ؛ فقام أحدهم ،
وشهر^(١) سيفه ، وقدم إلى عيسى ليضربه ؛ فقال عيسى : لانسجلوا ؛ فإن عمي حتى ،
ردّوني إلى أمير المؤمنين ، فردّوه إليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنما أردت بقتله
قتلي ، هذا عمك حتى ، إن أمرتني بدفعه إليهم دفعتّه . قال : اثقنا به ، فأثّق به ،
فجعله في بيت ، فسقط عليه ، فمات .

وركب المنصور بعد موته ، وفي خدمته ابن لعمه ، وكان يحادثه ، فقال له :
هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين فقتلوا ؟ قال : لا أعرف إلا ما تقول العامة
يا أمير المؤمنين : إن عليّاً قتل عثمان - وكذبوا والله - وعبد الملك بن مروان قتل
عبد الله بن الزبير ، وسقط البيت على عم أمير المؤمنين .

فضحك المنصور ، وقال : إذا سقط البيت على عمي ، فما ذنبني ؟ قالت :
ما قلت لك ذنب يا أمير المؤمنين !

(١) شهر سيفه : انتضاء فرقه .

٢٦ — يَقْطَعُ المَنصُورُ *

قال عُقْبَةُ الْأَزْدِيُّ : دخلتُ مع الجند على المنصور ، فارتابني ^(١) ، فلما خرج الجندُ أذنانِي ، وقال لِي : من أنت ؟ قلت : رجلٌ من الأزد ، وأنا من جند أمير المؤمنين ، قدمت الآن مع عمرو بن حفص .

قال : إني لأرى لك هيبَةً ، وفيك نجابةً ، وإني أريدُكَ لأمر ، وأنا به مَعْنِيٌّ ، فإن كَفَيْتَنِيهِ رَفَعْتُكَ . قلت : إني لأرجو أن أصدقَ ظنَّ أمير المؤمنين في . قال : أخْبِرْ نَفْسَكَ ، واحْضُرْ في يومِ كذا .

فَعَبْتُ عَنْهُ إلى ذلك اليوم وحضرتُ ، فلم يترك عنده أحداً ، ثم قال لِي : اعلم أن بني عمنا هؤلاء ، قد أبوا إلّا كَيْدَ مَلِكِنَا واغْتِيَالَهُ ، ولم شيعةً بخراسان بقرية كذا ، يكتبونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم وألطاف ^(٢) بلادهم ، فخذ معك عَيْنًا ^(٣) من عندي ، وألطافاً وكتباً ، واذهب حتى تأتيَ عبدَ اللهِ بن الحسن ، فأقدِّم عليه متخشعاً ، واذكر له أن الـكُتْبَ على ألسنة أهل تلك القرية ، والألطاف من عندهم إليه . فإذا رآكَ فإنه سيردُكَ ويقول : لا أعرفُ هؤلاء القوم ، فاصبر عليه وعاوِذْهُ ، واكْشِفْ باطنَ أمرِهِ .

فأخذتُ كُتْبَهُ والعَيْنَ والأطاف ، وتوجَّهْتُ إلى جهة الحجاز ، حتى قَدِمْتُ على عبد الله بن الحسن ، فلقيناه بالكُتْبِ ، فأنكرَها وسهرَني ، وقال : ما أعرفُ

* المستضرب : ٢ - ٩٤

(١) ارتبعت فلاناً : أتهمته . (٢) اللطفة : الهدية . (٣) العين : المال ، وما ضرب من الدنانير .

هؤلاء القوم . فلم انصرف ، وعاودته القول ، وذكرت له اسم القرية وأسماء أولئك القوم ، وأن معي أطاقاً وعيناً .

فأنس بى ، وأخذ السكُّب ، وما كان معى ، فتركته ذلك اليوم ، ثم سألته الجواب ، فقال : أما كتابٌ فلا أكتب إلى أحدٍ ، ولكن أنت كتأتى إليهم ، فأقرهم السلام ، وأخبرهم أن أبى : محمداً وإبراهيمَ خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا .

فخرجتُ من عنده ؛ وسرتُ حتى قدِمْتُ على المنصور ، فأخبرته بذلك ، فقال لى : إنى أريدُ الحج ، فإذا صرتُ بمكان كذا وكذا ، وتلقانى بنو الحسن ، وفيهم عبد الله ، فإنى أعظمه وأكرمه ، وأرفعه وأخضر الطعام ، فإذا فرغ من أكله ، ونظرتُ إليه ، فامثلُ بين يدى ، وقِفْ قدَّامه ، فإنه سيصرف وجهه عنك ، فدُرُ حتى تقفَ من ورائه ، واغزَ ظهره بإبهامك حتى يملأَ عينيه منك ، ثم انصرف عنه ، وإياك أن يراك وهو يأكل .

ثم خرج المنصور يريدُ الحج ، حتى إذا قارب البلاد ، تلقاه بنو الحسن ، فأجلس عبد الله إلى جانبه ، فخادته ثم طلب الطعام للقداء ، فأكلوا منه ، فلما فرغوا أمر برفقه فرُفِع ، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن ، وقال : يا أبا محمد ، قد علمتُ أن مما أعطيتنى من اليهود والموائيق ألك لا تريدنى بسوء ، ولا تكيدنى لى سلطاناً .

قال : فأنأ على ذلك يا أمير المؤمنين .

ثم لحظنى المنصور بيمينه ، فقامتُ حتى وقفتُ بين يدى عبد الله بن الحسن ، فأعرض عنى ، فدُرْتُ من خلفه ، وغمرتَ ظهره بإبهامى ، فرفع رأسه ، وملأَ عينيه منى ،

ثم وثب حتى جثا بين يدي المنصور، وقال : ألقني يا أمير المؤمنين أقالك الله !
فقل المنصور : لا أقالني الله إن لم أقتلك . وأمر بحبسه ، وجعل يطلب ولديه محمداً
 وإبراهيم ، ويستعلم أخبارهما .

٢٧ — المنصور في ساحة القضاء *

قال مميّر المدني : قَدِمَ علينا أمير المؤمنين المنصورُ الدينسي ، ومحمد بن عمران
الطلحي يَقُولُ القضاء بها وأنا كاتبه ، فحضر جماعة من الجمّالة^(١) ، واستمدّوه على
أمير المؤمنين المنصور في شيء ذكروه ، فأمرني أن أكتب إلى المنصور بالحضور
معهم أو إنصافهم قلت له : أعفني من ذلك فإنه يعرف خطي . قال : اكتب .
فكتبت وختمت . قال : والله ما يمضي به غيرك . فقصيت به إلى الربيع حاجيه ،
وجعلت أعتدّ إليه ، فقال : لا بأس عليك ! ودخل بالكتاب على المنصور .
ثم خرج الربيع ، فقال للناس - وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف وغيرهم :
إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول لكم : إني دُعيتُ إلى مجلس الحكم ،
فلا أحد منكم يقوم إذا خرجت ، ولا تبدءوني بالسلام .

ثم خرج وبين يديه السيّب^(٢) والربيع وأنا خلفه ، وهو في إزار ورداء ،
فسلم على الناس ، فما قام إليه أحد ، ثم مضى حتى بدأ بقبر النبي صلى الله عليه وسلم ،

* القعد الفريد للملك الحيد : ١٧٠

(١) الجمّالة : أصحاب الجمال . (٢) هو السيّب بن زهير ، كان على شرط المنصور والمهدي ببغداد
وولاه المهدي خراسان ، ولم تزل فيها مدته ، وتوفي ببغداد سنة ١٧٥ هـ .

فسلم عليه ، ثم التفت ، فلما رآه ابن عمران القاضي أطلق رداؤه عن عاتقه ، ثم احتجى به ، ودعا بالخصوم وهم الجماعة ، ثم دعا بالمنصور ، فادعى عليه القوم ، وقضى لهم عليه ، ثم انصرف .

فمادخل المنصور الدار قال للربيع : اذهب ، فإذا قام القاضي من مجلسه فادعه . فلما دعه ودخل على المنصور سلم عليه ، فردّ عليه السلام . وقال له : جزاك الله عن دينك وعن نبيك وعن حبيبك ، وعن خليفتك ، أحسن الجزاء . قد أمرت لك بمشرة آلاف ، صيلة لك فقبضها .
فكانت عامة أموال محمد بن عمران من تلك الصلة .

٢٨ — بُنِيَ كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا بُنِيَ *

كان المنصور ممجّباً بمحاذرة محمد بن جعفر ، ولعلم قدره بفزع الناس إليه في الشفاعات ، فنقل ذلك على المنصور ، فحجبه مدّة ، ثم لم يصبر عنه ، فأمر الربيع حاجبه أن يكلمه في ذلك ، فكلّمه وقال : أعف أمير المؤمنين ، ولا تُثقل عليه في الشفاعات ، فقبل ذلك منه .

فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش ، معهم رقاع^(١) ، فسأله إيصالها إلى المنصور ، فقصّ عليهم القصة ، فأبوا إلا أن يأخذها ، قال : اذهبوها في كفى . ثم دخل عليه ، وهو مشرف على مدينة السلام ، وبا حولها من البساتين ، فقال له : أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك فيما آتاك ، وهناك يا غلام نعمته عليك فيما أعطاك ! فبنت العرب في دولة الإسلام ، ولا العجم في سالف الأيام أحصن ولا أحسن من مدينتك ، ولكن كرمتهما في عيني خصلة ! قال : وما هي ؟ قال : ليس لي ضيعة ، فتبسم ، وقال : قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعكها ! فقال : لله درك يا أمير المؤمنين ! إنك شريف الموارد ، كريم المصادر ؛ جعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه ، ثم أقام معه يومه ذلك .

فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كتمه ، فجعل يردّها ويقول : ارجعن خائبات

خاسرات .

* مجازي الأدب : ٣ - ١٩٥

(١) الرقاع : جمع رقعة : ما يكتب فيها .

فضحك المنصور ، وقال : بحق عليك إلا أخبرني وأعلتنى بخبر هذه الرقاع؛
فأعلمه ، فقال : ما أنيتَ يا ابن مُعَلِّمٍ الخير إلا كريماً ، وتعتل بقول عبد الله بن
معاوية :

لسنا وإن أحسابنا كرُمت يوماً على الأحساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا نبنى ونعمل مثل ما فعلوا
ثم نصنّع الرقاع ، وقضى حوائج أصحابها جميعاً .

٢٩ — هَمْدَانِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَنْصُورِ *

بينما كان المنصورُ جالساً في مجلسه المبنىَّ على أعالى باب^(١) خراسان ، من مدنيته التي بناها ، وأضافها إلى اسمه ، مُشْرِفاً على دِجْلَةٍ جاءه سَهْمٌ عَائِرٌ^(٢) سقط بين يديه ، فذُعِرَ منه ذُعْراً شديداً ، ثم أخذه فجعل يقلِّبه ؛ فإذا مكتوب عليه بين الرِّيشَتَيْنِ :

أَنْطَمِعُ فِي الْحَيَاةِ إِلَى التَّنَادَى^(٣) وَتَحْتَبُ أَنْ مَالِكٌ مِنْ نَفَادٍ
سُئِلْتُ عَنْ ذُنُوبِكَ وَأَخْطَايَا وَسُئِلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْعِبَادِ
ثُمَّ قَرَأْتُ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْأُولَى :

أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سَوْءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَأَلْتَكِ اللَّيَالِي فَأَغْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَغْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ
ثُمَّ قَرَأْتُ عِنْدَ الرِّيشَةِ الْآخَرَى :

هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْيُنِهَا فَاصْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالٍ
يَوْمًا تَرِيكَ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي

وإذا على جانب السهم مكتوب : « هَمْدَانُ مِنْهَا رَجُلٌ مَظْلُومٌ فِي حَبْسِكَ » !

● المسمودي : ٢٣٢ ٢

(١) كان قد بنى على كل باب من أبواب المدينة في الأعلى من طاقه المقفود مجلساً يعرف منه على ما يليه من البلاد من ذلك الوجه ، وكانت أربعة أبواب : فأولها باب خراسان أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان ، ثم باب الشام ، وهو تلقاء الشام ، ثم باب الكوفة ، وهو تلقاء الكوفة ، ثم باب البصرة وهو تلقاء البصرة . (٢) السهم العائِر : الذي لا يدري من رماه (٣) يوم التنادى : يوم القيامة .

فبعث من فورهِ بمدَّةٍ من خاصَّته ، فَنَشُوا الحُبوسَ^(١) ؛ فوجدوا شيئاً في بَنِيَّةٍ من الحبس ، مُوثَّقاً بالحديد ، متوجَّهاً نحو القبلة ، يردُّدُ قوله تعالى : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » ؛ فسألوه عن بلده ، فقال : هَمْدَان .

فَصَحِّلَ ووضع بين يدي المنصور فَسألهُ عن حاله ، فأخبره أنه رجلٌ من أبناء مدينة هَمْدَان ، ومن أرباب نِعَمها ، ثم قال له : إن واليكَ علينا دخل بلدنا ، ولي ضيعةٌ تساوي ألب ألف ، فأراد أخذها مني ، فامتنعتُ فكَبَّاني بالحديد ، وحلني وكتب إليكَ : إني عاصٍ ؛ فطُرِحتُ في هذا المكان .

فقال : مُنذُ كم ؟ قال : منذ أربعة أعوام . فأمر بِفَكَ الحديد عنه ، والإحسان إليه ، وأنزله أحسنَ منزل .

ثم رُدَّ إليه ، وقال له : يا شيخ ؛ قد رَدَدْنَا عليك ضيعةً بخرَاجها ما عشت وعِشنا ، وأما مدينتُك هَمْدَان ، فقد ولَّيناك عليها ، وأما والي فقد حكمتُك فيه ، وجعلنا أمره إليك ؛ فجزاه خيراً ودعا له بالبقاء ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ أما الضيعةُ فقد قبِلْتُها ، وأما الولاية فلا أصلحَ لها ، وأما واليكَ فقد عَفَوْتُ عنه .

فأمر له المنصورُ بِمالٍ جَزِيل ، وريحٍ واسع ، وحمله إلى بلده مكرِّماً ، بعد أن صرفَ والي والي وعاقبه على ما جنى من انحرافه عن سُنَّةِ العدل والحق ، وسأل الشيخَ مكانبته في أخبار بلده ، وإعلامه بما يكون من وُلاته ، ثم أنشأ المنصور يقول :

من يصحب الدهرَ لا يأمنَ نَصْرَه
لِكُلِّ شيء ، وإن دامت سلامته
بوماً ، وللدهرِ إخلاص
إذا انتهى فله لا بدَّ إقصار

(١) الحبوس : جمع حبس .

٣٠ - أمير في مجلس القضاء *

أنت امرأةٌ يوماً شريك^(١) بن عبد الله قاضي الكوفة ، وهو في مجلس الحكم ،
قالت : أنا بالله ثم بالقاضي ! قال : مَنْ ظلمك ؟ قالت : الأمير موسى بن عيسى عم
أمير المؤمنين ! كان لي بُسْتَانٌ على شاطئ الفرات ، فيه نخْلٌ ورِيثَةٌ عن أبي ، وقاسمتُ
إخوتي ، وبنيت بيني وبينهم حائطاً . وجعلتُ فيه رجلاً فارسياً يحفظُ النخل
ويقوم به ، فاشترى الأمير موسى بن عيسى من جميع إخوتي ، وسأومني ورغبني ،
فلم أبعه ؛ فلما كانت هذه الليلة بمت بمخمّانة غلام ، فاقتلوا الحائط ؛ فأصبحتُ
لا أعرف من نخلي شيئاً ، واختلط بنخلٍ إخواني .

قال : يا غلام ! أحضر طينة^(٢) فأحضرها فاختمها ، وقال : امضي بها إلى بابي
حتى يحضر معك : فأخذها الحاجب ، ودخل على موسى ، فقال : قد أعدى^(٣) القاضي
عليك ، وهذا ختمه ؛ فقال : ادعُ لي صاحب الشرطة فدعا به ، فقال : امضي إلى
شريك ، وقل : يا سبحان الله ، ما رأيتُ أعجبَ من أمرِك ! امرأةٌ ادّعت
دعوى لم يصحّ أعديتها على ! قال صاحب الشرطة : إن رأي الأمير أن يُعيني
من ذلك ، فقال : امضي . وبَلَكَ ! فخرج ، وقال لولدانه : اذهبوا واحملوا لي
إلى حبس القاضي سِطاً وفراشاً ، وما تدعو الحاجة إليه ، ثم مضى إلى شريك ؛

* القصد القريب للملك العبد : ١٧٢

(١) هو شريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي ، عالم فقيه ، اشتهر بقوة ذكائه ،
وسرعة بديهته ، ولما قضاه الكوفة سنة ١٥٣ هـ ، وكان مثالا للعدل والتزاهة في قضاءه ، توفي
سنة ١٧٧ هـ . (٢) الطينة : القطة من الطين . (٣) أعدى عليه : أعان .

فلما وقف بين يديه، أدّى إليه ما قاله موسى؛ فقال لفلان المجلس: خذ بيده فضّعه في الحبس. فقال صاحب الشرطة: والله قد علمتُ أنك تحبسنى، فقدمتُ ما أحتاج إليه في الحبس.

وبلغ موسى بن عيسى الخبر؛ فوجّه الحاجب إليه، وقال له: رسول أدّى رسالة، أى شئ عليه! فقال شريك: اذهبوا به إلى رفيقه في الحبس، فحبس.

فلما صلى الأمير المصر بعث إلى إسحاق بن الصباح الأشعنى وإلى جماعة من وجوه الكوفة من أصدقاء شريك، وقال لهم: أبليغوه السلام، وأعلموه أنه استخفّ بى. وأنى لست كاللأمة. فضوا إليه وهو جالس في مسجده بعد صلاة العصر، فأبلغوه الرسالة، فلما انقضى كلامهم، قال لهم: مالى أراكم جئتمونى فى جمع من الناس، فكلمتمونى؟ من هاهنا من فتیان الحى؟ فأجابه جماعة من الفتیان فقال: ليأخذ كل واحد منكم بيد رجل فيذهب به إلى الحبس، ما أنتم إلا فينة وجزاؤكم الحبس. قالوا له: أجاد أنت؟ قال: نعم، حتى لا تعودوا لرسالة غلام. فحبسهم.

فركب موسى بن عيسى فى الليلة إلى باب السجن، وفتح الباب، وأخرجهم كلهم، فلما كان من الفد، وجلس شريك للقضاء جاءه السجنان، فأخبره، فدعا بالقمطر^(١) فختمه، ووجّه به إلى منزله، وقال لفلان: ألق بئلى^(٢) إلى بنداد والله ما طلبنا هذا الأمر منهم، ولكن أكرهونا عليه، ولقد ضمنوا لنا فيه الإعرّاز إذ تقلدناه لهم، ومضى نحو قنطرة الكوفة إلى بنداد، وبلغ الخبر إلى موسى بن عيسى، فركب فى موكبه، فلحقه، وجعل يناشده الله، ويقول: يا أبا عبد الله؛

(١) القمطر: وعاء الكتب. (٢) القل: اللعاب.

تَبَيَّنَتْ ، انظر إخواني ، أتحببهم ! قال : نعم ، لأنهم مشوا لك في أمرٍ لم يَجُزْ لهم
المشي فيه ، ولستُ بيارح أوبردوا جميعاً ، وإلا مضيت إلى أمير المؤمنين المهديّ ،
فاستغفيتُهُ مما قلّدتني .

فأمر موسى بردهم جميعاً إلى الحبس ، وهو واقفٌ مكانه حتى جاء السجّان ،
فقال : قد رَجَعُوا جميعاً إلى الحبس ، فقال لأعوانه : خذوا بلجام داجه بين يدي إلى
مجلس الحكم ، فرتوا به بين يديه حتى أُدْخِلَ للمسجد وجلس في مجلس القضاء ،
فجاءت المرأة المتظلمة ؛ فقال : هذا خَصْمُكَ قد حضر ، فقال موسى وهو مع المرأة
بين يديه : قبل كلِّ أمرٍ أنا قد حضرت ، أولئك يخرجون من الحبس ، فقال شريك :
أما الآن فتم ! أخرِجْهم من الحبس ، فقال : ما تقول فيما تدّعيه هذه المرأة ؟ قال :
صدّقْتُ ، قال : تردُّ ما أخذتَ منها ، وتبني حائطها سريماً كما كان . قال : أفعل
ذلك ، قال لها : أَبْقِيْ لَكَ عليه دعوى ؟ قالت : لا ، وبارك الله عليك ، ونجزاك
خيراً . قال : قومي ، قامت من مجلسه .

فلما فرغ قام وأخذ بيد موسى بن عيسى وأَجَلَسَهُ في مجلسه ؛ وقال : السلام
عليك أيها الأمير ، أنا أمرُ بشيء ؟ فقال : بأيّ شيء أمر ؟ وضحك ، فقال له شريك :
أيها الأمير ، ذاك الفعل حقُّ الشرع ، وهذا القول الآن حقُّ الأدب ؛ فقام
الأمير وانصرف إلى مجلسه .

٣١ — قاض يطلب إقامته من القضاء*

نقل أن عاقبة بن يزيد القاضي كان يلى القضاء ببتداد المهديّ ؛ فجاء في بعض الأيام وقت الظهر للمهديّ ، وهو خالي ، فاستأذن عليه ، فلما دخل استأذنه فيمنّ يسلمُ إليه القمطر^(١) الذي فيه قضايا مجلس الحكم ، واستغفاه من القضاء ، وطلب منه أن يُقيّله من ولايته .

فظن المهديّ أن بعض الأولياء قد عارضه في حكمه ، فقال له في ذلك : إنه إن كان قد عارضك أحد ننكر عليه . فقال القاضي : لم يكن شيء من ذلك . قال : فما سبب استغفائك من القضاء ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، تقدّم لي خصمان منذ شهر في قضية مشكّلة ، وكلّ بدعى بيّنة وشهوداً ، ويدّلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتلبّث ، فرددت الخصوم رجاء أن يصطليحوا وأن يظهر الفصل بينهما ، فسمع أحدهما أنى أحبّ الرطب ، فعمد في وقتنا هذا وهو أول أوقات الرطب — فجمع رطباً لا يتحمّا الآن جمع مثله لأمر المؤمنين ، وما رأيت أحسن منه ، ورشاً بوّابي بدراهم على أن يدخّل الطبق على

فلما أدخله على أنكرت ذلك ، وطردت بوّابي ، وأمرت بردّ الطبق ، فردّ عليه .

* المقصد المريد للملك البعيد : ١٧٠

(١) القمطر : ما تصان فيه الكتب .

فلما كان اليوم تقدّم الحصان إلىّ ، فما تساويا في عيني ولا قلبي ؛ فهذا
يا أمير المؤمنين ولم^(١) أقبل ، فكيف يكون حالى لو قبِلت ، ولا آمن أن تقع على
حيلة في ديني ، وقد فسد الناس ؛ فأقلني يا أمير المؤمنين ، أفلاك الله ، وأعفى ، عفا
الله عنك .

٣٢ — أبو دُلّامة وابن أبي ليلى القاضي *

شهد أبو دُلّامة لجارية له عند ابن أبي ليلى^(٢) القاضي على أنانٍ نازعها فيها رجل ،
فلما فرغ من الشهادة ، قال لابن أبي ليلى : اسمع ما قلتُ قبل أن آتيك ، ثم اقضِ
بما شئت . قال : هات ، فأشده :

إِنَّ النَّاسُ غَطَوْنِي تَغَطَّيْتُ عَنْهُمْ وَإِنْ بَحَثُوا عَنِّي فَتَيْمِمْ مَبَاحِثُ
وَلَمَّا حَفَرُوا بَنَى حَفْرَتُ بَنَائِرِهِمْ لِيُعْلَمَ يَوْمًا كَيْفَ تِلْكَ النَّبَائِثُ^(٣)

فأقبل القاضي على المرأة وقال : أتبيمينني الآن ؟ قالت : نعم ، قال : بكم ؟
قالت : بمائة درهم ، قال : ادفوها إليّ ، ففعلوا .

وأقبل على الرجل ، فقال : قد وهبته لك . وقال لأبي دُلّامة : قد أمضيتُ
شهادتك ، ولم أبحثْ عنك ، وابتعتُ من شهدتَ له ، وهبتُ ملكي إن رأيتُ .
أرضيتُ ؟ قال : نعم ، وانصرف .

* معاهد التنصيص : ١ - ٢١١ ، الأغاني : ١٠ - ٢٣٨ .

(١) جملة خالية ، والمعنى : فهذا ما حصل عندي ، مع أنّي لم أقبل منه الهدية .

(٢) ابن أبي ليلى هو محمد بن عبد الرحمن قاضي الكوفة . (٣) النبائث : ما يخرج من تراب
البئر إذا حفرت .

٣٣ — صاحب شرطة المهدي مع الهادي *

قال عبد الله بن مالك : كنت أتولى الشرطة للخليفة المهدي ، وكان يبعث إلي في ندماء ولده الهادي أن أضربهم وأحبسهم ، صيانة للهادي عنهم ، فيبعث إلي الهادي يسألني الرفق بهم ، والتخفيف في أمرهم ، فلا ألثفتُ إلى ذلك ، وأمضى لما أمر به المهدي . فلما ولي الهادي الخلافة أيقنتُ بالتلف ، فبعث إلي يوماً ، فحضرتُ ودخلتُ عليه متكفناً مُتَحَنِّطاً ، وإذا هو جالسٌ على كرسي والنظعُ والسيفُ بين يديه ، فسَلَّتُ عليه ، فقال : لاسَّلمَ الله عليك ، تذكر يوماً بعثتُ إليك في أمر الحراني لَمَّا أمر أمير المؤمنين بضربه ، فلم تُجِبني ؟ وفي فلان وفلان . وجعل يعددُ ندماؤه .

قلتُ : نعم ، يا أمير المؤمنين ؛ أفتأذن لي أن أنكلم ؟ قال : نعم . قلتُ : أنشدتُك الله ! أيسرك أنك وليتني ما ولاني أبوك وأمرتني بأمر ؛ فبعثتُ إلي بعضُ ولدك بأمرٍ يخالفُ أمرك فاتبعتُ أمره ، وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا . قلتُ : فكذلك أنا لك ، وكذلك كنتُ لأبيك .

فاستدناني فقبلتُ يده ، فأمر بخلع أفيضتُ عليّ ، وخرجتُ من عنده ، وصرتُ إلى منزلي مفكراً في أمره وأمرى ، وقلتُ في نفسي : قد يحدثُ القومُ بالأمر الذي عصيته فيه ، وهم ندماؤه ووزراؤه وكتابه ، فكأنني بهم قد أزالوه عن رأيه فيّ وحلوه في أمرى على ما كنتُ أتخوفه .

قال: فإني لجالس وبين يدي خُبْرٌ مَشْطُورٌ بِكَامَخٍ^(١)، وأنا أَسْخَنُهُ وَأَطْعِمُهُ الصَّبِيَّةَ، وإذا ضَجَّةٌ عظيمةٌ، حتى تَوَهَّمْتُ أَنْ الدُّنْيَا قَدْ اقْتَلِمَتْ وَزُلْزَلَتْ مِنْ شِدَّةِ وَقَعِ حَوَافِرِ الْخَلِيلِ وَالذُّوَابِ، وَكَثْرَةِ الضُّوْءِ قُلْتُ: هَاهُ! وَاللَّهِ قَدْ جَاءَ الْأَمْرُ، وَإِذَا الْبَابُ قَدْ فُتِحَ، وَإِذَا الْخُدْمُ قَدْ دَخَلُوا، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْهَادِي فِي وَسْطِهِمْ . فلما رَأَيْتُهُ وَثَبْتُ مِنْ مَجْلَى مِبَازِرًا، فَقَبَّلْتُ يَدَهُ وَرَجَلَهُ . فقال لي: يا عَبْدَ اللَّهِ؛ إِنِّي فَسَكْرْتُ فِي أَمْرِكَ بَعْدَ انْصِرَافِكَ، قُلْتُ: يَسْبِقُ إِلَى قَلْبِكَ أَنِّي إِذَا جَلَسْتُ وَحَوْلَى أَعْدَاؤِكَ الَّذِينَ أَسَأَتْ إِلَيْهِمْ أَزَالُوا مَا حَسَنَ مِنْ رَأْيِي فِيكَ، فَأَقْلَقَكَ ذَلِكَ وَأَوْحَشَكَ، وَمَنْعَكَ الْقَرَارَ، فَصَرْتُ إِلَى مَنْزِلِكَ لِأَوْأَنَسِكَ، وَأَعْلَمَكَ أَنَّ الْوَحْشَةَ قَدْ زَالَتْ عَنْ قَلْبِي، فَهَاتِ فَأَطْعِمْنِي مِمَّا كُنْتَ تَأْكُلُ، وَأَفْعَلْ فِيهِ مَا كُنْتَ تَفْعَلُ، حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ الْوَحْشَةَ قَدْ زَالَتْ، وَقَدْ تَحَرَّيْتُ^(٢) بِطَعَامِكَ، وَأَنْتَ بِمَنْزِلِكَ، لِيَزُولَ خَوْفُكَ وَوَحْشَتُكَ .

فَأَذْنَبْتُ مِنْ ذَلِكَ الرِّثَاقِ وَالسَّكْرُجَةِ^(٣) الَّتِي فِيهَا الْكَامَخُ، فَأَكَلْتُ؛ ثُمَّ قَالَ: هَاتُوا مَا أَحْضَرْتُمُوهُ لِعَبْدِ اللَّهِ مِنْ مَجْلَى، فَأَذْخَلْتُ بِغَالٍ كَثِيرَةٍ مُوقَرَةٍ^(٤) دِرَاهِمَ وَأَطْعَمَهُ، وَقَالَ: هَذِهِ لَكَ فَاسْتَعِنْ بِهَا، وَهَذِهِ الْبَغَالُ أَيْضًا، وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مَا كَانَ أَبِي قَدْ وَلَّاكَ . ثُمَّ انْصَرَفَ، وَصِرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَعْدُ مِنْ صَنَائِعِهِ .

(١) الكامخ: نوع من الأدم. (٢) تحرم منه بجمرة: تمنع ونحى. (٣) الكرجة: إماء صغير يؤكل فيه النوى، القليل من الأدم، وهي فارسية، وأكثر ما يوضع فيه الكوامخ ونحوها. (٤) أوفر داجه: حنظل.

٣٤ - لا أفلح قاض لا يقيم الحق *

كان عبيد بن ظبيان^(١) قاضى الرشيد بالرقّة - وكان الرشيد إذ ذاك بها - فجاء رجل إلى القاضى ، فاستعدها^(٢) على عيسى بن جعفر ، فكتب إليه القاضى ابن ظبيان : « أما بعد ، أبقى الله الأمير وحفظه وأتمّ نعمته ، فقد أتانى رجل فذكر أنه فلان ابن فلان ، وأن له على الأمير - أبقاه الله تعالى - خمسمائة ألف درهم ، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم ، أو يوكل وكيلًا يناظر خصمه ، أو يرضيه فعل » .

ودفع الكتاب إلى رجل ، فأتى باب ابن جعفر ، فدفع الكتاب إلى خادمه . فأوصّله إليه ، فقال له : قل له : كُمل هذا الكتاب .

فرجع الرجل إلى القاضى : فأخبره ، فكتب إليه : « أبقاك الله وأمتع بك^(٣) ، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان ، وذكر أن له عليك حقًا ، فسرّ معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى » .

ووجه الكتاب مع عونين^(٤) من أعوانه ، فحضر باب عيسى بن جعفر ، ودفعوا الكتاب إليه فغضب ، ورمى به . فانطلقا ، فأخبراه فكتب إليه : « حفظك الله وأمتع بك ، لا بدّ أن نصير أنت أو وكيلك إلى مجلس الحكم ، فإن أبيت أنهيبتُ أمرك إلى أمير المؤمنين - إن شاء الله » .

* العقد الفريد للملك السعيد : ١٧٤

(١) قاضى الرقة . (٢) استعديت القاضى على الظالم : طلبت منه النصرة . (٣) أبقاك الله . ليستمتع بك . (٤) العدن : الظهير .

ثم وجه الكتاب مع رجلين من أصحابه ، فَمَدَا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع ، فقاما إليه ، ودفا إليه كتاب القاضي ، فلم يقرأه ، ورمى به ، فعادَا فأبلغاه ذلك ، فغَمَّ قِطْرُهُ ^(١) ، وأغلق بَابَهُ ، وقعد في بيته .

فبلغ الخبرُ إلى الرشيد فدعاه ، وسأله عن أمره ، فأخبره الخبر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أعفني من هذه الولاية ، فوالله لأفْلَحَ قاضٍ لا يُقيم الحقَّ على القوى والضعيف ، فقال له الرشيد : مَنْ يَمْنَعُكَ من إقامة الحق ؟ فقال : عيسى بن جعفر ، فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان : سرُّ إلى دار عيسى بن جعفر ، وأخبره أبوابه كلها ، لا يخرج منها أحدٌ ، ولا يدخل إليها أحدٌ ، حتى يخرجَ إلى الرجلِ من حَقِّه ، أو يسيرَ معه إلى مجلسِ الحكم .

فأرسل إبراهيم إلى دارِ ابنِ جعفر بخمسمائة فارس ، وأغلق الأبواب كلها ، فتوهمَّ عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأيٌ في قتله ، ولم يعرف الخبر ، فجعل يكلم الأعوانَ من خَلْفِ الباب . وارتفع الصَّراخ في منزله ، وضجَّ النساء . ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم : ادعُ لي أبا إسحاق لأَكَلِّمَهُ ، فأعلموه ، فجاء حتى وقفَ على الباب ، فقال له عيسى : وَيَحْك ! ما حلُّنا ؟ فأخبره خبر القاضي ابنِ ظبيان ، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأحضرت ، وأمر أن تُدْفَعَ إلى الرجل . فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره . فقال : إذا قبض الرجلُ ماله ، فافتح أبوابه ، وعرفه أنَّ مارأيتَه من سيرتك مع القاضي ؟ فإياك ومعارضته .

(١) القمَر : ما يصان فيه الكتب .

٣٥ -- النادر مخذول *

قال عمرو بن حفص مولى الأمين : دخلت على محمد الأمين في جوف الليل ، وكنت من خاصته ، أصل إليه حيث لا يصل إليه أحد من مواليه وحشمه ، فوجدته والشمع بين يديه ، وهو يفسكّر ، فسلمت عليه فلم يرد عليّ ، فدعيت أنه في تدبير بعض أموره . فلم أزل واقفاً على رأسه ، حتى مضى أكثر الليل . ثم رفع رأسه إلى فقال : أخضر لي خزيمه بن خازم ^(١) ، فضيت إليه فأحضرته ، فلم يزل في مناظرته حتى اقصى الليل ؛ فسمعت خزيمه وهو يقول : أنشدك الله بأمرير المؤمنين ألا تكون أول الخلفاء نكث عهده ، ونقض ميثاقه واستخف بيمينه ، وردّ رأي الخليفة قبله . فقال : اسكت ؛ الله أبوك ! فعبد الله بن خازم ^(٢) كان أفضل منك رأياً وأكمل نظراً حيث يجمع قحّالان في هجمة ^(٣) .

ثم جمع وجوه القواد ، فكان يمرض عليهم واحداً واحداً ما اعتزمه قياً بونه ، وربما ساعده قوم ، حتى بلغ إلى خزيمه بن خازم ، فشاور في ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لم ينصحك من كذبك ، ولم يفشك من صدقك ، لا تجرئى القواد على الخلع فيخلعوك ، ولا تحملهم على نكث العهد فينكثوا عهدك ويبتغى ؛ فإن النادر مخذول والناكث مفلول .

* عصر المأمون : ١ - ٢٠٤

(١) وال من أكابر القواد في عصر الرشيد والأمين والمأمون . توفي سنة ٢٠٣ هـ .

(٢) عبد الله بن خازم : كان من أشجع الناس ، له فتوح وغزوات ، وولي إمرة خراسان لبي أمية ، توفي سنة ٢٢ هـ . (٣) الهجمة من الإبل : ما بين السبعين إلى المائة ، والسلام على التبتيل .

٣٦ - وجل يُقاضي المأمون *

دخل رجلٌ على المأمون^(١)، وفي يده رقعةٌ فيها مظلمةٌ^(٢) من أمير المؤمنين، فقال: أمظلمةٌ مني! فقال الرجل: فأخطبُ يا أمير المؤمنين سواك! قال: وماهي ظلامتك؟ قال: إن سعيداً وكيلاًك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار. قال: فإذا اشترى سعيد منك الجواهر تشكو الظلامة مني! قال: سم، إذ كانت الوكالةُ قد صحتْ منك. قال: لعل سعيداً قد اشترى منك الجواهر، وحمل إليك المال، أو اشتراه لنفسه؛ وعليه فلا يلزمني لك حقٌ، ولا أعرفُ لك ظلامة. فقال له: إن في وصيةِ عمر بن الخطاب لقضاتكم: «البينة على من ادعى، والميمين على من أنكر». »

قال المأمون: إنك قد عدمتَ البينة؛ فما يجبُ لك إلا حلفَةٌ، وإن حلفتُها لأنا صادقٌ؛ إذ كنتُ لا أعرفُ لك حقاً يلزمي. قال: إذن أدعوك إلى القاضي الذي نصبته لرعييتك. قال: نعم! يا غلام، حلفي بيحيى بن أكثم^(٣)، فإذا هو قد مثل بين يدي، فقال له المأمون: اتضى بيننا، قال: في حُكمهم وقضية؟ قال: سم، قال: إنك لم تجعلْ ذلك مجلسَ قضاء. قال: قد فعلت.

* عصر المأمون: ١ - ٣٤٦

(١) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد من أعظم خلفاء بني العباس وعلماهم وحكامهم، وكان كريم الخلق عظيم الحلم عباً للعلم مؤثراً للحكمة، توفي سنة ٢١٨ هـ. (٢) المظلمة: ما يتطلبه عند الظالم، وكذلك الظلامة. (٣) يحيى بن أكثم: فاض رفيع القدر، عالي الشهرة، من بلاء الفقهاء، اتصل نسيبه بأكثم بن صفيح حكيم الرب، ولاء المأمون قضاء البصرة وهو شاب، ثم قلده القضاء ببغداد، توفي سنة ٢٤٢ هـ.

قال : فإني أبدأ بالعامّة أولاً ليصلحَ المجلس للقضاء ، قال : افعل .

فتفتح الباب وقعد في ناحية ، وأذن للعامّة ، ثم دعى بالرجل المتظلم ، فقال له يحيى : ما نقول ؟ قال : أقول : عليك أن تدعوا بخصمى أمير المؤمنين . فنادى المنادى : فإذا المؤمن قد خرج ، ومعه غلام يحمل مصلى ، حتى وقف على يحيى وهو جالس ؛ فقال له . اجلس ؛ فطرح المصلى ليقعد عليها ؛ فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين ؛ لا تأخذ على خصمك نرف المجلس ، فطرح له مصلى ثم نظر في دعوى الرجل ، وطالب المؤمن باليمين خاف ، ووثب يحيى بهد فراغ المؤمن من يمينه ، فقام على رجليه ؛ فقال له المؤمن : ما أقامك ؟ فقال : إني كنت في حق الله عز وجل حتى أخذته منك ، وليس الآن من حق أن أنصدر^(١) عليك .

ثم أمر المؤمن أن يحصر ما ادعى الرجل من المال ، وقال له : خذه إليك ، والله ما كنت أحلف على فجرة^(٢) ؛ ثم أسمع لك بالمال فأفسد ديني ود نياي ، والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية ، لعلها ترى أئى تناولتكم من وجه القدرة ، وإنها تعلم الآن أئى ما كبت أمتع لك باليمين والمال .

(١) أنصدر : أقدم . (٢) حلف على فجرة : إذا ركب أمراً قبيحاً من بين كاذبة أو كذب .

٣٧ - لا يخلو أحدٌ من شَجَن *

دخل طاهر بن الحسين^(٢) على المأمون ذات يوم في حاجة ، وكان للمأمون - فيما قبل - في مجلس شراب ، فأمر برِطْلَيْن من النبيذ ، ثم بكى المأمون ، واغْرَوْرَقَتْ عيناه ، فقال له طاهر : يا أمير المؤمنين : لِمَ تبكي لا أبكي الله عَيْنَكَ ! فوالله ، لقد دانت لك البلاد ، وأذعن^(٣) لك العباد ، وصرت إلى الحُبة في كل أمرك . فقال : أبكي لأمرٍ ذكرُهُ ذُلٌّ ، وسَترُهُ حزنٌ . ولن يخلو أحدٌ من شَجَن ، فسكتمَ بحاجة إن كانت لك .

فما زال طاهر بعد ذلك يتخذ الوسائل إلى معرفة السَّبَب ، حتى وُقِّقَ بالمال إلى إغراء ساقى المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب .

فلما تقدى المأمون ذات يوم قال لساقيه : يا حسين ؛ اسقني ، قال : لا والله لا أسقيك أو تقول . لم بكيت حين دخل عليك طاهر ؟ قال : يا حسين ؛ وكيف عُنيت بهذا حتى سألتني عنه ؟ قال : لِنُفْى بذلك . قال : هو أمرٌ إن خرج من رأسك قَتَلْتُكَ ، قال : يا سيدي ؛ ومتى أخرجت لك رِمْزاً ! قال : إنى ذُكِرْتُ محمدًا أخى ، وما ناله من الذلة ، فخنفتني العِبرة فاسترحت إلى الإفاضة ؛ ولن يفوت طاهراً منى ما يكره .

فأخبر حسين الساقى طاهراً بذلك فركب طاهرٌ إلى أحمد بن أبي خالد - وهو وزير

* عصر المأمون : ١ - ٢٧٠

(١) الشيخ : ألهم والخزن . (٢) كان طاهر بن الحسين قائداً من قواد المأمون ، وهو الذي تولى قتل الأمين ونصب رأسه سنة ١٩٨ هـ . (٣) أى خضعوا لك .

المأمون - فقال له : إن الثناء منى ليس برخيص ، وإن المعروف عندى ليس بضائع ،
فنييني عن عين المأمون - فقال : سأفعل ؛ فبكر على غداً .

وركب ابن أبي خالد إلى المأمون ، فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة ،
فقال له : ولم يحك ! قال : لأنك وليت غسان خراسان ، وهو ومن معه أكلة
رأس^(١) ، فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيصطلمه^(٢) .

قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه . فتن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين .
قال : : وبلك يا أحد ! قال : أنا الضامن له . قال له فأنفذ^(٣) .

فدعا بطاهر من ساعته ، وجعله حاكماً على خراسان .

(١) يريد أن عدهم قليل ، يشبههم رأس واحد . (٢) اصطلمه : استأصله .

(٣) المراد : أرسله ، ونفذ رأيك .

٣٨ - كيف يعتذر إنسانٌ من كلام تكلم به ؟

حدث أحمد بن أبي خالد الأحول أنه سمع المأمون يوماً - وعنده علي بن هشام ، وأخوه - ذكر عمرو بن مسعدة^(١) ، وقال : أحسبُ عمرو أنى لا أعرف أخباره ، وما يجئ إليه ، وما يصامل به الناس ! بلى والله ، ومنهض وانصرفنا .

قصدتُ عمرواً من ساعتي ، فخبَّرْتُه بما جرى ، وأنسيتُ أن أستعله من حكايتِه عني ، فراح عمرو إلى المأمون ، فظنَّ المأمون أنه لم يحضر إلا لأمرٍ مهمٍّ ، لوقعه من الرسائل وللظالم والوزارة ، فأذن له .

فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين ؛ أنا عائدٌ بالله من سُخطه ، ثم عائد بك من سُخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقلُّ من أن يشكوى أمير المؤمنين إلى أحد ، أو يُسرَّ عليَّ صِفناً بيعته بعضُ الكلام على إظهار ما يظهر منه .

فقال : وما ذاك ؟ فخبَّره عمرو بما بَلَّغه ، ولكنه لم يُسمِّ له خُبْرَه فقال المأمون : لم يكن الأمر كما بَلَّغَكَ ، وإنما كانت جملة من تفصيل كنتُ على أن أخبرك به ، وإنما أخرج منى ماخرج معنى تجارِيتنا ، وليس عندي إلا مانعٌ ، فليفرخ روعك^(٢) ، وليحسنْ ظنَّكَ . فأعدت الكلام ، فما زال يسكنُ منى ، ويطيب من

* عصر المأمون : ١ - ٣٤٢

(١) وزير المأمون وأحد الكتاب اللهاء توفى سنة ٢١٧ هـ . (٢) لفرخ روعك : لينهب رعبك وفرعك ، فإن الأمر ليس على مانع . قال الأزهري : كل من لقينه من الأمويين يقول : أفرخ روعه - بفتح الراء من روعه - إلا ما أخبرني به النندري أنه كان يقال : إنما هو أفرخ روعه - بضم الراء .

نفسى ، حتى ذهب بعض ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضممتى إلى نفسه ، وقبّلت يده ، فأهوى ليمانتنى ، فشكرته ، وتبّيتت فى وجهه الحياء والخجل مما تأذى إلى .

قال أحد : فلما غدوت على المؤمنون ، قال لى : يا أحد ؛ أما لجلسى حرمة ! فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ وهل الحرم إلا لا فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم تراضون بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأية معاملة يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلام لا أعرفه ؛ قال : لى ، أما سمعت ما كنّا فيه أمس من ذكر عمرو !

ذهب بعض من حضر من بنى هاشم فخره به ، فراح إلى عمرو مظهرًا منه ما وجب عليه أن يظهره فدفعته منه ما أمكن دفعه ، وجعلت أعتذر إليه منه بمذير قد تبين فى الخجل منه ، وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تكلم به ! ألا يبين فى عينيه وشفته وجهه ! ولقد أعطيته ما كان يقنع منى بأقل منه ، وما حدّانى عليه^(١) إلا ما دخلنى من العساسة ، وما كان قد أعطى به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به .

قلت : يا أمير المؤمنين ؛ أنا أخبرت عمرًا به ، لا أحد من ولد هاشم ؛ فقال : أنت ! قلت : أنا ، فقال : ما حملت على ما فعلت ؟ قلت : الشكر لك والنصح والحجة لأن تم نعمتك على أوليائك وخدمك ؛ أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبغضاء ، فكيف الأولياء والأقرباء ! ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ، وسكانه من رأى أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه !

سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئًا فخيرته به ليصلحه ، ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ، ويتلافى ما فرط منه ، ولا يفسده مثله ، وإنما يكون ما فعلت

(١) ما حدّانى : ما بينى وحلى .

عَيَّيَا ، لو أَشَعْتُ سِرًّا فِيهِ قَدْحٌ ^(١) فِي السُّلْطَانِ ، أَوْ نَقَضُ تَدْيِيرٍ قَدْ اسْتَنْبَ ، فَأَمَّا
مِثْلُ هَذَا فَمَا حَسِبْتُهُ يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ ذَنْبًا عَلَى .

فَنَظَرَ إِلَى مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ قَاتَ ؟ فَأَعَدْتُ عَلَيْهِ : ثُمَّ قَالَ : أَعِيدُ ، فَأَعَدْتُ ،
فَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا أَحَدُ ، لَمَّا خَبَرْتَنِي بِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَلْفِ أَلْفٍ ، وَأَلْفِ أَلْفٍ ،
وَأَلْفِ أَلْفٍ .

وَعَقْدٌ خِئْصَرُهُ وَبَنْصَرُهُ وَالْوُسْطَى ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلَتَفْيِكَ عَنْ سُوءِ
الظَّنِّ - وَأَطْلَقْ وَسُطَّاهُ - وَأَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلِصْدُوكِ إِتَائِي عَنْ نَفْسِكَ - وَأَطْلَقِ
النَّصْرَ - وَأَمَّا أَلْفُ أَلْفٍ فَلِحُسْنِ جَوَابِكَ - وَأَطْلَقِ الْخِئْصَرَ - وَأَمَرَ لِي بِمَالٍ .

٣٩ — غَرَسُ يَدِي وَإِلْفُ أَدْرِي *

قال رجل من إخوة المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر^(١) يميل إلى ولد أبي طالب ، وكذا كان أبوه قبله ؛ فدفع المأمون ذلك وأنكره ، ثم عاد بمثل هذا القول .

فدس المأمون إلى عبد الله بن طاهر رجلاً : ثم قال له امض في هيئة القراء والنسالك إلى مصر ، فأذعُ جماعة من كبارها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا ، واذكُرُ مناقبه وعلمه وفضائله ، ثم صرّ بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم أتته فادعاه ورغبه في استجابته له ، والبحث عن دفين نيتيه بحثاً شافياً ، وانتهى بما تسمعُ منه .

ف فعل الرجل ما قال له وأمره به ، حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام قعد يوماً بباب عبد الله بن طاهر ، ودفع رُقعة إلى الخاجب ليوصلها إليه ، فأذن له ، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجله وخفاه فيهما ، فقال له : قد فهمتُ ما في رُقتك من جملة كلامك ، فهات ما عندك .

قال : ولي أمانك ودمه الله معك ؟ قال : لك ذلك .

فأظهر له ما أراد ، ودعاه إلى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزُهدِه ، فقال له عبد الله : أنتصفني ؟ قال : نعم ، قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال : نعم ،

* عصر المأمون : ١ - ٣٣٧ هـ .

(١) عبد الله بن طاهر : من أشهر الولاة في العصر العباسي ، ولاء المأمون خراسان ، كان على المهمة شهراً نبيلاً توفى سنة ٢٣٠ هـ .

قال : فهل يجب شكرُ بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل ؟ قال : نعم .
قال : فتجئُ إليّ وأنا في هذه الحال التي ترى ؛ لي خاتم في المشرق وفي المغرب
وفيا بينهما أمرى مطّاع وقولى مقبول ، ثم ما التفتُ يميني ولا شمالي وورئى وقداهى
إلا رأيتُ نعمةً لرجل أنعمَها عليّ ، ومنةً طوّق بها رقبتي ، ويداً لأمنةً بيضاء ابتدأتني
بها تفضلاً وكرماً ، فتدعوني إلى الكفرِ بهذه النعمة وهذا الإحسان وتقول : اغدير
بمن كان أو لا لهذا وآخر ، واستع في سفك دمه ، تراك لو دعوتني إلى الجنة
عياناً من حيث أعلم ، أكان الله يُحبُّ أن أغدير به وأكفرَ بإحسانه ومنّته ،
وأنسأَ بيمينته !

فسكت الرجل ، فقال له عبد الملك : أما إنه قد بلغنى أمرُك وتالله ما أخاف
عليك إلا نفسك ، فارحل عن هذا البلد ؛ فإن السلطانَ الأعظم إن بلغه أمرُك -
وما آمن ذلك عليك - كنتَ الجاني على نفسك ونفس غيرك .

فلما ينس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر فاستبشر وقال : ذلك
غرسُ بدى وإلفُ أدبى .

٤٠ — غَسَّانُ بْنُ عَبَّادٍ وَعَلَى بْنُ عِيسَى *

كان بين غسان بن عباد وعلى بن عيسى عداوة عظيمة ، وكان على بن عيسى ضامناً^(١) أعمال الخراج والضَّيَّاع ببلده ؛ فبقيت عليه بقية مبلغها أربعون ألف دينار ، فألح المأمون عليه بطلبها ، إلى أن قال لعلي بن صالح الحاجب : أمهله ثلاثة أيام ؛ فإن أحضر المال وإلا فاضربه بالسياط حتى يؤدى المال أو يتلف .

فانصرف على بن عيسى من دار المأمون آيساً من نفسه ، وهو لا يدري وجهاً يتجه إليه ، فقال له كاتبه : لو عرجت على غسان بن عباد وعرفتته خبرك لرجوت أن يمينك على أمرك ، فقال له : على ما بيني وبينه من العداوة ! قال : نعم ، فإن الرجل أزيحي^٢ كريم .

فدخل على غسان ، قام إليه وتلقاه بالجميل ، وأوفاه حقه من الخدمة ، ثم قال له : الحال الذي بيني وبينك كما علمت ، ولكن دخولك إلى داري له حرمة توجب بلوغ مارجوته مني ، فإن كانت لك حاجة فاذكروها .

فقص عليه القصة ؛ فقال : أرجو أن يكفيك الله تعالى ، ولم يزد على ذلك شيئاً . فنهض على بن عيسى ، وخرج آيساً نادماً على قصده غسان ، وقال لكتابه : ما أقدتني بالدخول على غسان غير تعجيل الشمانة والهوآن .

فلم يصل على بن عيسى إلى داره حتى حضر إليه كاتب غسان ومعه البقال عليها المال ، فتقدم وسلمه .

* ثمرات الأوراق : ٢ - ٣٠ .

(١) ضمن الشيء : كفله .

وبكر إلى دار أمير المؤمنين ، فوجد غسان قد سبقه إليها ، ودخل على المأمون وقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن لعليّ بن عيسى بحضرتك حرمةً وخدمةً وسالف أصل ، ولقد لحقه من الخسران في ضمانه ما تمارقه الناس ؛ وقد توعدته بضرب السياط بما أطار عقله وأذهب لُبّه ؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجيزني على حسنِ كرمه ببعض ما عليه ؛ فعلى صنيعه يجدها على تحرّس ما تقدّمها من إحسانه ؛ ولم يزل يتلفّظ إلى أن حطّ عنه النصف ، واقتصر على عشرين ألف دينار .

فقال غسان : على أن يجدّد عليه أمير المؤمنين الضمان ، ويشرفه بحيلة تقوى نفسه ، وترهف عزمه ، ويعرف بها مكان الرضا عنه . فأجاب المأمون إلى ذلك .

قال : فيأذن أمير المؤمنين أن أحمل الدواة إلى حضرته ليقع بما رآه من هذا الإنعام ! قال : افعل ، فحمل الدواة إلى أمير المؤمنين ، فوقع بذلك : وخرج على ابن عيسى بالخلعة ، والتوقيع بيده .

فما حضر على بن عيسى إلى داره حمل من المال عشرين ألف دينار ، وأرسلها إلى غسان ، وشكر له جميل فعله معه . فقال غسان لـ كتابه : والله ما شفمتُ عند أمير المؤمنين إلا لتوفّر عليه وينتفع بها ؛ فامض بها إليه ، فلما ردّها كتابه إلى على بن عيسى علم قدر ما فعل معه غسان ، فلم يزل يعرفها له إلى آخر العمر .

٤١ — فِطْنَةُ*

كان المعتضد^(١) يوماً جالساً في بيت يُدعى له ، وهو يشاهد الصُّنَّاع ، فرأى في جلنهم عبداً أسودَّ مُنْكَرَ الخَلْق ، شديدَ المَرَح ، يصعد على السلالمِ مِرْقَاتين^(٢) مِرْقَاتين ، ويحمل ضعف ما يحمل غيره فأنكر أمره ، وأحضره ، وسأله عن سبب ذلك ، فَلَجَجَ^(٣) . فقال لوزيره : قد حَنَنْتُ^(٤) في هذا تخميناً ما أحسبه باطلاً ، إما أَنْ يَكُونَ معه دنائيرٌ قد ظَفِرَ بها من غَيْرِ وجهها ، أو يَكُونَ لَصاً يَسْتَرُّ بالعمل . ثم قال : حلّى بالأسود ، فأحضره وضربه ، وحلف إن لم يصدق له لِيَضْرِبَنَّ عنقه . فقال الأسود : ولى الأمان يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، إلا ما كان من حدٍّ ؛ فظنَّ أنه قد أَمَّنَهُ .

فقال : كنتُ أعمل في أَتُونِ الآجُرْ منذ سنين ، فأنا منذ شهرٍ جالس إذ مرَّ بي رجل في وسطه كيس ؛ فتبعته وهو لا يعرف مكاني ، غَلَّ الهِمَيَّانُ^(٥) ، وأخرج منه ديناراً ، فتأملته فإذا كهُ دنائير فكشفتُهُ ، وسدَدْتُ فاه ، وأخذت الهِمَيَّانَ ، وحلته على كتفي ، وطرحته في القنور ، وطِئْتُ عليه . فلما كان بعد أيام أخرجت عظامه وطرحتها في دجلة ، والدنائير معي تقوى قلبي .

فأرسل المعتضد من أحضر الدنائير ، وإذا على الكيس : « لفلان ابن فلان » فنادى في المدينة ، فحضرت امرأته ، وقالت : هذا زوجي ، وقد ترك طفلاً صغيراً ، خرج في وقت كذا ومعه كيس فيه ألف دينار ، فتاب إلى الآن ، فلم الدنائير إليها ، وضرب عنق الأسود ، وأمر أن يوضع في الأتُون .

* نهاية الأرب : ٣ — ١٥٠

(١) بوم المعتضد للخلافة سنة ٢٧٧ وتوفى سنة ٢٨٠ هـ . (٢) السلالم : جمع سلم والمرقاة : الدرجة . (٣) اللجج : التردد . (٤) الحنن : القول بالحدس والظن . (٥) الهميان : وعاء للدرهم .

٤٢ - لا تُتَّبِعِ الْهَوَىٰ*

قال عبد الرحيم بن القاضى إسماعيل بن إسحاق : كان فى جِجْرَ أبى يقيم ببلع ، وله أمٌ ، وأختُها فى دار الخليفة المعتضد بالله ، قالت أمُّ اليتيم لأختها : كلمى أمير المؤمنين حتى يرفع إسماعيلُ القاضى الجِجْرَ عن وُلدى . فكلمته ، فدعا المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب وزيره ، وقال له : قُلْ لإسماعيل القاضى بكُ الحِجْرَ عن فلان . فقال القاضى : حتى أَسْأَلَ عنه ، وقام فسأل عنه ، فلم يُخْبِرْ عنه رُشدٌ ، فتركه .

ومضت على ذلك أيام ، فرجعت والدة الصبي إلى أختها ، وسألته أن تعاود أمير المؤمنين ، وكان المعتضد لا يُعاوِدُ لخشوته ، فعاودته فقال : ألسْتُ قد أمرتُ ! فقالت : لم يُرَفَّعْ عنه الحِجْرُ بعد ، فدعا وزيره عبيد الله ثانياً ، وقال : أمرتُك أن تأمر إسماعيل القاضى بأن يرفع الحِجْرَ عن فلان ! فقل : قد كنت قلت له ذلك ، فقال : حتى أَسْأَلَ عنه . فقال : قل له يرفع الحِجْرَ عنه . فدعاه الوزير ثانياً ، وقال له : أمير المؤمنين بأمرُك أن ترفع الحِجْرَ عن فلان .

فأطرق القاضى سامةً ، ثم استدعى دَوَاةَ وورقة ، وكتب شيئاً وختمه ، فاستعظم الوزيرُ أن يَخْتَمَ عنه كتاباً ، ولم يقل له شيئاً لحلَّ إسماعيل من الوردِ والعلم ، ثم دفع ذلك للوزير ، وقال له : توصِّلْ هذا إلى أمير المؤمنين فإنه جوابه .

فأخذَه الوزير ودخل على المعتضد ، وقال : زَعَمَ أنَّ هذا جوابُ أمير المؤمنين ! ففتح المعتضد الكتاب ، وقرأه وألقاه ، وقال : لا تعاوذه فى هذا . فأخذ عبيد الله

الوزير الكتاب ، وإذا فيه : « سب الله الرحمن الرحيم . يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

٤٣ — هشام بن عبد الرحمن الداخل وأحد صنائمه *

كان هشام^(١) بن عبد الرحمن الداخل قاعداً لراحته في عليّة^(٢) على النهر في حياة والده ، فنظر إلى رجل كنانى من قدماء صنائمه من أهل جَبَّان^(٣) ، قد أقبل يُوضِعُ^(٤) السير في المهاجرة ؛ فأنكر ذلك ، وقدر شراً وقع به من قبل أخيه سليمان . وكان والياً على جَبَّان . فأمر بإدخاله عليه ، فقال : مَهْمُ^(٥) يا كنانى ! فلا مَرَّ مَا قَدِمْتَ ! وما أحسبك إلا مزعجاً لشيء دَهَمَكَ .
فقال : نعم ياسيدى ، قَتَلَ رجلٌ من قومي رجلاً خطأ ، فقصدنى أخوك بالاعتداء ؛ إذ عرف مكائى منك .

فدَّ هشام يده إلى جارية كانت وراء الستر ، وقطع قِلَادَةً كانت في نحرها ، وقال له : دونك هذا المقد يا كنانى ، وشراؤه على ثلاث آلاف دينار ، فلا تُخَدَّ عَنْ عنه ، وبِعْهُ وأدَّ عن نفسك وعن قومك ، ولا تُمَكِّنِ الرجل من اهتضامك^(٦) .

* نفع الطيب : ١ - ١٥٧

(١) ولد هشام سنة ١٣٩ هـ وتوفى سنة ١٨٠ هـ ، وكان من أشرف الناس نقياً ، وأكرمهم طبياً ، وأكلمهم مروءة ، يُعرف عنه هفوة في حديثه ، ولا زلة في أيام صباه وأهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز . (٢) العلية : بالغصم والكسر : الفرقة . (٣) جبان : بلد بالأندلس . (٤) أوض : أسرع . (٥) مهم : كلة استفهام : أى ما حالك وما شألك أو ما وراءك ؟ (٦) هم فلاتاً واهتضه : ظمّه وضغبه .

فقال : ياسيدي ؛ لم آتِكَ مُسْتَجِدِّيًا ، ولا لضيق اللال عما حَمَلْتُهُ ، ولكنني قُصِدْتُ بظلم صَراح أُحْبِيت أن يظهر على عِزِّ نَصْرِكَ ؛ وأُتْرُ ذَبْكَ وامتنعُضَكَ فَأَتَمَّا جَدُّ^(١) بذلك عند من يحمدني على الاتناء إليك .

فقال هشام : فما وجهُ ذلك ؟ قال : أن تكتبَ إلى أخيك في الإمساك عني والقيام بذمتك لي . فقال : أُمْنِكَ العِقد ، وركب من حينه إلى والده الداخل ، واستأذن عليه في وقت أسكره فانزعج ، وقال : ما أتى بأبي الوليد في هذا الوقت إلا أمر مُقْلِق ، ائذنوا له .

فلما دخل سلم عليه ، ومثَّل قائمًا بين يديه ، فقال له : اجلس يا هشام فقال : أصلح الله سيدي الأمير ! وكيف جلوسي بهمٍ ودُلِّ مَزْعِيج ! وَحَقَّ لَن قامَ مَدْمِي ألا يجلس إلا مطمئنا ، ولن يُقْعِدَنِي إلا طيبُ نفسٍ بإسماف الأمير لحاجتي ، وإلا رجعتُ على عَقْبِي . فقال له : حاشَ لك من انقلابك خائبًا ، فاقعدُ مُجَابًا مَشْفَعًا ؛ فجلس ، فقال له أبوه : فما الحدَثُ المُقْلِقُ ؟ فأعلمه ؛ فأمر بِحَمْلِ الدبة عنه ، وعن عشيرته من بيت المال ؛ فسرَّ هشام وأطنب في الشكر ، وكتب الأميرُ إلى ولده سليمان في ترك التعرُّض لهذا السكنافِ .

ولما دخل السكنافُ لوداع هشام قال له : ياسيدي ، قد تجاوزتُ بك حد الأمنية ، وبلغتُ غَايَةَ النَصْر ، وقد أغنى الله عن العِقدِ المبدول ، فتمعيده إلى صاحبتِه ؛ فنبى ذلك وقال : لا سبيل إلى رجوعه إلينا .

(١) تاجد : تنافر ، وأظهر المجد .

٤٤ - قاضي لا يقبل شهادة خليفة*

وَكَلَّ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّاحِلَ عِنْدَ ابْنِ بَشِيرٍ الْقَاضِي وَكَيْلًا يُخَاصِمُهُ عَنْهُ لَشَيْءٍ اضْطُرَّ إِلَيْهِ ، وَكَانَتْ بِيَدِهِ وَثِيقَةٌ فِيهَا شَهَادَاتُ شُهُودٍ قَدَمَاتُورًا ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمَا مِنْ الْأَحْيَاءِ إِلَى الْأَمِيرِ الْحَكَمِ وَشَاهِدٌ آخَرٌ ، فَشَهِدَ لَسَعِيدٍ ذَلِكَ الشَّاهِدُ وَضُرِبَتْ عَلَى وَكَيْلِهِ الْأَجَالُ فِي شَاهِدٍ ثَانٍ ، وَجَدَّ بِهِ الْخِصَامُ ، فَدَخَلَ سَعِيدٌ بِالْكِتَابِ عَلَى الْحَكَمِ ، وَأَرَاهُ شَهَادَتَهُ فِي الْوَثِيقَةِ - وَقَدْ كَانَ كَتَبَهَا قَبْلَ الْخِلَافَةِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ - وَعَرَفَهُ حَاجَتَهُ إِلَى أَدَائِهَا عِنْدَ قَاضِيهِ خَوْفًا مِنْ بَطْلَانِ حَقِّهِ .

وَكَانَ الْحَكَمُ يَعْظُمُ سَعِيدًا عَنْهُ وَيَلْتَزِمُ مِيرَّتَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا عَمُّ ؛ إِنَّا لَسْنَا مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَاتِ ، وَقَدْ التَبَسْنَا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَا لَا تَجِبُهُ ، وَمَخْشَى أَنْ تَوْفِقْنَا مَعَ الْقَاضِي مَوْفَقَ تَخْزَاةٍ كُنَّا نَقْدِيهِ بِمِلْكِنَا ، فَيَصْرُ فِي خِصَامِكَ حَيْثُ صَبَّرَكَ الْحَقُّ إِلَيْهِ ، وَعَلَيْنَا رَدُّ مَا انْتَقَصَكَ .

فَأَبَى عَلَيْهِ وَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! وَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ قَاضِيكَ فِي شَهَادَتِكَ ، وَأَنْتَ وَلِيَّتُهُ ، وَهُوَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَنَاتِكَ ؟ وَقَدْ لَزِمَكَ أَنْ تَشْهَدَ لِي بِمَا عَلِمْتَهُ ، وَلَا تَكْتُمَنِي مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكَ .

فَقَالَ : بَلَى ؛ إِنْ ذَلِكَ مِنْ حَقِّكَ كَمَا تَقُولُ ، وَلَسْتُ لَكَ تُدْخِلُ عَلَيْنَا بِهِ دَاخِلَةً ، فَإِنْ أَهْقَيْتَنَا مِنْهُ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْنَا ، وَإِنْ اضْطَرَرْتَنَا لَمْ يُمْكِنَّا عَقُوقُكَ .

فَعَزَمَ عَلَيْهِ عَزْمٌ مَنْ لَمْ يَشْكُ أَنْ قَدْ ظَفَرَ بِحَاجَتِهِ ، فَأَرْسَلَ الْحَكَمُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى

قديمين من فقهاء زمانه ، وخطَّ شهادته بيده من قِرطاس ، وختمَ عليها بخاتمه ، ودفنها إلى القيمين ، وقال لها : هذه شهادتي بخطِّي ، فأدِّياها إلى القاضي .
فأتياها بها إلى مجلسه وقتَ قعوده للسمع من الشهود ، فأدِّياها إليه ؛ فقال لها :
قد سمعتُ منكما ، فقومَا راشدين في حفظ الله .

وجاء وكيل سعيده ، وتقدم إليه مُدِّلاً وانقأ ، وقال أيتها القاضي ؛ قد شهدَ عندك الأميرُ - أصلحه الله تعالى - فـأقول ؟ فأخذ كتابَ الشهادة ونظر فيه ، ثم قال للوكيل : هذه شهادة لا تُقْبَلُ عندي ، فحِثْنِي بشاهدٍ عدل .

فدهش الوكيل ، ومضى إلى سعيده فأعلمه ، فركب من قوَّره إلى الحكم ، وقال : ذهب سلطاننا ، وأربل بهاؤنا ؛ أويحترى هذا القاضي على ردِّ شهادتك ، واللهُ - سبحانه - قد استخلفك على عبادته ، وجعل الأُممَ في دمائهم وأموالهم إليك ؛ هذا ما يجب أن تحمِّله عليه . وجعل يُعزِّره بالقاضي ويحرِّضه على الإبتاع به .

فقال له الحكم : وهل شككتُ أنا في هذا يا عم ! القاضي رجل صالح ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فعلَ ما يجبُ عليه ويلزمه ؛ وسدّ دونه بابا كان يصعب عليه الدخول منه ، فأحسن الله جزاءه .

فغضب سعيد وقال : هذا حسي منك ! فقال له : نعم قد قضيتُ الذي كان لك على ، ولستُ - والله - أعارضُ القاضي فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين في قبض يدٍ مثله .

الباب الثاني

في القصص التي تصوّر احتفاظهم بأنسابهم
واعترازهم بقبائلهم ، وتعجيبهم للأسلاف ،
وتعديدهم ما تركوا من مآثر ، وما أدّى إليه ذلك
من مفاخرات ومنافرات .

٤٥ - خَاطَرْتُ عَلَى حَسْبِي وَحَسْبِكَ*

خرج الحَكَم بن أُمي العامري ومعه عِطْرٌ يريد الحِيرة - وكان بالحِيرة ، سوقٌ يجتمع إليها الناس كلَّ سنة - فرَفَى طريقه بحاتم بن عبد الله الطائي^(١) ؛ فقال له الجوار في أرض طَيِّئٍ حتى يصيرَ إلى الحِيرة ، فأجاره . ثم أَسْرَحَهم بَحْزُور فنَحَرَتْ وطبخت ، ثم دعاهم إلى الطعام فأكلوا ، ولما فرغوا من الطعام طَيَّبَهم الحَكَم من طيبه .

وكان النعمان بن المنذر قد جعل لَبْنِي لَأُم رُبْعَ الطريق طُعْمَةً لهم ؛ لأنَّ بنتَ سعد بن حارثة بن لَأُم كانت عنده .

ومرَّ سعد بن حارثة بحاتم ومعه قَوْمُهُ من بَنِي لَأُم ، فوضع حاتم سُرْقَتَهُ وقال : اطْعَمُوا حَيَّاكُمْ اللَّهُ ! فقالوا : مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَعَكَ يَا حاتم ؟ قال : هَؤُلَاءِ جِيرَانِي ، قَالَ لَهُ سَعْد : فَأَنْتَ تُجِيرُ عَلَيْنَا فِي بِلَادِنَا ؟ قَالَ لَهُ : أَنَا ابْنُ عَمِّكَ وَأَحَقُّ مِنْ لَمْ تَحْفَرُوا ذِمَّتَهُ . فقالوا : لَسْتَ هُنَاكَ ! وَأَرَادُوا أَنْ يَفْضَحُوهُ ، وَوَثَبُوا إِلَيْهِ ، وَتَنَاولَ سَعْدٌ حَاتِمًا ، فَأَهْوَى لَهُ حَاتِمٌ بِالسَّيْفِ ، فَأَطَارَ أُرْنَبَةَ أَنْفِهِ ، وَوَقَعَ الشَّرْحُ قُبْحَاجِزُوا ، ثُمَّ قَالَتْ بَنُو الْأُمِّ لِحَاتِمٍ : يَبْنَتْنَا وَيَبْنَتُكَ سَوَاقُ الْحِيرةِ فَمَا جِدْكَ^(٢) ؛ ثُمَّ وَضَعُوا تِسْعَةَ أَفْرَاسٍ رَهْنًا ، وَوَضَعَ حَاتِمٌ فَرَسَهُ رَهْنًا عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ كَلْبٍ ، وَخَرَجُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْحِيرةِ .

* الْأَغَانِي : ١٦ - ٩٥

(١) حاتم الطائي : فارس شاعر ، جواد ، يضرب المثل ببجوده ، توفي سنة ١٥ ق . ه .

(٢) يقال : ماجده مجاداً : عارضه بالخبز فجده ، أي غلبه .

وسمع بذلك إياسُ بن قبيصة الطائي ؛ يخاف أن يُعينهم النعمانُ بن النذر ويقوِّمهم بماله وسلطانه للضمير الذي بينهم وبينه ؛ فجمع رَهْطَه من بني حِمْيَر ، وقال : يا بني حِمْيَر ؛ إن هؤلاء القوم قد أرادوا أن يفضَحُوا ابنَ عمكم في مُعْجَدَتِهِ ، فقال رجل منهم : عندي مائةُ ناقة سوداء ، ومائة ناقة حمراء أدماء ^(١) ، وقام آخر فقال : عندي عشرة حصن ، على كل حصان منها فارس مُدَجِّج ^(٢) لا يُرَى منه إلا عيناه . وقال حسان بن جبلة الخير : قد علمت أن أبي قد مات وترك خيراً كثيراً ، فلي كل خير ولحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة . ثم قام إياس فقال : على مثلُ جميع ما أعطيتكم كلُّكم - وحاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا .

وذهب حاتم إلى ابن عمه وحم بن عمرو - وكان مصارماً له لا يكلمه - فقالت امرأته : أئى وحم ، هذا والله أبو سقانة - حاتم - قد طلع ، فقال : مالنا ولحاتم ! أثبتني النظر ، فقالت : هاهو . قال : ويحك ! هو لا يكلمنى ، فاجاء به إلى ؟ ثم نزل حتى سلم عليه فردّ سلامه وحيّاه ، ثم قال له : ما الذى جاء بك يا حاتم ؟ قال : خاطرتُ على حسيك وحسبى ، قال : فى الرّحْب والسّعة ، هذا مالى وعِدَّتُهُ تسعمائة بعير ، فخذها مائة مائة حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد ^(٣) .

ثم إن إياس بن قبيصة قال لقومه : احمِلُونى إلى الملك - وكان به نِقْرَس ^(٤) - فَحَمِلَ حتى أَدْخَلَ عليه ، فقال : أنتم صباحاً ، أبيت اللعن ! قال النعمان : وحيّاك

(١) الأدمة فى الإبل : لون مشرب سواداً أو بياضاً ، والأنتى : أدماء . (٢) المدجج : الذى

أبس سلاحه . (٣) وقى وحم يقول حاتم :

ألا أبلغا وحم بن عمرو رسالة

رأيتك أدنى الناس منا قرابة

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا

فإنك أنت المرء بالخير أجبر

وغيرك منهم كنت أحبو وأضر

موت فكن يوماً ذو بئخر

وذى بمعنى الذى فى لغة بلخى .

(٤) النقرس : ورم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين .

إِلَهُكَ . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : أَمُتُّ أَخْتَانُكَ ^(١) بِالْمَالِ وَالْخَلِيلِ . وَجَعَلْتَ بَنِي ثَمَلٍ فِي قَعْرِ
السِّكَاةِ ! أَطْنُ أَخْتَانُكَ أَنْ يَصْنَعُوا بِحَتَمِ كَمَا صَنَعُوا بِعَامِرِ بْنِ جُوَيْنٍ ^(٢) وَلَمْ يَشْعُرُوا
أَنْ بَنِي حَيَّةٍ بِالْبَلَدِ ! فَإِنْ شِئْتَ وَاللَّهِ نَاجَزُ نَاكَ ^(٣) حَتَّى يَسْفَحَ الْوَادِي دَمًا ، فَلْيَحْضُرُوا
بِحَادِهِمْ ^(٤) غَدًا بِمَجْمَعِ الْعَرَبِ .

فَعَرَفَ النِّعْمَانُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ وَكَلَامِهِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَحْلَمْنَا ، لَا تَفْضَبْ فَإِنِّي
سَأُكْفِيكَ . وَأُرْسِلَ النِّعْمَانُ إِلَى سَمْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَإِلَى أَصْحَابِهِ ، وَقَالَ : انْظُرُوا
إِبْنَ عَمِّكُمْ حَاتِمًا فَأَرْضَوْهُ ، فَوَافَقَهُ مَا أَنَا بِالَّذِي أُعْطِيكُمْ مَالِي تَبَذَّرُونَهُ ، وَمَا أَطِيقُ
بَنِي حَيَّةٍ .

فَخَرَجَ بَنُو لَامٍ إِلَى حَاتِمٍ وَقَالُوا لَهُ : اعْرِضْ عَنْ هَذَا الْبَحَادِ نَدْعُ أَرْضَ ^(٥) أَنْفِ
إِبْنِ عَمَّنَا . قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، لَا أَفْعَلُ حَتَّى تَتْرَكُوا أَفْرَاسَكُمْ وَيُفْلَبَ بِحَادِكُمْ .
فَتَرَكُوا أَرْضَ أَنْفِ صَاحِبِهِمْ وَأَفْرَاسَهُمْ وَقَالُوا : قَبِّحَ اللَّهُ وَأَبْغَدَهَا ! فَعَمِدَ إِلَيْهَا
حَاتِمٌ فَقَرَّحَهَا وَأَطْعَمَهَا النَّاسَ .

(١) أَخْتَانُ جَمْعُ خَتَنٍ ، وَهُوَ الصَّهْرُ . (٢) كَانَتْ بَنُو لَامٍ فَضَحَتْ عَامِرَ بْنَ جُوَيْنٍ فِي مَجَادَةٍ .
(٣) النَّاجِزَةُ : الْقَاتِلَةُ . (٤) مَاجِدُهُ مَجَادًا : عَارِضُهُ بِالْجِدِّ . (٥) الْأَرْضُ : الدِّيَةُ .

٤٦ - لا تجمان هوازنا كمذحج*

اجتمع يزيد بن عبد اللدان وعامر بن الطفيل بموسم عكاظ ، وقدم أمية^(١) ابن الأسكر الكفاني ، وتبعته ابنة له من أجل أهل زمانها ؛ فخطبها يزيد وعامر ، فقالت أمّ كلاب امرأة أمية : من هذان الرجلان ؟ فقال : هذا يزيد بن عبد اللدان وهذا عامر بن الطفيل ، فقالت : أعرفُ بني الديان^(٢) ، ولا أعرفُ عامراً . فقال : هل سمعتِ بملاعب الأُسنة^(٣) ؟ فقالت : نعم ، قال : فهذا ابنُ أخيه . وأقبل يزيد بفاخر خصمه ، فقال : يا أمية ، إنَّ ابنَ الديان صاحب الكتيبة ورئيس مذحج ، ومن كان يصوب أصابعه فتتلف^(٤) دميّاً ، وبذلك راحتيه فتخرجان ذهباً .

فقال أمية : يَحْجِجْ ! مرعى ولا كالسعدان^(٥) !

فقال يزيد : يا عامر ؛ هل تعلم شاعراً من قومي سارَ بِمِدْحَةٍ إلى رجل من قومك ؟ قال : اللهم لا !

قال : فهل تعلمُ أن شِعراء قومك يرحلون بمسداً^(٦) بهم إلى قومي ، قال : اللهم نعم !

* الأغاني : ١٠ - ١٣٨

(١) هو أمية بن حُرثان بن الأسكر ، ينتهي نسبه إلى نزار ، وكان شاعراً فارساً مخضرمّاً أدرك الجاهلية والإسلام ، وكان من سادات قومه وفرسانهم وله أيام مأثورة مذكورة .
(٢) بنو الديان : قبيلة يزيد . (٣) ملاعب الأُسنة : عامر بن مالك ، فارس قيس ، وأحد أبطال العرب في الجاهلية توفي نحو سنة ١٠ هـ . (٤) تتلف : تئيل . (٥) ذهب مثلاً ، والسعدان نبت من أفضل مراعيهم .

قال : فهل لكم بحِمِّ يمان أو بُرْدِ يمان أو سَيْفِ يمان أو رُكْنِ يمان؟ قال : لا ،
قال : فهل ملكناكم ولم تملكونا؟ قال : نعم .
فنهض يزيد وأنشأ يقول مخاطباً أبا البنت :

أُمَيَّ يابن الأسكر بن مُدَلِّجٍ لا تجعل : هوازناً كَمَذْحِجٍ
إِنَّكَ إِنْ تلهج بأمرٍ تَلْجُجُ ما النَّبْعُ^(٢) في مَفْرَسِه كَالْمَوْسِجِ
• ولا الصريح الخض كالمرج •

فزوج أمية يزيد بن عبد اللدان ابنته ، ثم لجّ التَّهاجى بين الرجلين .

(١) بنو مدلج : قبيلة من كنانة . (٢) النبع شجر تنفض منه الفسى ، ومن أغصانه السهام
والموسج : شجر من شجر الشوك .

٤٧ — يتنازعان الزعامة*

لَمَّا أَسَنَّ أَبُو بَرَاءٍ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ ، تَنَازَعَ فِي الرِّيَاسَةِ عَامِرُ بْنُ الطَّقِيلِ ^(١) ، وَعَلَقْمَةُ ^(٢) بِنَ عُلَاقَةَ .

فَقَالَ عَلَقْمَةُ : كَانَتْ : لَجْدَى الْأَخْوَصِ وَإِنَّمَا صَارَتْ لَعَمَكَ بِسَبَبِهِ ، وَقَدْ قَدْ عَمَلْتَ عَنْهَا ، وَأَنَا أَسْتَرْجِعُهَا ، فَأَنَا أَوْلَى بِهَا مِنْكَ ؛ فَشَرَّيْ ^(٣) الشَّرَّ بَيْنَهُمَا ، وَسَارَا إِلَى الْمَنَافَرَةِ .

فَقَالَ عَلَقْمَةُ : إِنْ شِئْتَ نَافَرْتُكَ ، فَقَالَ عَامِرُ : قَدْ شِئْتُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْكُرُكَ مِنْكَ حَسَبًا ، وَأُثْبِتُ مِنْكَ نَسَبًا ، وَأَطْلُوعُ مِنْكَ قَصَبًا ^(٤) .

فَقَالَ عَلَقْمَةُ : وَاللَّهِ لَأَنَا خَيْرُكَ مِنْكَ لَيْلًا وَنَهَارًا . فَقَالَ عَامِرُ : وَاللَّهِ لَأَنَا أَنْحَرُكَ مِنْكَ لِلْقَاحِ ^(٥) ، وَخَيْرُكَ مِنْكَ فِي الصَّبَاحِ ، وَأَطْلَمُ مِنْكَ فِي السَّنَةِ الشَّيَاحِ ^(٦) .

فَقَالَ عَلَقْمَةُ : أَنَا خَيْرُكَ مِنْكَ أَمْرًا ، وَأَحْذُ مِنْكَ بَصْرًا ، وَأَعَزُّكَ مِنْكَ نَفَرًا ، وَأَشْرَفُكَ مِنْكَ ذِكْرًا .

* الْأَغَانِي : ١٥ - ٥٠ ، مَهْذَبُ الْأَغَانِي : ٢ : ٦٨ ، نَهَايَةُ الْأَوْب : ٣ - ٢٧٢ ، بُلُوغُ الْأَرْب : ١ : ٢٨٦

وهذه القصة اختلقت رواياتها اختلافاً كثيراً جعلنا الروايات يكمل بعضها بعضاً .

(١) من بني عامر بن صعصعة ، فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائها ، ولد ونشأ بنجد ، كرتاً شجاعاً ، وفد على رسول الله يريد القدر به ولم يعلم ، فات في طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ . (٢) علقمة بن علاثة : كان في الجاهلية من أشرف قومه ، أسلم ، وارتد في أيام أبي بكر فاضرب إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام ، توفي نحو سنة ٢٠ هـ (٣) شري : استطار . (٤) القصب ثياب تتخذ من كتان رفاق ناعمة يريد طول القامة ، وهو أيضاً كناية عن الرفاهية والنعمة ودرغد العيش (٥) القحاح : الإبل (٦) الشياح : الضحط

فقال عامر : ليس لبنى الأخوص فضل على بنى مالك في العدد ، وبصرى ناقص ، وبصرى صحيح ، ولكنى أنا فرك ؛ وإني أشتى منك سُمة^(١) ، وأطولُ منك قِمة ، وأحسنُ منك لُمة^(٢) ، وأجمدُ منك جُمة^(٣) ، وأسرعُ منك رَحة ، وأبعدُ منك هِمة .

فقال علقمة : أنت رجلٌ جسيمٌ وأنا رجلٌ قَصيف^(٤) ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ، ولكنى أنا فرك بآبائي وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لِأنا فركَ بهم ، ولكنى أنا فرك ؛ أنا خيرُ منك عَقِبًا ، وأطعمُ منك جَدًّا .

فقال علقمة : قد علمتُ أن لك عَقِبا ، وقد أطعمت طيِّبا ، ولكنى أنا فرك ؛ إني خيرُ منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أمُّ عامر - وكانت تسمَعُ كلامهما ، فقالت : يا عامر ، نافِرَةٌ أيسرُك أولى بالخيرات .

فقال عامر : والله إني لأرْكَبُ منك في الحِمَاة ، وأقتلُ منك للسكَّامة^(٥) . وخيرُ منك لسولى وللولاة .

فقال له علقمة : والله إني لأبرُّ وإنك لعاجر ، وإني لأولودُ وإنك لعاقِرٌ^(٦) ، وإني لعفٌ وإنك لعاهِرٌ ، وإني لوثى وإنك لعادر ، فقيمُ تفأخرنى يا عامر ؟ فقال عامر : والله إني لأنزِلُ منك للفقرة^(٧) ، وأنحرُ منك للبيكرة^(٨) ، وأطعمُ منك للهبرة^(٩) وأطعنُ منك للشفرة .

(١) السمة : القراية . (٢) اللمة : الشعر المتجاوز لشحمة الأذن . (٣) الجملة : مجتمع شعر الرأس . (٤) قصيف : نحيف . (٥) السكَّامة : جمع كمي ، وهو الشجاع . (٦) رجل عاقِر : لم يولد له ولد . (٧) مَعْدرة : الحلالة من الأرمس . (٨) البيكرة : الفتية من الإبل . (٩) الهبرة : القطعة المتجمعة من اللحم .

قال علقمة : والله إنك لكاليلُ البصر ، نكذت النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر - وكانوا يداً مع بني الأخوص على بني مالك بن جعفر :
إن نطيقَ عامراً ؛ ولسكن قل له : أنا فِرْكُ بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات .

فقال له علقمة هذا القول ؛ فقال عامر : عَيْرٌ وَتَيْسٌ ^(١) وَتَيْسٌ وَعَتَزٌ . نعم .
على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يُعطاهما الحسك أثنا نفرَ عليه صاحبه أخرجهما ؛
ففعلا ذلك ، ووضعوا بها رَهْناً من أثناهم على يدي رجل يقال له خزيمه بن عمرو ،
فسمي الضمين .

وخرج علقمة ومن معه من بني خالد ، وخرج عامرُ فيمن معه من بني مالك ،
وجعلا منافرتهم إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يُقل بينهما شيئاً ، وكره
ذلك خالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال أثنا كُرُ كُبَتَي البعير الأدرم ^(٢) . قالوا : فأثنا
اليمن ؟ قال : كلا كما يمين ؛ وأبى أن يقضى بينهما .

فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما ، وقد كانت العرب
تحكم إلى قريش ، فأثنا عُمَيْيَّة بن حصن بن حذيفة ، فأبى أن يقول بينهما شيئاً ،
فأثنا غَيْلان بن سَلَمَةَ التَّقَفِي ، فردهما إلى حَرْمَلَةَ بن الأشعر المُرِّي ، فأبى أن
يقول شيئاً .

ثم تَدَاَعِيَا إلى هَرِم بن قُطَنَةَ ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما
ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها من تَبِعِهِ ، ومائة يعطيها للحاكم ، ومائة تُعْفَرُ إذا

(١) العير : الحار ، وغلب على الوحش ، وهو أقوى من التيس أي مثل وإياك كالعير والتيس ،
أو على الأقل كالنيس والعنز ، إذا التيس أقوى على النطاح من العنز . (٢) درم العظم : واره
الحم حتى لم يبق له حجم .

حكم؛ فأبى هرم بن قطنه أن يحكم بينهما خافة الشر، وأبى أن يرتعلا، فقال هرم: لعمري لأحكم بينكما، ثم لأفصلن، فأعطيني موثقاً مطمئن إليهما أن ترضياً بما أقول، وتسلماً لما قضيت بينكما، وأسرهما بالانصراف ووعدهما يوماً. فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه، وأقام القوم عنده أياماً.

فخلأ هرم بعلقة، وقال له: أترجو أن ينفرك^(١) رجل من العرب على عامر فارس مضر؛ أئندى الناس كفاً وأشجعهم لقاء، لستأن رُمح عامر أذكر في العرب من الأحوص، وعنه ملاعب الأسمنة.

فقال له علقمة: أنشدك الله والرحم ألا تنفر على عامراً! اجزُرْ ناصيتي، واحتكم في مالي، وإن كنت لابد أن تفعل فسو بيني وبينه. فقال: انصرف، فسوف أرى رأيي؛ فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامراً.

ثم خلا بامر قال له: أعلَى علقمة تفخر؟ أنت تناوئه! أعلَى ابن عوف بن الأحوص؛ أعف بنى عامر، وأيعنهم قبيبة، وأحلمهم وأسودهم؛ وأنت أعور عافر مشثوم! أما كان لك رأى يرعك^(٢) عن هذا! أكنت تظن أن أحداً من العرب ينفرك عليه؟ فقال عامر: نشدتك الله والرحم ألا تفضل على علقمة! فوالله إن فلت لا أفليح بعدها أبداً، هذه ناصيتي فاجزها، واحتكم في مالي، فإن كنت لابد فاعلا فسو بيني وبينه. قال: انصرف فسوف أرى رأيي، فخرج عامر وهو لا يشك أنه ينفرك عليه.

ثم إن هريماً أرسل إلى بنيه وبنى أبيه: إلى قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة، فإذا فلت فليطرد بعضكم عشر جزائر^(٣) فلينجرها عن علقمة، ويطرد

(١) نفره عليه: قضى له عليه بالنبله. (٢) يزحك: يردك. (٣) جزائر: جمع جزور.

بعضكم عشر جزائر لينعزها عن عامر ، و فرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة .
فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قام هَرَم ، و قل : يا بني جعفر ، قد تماكتما
عندي ، و أنتما كرُكبتَي البعير الأذرم ، تقعان إلى الأرض معاً ، و ليس فيكما أحدٌ
إلا وفيه ما ليس في صاحبه ، و كلاً كما سيّدُ كريم .

و عمد بنو هَرَم و بنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هَرَم ، و فرقوا
الناس ، و لم يُفصل هَرَم أحداً منهما على صاحبه ، و كره أن يفعل - و هما ابنا عم -
فيجاب بذلك عداوة ، و يوقع بين الحيين شرّاً .

فارتحلوا عن هَرَم لسا أعيام نحو عكاظ ، فلقيمم الأعشى منجدراً من اليمن -
و كان لسا أرادها قل للقمّة : اعتدلى حبلاً^(١) ، فقال : أعتد لك من بني عامر !
قال : لا يُمنى عني . قل : فن قيس ! قال : لا . قال : فما أنا برائدك . فأتى عامر بن
الطفيل ، فأجاره من أهل السماء و الأرض ، فقيل له كيف شُجّره من أهل السماء ؟
قال : إن مات و دَبَّتْهُ^(٢) - فقال الأعشى لعامر : أظهِرْ أنكما حكممائي ، ففعل ؛
فقام الأعشى ؛ فرفع عقيرته^(٣) في الناس فقل :

حَكْمُكُمْ قَضَى بَيْنَكُمْ أَبَاحَ مِثْلُ الْقَمَرِ الزَّاهِرِ
لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ وَلَا يَبَالِي خُسْرَ الْخَمِيرِ
عَلِمَ لَا ؛ لَسْتُ إِلَى عَامِرِ النَّافِضِ الْأَوْتَارِ وَالْوَاتِرِ
وَاللَّاسِ الْخَلِيلِ بِخَيْلٍ إِذَا نَارَ عَجَاجِ الْكَبْكِ^(٤) النَّاتِرِ
إِنْ تَسُدَّ الْحَوْصُ فَلَمْ تَسُدَّهُمْ وَعَامِرٌ سَادَ بَنِي عَامِرِ
سَادَ وَأَلْقَى رَهْطُهُ سَادَةً وَكَابِرًا سَادُوكَ عَنْ كَابِرِ

(١) يريد جواره . (٢) دفعت ديتة . (٣) عقيرته : صوته . (٤) الكبة : الدمنة ل
القتال و الحملة في الحرب .

وشدَّ القومُ في أعراضِ الإبلِ للمائةِ فقروها ، وقالوا : نُفِّرَ عامرٌ وذَهَبَ بها
 النَوَّغَاءُ ، وَجَهَدَ عِلْقَةً أَنْ يَرُدَّهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، فَجَعَلَ يَتَهَدَّدُ الْأَعْشَى قَالَ :
 أَنَا نِي وَعَيْدُ الْخُوصِ مِنْ آلِ عَامِرٍ فَيَا عَبْدَ عَمْرِو لَوْ سَهَيْتَ الْأَحَاوِصَا !
 فَاذْنُبْنَا إِنْ جَاشَ بِحَرْوِ ابْنِ عَمَّكَم وَبِحَرْكِ سَاحِرٍ^(١) لَا يُوَارِي الدَّعَاوِصَا^(٢)
 كَلَّا أَبُوبِكُمْ كَانَ فَرَعْنَى دِعَامَةَ وَلَسْكَتُمْ زَادُوا وَأَصْبَحَتْ نَاقِصَا
 تَبِيتُونَ فِي اللَّشَى مِلَاءَ بَطُونِكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرْنَى^(٣) يَبْتَنِّ سَمَائِصَا^(٤)
 بُرَاقِبِينَ مِنْ جُوعٍ خِلَالَ تَخَفَافَةِ بِحُومِ الْعِشَاءِ الْمَاتِمَاتِ الْفَوَاصِصَا^(٥)
 رَمَى بِكَ فِي أَخْرَامِهِ تَرَكَكَ النَّدَى وَفَضَّلَ أَقْوَامَا عَلَيْكَ مَرَاهِصَا^(٦)
 فَغَضَّ حَدِيدَ الْأَرْضِ إِنْ كُنْتَ سَاخِطَا بِفَيْكَ وَأَحْجَارَ الْكَلَابِ الرَّوَاهِصَا^(٧)
 فَبَسَكَ عِلْقَةً لَهَا بَلْفُهُ هَذَا الشَّعْرُ وَكَانَ بِكَأَوِهِ زِيَادَةً عَلَيْهِ فِي الْعَارِ .

(١) سَجَى : سَكَنَ . (٢) الدَّعَاوِصُ : دَوْبَةُ أَوْ دَوْدَةُ سُودَاءِ تَبْكُونُ فِي الْفُتْدَانِ إِذَا قَلَّ مَآؤُهَا .
 (٣) غَرْنَى : جَاعَ . (٤) نَحْلَاسُ : جَمْعُ خَيْصَةٍ ، ضَامِرَةُ الْبُصْنِ : أَيْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ .
 (٥) الْفَتِيصَاءُ : لِاحِدَةُ شَعْرِيَيْنِ ، قَالَ فِي الْقَامُوسِ : مِنْ أَحَادِيثِهِمْ : إِنَّ الشَّعْرَى تَعْبِيرُ تَقْطَعُ
 الْحَجْرَةَ فَسُمِّيَتْ عَبُورًا وَهَكَذَا الْأُخْرَى عَلَى أَثَرِهَا حَتَّى تَنْقُصَتْ ، وَيُقَالُ لَهَا الْقُمُوسُ أَيْضًا .
 (٦) رَاهِصٌ : غَرِيضَةٌ : رَاصِدَةٌ ؛ قَالَ فِي الْقَامُوسِ : وَالرَّاهِصُ مَنْ يَسْمَعُ بِوَاهِصِهِ . (٧) الْكَلَابُ :
 مَوْضِعٌ ، وَالرَّوَاهِصُ مِنَ الْمَجَارَةِ الَّتِي تَنْكَبُ الدُّوَابُ ، وَالْمُخْزُورُ النَّاتِجَةُ .

٤٨ - أَنْتَ لَهُ*

قَدَرَمَ رَهْطٌ مِنْ بَنِي جَعْفَرٍ عَلَى النَّمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ ، عَلَيْهِمْ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ مَلَاعِبُ
الْأَسْتَةِ ، وَفِيهِمْ لَبِيدٌ^(١) بْنُ رَبِيعَةَ ، وَهُوَ يَوْمُئِذٍ غُلَامٌ لَهُ ذُوَابَةٌ ، فَضَرَبَ النَّمَانُ قُبَّةَ
وَأَجْرَى عَلَيْهِمُ النَّزْلَ^(٢) ، فَجَعَلُوا يَفْدُونَ إِلَى النَّمَانِ وَبَرَوْحُونَ ، وَيَتَرَكُونَ لَبِيدًا فِي
رَحَالِهِمْ ، يَحْفَظُ أَمْتَهُمْ وَيَفْدُو بِإِبَالِهِمْ فِيرَعَاهَا ، فَإِذَا أُمْسَى الْمَاءُ انْصَرَفَ بِهَا .

وَكَانَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ الْعَبْسِيُّ يُنَادِمُ النَّمَانُ وَيَصَادِقُهُ ، وَيَتَقَدَّمُ عَلَى مَنْ سِوَاهُ ،
فَكَانَ إِذَا خَلَا بِالنَّمَانِ طَمَعُ فِي بَنِي جَعْفَرٍ وَذَكَرَ مَعَايِهِمْ لِمَدَاوَةِ قَدِيمَةٍ كَانَتْ بَيْنَ
عَبْسٍ وَبَنِي جَعْفَرٍ ، وَفَعَلَ ذَلِكَ مَرَارًا حَتَّى أُتِيَ فِي نَفْسِ النَّمَانِ ، فَزَعَّ الْقُبَّةَ عَنْهُمْ ،
وَقَطَعَ النَّزْلَ .

وَدَخَلُوا عَلَيْهِ يَوْمًا ، فَرَأَوْا مِنْهُ جَفَاءً ؛ فَنَفَرُوا مِنْ عِنْدِهِ غَضَابًا ، وَهُمُّوا
بِالْانْصِرَافِ .

وَيُنَادِيهِمْ بِتَذَاكُرُونَ أَمَرَ الرَّبِيعِ سَمِعَهُمْ لَبِيدٌ فَقَالَ لَهُمْ : مَا لَكُمْ تَتَنَاجَوْنَ !
فَكَتَمُوهُ ، وَقَالُوا لَهُ : إِلَيْكَ عَنَّا . قَالَ : أَخْبِرُونِي ، فَلَمَلَّ لَكُمْ عِنْدِي فَرَجًا ،
فَزَجَرُوهُ ، فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَحْفَظُ لَكُمْ مَتَاعًا ، وَلَا أُسْرِخُ^(٣) لَكُمْ بِمِيرَا
أَوْ تُخْبِرُونِي .

فَقَالُوا لَهُ : إِنْ خَالَكَ الرَّبِيعُ - وَكَانَتْ أُمُّ لَبِيدٍ عَبْسِيَّةً ، وَكَانَتْ بِقِيَمَةٍ فِي حِجْرٍ

* الخزانة : ٤ - ١٧١ ، مجمع الأمثال : ٣ - ٤٢ ، الأغاني : ١٤ - ١٩٢ ، ١٦ - ٢٢ ،
اللسان - مادة سئل .

(١) لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ : أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الْفَرَسَانِ الْأَشْرَافِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ ، وَعَاشَ
عُمُرًا طَوِيلًا وَتَوَفَّى سَنَةَ ٤١ هـ (٢) النَّزْلُ : الطَّعَامُ . (٣) سَرَحَ الْمَاشِيَةَ وَسَرَحَتْ بِنَفْسِهَا .

الرَّبيع - قد غَلَبْنَا عَلَى الْمَلِكِ ، وَصَدَّ عَنَّا وَجْهَهُ ! فَقَالَ لَهُمْ : هَلْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُ عَدَاً حِينَ يَقَعُ الْمَلِكُ ، فَأَرْجُو بِهِ رَجْزاً مُبْصِراً مُوَلِّماً ، لَا يَلْتَمِثُ إِلَيْهِ النِّمَانُ عِنْدَهُ أَبَداً ؟ قَالُوا لَهُ : وَهَلْ عِنْدَكَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالُوا : إِنَّا نَبْلُوكَ بِشْتَمِ هَذِهِ الْبَقْلَةِ - وَقَدْ آمَنَهُمْ بِقَلَّةٍ دَقِيقَةِ الْقَضْبَانِ^(١) ، قَلِيلَةَ الْوَرَقِ ، لِاصْطِقَ فُرُوعُهَا بِالْأَرْضِ تُدْعَى التَّرْبَةُ^(٢) .

فَاتْلَمَهَا مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَخَذَهَا بِيَدِهِ ، وَقَالَ : هَذِهِ التَّرْبَةُ الَّتِي لَا تُذَكِّي^(٣) نَاراً وَلَا تُوَهِّلُ دَاراً ، وَلَا تَسْرُّ جَاراً ، عَوْدُهَا ضَعِيلٌ ، وَفَرْعُهَا كَلِيلٌ^(٤) ، وَخَيْرُهَا قَلِيلٌ بَلَدُهَا شَاسِعٌ وَنَبْتُهَا خَاشِعٌ^(٥) ، وَأَكْلُهَا جَانِعٌ ، وَالْمَقِيمُ عَلَيْهَا ضَانِعٌ ؛ أَقْصَرُ الْهَبْوَلِ فَرْعاً ، وَأَخْبَثُهَا مَرْعى ، وَأَشْدُّهَا قَلْباً فَتَحَرَّبَّا لَهَا وَجَدَعاً^(٦) ! الْفَوَابِىءُ أَخَا عَبَسَ ، أَرْجَمَهُ عَلَيْهِمْ بَقْسٌ^(٧) وَنُكْسٌ ، وَأَتْرَكَهُ مِنْ أَمْرِهِ فِي لَبْسٍ .

قَالُوا : نُنْصِيحُ قَهْرِي فَيْكِ رَأَيْنَا . فَقَالَ لَهُمْ عَامِرٌ : انْظُرُوا إِلَى غِلَامِكُمْ هَذَا ؛ فَإِنْ رَأَيْتُمُوهُ نَائِماً فَلَيْسَ أَمْرُهُ بِشَيْءٍ ، إِمَّا يَتَكَلَّمُ بِمَا جَرَى عَلَى لِسَانِهِ وَيَهْدِي بِمَا يَهْجِسُ فِي خَاطِرِهِ ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُ سَاهِراً فَهُوَ صَاحِبُكُمْ !

فَرَمَقُوهُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَوَجَدُوهُ قَدْ رَكِبَ رَحْلاً يَسْكُدُ^(٨) ، وَاسْطَنَتْهُ حَتَّى أَصْبَحَ ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا قَالُوا : أَنْتَ وَاللَّهِ صَاحِبُهُ . وَحَلَقُوا رَأْسَهُ ، وَتَرَكُوا لَهُ ذَوَاتَيْنِ ، وَالْبَسُوهُ حُلَّةً ، وَغَدَوْا بِهِ مَعَهُمْ .

(١) الْقَضْبَانُ : الْأَغْصَانُ . (٢) الدَّبَّةُ : نَبْتُ سَهْلٍ ، وَالْبَقْلُ : مَا نَبَتْ مِنْ بَزَرِهِ لَا مِنْ أُرُومَةٍ ثَانِيَةٍ ، وَالْبَقْلَةُ وَاحِدَتُهُ . (٣) أَذَكِّي النَّارَ : أَوْقَدُهَا . (٤) كَلِيلٌ : ضَعِيفٌ غَيْرُ صَلِيبٍ . (٥) خَاشِعٌ دَانٌ مِنَ الْأَرْضِ . (٦) جَدَعًا : قَطْعًا . (٧) النَّكْسُ : الْهَلَاكُ . (٨) كَدَمَهُ : عَضَهُ بِأَدْنَى فَمِهِ أَوْ أَمْرَ فِيهِ بِمَدِينَةٍ .

فدخلوا على النمنان ، فوجدوه يتفدى ومعه الربيع ، وليس معه غيره ، والدار والمجالس مملوءة من الوفود .

فلما فرغ من الغداء ذكروا له حاجتهم ؛ فاعترضهم الربيع في كلامهم ، فقال لبيد - وقد دهن أحد شقي رأسه وأرخص إزاره ، وانتقل فعلاً : أبيت اللعن ! أنأذنُ لي في الكلام ؟ فأذن له ، فأنشأ يقول :

لَا تَزْجُرِ الْفَتَيَانِ عَنْ سُوءِ الرَّعَى ^(١) يَا رَبَّ هَيْجَا ^(٢) هِيَ خَيْرٌ مِنْ دَعَى .
فِي كُلِّ يَوْمٍ هَامَتِي مُقَرَّعِهِ ^(٣) مَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَيْنِ ^(٤) الْأَرْبَعِ
مَحْنُ خِيَارِ عَامِرِ بْنِ صَمْعَةَ الْمُطْعِمُونَ الْجَنَّةَ الْمُدْعَى ^(٥) .
وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ أَنْطِصَّةٍ ^(٦) يَا وَاهِبَ الْمَالِ الْجَزِيلِ مِنْ سَعَةٍ
إِلَيْكَ جَاوِزَنَا بِلَاداً مُسَمَّيَةً ^(٧) إِذِ الْفَلَاةُ أَوْحَشَتْ فِي الْمَعْمَةِ

* يخبرك عن هذا خيرٌ فاسمعه *

فقال النمنان : ما هو ؟ فقال : * مهلاً أبيت اللعن لا تأكل منه * .

فقال النمنان : ولم ؟ فقال : * إن استه من برهي ملعة * .

فقال النمنان : وما على ؟ فقال : * وإنه يُدْخِلُ فِيهَا إصْبَعَهُ * .

بدخلها حتى يوارى أشجعه ^(٨) كأنما يطلب شيئاً ضيعه

(١) الرعة : حاة الأحق التي رضى بها .

(٢) الهيجاء : الحرب . (٣) يقال هو مقزع ومتفزع : رقيق شعر الرأس .

(٤) بنو أم البين الأربعة : هم نخعة ، مالك بن جعفر ، وطليل بن مالك ، وريعة بن مالك ، وعبيدة بن مالك ، ومعاوية بن مالك ، وهم أشرف بني عامر ، فغلهم أربعة لأجل الفاقية .

(٥) المدعة : الملوثة (٦) الخيصة : البيضاء . (٧) بلاد مسبعة : كثيرة السباع .

(٨) الأشاجع : عروق ظاهر الكعب .

فلما سمع النعمان قوله أَفْت^(١)، ورفع يده من الطعام، والتفت إلى الربيع
يَرْمُقُهُ سِرَّاراً، وقال: أ كذالك أنت! قال: كَذَبَ وَالْقَهْ إِنَّ الْحَقِيقَ^(٢) اللّٰثِمِ!
فقال النعمان: لقد خُبْتُ على طماي.

ثم قضى النعمان حوائج الجفريين، وانصرف الربيع إلى منزله، فبعث
إليه النعمان بَصِغْفٍ ما كان يَحْبُوهُ به، وأمره بالانصراف إلى أهله. فكتب
إليه: «إني قد تَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ قد وقع في صَدْرِكَ ما قال لَبِيد، ولست
برائهم^(٣) حتى تبعث من يردني؛ ليعلم مَنْ حَضَرَكَ من الناس أُنَى لست كما
قال...»

فأرسل إليه: «إني لست صائناً بانتفاذك مما قال لَبِيد شيئاً، ولا قادراً على
ردِّ ما زِلْتُ به الألسن، فألحق». فلحق بأهلك بأهلك.

ثم أرسل إلى النعمان:

لَنْ رَحَلْتُ جِمالِي إِنْ لِي سَمَةٌ ما مثلها سَمَةٌ عَرَضاً ولا طولاً
ولو جَمَعْتُ بَنِي عِلْمٍ بِأَسْرِهِمْ لَمْ يَعْدِلُوا رِيشَةً من ريش سَمَوِيلا^(٤)
تَرَعَى الرِّوَاثِمِ^(٥) أحرارَ البقول بها لا مثلَ رعيكمُ مِلْحاً وغَسَوِيلاً^(٦)
فأثبت بأرضك بمدى واخل متسكناً مع الفطاسي طوراً^(٧) وابن نوفيلا

(١) أَفْت: قاله «أف» (٢) الحق: الأحق (٣) رائم: بارح وراجل (٤) سمويلا:
أحد أجداد الربيع وهو الأصل اسم طائر، وقيل: بلد كثير الطير (٥) ناقة رءوم ورائمة
ورائم: عاطفة على ولدها (٦) الغسويل: نهت يفت في السباح (٧) الفطاسي وابن نوفيلا:
اثنان كانا ينادمان النعمان أولهما طيب وثانيهما تاجر.

فأجابه النعمان :

شَرُّدُ بِرَحْلِكَ حَيْثُ شَتَّ وَلَا تَكْثُرُ عَلَيَّ ، وَدَعْ عَنْكَ الْأَقَاوِيلَا
قَدْ رُمِيتَ بِدَاهٍ لَسْتُ غَاصِلَهُ مَا جَاوَرَ السَّيْلَ أَهْلُ الشَّامِ وَالنَّيْلَا
فَمَا ائْتَفَاؤُكَ مِنْهُ بَعْدَ مَا قَطَعْتُ هُوجُ^(١) الْمَطِيِّ بِهِ أَكْثَابُ سَمْلِيلَا^(٢)
قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ صَدَقَا وَإِنْ كَذِبَا فَمَا اعْتَذَارُكَ مِنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلَا
فَالْحَقُّ بِحَيْثُ رَأَيْتَ الْأَرْضَ وَاسْمَةً وَانْشُرْ بِهَا الْعَارِفَ إِنْ عَرْضَا وَإِنْ طَوَّلَا

(١) الهوجاء : النافذة المسرعة ، جمها هوج (٢) سَمْلِيل : بلد .

٤٩ - أنت اليوم ذو جديف *

قال الملك النعمان : لأُعْطِينَ أفضلَ العرب مائةً من الإبل . فلما أصبح الناسُ اجتمعوا للنكاح ، ولم يك قيس بن مسعود فيهم ، وأرادَه قَوْمُهُ على أن ينطلق معهم إليه ، فقال : لا ، لئن كان يُريدُ بها غيري لا أنهدُ ذلك ، وإن كان يريدني بها لأُعْطِيَنَّهَا .

فلما رأى النعمانُ اجتماعَ الناس قال : ليس صاحبُها شاهداً . فلما كان من الغد ، قال له قَوْمُهُ : انطلق ؛ فانطلق فدفعها لملك إليه ، فقال حاجِبُ^(١) بن زُرَّارة : أبيتُ اللعن ! ما هو بأحقَّ بها مِنِّي ، قال قيس بن مسعود : أنا فِرُّهُ^(٢) عن أكرمنا قَعِيدَةً^(٣) ، وأحسِننا أدبَ ناقة ، وأكرم لثيم قوم .

فبعثَ معها النعمانُ مَنْ ينظر في ذلك ، فلما انتهوا إلى بادية حاجب بن زُرَّارة مروا على رجل من قومه ، فقال حاجب : هذا أَلَمُ قومي ، وهو فلان ابن فلان - والرجلُ عند حوضه يُورِدُ إِبِلَهُ - فأقبلوا إليه فقالوا : يا عبدَ الله ؛ دَعْنَا فَلَنَسْتَقِ فَإِنَّا قد هَلَكْنَا عَطَشًا ، وأهْلَكْنَا ظُهورنا^(٤) ، فَتَجَمَّهَ وأبى عليهم . فلما أغيام قالوا لحاجب : أسْفِرْ فَسَفَر ، وقال : أنا حاجبُ بن زُرَّارة فدعنا فلنَشْرِب . قال : أنت ! فلا مرحباً بك ولا أهلاً ، ثم أتوا بيته ، فقالوا لامرأته : هل من منزل يا أمة الله ؟ قالت : والله ما ربُّ المنزل شاهداً وما عنده من منزل ، وأرادوها على ذلك فَأَبَتْ .

* بلوغ الأرب : ١ - ٢٨٦

(١) حاجب بن زُرَّارة : من سادات العرب في الجاهلية ، أدرك الإسلام وأسلم ، وتولى نحو سنة ٣٤ هـ . (٢) أنا فِرُّهُ : أحاكه . (٣) القعيدة : المرأة . (٤) يريد ما يركبون .

ثم أنوا رجلا من قوم قيس بن مسعود على ماء يؤرد إليه ، فقال قيس : هذا والله
ألاءٌ فوى ، فلما وقفوا عليه قالوا مثل ما قالوا للآخر ، فأبى عليهم وهم أن يضربهم ،
فقال له قيس بن مسعود : وبلك أنا قيس بن مسعود ، فقال له : مرحبا وأهلا ، أو رد .
ثم أنوا بيته ، فوجدوا فيه امرأته قد رها تنط^(١) ، فلما رأته الركب من بعيد أنزلت
القدر وتروّت ، فلما انتهوا إليها قالوا : هل عندك يا أمة الله منزل ؟ قالت : نعم !
انزلوا في الرخب والسمة . فلما نزلوا وطعموا وارتحلوا أخذوا ناقتيهما ، فأنأخوها على
قريتين للنمل ، فأما ناقة قيس بن مسعود فتضوّرت^(٢) ، وتقلب ثم لم تنز ، وأما
ناقة حاجب فكنت وثبتت ، حتى إذا قالوا : قد اطمأنت طفت هاربة . فأنوا ذلك ،
فأخبروه بذلك ، فقال له : قد كنت يا قيس ذا جد^(٣) ، فأنت اليوم ذو جدّين .

(١) تنط : أى تصوت ، وذلك عند اشتداد غليانها (٢) التضور : الصياح والتلوى عند الضرب
أو الجوع (٣) الجد : العظيمة ، والمخط .

٥٠ — إن البلاء مُوَكَّل بالْمَنْطِق *

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعلي . قال علي : فدَقَعْنَا إلى مجلس من مجالس القَرْب ، ففَقَدَم أبو بكر — وكان نَسَابَةً^(١) — فسلم فرَدُّوا عليه السلام ، فقال : يَمُنُّ القوم ؟ قالوا : مِن ربيعة . قال : من هَامِيَا أم مِن لَمَزِمِيَا^(٢) ؟ قالوا : من هَامِيَا الْمُطَلَى . قال : فَأَيُّ هَامِيَا المَطَى أنتم ؟ أنتم ذُهل الأكبر ؟ قولوا : نعم .

قال : أفنُفِكُم عَوَف الذى يقال له : لا حُرُّ بَوَادِي عوف ؟ قالوا : لا ، قال : أفنُفِكُم بِسِطَام^(٣) ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا ! قال : أفنُفِكُم جَسَّاس بن مرة خايمى الذمار ، ومانعُ الجار ؟ قالوا : لا ، قال : أفنُفِكُم الحَوَفَزَان^(٤) قاتل للملوك وسالباها أنْفُسَهَا ؟ قالوا : لا ! قال : أفنُفِكُم المَزْدَلِف^(٥) صاحب المامة الفردة ؟ قالوا : لا ! قال : فأنتم أحوال الملوك^(٦) من كِنْدَةَ ؟ قالوا : لا ! قال : فأنتم أصحاب الملوك من لَحْم^(٧) ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم ذُهلًا الأكبر ، أنتم ذُهل الأصغر . فقام إليه غلام منهم حين بَقِل^(٨) وجهه يقال له دَغْفَل^(٩) فقال :

* المحاسن والأضداد : ١٠٤ ، بحج الأمثال : ١ - ١٢

(١) النساب : العالم بالنسب ، وأدخلوا الماء العالقة واللح (٢) من هَامِيَا أم من لَمَزِمِيَا : يريد أن أشرفنا أم من أوساطها ؟ (٣) هد بسطام بن قيس بن مسمد الشيباني ، أفرس فرسان بكرى الجاهلية . (٤) الحوفزان : لقب الحارث بن شريك ، لقبه به قيس بن عامر حين حفره بالرمح فقاته . (٥) هو عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل الشيباني ، سمي بذلك لازدلافه إلى العدو وحده بين الصفيين ، وكان إذا اعتم لا يجرو بكبرى أن يلبس مثل عمامته . (٦) هم كليب ومهلل وأخهم قاطمة أم امرئ القيس . (٧) هم النمر بن قاسط من ذهل بن شيان ، منهم ماء السماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة . (٨) بقل : ظهر ونجم . (٩) هو دغفل بن حنظلة السوسى النسابية .

إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ وَالْعَبْدَ لَا تَعْرِفُهُ أَوْ تَحْمِلَهُ
 يا هذا ، إنك سألتنا فلم نكتفك شيئاً من أمرنا ، فمن الرجل ؟ قال : رجل
 من قريش ، قال : تَخْرُجُ ! أهل الشرف والرياسة ، فمن أى قريش أنت ؟ قال :
 من تيم بن مُوْتَة . قال : أفنكم قُصَى بن كلاب الذى جمع القبائل من فِهْر وكان
 يدعى مجمماً ؟ قال : لا ، قال أفنكم هِشَام الذى هَشَمَ الثريد لقومه ورجال مكة
 مُسْتَنْتَوْنَ عِجَاب^(١) ؟ قال : لا ، قال : أفنكم شَيْبَةُ الحمد مُطْعِم طير السماء الذى
 كَانَ بوجهه قرأ بفضى . ليل الظلام الدَّاحِى ؟ قال : لا ، قال : أفن المفيضين
 بالناس أنت^(٢) ؟ قال : لا ، قال : أفن أهل الندوة أنت ؟ قال : لا ، قال أفن
 أهل الرقادة^(٣) أنت ؟ قال : لا ، قال : أفن أهل الحجابة أنت ؟ قال : لا ، قال :
 أفن أهل السقاية^(٤) أنت ؟ قال : لا .

واجتذب أبو بكر زِمَامَ ناقته ورجع إلى رسول الله ، فقال دَغْفَلُ :
 صَادَفَ دَرَّ السَّيْلِ دَرًّا يَدْفَعُهُ يَرْفَعُهُ حِينًا وَحِينًا يَضَعُهُ
 أما والله لو ثبت لأخبرتكَ أنك من زَمَمَاتِ^(٥) قريش ، أو ما أنا دَغْفَلُ !
 فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال على : قلت لأبى بكر : لقد وقعت
 من الأعراى على بَاقِعَةٍ^(٦) ، قال : أجل ! إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء
 مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ^(٧) .

(١) مستنون : مجديون ، والأعجيب : الهزيل (٢) الإفاضة من مناقب قريش في الجاهلية ،
 وكانت في آل صفوان ، ثم انتقلت إلى عبد القادر وإليه كانت السدانة . (٣) كانت لبى نوبل .
 (٤) كانت لبى هاشم في العباس بن عبد المطلب وكذلك الحجابة . (٥) أصل الزمعات : الزوائد
 وراء الأرساغ . (٦) داهية كيس . (٧) ذهبت مثلاً .

١٦ - مُمَاقَرَة *

أُسْنَتٌ^(١) بنو تميم زمن علي بن أبي طالب؛ فالتجّموا أرضاً من أرض كلب من طرف السّماوة، فصنع غالب بن صعصعة - وهو أبو الفرزدق - طعاماً، ونَحَرَ محامِرَ، وجَفَنَهَا^(٢) في جفان، وجعل يُقَسِّمُها على أهل المزاي^(٣).

فأنت جَفَنَةٌ منها سَحِيمٌ بن وثيل الرياحي الشاعر، فكفأها وضرب الخدام التي أُنْتَه بها، واحتفظ^(٤) غالب من ذلك، فعانِب سَحِيماً؛ فسرى القول بينهما حتى تداعيا إلى المارقة^(٥) - وكان سَحِيم رجلاً فيه شَفِيفَةٌ^(٦) وأدّى للناس، وكان الناس شَأَقِي^(٧) القلوب عليه وكانت إبله خَوَاسِم^(٨) لم ترد.

ووردت إبلُ غالب؛ فطفق غالب يعقرها، وطافت الوغْدَانُ^(٩) والفتيان بالإبل، فحملت تحوُّزها من أطرافها إليه، ومع الفرزدق هِرَاوَةٌ يردُّ بها على أبيه، فيقول غالب: ردّ، أي بني، فيقول الفرزدق: اعقرْ أبت؛ حتى يحمر سائرُها؛ وكانت مائتين.

فقال طارق بن دَيْسَق - وكان يهاجى سَحِيماً:

أُبْلَغُ سَحِيماً إِنْ عَرَضْتُ وَجَحْدَرَأْ أَنْ الْخِزَازِي لَا يَنَامُ قُرَادَهَا

* ذيل الآمال: ٥٢، بلوغ الأرب: ٣ - ٣٠

- (١) أسنت: أجذبوا. (٢) جفن الناقة: نحرها وأطعم لهما في الجفان. (٣) أهل القدر. (٤) غضب (ه) المارقة: هي أن ينباري الرجلان كل واحد منهما يبادل صاحبه، فيعقر هذا عدداً من إبله، ويعقر صاحبه، فأيهما كان أكثر عقرأ غلب صاحبه ونفزه (٦) الشفيفة: سوء الخلق والفحش والبداهة. (٧) وغراء الصدور عليه. (٨) الخس من أطباء الإبل: أن ترعى ثلاثة أيام وترد الراعي، والإبل خواسم. (٩) الوغدان: جمع وغد، وهو خادم القوم.

أَقْدَحْتُمَا حَتَّى إِذَا أُورِيتُمَا لِلْعَرَبِ نَارَ كَمَا خَبَا إِيقَادُهَا
 لَوْ كَانَ شَاهِدَنَا الْجَمِيلُ وَمَالِكٌ لَحَبَّتْ^(١) لِفَاتِحٍ^(٢) وَلَهُ أَوْلَادُهَا
 أَطْرَدَتْهَا نَبِيًّا تَحِنُّ لِمَا لَهَا^(٣) مِنْ أَنْ يَكُونَ لِسَيْفِهِ إِيرَادُهَا
 فَأَقْبَلَتْ إِبِلُ سَحِيمٍ حَتَّى وَرَدَتْ عَلَيْهِ ، فَأَوْرَدَهَا كُنَّاسَةً^(٤) الْكُوفَةِ . وَجَمَلٌ
 يَبْقَرُهَا وَهُوَ يَقُولُ :

كَيْفَ تَرَى جُحَيْدِرًا يَرَعَاهَا بِالسَّيْفِ يُخْلِجُهَا إِذَا اسْتَحْضَلَهَا
 * يَنْثُرُ الْجَزِيرَ^(٥) مِنْ ذُرَاهَا *
 فَلَمْ يَنْفَعَهُ عَقْرُهَا إِيَّاهَا ، وَقَدْ سَبَقَهُ ظَالِبٌ بِالْعَقْرِ .

(١) اللحبت : الطريق الواضح ، ولحبت الطريق : سلكته (٢) الإفقال ، جمع أفيال : الفصيل .

(٣) كناسة الكوفة : محلة بها .

(٤) أصل الجزيرة : خصلة من صوف .

٥٢ - قد كان يسوءني أن تكون أميراً*

دخل صمصمة^(١) بن صوحان على معاوية أول ما دخل عليه ، وقد كان يبلغُ معاوية عنه كلام ، فقال له معاوية : يمين الرجل ؟ قال رجل من زِئَار . قال : وما زِئَار ؟ قال : إذا غزا احتَرَش^(٢) ، وإذا انصرف انكش ، وإذا لَقِيَ افترش .

قال : فن أي ولده أنت ؟ قال : من ربيعة . قال : وما ربيعة ؟ قال : كان يضزو بالثَّخِيل ، ويُغِير بالثَّلِيل ، ويجود بالثَّئِيل .

قال : فن : أي ولده أنت ؟ قال : من أَسَد . قال : وما أَسَد ؟ قال : كان إذا طلب أفضى^(٣) ، وإذا أدرك أَرْضَى ، وإذا آب أنفى^(٤) .

قال : فن أي ولده أنت ؟ قال : من جَدِيلَة ؟ قال : وما جَدِيلَة ؟ قال : كان يطيل النَّجَاد^(٥) ، ويُمدّ الجياد ، ويمجد الجِلَاد^(٦) .

قال : فن أي ولده أنت ؟ قال : من دُعْمَى . قال : وما دُعْمَى ؟ قال : كان ناراً ساطعاً ، وشرّاً قاطعاً ، وخيراً نافعاً .

* بلوغ الأرب : ٣ - ٢٠٥ ، صبح الأعشى : ١ - ٢٥٤ ، مروج الذهب : ٢ - ٧٧ ،
الأمل : ٢ - ٢٣٠

(١) صمصمة بن صوحان : كان خطيباً بليفاً له شعر ، شهد صفين مع علي ، وله مع معاوية مواقف ومات نحو سنة ٦٠ هـ (٢) احتَرَش : جمع وكب (٣) أفضى إلى الشيء : وصل .
(٤) أنفى بصره : هزله ، وتوبه أبله (٥) النجاد : حائل السيف .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى ، قال : وما أفصى ؟ قال : كان ينزل القارات ^(١) ، ويكثر الغارات ؛ ويحمي الجارات .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال : وما عبد القيس ؟ قال : أبطال ذادة ، جحاجة ^(٢) قادة ، صناديد سادة .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أفصى . قال : وما أفصى ؟ قال : كان ذا رماح مشرعة ^(٣) ، وقدور متزعة ، وجفان مفرغة .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من لكيز . قال : وما لكيز ؟ قال : كان يبأشر القتال ، ويمأنيق الأبطال ، ويبدّد الأموال .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عجل ؟ قال : وما عجل ؟ قال : الليوث الضراغة ^(٤) ، الملك التماقة ^(٥) ، والقروم القشاعة ^(٦) .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من كعب ، قال : وما كعب ؟ قال : كان يسر ^(٧) الحرب ، ويميد الضرب ، ويكشف الكرب .

قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك . قال : وما مالك ؟ قال : الهمام للهمام ، والقمقام للقمقام .

قال معاوية : والله ما تركت لهذا الحى من قریش شيئاً ! قال : بل تركت أكثره وأحبّه . قال : وما هو ؟ قال : تركت لهم البرّ والندر ^(٨) ، والأبيض

(١) القارات : جمع قارة ؛ وهى الجبل الصغير . (٢) جحاجة : جمع جعيج : السيد .

(٣) متزعة : مملوءة . (٤) جمع ضراغام : الأسد . (٥) جمع ققام : السيد . (٦) القروم : الليوث ، والقشع : الأسد أو الرجل اللسن ، ويقصد المحرب . (٧) سمر العرب : أوقدها . (٨) كناية عن البادية والمدن .

والأصفر، والصفاء والشعر^(١)، والقبّة والفقّر، والسربر والمنبر، والمثلث إلى الخشّر.

فقال: أما والله لقد كان يسوءني أن أراك أسيراً. فقال: وأما والله لقد كان يسوءني أن أراك أميراً. ثم خرج، فبعث إليه فردّه ووصله وأكرمه.

٥٣ - لترجمن بأكثر مما آب به معدّي*

كان الوليد بن جابر بن ظالم الطائي ممن وفد على رسول الله، ثم صَحِبَ علياً، وشهد معه صفين^(٢)، وكان من رجاله المشهورين، ثم وفد على معاوية، فدخل عليه في جملة الناس.

فلما انتهى إليه استنسبه^(٣) فأنشَبَ له فقال له: أنت صاحبُ ليلة الهرير^(٤)؟ قال: نعم، قال: والله ما تخلو مسامعي من رجزك تلك الليلة، وقد علا صوتك أصوات الناس، وأنت تقول:

(١) الشعر: موضع مناسك الحج.

* ابن أبي الحديد: ٤ - ٤٩.

(٢) موضع قرب الرقة بشاطئ الفراء كانت به الواقعة العظمى بين علي ومعاوية صفر سنة ٣٧ هـ (٣) استنسه: سأله أن ينتسب. (٤) سقرت بين علي ومعاوية السقراء: ليصلحوا بين الفريقين وسكن ذهب سميم سدى، فابتدأ القتال ثانية في يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ هجرية من غير أن يقاتل كلا الفريقين وجهاً لوجه، بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هناك إذا مضت سبعة أيام قال على لجندة: حتى متى لا تناهض هؤلاء القوم بجمعنا! فباتوا يصلحون أروهم، وفي الصباح زحف على مجنوده، وزحف معاوية بمجنوده، واقتتل الفريقان، ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم ولما أمسى الماء لم ينفصل، بل استمر القتال شديداً طول الليل، ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير.

شَدُّوا فِدَاءَ لِسَمِئِ وَأَبِ فَإِنَّمَا الْأَمْرُ غَدًا لِمَنْ غَلَبَ
هَذَا ابْنُ عَمِّ الصُّطْفَى وَالْمُنْتَخَبُ تَنْمِيهِ لِلْمِلَاءِ سَادَاتُ الْعَرَبِ
لَيْسَ بِمَوْصُومٍ إِذَا نَصَرَ^(١) النَّسَبَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى وَصَامَ وَاقْتَرَبَ

قال : نعم ، أنعم ، أنا فأنزلها . قال : فلماذا قلتم ؟ قال : لأننا كنا مع رجل لا نعلم
عِصْلَةً تُوجِبُ الْخِلَافَةَ وَلَا فَضِيلَةً نَصِيرُ إِلَى التَّقْدِيمَةِ إِلَّا وَهِيَ مَجْمُوعَةٌ لَهُ . كَانَ أَوَّلُ
النَّاسِ سِلْمًا^(٢) ، وَأَكْثَرُهُمْ عِلْمًا ، وَأَرْجَحُهُمْ حِلْمًا ، فَاتَّ الْجِيَادُ فَلَا يُشَقُّ غَبَارُهُ ،
وَأَوْضَحَ مِنْهُجِ الْهَدَى فَلَا يَبِيدُ مَنَارُهُ ، وَسَلَكَ الْقَصْدَ فَلَا تَدْرُسُ أَنَارُهُ ، فَلَمَّا ابْتَلَانَا
اللَّهُ تَعَالَى بِإِفْتِقَادِهِ ، وَحَوَّلَ الْأَمْرَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، دَخَلْنَا فِي جَهَنَّمَ الْمُسْلِمِينَ ؛
فَلَمْ تَنْزِعْ بَدَأً عَنْ طَاعَةٍ ، وَلَمْ تَصْدَعْ صَفَاةَ جَمَاعَةٍ .

على أَنَّ لَكَ مِمَّا ظَهَرَ ، وَقُلُوبُنَا بِيَدِ اللَّهِ ، وَهُوَ أَمْلَكُ بِهِمَا مِنْكَ ؛ فَاقْبَلْ
صَفَوْنَا ، وَأَعْرِضْ عَنْ كَدَرِنَا ، وَلَا تُتْرِكْ كَوَامِينَ الْأَحْقَادِ ؛ فَإِنَّ النَّارَ
تُقَدِّحُ بِالزُّنَادِ .

قال معاوية : وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَنِي يَا أَخَا طَيْيِّ بِأَوْيَاشِ^(٣) الْعِرَاقِ ، أَهْلُ النِّفَاقِ
وَمَعْدَنُ الشَّقَاقِ ، قَالَ : يَا مَعَاوِيَةَ ، هُمُ الَّذِينَ أَشْرَفُوكَ بِالرِّيقِ ، وَجَبَسُوكَ فِي الضِّيقِ ،
وَذَادُوكَ عَنْ سَنَنِ الطَّرِيقِ ، حَتَّى لُدَّتْ مِنْهُمْ بِالْمَصَاحِفِ ، وَدَعَوْتَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَقِ
بِهَا وَكَذَبَتْ ، وَمَنْ آمَنَ بِمَنْزِلِهَا وَكَفَرَتْ ، وَعَرَفَ مِنْ تَأْوِيلِهَا
مَا أُنْكَرَتْ .

فغضب معاوية ، وأدار طرفه فيمن حوله ، فإذا جلهم من مضر ونفر قليل من
اليمَن ، فقال : أَيُّهَا الشَّقِيُّ الْخَائِنُ ، لِإِخْلَالِ أَنَّ هَذَا آخِرُ كَلَامٍ تَفَوَّهْتَ بِهِ .

(١) كل ما أظهر فقد نس . (٢) لم : الإسلام . (٣) الأويش : الأخلاط .

وكان عقير بن ذى يَزَنَ بباب معاوية حينئذ فعرف موقفَ الطائي ومراد معاوية ، فخافه عليه ، فهجم عليهم الدَّار ، وأقبل على اليمانية ، فقال : شامت الوجوه ذُلًّا وقُلًّا^(١) ، وجدعًا وقُلًّا ا

ثم التفت إلى معاوية فقال : إى والله يا مُعاوية ، ما أقول قولى هذا حبا لأهل العراق ، ولا جنوحاً إليهم ، ولكن الحفيظة^(٢) تذهب الغضب .

لقد رأيتك بالأمس خاطبت أخا ريبة - بغير صفصة بن صوحان - وهو أعظمُ جرماً عندك من هذا ، وأذكى قلبك ، وأقبح فى صفاتك ، وأجدر فى عداوتك ، وأشدُّ اتصافاً فى حربك ، ثم أثبتته وسرَّحته ، وأنت الآن تُجمع على قتل هذا ، زعمت استصغاراً لجماعتنا ، وأنا لا نمرُّ ولا نُحِلُّ^(٣) ، ولمعمرى لو كنتك أبناء قحطان إلى قومك لكان جدك العائر ، وذكرك الدائر ، وحدك المفلول ، وعرشك المفلول ، فازرع^(٤) على ظلمك ، وأملونا على بُللاننا^(٥) ، ليسهل لك حزننا ، ويطمئن لك شاردنا ، فإننا لا نرَام بوقع الضيم ، ولا تلمظ^(٦) جرع الخسف ، ولا نُفمر بنهار القتن ، ولا ندر على الغضب .

قال معاوية : الغضبُ شيطان ، فازرع على نفسك أيها الإنسان ؛ فإننا لم نأت إلى صاحبك مكروهاً ، ولم نرتكب له مُقْصِباً ، ولم نتهك منه محرماً ، فدونسكه ، فإنه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره .

(١) القل : القلة . (٢) الحفيظة : الحميد . (٣) يقال فلان ما يمر وما يحل : أى لا يضرب ولا ينفع

(٤) اربع على ظلمك : ارفى على نفسك فإنك ضعيف فاته حما لا تطيقه . (٥) يقال : طويت فلاناً على بلانه ، وتمتعت بالام أيضاً : إذا احتملته على ما فيه من الإساءة والعب ، ودأبته وفيه بنية .

(٦) تلمظ : تتفوق .

فأخذ عفير بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله لثوبين بأكثر مما آتب به ممدى .
وجمع من بدمشق من البغانية ، وفرض على كل رجل دينارين في عطائه فبلغت أربعين ألفاً ، فتمجّلها من بيت المال ، ودفعها إلى الوليد ، ررده إلى العراق .

٤٥ — ما تكشفت الأيام منك إلا عن سيف صليل*

وفد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد ولزياد بن سمية وعقبة بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وعمر بن العاص وللمغيرة بن شعبة وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال المهدي بمبدأ الله بن عباس ، وما كان شجرة بيننا وبينه وبين ابن عمه^(١) ، ولقد كان نصبه للتحكيم فدفع عنه^(٢) ؛ فحرّ كوه على الكلام لنبلغ حقيقة صفته ، وثق على كونه معرفته ؛ ونعرف ما حُرف عنا من شبا حده ، ووورى عنا من دهاء رأيه ؛ فربما وصّف المرء بغير ما هو فيه ، وأعطى من الثقت والاسم ما لا يستحقه .

ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس ، فلما دخل واستقرّ به المجلس ابتداء ابن أبي سفيان ، قال : يا بن عباس ، ما منع علياً أن يوجّه بك حكماً ؟ فقال :

* ابن أبي الحديد : ٣ - ١٠٥ .

(١) يريد على بن أبي طالب . (٢) حينما خرج الخوارج على علي بن أبي طالب وأصروا على التحكيم أشار بابن عباس أو الأشتر حكماً ، ولكنهم بدأوا لا تحكيم أبي موسى الأشمري .

أما والله لو فعل لَقَرَنَ عَمراً بِصَعِيَّةٍ^(١) من الإبل بوجع كتفيه ورأسها^(٢)، ولأذهأت عقله ، وأَجْرَضَتْهُ بَرِيْقَهُ^(٣) وَقَدَحَتْ في سويداء قلبه ؛ فلم يُبْرِمْ أمراً ، ولم ينفص تراباً إلا كنتُ منه مرأى ومسمع ، فإن نسكته أَرَمْتُ^(٤) قواه ، وإن أَرَمَهُ فَصَمْتُ^(٥) عراه ؛ بِقَرَبِ مَقُولِ^(٦) لا يُفْلُ حَدُّهُ ، وأصالة رَأْيِ كَمُتَاحِ^(٧) الأجل لا وَزَرَ منه ، أصدعُ به أديمه ، وأفْلُ به شبا حَدُّهُ ، وأشجِدُ به عزائم المتقين ، وأزيج به شبه الشاكين .

قال عمرو بن العاص : هذا والله يا أمير المؤمنين مجوم^(٨) أول الشر وأقول آخر الخير ، وفي حَسَمِهِ قطعُ مادته ؛ فإدْرُهُ بالحملة ، وانتهز منه الفرصة ، واردع بالتنكيل به غيره ، وشرِّدْ به مَنْ خَلَفَهُ .

فقال ابن عباس : يا بن النّافعة ؛ ضلّ الله عقلك ، وسَفَهَ حِمْلَكَ ، ونطق الشيطانُ علماً لسانك ا هلا توليت ذلك نفسك يوم صفين ، حين دُعيت نَزَالَ^(٩) ، ونسكافتم الأبطال ، وكثرت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً ، فأنسكفأُ محموك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت الكواثر^(١٠) من الموت أعددت حيلة السلامة قبل لقائه ، والانسكفاء عنه بعد إجابة دُعائه ، ففجعت - رجاء النجاة - عورتك ، وكشفت له - خوف بأسه - سوءتك ؛ حذراً أن يَصْطَلِحَكَ بِسَطَوْتِهِ ، أو ياتهمك بمجملته .

(١) الصعبة : مؤنث سبب ، والصعب من الدواب تقيض الذلول . (٢) مراسها : علاجها (٣) جرض بريقه : ابتله بمجهده . (٤) أرم قوته : أضفها ولينها . (٥) يقال أرم الحبل : قتله شديداً ، فصمت : حلت . (٦) القرب : حد كل شيء ، والمقول : اللسان (٧) الأجل المتاح : المقدور . (٨) نجوم : ظهور . (٩) أي حين قال الأبطال بعضهم ليمن : نزال . (١٠) الكواثر : جمع كوتر ، وهو الكثير من كل شيء .

نم أشرت على معاوية كالتناصح له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكافحته ، رجاء أن تكفي مثوته وتقدم صورته ، فَعَلِمَ غِلَّ صدرك ، وما أحتت عليه من التفائق أضلحك ، وعرف مقرَّ سَهْمَيْكَ في غرضك ؛ فأَكْثَفَ غَرْبَ لسانك ، وأقمع عَوَزًا^(١) . لَفْظُكَ ، فَإِنَّكَ بَيْنَ أَسَدٍ خَذِرٍ ، وبحرٍ زَاخِرٍ ؛ إِنْ تَبَرَّزْتَ^(٢) الأَسَدَ افْتَرَسَكَ ، وَإِنْ عُثِمَتْ فِي الْبَحْرِ قَمَسَكَ^(٣) .

فقال مروان بن الحكم : يا بن عباس ؛ إِنَّكَ لَتَصْرِفُ^(٤) نَابَكَ ، وتُورِي نَارَكَ ، كأنك ترجو الغلبة ، وتوأمِّلُ العافية ، ولولا حِلْمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ لَتَنَاقَلَ لِسُكُم بِأَقْصَرِ أُنَامِلِهِ ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٥) ، ولعمري لئن سَطَّابَكُمْ يَا خُذْنَ نَعْضَ حَقِّهِ مِنْكُمْ ، وَلئن عَفَا عَنْ جَرِيرِكُمْ^(٦) قَدِيمًا نَسِبَ إِلَى ذَلِكَ .

فقال ابن عباس : وَإِنَّكَ لَتَقُولُ ذَلِكَ بِإِعْدَوْ اللَّهِ ، وَطَرِيدِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَالْبَاحِ دَمِهِ^(٧) ، والداخل بين عَمَانٍ وَرَعِيَّتِهِ بِمَا حَلَمَ عَلَى قَطْعِ أَوْدَاجِهِ^(٨) وَرُكُوبِ أَثْبَاجِهِ^(٩) . أَمَا وَاللَّهِ لَوْ طَلَبَ مُعَاوِيَةُ ثَمَارَهُ لَأَخَذَكَ بِهِ ، وَلَوْ نَظَرُ فِي أَمْرِ عَمَانَ لَوَجَدَكَ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ . وَأَمَا قَوْلُكَ لِي : إِنَّكَ لَتَصْرِفُ نَابَكَ وَتُورِي نَارَكَ ، فَسَلَّ مُعَاوِيَةُ وَهَمًّا يُخْبِرُكَ لَيْلَةُ الْهَرِيرِ^(١٠) ، كَيْفَ ثَبَاتِنَا لِلْمَثَلَاتِ^(١١) ، وَاسْتِخْفَافِنَا بِالْمَعْضَلَاتِ ، وَصَدَقَ جِلَادُنَا عِنْدَ الْمَصَاوِلَةِ ، وَصَبْرُنَا عَلَى اللَّأْوَاءِ^(١٢) وَالْمَطَاوِلَةِ ، وَمَصَاحِقَتُنَا بِجَاهِنَا السُّبُوفِ الْمُرْهَفَةِ ،

(١) العوزاء : الكلمة أو الفعلة القبيحة . (٢) تبرز : يبرز وخرج إلى التفار . (٣) القمس : الغلبة بالنفس . (٤) الصريف : صوت الأنياب ، يقال : صرف يابه وبنايه ، إذا صوت بها . (٥) الصدر : الرجوع . (٦) الجريرة : الذنب . (٧) في قصة عثمان . (٨) جمع وديج ، وهو العرق الذي يقطعه الذابح . (٩) الشج : ما بين السكاهل إلى الظهر ووسط الشيء ومنطبه . (١٠) ليلة الهرير هي تلك الليلة التي استمر فيها القتال طول الليل بين أنصار معاوية وعلى في حرب صفين وأوشك جيش علي أن تكون له الغلبة . (١١) جمع مثلة (يضم التاء وسكونها) ، من مثلت بالقتيل إذا نكلت به . (١٢) اللاؤاء : الشدة .

ومباشرتنا بنحورنا حدّ الأسيّة؛ هل خُفنا^(١) عن كرائم تلك المواقف، أم لم نبدل
مُهَجَّنَا للعُتْلَف ! وليس لك إذ ذاك فيها مقامٌ محمود ، ولا يومٌ مشهود ، ولا أثرٌ
معدود ، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأفلقك ، فازبغ^(٢) على ظلمك ، ولا تنعرض
لا ليس لك ؛ فإنك كالغفروز في صفد^(٣) ، لا يهبط برجل ، ولا يرفأ^(٤) بيد .

فقال زياد : يابن عباس ؛ إني لأعلم مامنع حسناً وحسيناً من الوفود معك على
أمير المؤمنين إلا ما سوّلتُ لها أنفسهما ، وغرّما به من هو عند البأساء يُسألُهُما^(٥) .
واسمُ الله لو وليتهما لأدأبا^(٦) في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقلّ بمكانهما
لُيْهُهُما .

فقال ابنُ عباس : إذن والله يتصر دونهما باعك ، ويضيق بهما ذراعك ، ولو
رمت ذلك لوجدت من دونهما فئة صدقة^(٧) صبراً على البلاء ، لا ينجمون عن اللقاء ،
فلعرّكوك بكلّ كلم^(٨) ، ووطئوك بمناصمهم^(٩) ، وأوجرؤك مشق^(١٠) رماحهم
وشيفار سيوفهم ، ووخر أسدنتهم ، حتى تشهد بسوء ما أتيت ، وتبين ضياع الحزم
فيما جنيت ؛ فحذار حذار من سوء النية ؛ فإنها تردّ الأمانة ، وتكون سبباً لفساد
هذين الحيين بعد صلاحهما ، وسمياً في اختلافهما بعد ائتلافهما ، حيث لا يضرهما
إبتسأسك ، ولا يغني عنهما إبتناسك^(١١) .

فقال عبد الرحمن بن أم الحكم : لله درّ ابن ملجم^(١٢) ! فقد بنّغ الأمل ،

(١) خام عنه : نكس وجين . (٢) اربع على ظلمك : ارفق على نفسك واسكت على ما بك .
(٣) الصفد : الوثاق (٤) رفاً في الدرجة ، أى صعد (٥) أسلمه : خذله (٦) أدأبا :
أجهدا (٧) أى ذات صدق وصبر (٨) بكلّ كلمهم : بصورهم (٩) المناصم : خف البعير
(١٠) يقال : أوجره الريح ، أى طمته به في فيه . والمشق : الصنع الخفيف السريع .
(١١) الإبتسأس أن يقال للثاقعة عند الحلب : بس بس ، والإبتناس : خلاف الإبتساش .
(١٢) هو عبد الرحمن بن ملجم قاتل على .

وَأَمَّنَ الْوَجِلَ، وَأَحَدَ الشُّفْرَةِ، وَأَلَانَ الْمُهْرَةَ، وَأَدْرَكَ النَّارَ، وَنَفَى الْعَارَ، وَفَارَزَ بِالْمَزَلَةِ الْعُلْيَا، وَرَقَى الدَّرَجَةَ الْقُصْوَى .

فَقَالَ بَنُ عَبَّاسٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَّعَ كَأْسَ حَقِّهِ بِيَدِهِ ، وَعَجَّلَ اللَّهَ إِلَى النَّارِ بِرُوحِهِ ؛ وَلَوْ أَبْدَى لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صَفْحَتَهُ لِأَلَمَقَّةِ صَابَأَ^(١) ، وَسَقَاهُ سِجَامًا^(٢) ، وَأَخْلَقَهُ بِالْوَلِيدِ وَعَتَبَةَ وَحَنْظَلَةَ^(٣) ، فَكَلَّمَهُمْ كَانِ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً ، وَأَمْضَى عَزِيمَةً ، فَكَرَى بِالسَّيْفِ هَامَهُمْ^(٤) ، وَرَمَلَهُمْ^(٥) بِدِمَائِهِمْ ، وَكَرَى الذَّنَابَ أَشْلَاهُمْ^(٦) ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَحِبَّائِهِمْ ، أُولَئِكَ حَصَبُ^(٧) جَهَنَّمَ لَهُمَا وَارِدُونَ فَهَلْ نَحِسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا^(٨) ! وَلَا غُرُورَ إِنْ خُلِيَ ، وَلَا وَصْمَةَ إِنْ قُتِلَ .

فَقَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُمَيْةٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ أَشْرَتْ عَلَى عَلِيٍّ بِالنَّصِيبَةِ ، فَآثَرَ رَأْيَهُ ، وَمَضَى عَلَى غُلُوِّائِهِ ، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ عَلَيْهِ لَا إِلَهَ ، وَإِنِّي لِأَحْسِبُ أَنَّ خَلْفَهُ يَفْقَدُونَ بِمَنْجَعِهِ .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ وَاللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَعْلَمَ بَوُجُوهِ الرَّأْيِ ، وَمَعَاقِدِ الْحُزْمِ ، وَتَعَرِّيفِ الْأُمُورِ ، مِنْ أَنْ يَقْبَلَ مَشُورَتَكَ فَيَأْتِيَ اللَّهَ عَنْهُ ، وَعَنْفَ عَلَيْهِ : قَالَ سَبْحَانَهُ : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّنَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ .

وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى ذِكْرِ مَبِينٍ ، وَآيَةٍ مَتْلُوةٌ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ . وَهَلْ كَانَ يَسُوعُ لَهُ أَنْ يُنْحَكَمَ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفِي دِمَاءِ الْمُؤْمِنِينَ

(١) العباب : عصارة شجر مر . (٢) السام : جمع سم . (٣) هؤلاء قتلوا يوم بدر .

(٤) جمع هامة ، وهي الرأس . (٥) رملهم : لطمهم . (٦) الأشلاء : جمع شلوا ، وهو الضو .

(٧) الحصب : ما يرمى في النار . (٨) الركز : الصوت الخفي .

من ليس بآمون عنده ، ولا موثوق به في نفسه ، هيئات هيئات ا هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُبْطِنَ خلافَ ما يظهر إلا للتقية^(١) ، ولاتَ حينَ تَقِيَّةٍ ، مع وضوح الحق وثبوت الجبان ، وكثرة الأنصار ؛ يمضي كالسيف المصلت^(٢) في أمر الله ، مؤثراً لطاعة ربه والتقوى على آراء أهل الدنيا .

قال يزيد بن معاوية : يا ابن عباس ؛ إنك لتنطقُ بلسانٍ طَلَقَ^(٣) ، تنجي عن مكنون قلبٍ حرق^(٤) ، فاطوٍ ما أنت عليه كسحاً ، فقد محاضوه حقناً ظلمةً باطليكم .

قال ابن عباس : مهلاً يزيد ا فوالله ما صفتِ القلوب لكم منذ تكدرت بالمداوة عليكم ، ولا دنت بالحجة إليكم منذ تأت بالبعضاء عنكم ، ولا رضيت اليوم منكم ما سخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلَّ^(٥) الأيامُ نستقص ما شدَّ عنا ، ونسترجع ما ابتزَّ منا ، كيلاً بكيل ، ووَزَنًا بوزن ؛ وإن تكن الأخرى فسكني بالله ولياً ووكيلاً على المعتدين علينا ا

فقال معاوية : إن في نفسى منكم لحزازات يا بني هاشم ، وإلى خلليق أن أدرك فيكم النار ، وأنقبي العار ؛ فإن دماءنا قبيلكم ، وظلامتنا فيكم .

قال ابن عباس : والله إن رُمِتَ ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسداً مُخَدَّرَةً^(٦) ، وأفاعى مُطْرِقَةً لَا يَفْئُتُهَا^(٧) كثرةُ السلاح ، ولا تعضها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ، يضربون قُدُماً قُدُماً من ناوئهم ، يهون عليهم نُبَاح الكلاب ، وعواء الذئاب ، لا يفاتون بوتر ، ولا يسبقون إلى كريم ذِكر ، قد

(١) التقية : الحفاظة على النفس . (٢) المصلت : للسلول . (٣) طلق : ذلق (٤) حرق : عروق . (٥) يقال : أداله الله من عدوه : قصره عليه . (٦) أسدر الأسد : لزوم الأجرة . (٧) المراد : لا يسكتها .

وطنوا على الموت أنفسهم ، وسمت بهم إلى العلياء همهم كما قالت الأزدية :

قومٌ إذا شهدوا الهياج فلا ضَرْبٌ يُنْهِيهِمْ ولا زَجْرٌ
وكأهم آسادُ غِيْنَةٍ^(١) قد غَرِيَتْ^(٢) وبِلَ متونها القطارُ

فلم يكون منهم بحيث أعددت ليلة الهير للهرب فرسك ، وكان أكبرهمك
سلامة حشاشة نفسك ، ولولا طَفَامٌ^(٣) من أهل الشام وقوك بأنفسهم ، وبذلوا
دونك مهبهم ؛ حتى إذا ذاقوا وَخَزَ الشُّفَارِ ، وأيقنوا بحلول الدمار ، رفعوا المصاحف
مستجيرين بها ، وعائذين بعصمتها ، لكنك شِلَوْا مطروحاً بالمرء ، تسفى عليك
رياحها ، ويمتورك ذئابها .

وما أقول هذا أريد صَرْفَكَ عن عزيمةك ، ولا إزالتك عن موقود نيتك ،
لكن الرحم التي تمطف عليك ، والأوامر التي توجب صَرْفَ النصيحة إليك ا
فقال معاوية : لله دَرَكُ يا بنَ عباس ا ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف
صقيل ، ورأى أصيل ، وبالله لو لم يله هاشمٌ غيرك لما نقص عددهم ، ولو لم يكن
لأهلك سواك لكان الله قد كثَّرم .
ثم نهض ابنُ عباس وانصرف .

(١) النينة : الأجمة . (٢) غرئت : جاءت . (٣) الطفام : أوعاد الناس :

٥٥ - لولا ما جعل الله لنا في يدك ما أتيناك *

بيننا معاوية جالساً يوماً وعنده عمرو بن العاص إذا قال الآذن : قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، فقال عمرو : والله لأسوأته اليوم ! فقال معاوية : لا تفعل ! يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف^(١) منه ، ولعلك إن فعل تظهر لنا من منقبته^(٢) ما هو خفي عنا ، وما لا نحب أن نعلمه منه .

وغشيهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرّبه ، قال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من عليّ جهاراً غير سائر له ، وتلّبه تلّباً قبيحاً ؛ فالتمع لون عبد الله واعتراه أفكـل^(٣) حتى أزعجت خصاله^(٤) ثم نزل عن السرير كالفتيق^(٥) ؛ فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ! فقال عبد الله : مه ، لا أم لك ! ثم قال :

أظنّ الحلم دلاً على قومي وقد يتجهل الرجلُ الحلمُ

ثم حَسَرَ عن ذراعيه ، وقال : يا معاوية ؛ حَتَامَ تنجرح غيظك ، وإلام الصبرُ على مكروه قولك وسبّي أدبك ، وذمّي أخلاقك ، هبّلتك الهَيُولُ^(٦) ! أما ينزجرك ذِمَامُ المجالسة عن القُدْحِ للجليـسك إذا لم تسكن حرمةً من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ! أما والله لو عطفتك أبواصرُ الأرحام ، أو حاميت على سهمك من

* ابن أبي الحديد : ٢ - ٩٠٤ .

(١) انتصف منه : استوفى حقه منه كاملاً . (٢) اللقبة : المغفرة . (٣) الأفكـل : الرعدة . (٤) الخصلة : كل قطعة من لحم عظمت أو صغرت ، وجعها الخصال . (٥) الفتيق : النحل المكرم لا يؤذى لكرامته على أهله . (٦) هيل : تكل ، والهَيُول : هي من النساء التي لا يبق لها ولد .

الإسلام ، ما أرعيت بنى الإمام أغراض قومك؛ وما يجهل موضع الصفوة إلا أهل الجفوة .

وإنك لتعرف قريشاً وصفوة غرائزها فلا يدعونك تصوب ما فرط من خطئك في سفك دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين إلى التماذى فيما قد وضع لك الصواب في خلافه ؛ فاقصد لمهج الحق ؛ فقد طال سمحك^(١) عن سبيل الرشd ، وخبطك في ديجور ظلمة النى ؛ فإن أبيت ألا تتابعنا فأعفينا من سوء القالة فينا ، إذا ضمنا وإياك الندى^(٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله حبيبك ! فوالله لولا ما جعل الله لنا في يدك ما أتيناك .

ثم قال : إنك إن كلفتنى ما لم أطق ساءك ما سئرت منى من خلق .

فقال معاوية : يا أبا جعفر ؛ نُفِّر الخطأ ، أقسمت عليك لتجلسن ، لعن الله من أخرج ضب صدرك من وجاره^(٣) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلم يسكن تحتك ومنصبك لكان خلقك وخباياك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين ، وسيد بنى هاشم

فقال عبد الله : بل سيد بنى هاشم : حسن وحسين ، لا ينازعهما في ذلك أحد . فقال : يا أبا جعفر ؛ أقسمت عليك لما ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كأنه ما كانت ! ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما في هذا المجلس فلا ! ثم انصرف فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكانه رسول الله في مشيته وخلقه وخلقه ، وإنه لمن مشكاته^(٤) ؛ ولوددت أنه أخى بنفيس ما أملك .

(١) الغم : التردد في الضلال . (٢) الندى : مجلس القوم . (٣) الوجار : جهر الضبع وغيرها .

(٤) أى أنها من شىء واحد .

ثم التفت إلى عمرو فقال يا أبا عبد الله ؛ ما تراه منعه من الكلام معك ؟
قال : ما لا خفاء به عنك ، قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ، لا والله ،
ولكنه ازدراك واستحقرك ، ولم يرك لك الكلام أهلاً ، أما رأيت إقباله على-
دونك ، ذاهباً بنفسه عنك ؟ فقال عمرو : فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟
فقال معاوية : أرغب إليك يا أبا عبد الله ؛ فلات حين جواب فيما يرى اليوم ،
ونهض معاوية وتفرق الناس .

٥٦ — ذهب قريش بالمكارم والعلا*

شَبَّ عبدُ الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمْلٌ ، هل تذكرين يوم عَزَّالٍ إذ قطعنا مَسِيرَنَا بالقَمَـئِي
إذ تقولين : عَمْرُكَ اللهُ ، هل شَيءٌ وإنَّ جَلَّ سوف يُسْلِيكَ عَنِي !

وبلغ ذلك يزيد بن معاوية ؛ فغضب ، ودخل على معاوية وقال :
يا أمير المؤمنين ؛ ألا ترى إلى هذا العِلَجِ^(١) من أهل يثرب يتهمكم بأعراضنا ،
ويتشَبَّ بنسائنا ! قال : ومن هو ؟ قال : عبد الرحمن بن حسان ، وأنشد ما قال .
فقال : يا يزيد ؛ ليست العقوبة من أحدٍ أقبَحَ منها من ذوى القدرة ؛ ولكن
أمهل ، حتى يقدّم وفدُ الأنصار ، ثم ذكّرني .

فلما قدم وفدُ الأنصار ذكّره به ، فلما دخلوا عليه قال : يا عبدَ الرحمن ؛
ألم يبلغني أنك تشَبَّ برملة بنت أمير المؤمنين ؟ قال : بلى ، ولو علمتُ أن أحداً
أشَرَفَ به شعري أشرفَ منها لذكرته ! قال : وأين أنت عن أخوتها هند ؟ قال :
وإن لها لأختاً ! قال : نعم - وإنما أراد معاوية أن يشَبَّ بهما جميعاً فيكذب نفسه -
فلم يرضَ يزيد ما كان من معاوية .

فأرسل إلى كعب بن جُمَيْل فقال : اهبِ الأنصار ، فقال : أفرق^(٢) من أمير المؤمنين ،
ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر ، قال : ومن هو ؟ قال : الأخطل^(٣) .

* الأغاني : ١٤ - ١٤٢ .

(١) الطلج : الرجل الشديد الفليظ . (٢) أفرق : أخاف . (٣) الأخطل : شاعر اشتهر فعبد
بني أمية بالشام وأكثر من مدح ملوكهم ، وتهاجى مع جرير والفرزدق فتناقل الرواة شعره ،
توفي سنة ٩٠ هـ .

فدعاه ، فقال : اهج الأنصار ، قال : أفرق من أمير المؤمنين ، فقال :
لاتخف شيئاً ، أنا لك بذلك ، فبهجهم فقال :

وإذا نسبت ابن الفريضة^(١) خلته كالجيش بين حمارة وحمار
لن الإله من اليهود عصاة بالجزع بين جلاجل وصرار^(٢)
قوم إذا هذر المصير رأيتهم حمرا عيونهم من السطار^(٣)
خلوا للكارم لستموا من أهلها وخذوا ماسحكم^(٤) بنى النجار
ذهبت قريش بالكارم والملا واللوم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير ؛ فدخل على معاوية فحسر عن رأسه عمامته ،
وقال : يا أمير المؤمنين ؛ أترى لوماً ؟ قال : لا ، أرى كرماً وخيراً ، ما ذاك ؟
قال : زعم الأخطل أن اللوم تحت عمامنا ، قال : أو فمل ؟ قال : نعم ، قال : لك
لسانه .

وكتب فيه أن يوقى به ، فلما أتى به ، سأل الرسول ليدخل إلى يزيد أولاً ،
فدخله عليه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف ، قال : لاتخف شيئاً ، ودخل على
معاوية ، فقال : علام أرسل إلى هذا الرجل وهو يرى من وراء جرتنا^(٥) ؟ قال :
هجا الأنصار ، قال : ومن زعم ذلك ؟ قال : النعمان بن بشير . قال : لا يقبل
قوله عليه ، وهو يدعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالبيئة ، فإن أثبت شيئاً أخذت به له .
فدعاه بالبيئة ، فلم يأت بها غلى سبيله ، فقال الأخطل في يزيد :

(١) فريضة : هي أم حسان بن ثابت . (٢) صرار : اسم جبل ، وجلجل : مكان .
(٣) السطار من أسماء آخر التي اعتصرت من أبنكار الضب . (٤) الماسح : جمع مسحة وهي
اخرفة من الحميد . (٥) الجرة : اجتماع القبيلة الواحدة على من تاواها .

صَحَا الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ غُطَّانٍ فَاتَى بِهِنَّ أَمِيرٌ مُسْتَبِدٌّ فَأَصْعَدَا ٥
وَقَرَّبَيْنَ لِلْبَيْنِ الْجَمَالَ وَزَيَّنْتِ بِأَحْمَرٍ مِنْ لَكْ ٦ المراق وأسودا
فَطَرْنَنَ بَوَحْشٍ مَا تَوَانِيكَ بَعْدَ مَا دَنَتْ نَهْضَةُ الْبَازِي لِأَنْ يَتَصَيَّدَا
وَلَمَّا غَدَاةَ اسْتَعْمِرْتِ ٧ أُمُّ مَالِكٍ لِرَاضٍ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَمْهَدَا ٨
وَلَوْلَا يَزِيدُ ابْنُ الْمَلُوكِ وَسَيِّبُهُ تَجَلَّتْ حِدْبَارًا ٩ مِنَ الشَّرِّ أَنْ تُكْذَا
فَكَمْ أَنْقَذَنِي مِنْ جَرُورٍ ١٠ حِبَالَكُمْ وَخَرَسَاءَ ١١ لَوِ يَمِيهَا الْفِيلُ بِلْدَا ١٢
إِلَى أَنْ قَالَ :

أَبَا خَالِدٍ ؛ دَافَعَتْ عَنِّي عَظِيمَةٌ وَأَدْرَكْتَ لَحْيِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدا
وَأَطْفَاتٌ عَنِّي فَارْتُعَانُ بَعْدَمَا أُغْذَى لِأَمْرِ عَاجِزٍ وَتَجَرَّدَا ١٣
وَلَمَّا رَأَى النِّمَانُ دُونِي ابْنَ حُرَّةٍ طَوَى الْكَشْحَ إِذْ لَمْ يَسْتَطِعْ عَوْدَا ١٤
وَلَا قِيَامًا لَا يَنْقُضُ الْقَوْمُ عَهْدَهُ أَمْرَ الْقَوَى دُونَ الْوُشَاةِ وَأُحْصَدَا ١٥

(١) أصعد : سار في أرض مرتفعة . (٢) لك : أراد بها الجلود أو الثياب الصبغة .
(٣) أراد بالوحش النساء ، والبازي نفسه . (٤) استعمرت : جرت عبرتها ، وأم مالك : امرأة
الأخطل . (٥) الحدبار : السنة المحجدة ، ويستعار للأمر الصعب (٦) الجرور : البحر البعيد الغور
(٧) الخرساء : الداهية . (٨) بلد : لمع بالأرض . (٩) النيمان بن بشير ، والإغذاد : سرعة
السير ، وأمر عاجز : شديد يعجز صاحبه . (١٠) طوى الكشح : أضمر العداوة ،
عرد : هرب . (١١) أمر القوي : أحكم قتلها ، وكذلك أحصد .

٥٧ - لو ترك القطا لنام*

تزوج عبد الله بن الزبير^(١) أم عمرو ابنة منظور بن رَبَّانِ الْفَرَازِيَّةَ، فلما دخل بها قال لها تلك الليلة : أَتَدْرِينَ مَنْ مَعَكَ فِي حَجَّاتِكَ^(٢) ؟ قالت : نعم ! عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى ، قال : ليس غير هذا ؟ قالت : فما الذى تريد ؟ قال : مَعَكَ مَنْ أَصْبَحَ فِي قَرِيشٍ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا بِلِ مَنْزِلَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ .

قالت : أما والله لو أن بَعْضَ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ حَضَرَكَ لَقَالَ لَكَ خَلَّافُ قَوْلِكَ . فنفضب وقال : الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى حَرَامٍ حَتَّى أَحْضَرَكَ الْهَاشِمِيِّينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ الْإِنْكَارَ .

قالت : إِنْ أَطْعَمْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَنْتِ أَعْلَمُ وَشَأْنُكَ .

فخرج إلى المسجد ، فرأى حَلَقَةً فِيهَا قَوْمٌ مِنْ قَرِيشٍ ، مِنْهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَصِينِ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ ، فَقَالَ لَهُمُ ابْنُ الزَّبِيرِ : أَحِبُّ أَنْ تَنْطَلِقُوا مَعِيَ إِلَى مَنْزِلِي ، فَقَامَ الْقَوْمُ جَمِيعًا ، حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ . فَقَالَ ابْنُ الزَّبِيرِ : يَا هَذِهِ ، اطْرَحِي عَلَيْكَ سِتْرَكَ .

* ابن أبي الحديد : ٢ - ٥٠٦ .

(١) عبد الله بن الزبير : أول مولود في المدينة بعد الهجرة ببيع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ ببعد موت يزيد بن معاوية وكانت له مع الأمويين وقائع هائلة انتهت بقتله سنة ٧٣ هـ (٢) الحجلة موضع يزين بالثياب والستور .

فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة فتعدّى القوم ، فلما فرغوا قال لهم : إننا جمعناكم
لحديث رَدَّته على صاحبة السر ، وزعمت أنه لو كان بعض بني عبد مناف حضري
لما أقرت لي بما قلت . وقد حضرتم جميعاً . وأنت يا بن عباس ، ما تقول ؟ إلى أخيرها
أن معها في خدرها من أصبح في فريش بمنزلة الرأس من الجسد ، لا بل بمنزلة العينين
من الرأس ، فردت على مقالتي .

فقال ابن عباس : أراك قصدت قصدي ؛ فإن شئت أن أقول قلت ، وإن
شئت أن أكف كفت ، قال : بل قل ، وما عسى أن تقول ؟ ألس تعلم أن أبي
الزبير حواري رسول الله ، وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين ،
وأن عمي خديجة سيدة نساء العالمين ، وأن صفية عمة رسول الله جدتي وأن عائشة
أم المؤمنين خالتي ، فهل تستطيع لهذا إنكاراً ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرت شرفاً شريفاً ، وغرراً فاخراً ؛ غير أنك تفاخر
من يفخره تغرُّ ، ويفضله يَمُوت . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكُرْ
غُرّاً إلا برسول الله وآله ، وأنا أولى بالفخر به منك !

قال ابن الزبير : لو شئت لتغرّيت عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس :
قد أنصف القارة^(١) من راماهما ، نشدكم الله أيها الحاضرون ؛ أعبد المطلب أشرف
أم خويلد في فريش ؟ قالوا : عبد المطلب . قال : أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد ؟

(١) القارة : قبيلة ، وفي اللسان : زعموا أن رجلين التقيا ، أحدهما فارى والآخر أسدى ، فقال
الفارى : إن شئت صارعتك ، وإن شئت ساءتلك ، وإن شئت راميتك ، فقال الأسدي : قد
اخترت الراماة ، فقال الفارى : قد أنصفتني وأنشد :

قد أنصف القارة من راماهما إنا إذا ما فشة فلماها

* نرد أولاها على آخرها *

قال : بل هاشم ! قال : أقميد مناف كان أشرف أم عبد العزى ؟ قالوا :
عبد مناف ، فقال ابن عباس :

تُناَفَرِي^(١) يابْنَ الزَّيْرِ وقد قَضَى عليك رسولُ الله لا قولَ هازلِ
ولو غيِّرنا يابنَ الزَّيْرِ نَغْرته وَلَكِنَّا ساميتَ شمسَ الأصائلِ
قضى لنا رسولُ الله بالفضلِ في قوله : « ما أَفترَقَتِ فِرْعَتَانِ إِلَّا كُنْتُ في
بَخيرِهِما » ، فقد فارَقناكَ من بعد قُصَى^(٢) بنِ كلاب ، أفنحنِ في فِرقةِ الخَيرِ أم لا ؟
إن قلت : نعم خُصِمْتُ^(٣) ، وإن قلت : لا كُفِّرْتُ .

فضحك بعض القوم ؛ فقال ابنُ الزَّيْرِ : أما والله لولا تحرُّمُكَ^(٤) بطلما منا
يابنَ عباس لأغرَقْتُ جبينَكَ قبل أن تقوم من مجلسِكَ !

قال ابن عباس : ولم ؟ أبا بطل ! فالباطل لا يَظَلُّبُ الحق ، أم بحق ! فالحق
لا يَختَشي من الباطل .

فكانت للمرأة من وراء الستر : إني والله قد نهيته عن هذا المجلس فأبى إلّا
ماتَرُون . فقال ابن عباس : مهْ أيتها المرأة ، اقنِي ببَنتِكَ ، فما أعظمَ الخطرَ ،
وما أكرمَ الخَبرَ !

فأخذ القومُ بيد ابنِ عباس - وكان قد عَمِيَ - فقالوا : انهض أيها الرجل فقد
أُخِمتَ غير مرة ، فنهض وهو يقول :

أَلَا ياقومنا ارْتَحِلُوا وسيرِرا فلو تُرِكَ لَنُطَلَّأَ لَفْأً وناماً

(١) تنافرتي في الحب وتناخرتي . (٢) كان من أولاد قصي عبد العزى (ومن سلالة ابن
الزبير) وعبد مناف (ومن سلالة بنو هاشم) (٣) خُصِمْتُ : غلبت . (٤) تحرُّمك : احتواؤك .

فقال ابن الزبير : يا صاحبَ القَطَا ؛ أَقِيلِ عَلَيَّ ، فما كنتَ لَتَدَعَنِي حتى أقول ،
وأيُّ الله لقد عَرَفَ الأَقْوَامُ أَنِّي سابقٌ غيرُ مسبوق ، وابنُ حَوَارِيٍّ^(١) وصديق ،
مُتَّبِعٌ^(٢) في الشرفِ الأُنِيق ، خيرٌ من طليق^(٣) وابن طليق .

فقال ابنُ عباس : هذا الكلامُ مردودٌ من امرئٍ حَسُود ، فإن كنتَ سابقاً
فإني مَنْ سبقت ؟ وإن كنتَ فاحزراً فبِمَنْ نَفرت ؟ فإن كنتَ أدركتَ هذا الفخر
بأسرتك دون أسرتنا فالحذرُ لك علينا ، وإن كنتَ إنما أدركته بأسرتنا فالحذرُ لنا
عليك ، والكَثْكَثُ^(٤) في فمك ويديك .

وأما ما ذكرت من الطليق ؛ فوالله لقد ابْتَسَلَ فصير وأنعمَ عليه فشكر ، وإن
كان - والله - وقيّاً كريماً غيرَ ناقضٍ بيمعةٍ بعد توكيدها ، ولا مسلمٍ كتيبةٍ بعد
التأمر^(٥) عليها .

فقال ابن الزبير : أتعيرُ الزبيرَ بالجلين ! والله إنك لتعلمُ منه خلافَ ذلك .
قال ابن عباس : والله إني لا أعلمُ إلا أنه فرّ ، ومأْكُرٌ ، وحاربَ فما صبر ، وبائعٌ
فما تم ، وقطعَ الرَّحِمَ وأنكرَ الفضل ، ورامَ ما ليس له بأهل :

وأدركَ منها بعضَ ما كان يرتجى وقَصَّرَ عن جَرَيِ الكرامِ وبلداً^(٦)
وما كان إلا كالهجينِ أمامه عِتَاقٌ^(٧) لخِيارِاهِ العِتَاقِ فأجهدا

(١) الحواري في الأصل : كل مبالغ في نصرة آخر ، وقد لقب الزبير بذلك . والمصديق : أبو بكر ،
وهو أبو أسماء أم عبد الله بن الزبير . (٢) التَّبِيعُ : الاتِّخَاذُ والْتِمَظُّم . (٣) يعرض بالعباس
ابن عبد المطلب . وقد أسره المسلمون يوم بدر ، وقد أطلقه رسول الله بعد أن أخذ منه الفدية .
(٤) الكَثْكَثُ : التراب . (٥) يعرض بالزبير وقد بايع على بن أبي طالب ثم تكلم .
(٦) لم ينتج له شيء ، وبخل ولم يجد . (٧) العِتَاقُ : جمع عتيق وهو السكريم من الميل ،
والهجين : ما ليس عتيقاً .

فقال ابن الزبير : لم يَبْقَ يابني هاشم غير المشامة والمضاربة . فقال عبد الله
ابن الحصين بن الحارث : أقتناه عنك يابن الزبير ، وتألى إلا منازعته ! والله
لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنت إلا كالسَّعْب^(١) الغامان ، يفتح
فاه يستزيد من الريح ، فلا يشبع من سَعَب ، ولا يروى من عطش ، فقل إن
شئت أو فدع . وانصرف القوم .

(١) السَّعْب : الجائع .

٥٨ — مفاخرة ربيعة *

قال عبدُ الملك^(١) بن مروان يوماً جلسائه: حَبْرُونِي عن حَيٍّ من أحياء العرب،
فيهم أشدُّ الناس، وأَسَخَى الناس، وأَخْطَبُ الناس، وأَطْوَعُ الناس في قومه،
وأَحْلَمُ الناس، وأَحْضَرُهُمْ جواباً.
قلوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ مانعُ هذه القبيلة، ولكن ينبغي أن تكونَ في
قريش، قال: لا، قالوا: فِي حِمَيْرٍ وملوكها، قال: لا. قالوا: فِي مِضَرٍ،
قال: لا.

قال مَصْعَدَةُ بْنُ رُقِيَّةِ الْعَبْدِيِّ: فَعَيَّ إِذْنِي فِي رُبَيْعَةٍ، وَمَعْنَى هـ. قال: نعم. قال
جَسَّاسُوه: مانعُ هذا في عبد القيس، إلا أن تخبرنا به يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ.
قال: نعم، أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ لِحَكِيمٍ^(٢) بْنِ جَبَلَةَ؛ كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَطَّعَتْ سَاقَهُ نَصَمًا إِلَيْهِ، حَتَّى مَرَّ بِهِ الَّذِي قَطَعَهَا فَرَمَاهُ بِهَا،
فَالْقَاهُ عَنْ دَابَّتِهِ، ثُمَّ حَبَا إِلَيْهِ فَقَتَلَهُ، وَاتَّسَكَّا عَلَيْهِ؛ فَرَّ بِهِ النَّاسُ؛ فَقَالُوا: يَا حَكِيمُ؛
مَنْ قَطَعَ سَاقَكَ؟ قال: وَسَادِي هَذَا، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

بِاسْبَاقِي لَا تُرَاعَى إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي
* أَجْعَلِي بِهَا كُرَاعِي^(٣) *

* لعقد الفريد: ٢ - ٢٣٢

(١) عبد الملك بن مروان من أعظم الخلفاء ودماتهم، استعمله معاوية على المدينة، وانتقلت إليه
الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ، توفي بدمشق سنة ٨٦ هـ (٢) حكيم بن جبلة: صحابي، اشترك
في هجنة أيام عثمان، وثنا كان يوم الجمل قاتل مع أصحاب علي، وقتل في هذه الواقعة سنة ٣٦ هـ
(٣) الكراع: اسم يجمع الشيل واللاح.

وأما أَشْعَى الناس فعبُدُ الله بنِ سَوار ؛ استعمله معاوية على السند ؛ فسار إليها في أربعة آلاف من الجند ، وكانت تَوْقَدُ معه نارٌ حيثما سار فيطعم الناس ؛ فبينما هو ذات يوم إِذْ أَبْصَرَ ناراً ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ! اعتل بعضُ أَصْحَابِنَا ، فَاشْتَمَى خَيْبَةً^(١) ، فَمَلَأْنَا لَهُ ؛ فَأَمَرَ خَبَّازَهُ أَلَّا يُطْعِمَ النَّاسَ إِلَّا الْخُبَيْصَ ، حتى صاحوا ، وقالوا : أَصْلَحَ اللهُ الأَمِيرَ ! رُدُّنَا إِلَى الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ ؛ فَسُمِّيَ مُطْعِمَ الْخُبَيْصِ .

وأما أَطْوَعُ الناس في قومه فَالْجَارُودُ^(٢) بنِ بَشْرَ بنِ العلاء ؛ لأنه لما قَبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وارتدت العرب ، خطبَ قومه فقال : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدِمَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ حَتَّى لَا يَمُوتَ ؛ فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَمَنْ ذَهَبَ لَهُ فِي هَذِهِ الرِّدَّةِ دِينَارٌ أَوْ دِرْهَمٌ أَوْ بَيْزٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَى مِثْلِهِ ؛ فَمَا خَالَفَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وأما أَحْضَرُ الناس جواباً فَصَمْعَةُ بنِ صُوحَانَ ؛ دَخَلَ عَلَى معاوية فِي وَفْدِ أَهْلِ الْعِرَاقِ ؛ فَقَالَ معاوية : مَرْحَباً بِكُمْ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةِ ، مِنْهَا الْمَنْشَرُ وَإِلَيْهَا الْحَشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أَمِيرٍ بَيَّزَ كَبِيرَكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَلَدَ أَبِي سَفْيَانَ اسْكَنُوا حُلُمَاءَ عَقْلَاءَ .

فَنَاشَرَ النَّاسَ صَمْعَةَ ؛ فَقَامَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ ثُمَّ قَالَ : أَمَا قَوْلُكَ يَا معاوية : إِنَّا قَدِمْنَا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ ؛ فَلَمْ نَرِ مَالِ الْأَرْضِ تَقْدُسَ النَّاسِ ، وَلَا يَقْدُسُ النَّاسُ إِلَّا أَعْمَالُهُمْ ، وَأَمَا قَوْلُكَ : مِنْهَا الْمَنْشَرُ وَإِلَيْهَا الْحَشَرُ

(١) الْخُبَيْصُ : الطَّعَامُ مِنَ الْبُرِّ وَالسَّمْنِ (٢) هُوَ بَشْرُ بْنُ عَمْرِو سَيِّدِ عَبْدِ الْقَيْسِ ، كَانَ شَرِيفاً فِي أَبْجَاهِيَةِ وَأَدْرَكَ الْإِسْلَامَ فَأَسْلَمَ وَقُتِلَ شَهِيداً سَنَةَ ٢٠ هـ .

فلعمري ما ينفع قُربها ولا يضر بُعْدُها مؤمناً . وأما قولك : لو أن الناس كلُّهم ولدُ
أبي سفيان لكانوا حُلماً عقلاء ، فقد ولد لهم خيرٌ من أبي سفيان ، آدم صلوات الله
عليه ، فمنهم الحليم والسفيه ، والجاهل والمال .

وأما أحلمُ الناس ، فإن وفدَ عبد القيس قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم
بصدقائهم ، وفيهم الأشج ، ففرّقها رسول الله ، وهو أول عطاء فرّقه في أصحابه ،
ثم قال : يا أشج ، أدن مني ، فدنا منه ، فقال : إن فيك خلتين يحبهما الله :
الأناة والحلم ، وكفى برسول الله شاهداً .

٥٩ — أراك عالمًا بقومك*

رَوَى أَن عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَمَّا قَدِمَ الْكُوفَةَ بَعْدَ قَتْلِهِ مُصْعَبِ بْنِ الزَّيْبِرِ جَلَسَ لِعَرْضِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَقَامَ إِلَيْهِ مَعْبُدُ بْنُ خَالِدِ الْجَدَلِيِّ - وَكَانَ قَصِيرًا ذَمِيمًا - فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ .

قَالَ مَعْبُدُ : فَظَنَرْتُ عَبْدَ الْمَلِكِ إِلَى الرَّجُلِ وَقَالَ : مَنَ أَنْتَ ؟ فَسَكَتَ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا - وَكَانَ مِنْهُ - فَقُلْتُ مِنْ خَلْفِهِ : نَحْنُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَدِيدِلَّةَ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : مِنْ أَيِّكُمْ ذُو الْإِصْبَعِ ؟ قَالَ الرَّجُلُ : لَا أَدْرَى ، قُلْتُ : كَانَ عَدَوَانِيًّا ، فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : لَمْ تُسَمِّ ذَا الْإِصْبَعِ ؟ قَالَ الرَّجُلُ : لَا أَدْرَى ، قُلْتُ : نَهَشْتُهُ حَتَّى فِي إِصْبَعِهِ قَيْسَتْ ، فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي ، ثُمَّ قَالَ : وَهَيْمَ كَانَ يُسَمَّى قَبْلَ ذَلِكَ ؟ قَالَ الرَّجُلُ : لَا أَدْرَى ، قُلْتُ : كَانَ يُسَمَّى حُرْثَانًا ، فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ أَيْ عَدَوَانٍ كَانَ ؟ فَقُلْتُ مِنْ خَلْفِهِ : مَنْ بَنَى نَاجٍ ، وَالَّذِينَ يَقُولُ فِيهِمْ الشَّاعِرُ :

وَأَمَّا بَنُو نَاجٍ فَلَا تَذْكُرْهُمْ وَلَا تُنْبِئَنَّ عَيْنُكَ مَا كَانَ هَالِكًا
إِذَا قُلْتُ مَعْرُوفًا لِأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ يَقُولُ وَهَيْبٌ لَا أَسْأَلُكَ ذَلِكَ
فَأَضْحَى كَظْهَرِ الْفَعْلِ جَبَّ سَنَامُهُ يَدْبُ إِلَى الْأَعْدَاءِ أَحْدَبُ بَارَكَا

فَأَقْبَلَ عَلَى الرَّجُلِ وَتَرَكَنِي وَقَالَ : أَنَشَدْنِي قَوْلَهُ : «عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدَوَانٍ» .

قال الرجل : لست أروىها ؛ قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن شئت أنشدتك . قال :
ادنُ مني ؛ فإنني أراك بقومك علماً . فأنشدته :

وليس للمرء في شيء	من الإبرام والنقض
إذا أبرم أمراً خفا	له بقضي وما يقضي
يقول اليوم أمضيه	ولا يملك ما يمضي
عذير الحق من عدوا	ن كانوا حية الأرض ^(١)
بني بعضهم بعضاً	فلم يبقوا على بعض
فقد صاروا أحاديث	يرفع القول والخفض
ومهم كانت السادا	ت والوفون بالقرض
ومهم حككم يقضي	فلا ينقض ما يقضي
ومهم من ينجيز ^(٢) النأ	س بالسنة والقرض
ومهم ولدوا وأشبوا ^(٣)	بسر الحسب الخفض
وممن ولدوا	عامر ذو الطول وذو العرض
ومهم بؤوا ^(٤) يقيفاً دا	ر لا ذل ولا خفض

فأقبل على الرجل وتركني وقال : كم عطاؤك ؟ فقال : أفان . فأقبل على
كاتبه وقال : اجعل الألفين لهذا والخمسة لهذا . فانصرفت بها .

(١) يقال : فلان حية الوادي أو الأرض : أي دام خبيث .

(٢) كانت إجازة الحج لخزاعة ، ثم انتقلت إلى عدوان ، يقف رئيسهم في أيام الحج يخطب في
الناس ثم ينفر ويتبعونه بعد ذلك (٣) يقال : أشي فلان إذا ولد له ولد كيس (٤) بؤوا : أنزلوا .

٦٠ — لَقَدْ خِفْتُ أَنْ تَفْخَرَ عَلَيَّ*

دخل رجل من بني سعد على عبد الملك بن مروان ، فقال له : ممن الرجل ؟
قال : من الذين قلل لهم الشاعر :
إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَبِيبَتِ النَّاسِ كُلُّهُمْ غَضَابَا
فقال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول فيهم القائل :
يَزِيدُ بَنُو سَعْدٍ عَلَى عَدَدِ الْحَصَى وَأَثْقَلُ مِنْ وَزَنِ الْجِبَالِ حُلُومُهَا^(١)
قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :
ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى ثِيَابِ وَأَوْجُهُمْ بِيضُ الْمَسَافِرِ غُرَانُ^(٢)
قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :
فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمْتُ قُرَيْشًا بَأَنْ يَبْنُوَ لِلْكَارِمِ حَيْثُ شَاءُوا
قال : فمن أيهم أنت ؟ قال : من الذين يقول لهم الشاعر :
قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّى بِأَنْفِ النَّاقَةِ الدَّيَّانَا ؟
قال : اجلس لا جلست ! والله لقد خفتُ أَنْ تَفْخَرَ عَلَيَّ .

* نهاية الأرب : ٣ - ٢٠٠ .

(١) المعلوم : جمع حلم ، وهو القمل .

(٢) يقال : رجل أغر الوجه إذا كان أبيض الوجه ، من قوم غر وغران ، والبيت لامرئ القيس
(السان - غرر) .

٦١ — عبد الله بن جعفر والحجاج *

أُكْرِهَ الحجاجُ بن يوسف عبدَ الله بن جعفر على أن زوجَه ابنتَه، فاستأجَلَه^(١) في نَفْلِها سنة؛ ثم فكَّرَ عبدُ الله في الانسكاك منه، فأُلْفِيَ^(٢) في روعه خالدُ بن يزيد، فكتب إليه يُعلمه ذلك — وكان الحجاجُ تزوّجها بإذن عبد الملك — فورد على خالد كتابه ليلاً، فاستأذَنَ من ساعته على عبد الملك . فقيل : أفى هذا الوقت ؟ فقال : إنه أمرٌ لا يؤخّر .

فأُعْلِمَ عبدُ الملك بذلك ، فأذِنَ له . فلما دخل عليه قال له عبد الملك : فيم السُرى^(٣) يا أبا هاشم ؟ قال : أمرٌ جليل لم آمن أن أُؤخَّرَه، ففُضِّدْتُ على حادثة، فلا أكون قد قضيتُ حقَّ بَيْعَتِكَ . قال : وما هو ؟ قال : أعلمُ أنه ما كان بين حبيبين من العداوة والبغضاء ما كان بين آل الزبير وآل أبي سفيان ؟ قال : لا ، قال : فإن تزويجي^(٤) إلى آل الزبير أذهب ما كان لهم في قلبي ، فما أهل بيت أحبُّ إليّ منهم .

قال : فإن ذلك ليسكون .

قال : فكيف أذِنْتَ للحجاج أن يتزوج في بني هاشم ، وأنت تعلم ما يقولون ويُقال فيهم ؟ والحجاجُ من سلطانك بحيث علمت ! فجزّاه خيراً وكتب إلى الحجاج أن يطلقَهَا .

* رغبة الآمل : ٥ — ٢٣ ، الكامل : ١ — ٢٠٥ .

(١) طلب منه أن يؤجله إلى مدة . (٢) في روعه : فكر فيه . (٣) السرى :

السِر بالليل . (٤) كان خالد قد تزوج رَملة بنت الزبير من العوام .

فطلقها ، وغدا الناس عليه يُمرّونه عنها ؛ فكان ممن أتاها عمرو بن عُتبة بن أبي سفيان ، فأوقع الحجاجُ بخالد ؛ فقال : كان الأمرُ لأباه فمعجز عنه حتى انزع منه . فقال له عمرو بن عُتبة : لا تقلُ ذا أيُّها الأمير ؛ فإن لخالد قديماً سبق إليه ، وحديثاً لم يُغلب عليه ، ولو طلب الأمر لطلبه مجدٍ وجِدٍ ، ولكنه علم علماً ، فلم يلم إلى أهله .

قال الحجاج : يا آل أبي سفيان ؛ أنتم تُحبّون أن تحلّموا ، ولا يكون الحلم إلا عن غضب ؛ فنحن نفضبكم في العاجل ؛ ابتغاء مرّضاتكم في الآجل .

٦٢ - إنها قريش يُقَارِع بعضها بعضاً*

لما قُتِلَ ابْنُ الزَّيْبِرِ حَجَّ خَالِدٌ^(١) بَنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ، فَنَظَرَ رَمَلَةً بَنَتْ الزَّيْبِرُ بْنُ الْعَوَامِ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ الْحِجَاجُ حَاجِبَهُ عُبَيْدُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا كُنْتُ أُرَاكَ تُخْطِبُ إِلَى آلِ الزَّيْبِرِ حَتَّى تَشَاوِرَنِي ! وَكَيْفَ خُطِبْتَ إِلَى قَوْمٍ لَيْسُوا لَكَ بِأَكْفَاءَ ، وَهُمْ الَّذِينَ قَارَعُوا أَبَاكَ عَلَى الْخِلَافَةِ ، وَرَمَوْهُ بِسُكْلِ قَبِيحَةٍ ، وَشَهِدُوا عَلَيْهِ وَعَلَى جَدِّكَ بِالضَّلَالَةِ !

فَنَظَرَ إِلَيْهِ خَالِدٌ طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لَوْلَا أَنَّكَ رَسُولٌ - وَالرَّسُولُ لَا يُعَاقَبُ - لَقَطَعْتُكَ بِإِرْبَا إِرْبَا^(٢) ، ثُمَّ طَرَحْتُكَ عَلَى بَابِ صَاحِبِكَ ؛ قُلْ لَهُ : مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْأُمُورَ بَلَسْتُ بِكَ إِلَى أَنْ أَشَاوِرَكَ فِي خِطْبَةِ النِّسَاءِ . وَأَمَّا قَوْلُكَ لِي : قَارَعُوا أَبَاكَ ، وَشَهِدُوا عَلَيْهِ بِسُكْلِ قَبِيحٍ ، فَإِنَّمَا قَرِيشٌ يُقَارِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ؛ فَإِذَا أَقَرَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَرَارَهُ كَانَ قَتَاطِعُهُمْ وَتَرَاحِمُهُمْ عَلَى قَدَرِ أَحْلَامِهِمْ وَفَضْلِهِمْ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : لِمَنْ لَيْسُوا بِأَكْفَاءَ ، فَقَاتَلَتْ اللَّهُ يَاحْجَاجُ ! مَا أَقَلَّ عَدْلُكَ . بِأَنْسَبِ قَرِيشٍ ! أَيْسَكُونُ الْعَوَامُ كَفَنًا لِعَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ بِتَزْوِجِهِ صَفِيَّةً ، وَبِتَزْوِجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ ، وَلَا تَرَاهُمْ أَهْلًا لِأَبْنَى سَفِيَانٍ !

فَرَجَعَ الْحَاجِبُ إِلَيْهِ فَأَعْلَمَهُ !

* الْأَغَانِي : ١٦ - ٨٤ ، بُلُوغُ الْأَرْبِ : ٢ - ٦ ،

(١) خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بَنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، كَانَ مِنْ رِجَالِ قَرِيشَ سَخَاءَ ، وَعَارِضَةً وَفَصَاحَةً ، وَكَانَ قَدْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِطَلْبِ الْكَيْمِيَاءِ فَأَفْنَى بِذَلِكَ عَمْرَهُ وَأَسْقَطَهُ قَدْرَهُ . (٢) إِرْبَا إِرْبَا : عَضُوا عَضُوا .

٦٣ - تَسْتَجِيرُ بِقَبْرِ أَبِيهِ *

لما ولى الحجاجُ تميمَ بنَ زيدَ القَيْنِيَّ السَّنَدَ دخلَ البصرةَ فجعلَ يُخْرِجُ من أهلها مَنْ شاءَ ؛ فجاءتْ هُجُوزٌ إلى الفرزدقِ ^(١) فقالت : إني استعجرتُ بقبرِ أبيك - وأنتَ منه بِحَصِيَّاتٍ ^(٢) - فقال لها : وما شأنُكَ ؟ قالت : إن تميمَ بنَ زيدَ خرجَ بآبِنِي معه ، ولا قُرَّةَ لِعَيْنِي ، ولا كَاسِبَ لِي غَيْرُهُ . فقال لها : وما اسمُ ابنك ؟ قالت : خُنَيْسُ .

فكتبَ إلى تميمَ بنَ زيدٍ مع بعضِ من شَخَصَ :
 تَمِيمُ بْنُ زَيْدٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي بظَهْرِي ، فَلَا يَغِيَا هَلِيْ جَوَائِي
 وَهَبْ لِي خُنَيْسًا وَاحْتَسِبْ فِيهِ مِثَّةً لَعَبْرَةٍ أَمْ مَا يَسُوعُ شَرَابُهَا
 أَنْتَنِي فَمَازَتْ بِاتَمِيمٍ بِغَالِبٍ ^(٣) وَبِالْخَفَرَةِ السَّاقِي عَلَيْهَا تَرَابُهَا
 وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّكَ مَاجِدٌ وَلَيْتُ إِذَا مَا الْحَرْبُ شُبَّ شِمَاهَا
 فلما وردَ الكتابُ هَلِيْ تَمِيمٍ نَشَكَكَ فِي الْأَسْمِ ، فقال : أَحْبَبِسْ أَمْ خُنَيْسُ ؟
 انظروا مَنْ لَهُ مِثْلُ هَذَا الْأَسْمِ فِي عَسْكَرِنَا . فَأَصِيبْ سِتَّةَ مَا بَيْنَ حَبِيسٍ وَخُنَيْسٍ ،
 فَوَجِّهْ بِهِمْ إِلَيْهِ .

* السَّكامل : ١ - ٢٩١ .

(١) الفرزدق : شاعر من أهل البصرة ، عظيم الأثر في اللغة وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ومهاجاته لها أشهر من أن تذكر . توفي سنة ١١٠ هـ (٣) الحمصي : صفار الهجرة ، .
 الواحدة حصاة . (٣) غالب هو أبو الفرزدق .

٦٤ — الفرزدق والأنصار*

قال إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري : قدم الفرزدقُ للدينةِ
في إمارة أبان بن عثمان ؛ وإني والفرزدق وكثيراً لجلوس في المسجد نقناشد الأشعار ؛
إذ طلع علينا غلام شخت^(١) آدَمُ في ثوبين مُمَصَّرَين^(٢) ، ثم قصد نحوَنَا حتى
جاء إلينا فلم يسلم ، فقال : أبئُكم الفرزدق ؟ قلت - مخافة أن يصكون من قريش :
أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ! فقال : لو كان كذلك لم أفل هذا له .
فقال له الفرزدق : ومن أنتَ لا أم لك !

قال : رجل من بني الأنصار ، ثم من بني النجار ، ثم أنا ابنُ أبي بكر بن
حزَم . بلغني أنك تزعمُ أنك أشعرُ العرب ، وتزعمُ مَضْرُ ذلك لك ، وقد قال
صاحبنا حسانُ شعراً ، فأردتُ أن أعرضه عليك وأوجلك سنةً ، فإن قلت مثله
فأنت أشعرُ العرب ، وإلا فأنت كذابٌ منتحل ، ثم أنشده قول حسان :

لنا الجففاتُ الفرُّ يلعبن بالضعا وأسيفنا يقطرن من نجدٍ دماً
مقَى ما تزُرنا من ممدٍ عصابة وغسان^(٣) نمنع حوضنا أن يهدماً
أبى فضلنا للمروف أن ننطلقَ انكناً وقائلنا بالعرفِ إلا تكلماً
ولدنا بني المنقاء وابني مُحَرَّرٍ فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنماً
وأنشده القصيدة إلى آخرهاله ، وقال له : إني قد أجلتك فيها حولاً ، ثم انصرف ،

* الأعرابي : ٩ - ٣٣٧ .

(١) الشخت : الذيق الصامر ، أصلاً ، لاهزالاً (٢) ممصّران . أي مصبوغان بصفرة غير شديدة .

(٣) وغسان : الواو هاءنا للقسمة ، لأن غسان لم تكن تنزوم مع معد .

وانصرف الفرزدق مُنْضَبًا يسحبُ رداءه ما يدرى أى طريق يسلكُ ، حتى
خرج من المسجد .

فأقبل كثيرٌ علىَّ فقال : فأنزل الله الأنصارى ! ما أفصح لهجته ، وأوضح حجته ،
وأجود شعره ! ثم لم نزلْ في حديث الفرزدق والأنصارى بقية يومنا ، حتى إذا
جلس معي ، فإننا لتتذاكر الفرزدق ونقول : ليت شعري ما فعل ! إذ طلع علينا
في حلة أفواف^(١) يمانية موشاة ، له غدبرتان ، حتى جلس في مجلسه بالأمس ،
ثم قال : ما فعل الأنصارى ؟ فقلنا منه وشتمناه ، فقال : قاتله الله ! مارُميتُ
بمشله ولا سمعتُ بمثل شعره ؛ فارتسكا فأنبتُ منزلي ، فأقبلتُ أصعدُ
وأصوبُ في كل فن من الشعر ، فكأنني مُنْجَمٌ أو لم أقُل قط شعراً ، حتى نادى
المنادى بالفجر ، فرحلتُ ناقتي ، ثم أخذتُ بزمامها ، فقدمتها حتى أتيتُ ذباباً^(٢) ،
ثم ناديتُ بأعلى صوتي : أهاكم أبا لُبني ! وجاش صدري كما يجيش المِرْجل ،
ثم عَقَلْتُ ناقتي ، وتوسَّدتُ ذراعها ، فاقمتُ حتى قلتُ مائة وثلاثة عشر
بيتاً .

فبينما هو يُنشدنا ، إذ طلع علينا الأنصارى حتى انتهى إلينا فلم ، ثم قال :
أما إني لم آتِك لأجلك عن الأجل الذي وقَّعتُ لك ، ولسكني أحبيتُ ألا أراك إلا
سألتك عما صنعت ، فقال : اجلس ، ثم أنشدته قصيدته :

عرفتُ بأعشاش^(٣) وما كدتُ تعرفُ وأنكرتُ من حذرَاء ما كنتُ تعرفُ
ولجَ بك المهجران حتى كَأَنَّما ترى الموتَ في البيت الذي كنتُ تألفُ

(١) أفواف : جمع فوف وهو الفطن . (٢) ذباب : جبل بالمدينة .

(٣) أعشاش : موضع في بلاد بني تميم .

ومنها .

لنا العِزَّةُ التَّلْبَاهُ والمعدُّ الذى عليه إذا عُدَّ الحصى يُتَحَلَّفُ (١)
ولا عِزَّ إِلَّا عِزُّنَا قَاهِرُهُ وَيَسْأَلُنَا النِّصْفَ الدَّلِيلُ فَيُنْصَفُ (٢)
ومنا الذى لا ينطقُ الناسُ عندهُ ولكن هو المُسْتَأَذَنُ الْمُتَنَصِّفُ (٣)
تراهم قموداً حوله ، وعبوهم مُسَكَّرَةً أَطْرَافُهَا مَا تَصَرَّفُ
إذا هبطَ الناسُ المُحَصَّبَ من مِئى عَشِيَّةَ يَوْمِ النُّجْرِ من حيثُ عَرَفُوا (٤)
ترى الناسَ ما سرنا يسرون خلفنا وإن نَحْنُ أَوْمَانَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا (٥)

فلما فرغ الفرزدق من إنشاده قام الأنصارى كنيباً ، فلما توارى طلع أبوه في مشيخة من الأنصار فسلخوا علينا وقالوا : يَا أَبَا فِرَاسٍ ؛ قَد عَرَفْتَ حَالَنَا وَمَكَانَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَوَصِيَّتَهُ بِنَا ؛ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفِيهًا مِنْ سَفِهَانِنَا تَعْرِضُ لَكَ ، فَسَأَلْتُكَ بِاللَّهِ لَمَّا حَفِظْتَ فِينَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ وَوَهَبْتَنَا لَهُ وَلَمْ تَفْضَحْنَا . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَأَقْبَلْتُ أَكَلَهُ أَنَا وَكَثِيرٌ ، فَلَمَّا أَكْثَرْنَا عَلَيْهِ قَالَ : اذْهَبُوا فَقَدْ وَهَبْتُكُمْ لِهَذَا الْقُرَشِيِّ .

(١) يتحلف : يحلف الناس أنه عدد الحصى .

(٢) النصف هنا : الإنصاف . (٣) المتنصف : المطلوب منه الإنصاف . (٤) المحصب : موضع

رعى الجمار بمى . وعرفوا : أى من حيث هبطوا من جبل عرفات . (٥) كان الذى يؤم الناس ويدفع بهم من عرفات في الجاهلية من تميم ، فيسرون بسيره ويقفون بوقوفه .

٦٥ — الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك *

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، فقال له : مَنْ أَنْتَ ؟ وَتَجْهَمُ لَهُ كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْفَرَزْدَقُ : أَوْ مَا تَعْرِفُنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : أَنَا مِنْ قَوْمٍ مِنْهُمْ أَوْفَى الْعَرَبِ ، وَأَسْوَدُ الْعَرَبِ ، وَأَجُودُ الْعَرَبِ ، وَأَحْلَمُ الْعَرَبِ ، وَأَفْرَسُ الْعَرَبِ ، وَأَشْعَرُ الْعَرَبِ .

قَالَ : وَاللَّهِ لَتُبَيِّنَنَّ مَا قُلْتَ أَوْ لَا وَجَعَنَّ ظَهْرُكَ وَلَا أَهْدِمَنَّ دَارَكَ .

قَالَ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَا أَوْفَى الْعَرَبِ خَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ الَّذِي رَهَنَ قَوْمَهُ عَنْ جَمِيعِ الْعَرَبِ فَوْقَ بَهَا .

وَأَمَا أَسْوَدُ الْعَرَبِ فَنَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ الَّذِي وَفَدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَسَطَ لَهُ رِدَاءَهُ ، وَقَالَ : هَذَا سَيِّدُ الْوَبَرِ .

وَأَمَا أَحْلَمُ الْعَرَبِ فَمَعْتَابُ بْنُ وَرْقَاءَ الرَّيَّاحِيِّ .

وَأَمَا أَفْرَسُ الْعَرَبِ فَالْخَرِيشُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّمْدِيِّ ، وَأَمَا أَشْعَرُ الْعَرَبِ فَهَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

فَانْغَمَّ سُلَيْمَانُ مَا سَمِعَ مِنْ فَخْرِهِ وَلَمْ يَنْسُكِرْهُ ، وَقَالَ : ارْجِعْ عَلَى عَقِيبِكَ ، فَالَاحَ عَنْدِي شَيْءٌ مِنْ خَيْرٍ . فَرَجَعَ الْفَرَزْدَقُ وَقَالَ :

أَتَيْنَاكَ لَا مِنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا مِنْ قَلَّةٍ فِي جُبَاشِعٍ ^(١)

* العقد الفريد : ٢ - ١٩٣ .

(١) هُوَ جُبَاشِعُ بْنُ دَاوُدَ بْنِ مَالِكٍ بْنِ حَنْظَلَةَ مِنْ تَيْمٍ .

٦٦ - الباهل *

قال أبو قلابة الجرمي^(١) : حَجَجْنَا مَرَّةً مَعَ أَبِي جَرَّةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ ، وَكُنَّا فِي ذَرَاهِ^(٢) : وَهُوَ إِذْ ذَاكَ بَهِيٌّ وَضِيٌّ ؛ فَجَلَسْنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى أَقْوَامٍ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ ، لَمْ نَرَ أَفْصَحَ مِنْهُمْ ؛ فَرَأَوُا هَيْئَةَ أَبِي جَرَّةَ وَإِذْ عَظَمَانَا إِيَّاهُ ، مَعَ جَمَالِهِ ؛ فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : أَمِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْخَلِيفَةِ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَا ؛ وَلَكِنْ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ . قَالَ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ مُضَرَ . قَالَ : أَعْرَضَ ثَوْبُ الْمَلْبَسِ^(٣) ! مِنْ أَيِّهَا عَافَاكَ اللَّهُ ! قَالَ : رَجُلٌ مِنْ قَيْسِ . قَالَ : أَيْنَ يُرَادُ بِكَ ؟ رَسِرَ إِلَى فَصِيلَتِكَ الَّتِي تُؤْوِيكَ . قَالَ : رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ، قَالَ : اللَّهُمَّ غَفِّراً ! مِنْ أَيِّهَا عَافَاكَ اللَّهُ ؟ قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي بَعْضَرٍ . قَالَ : مِنْ أَيِّهَا ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ بَاهِلَةٍ . قَالَ : قُمْ عَنَّا .

قال أبو قلابة : فَاقْبَلْتُ عَلَى الْحَارِثِيِّ فَقُلْتُ : أُنَعْرِفُ هَذَا ؟ قَالَ : ذَكَرَ أَنَّهُ بَاهِلِيٌّ ، فَقُلْتُ : هَذَا أَمِيرُ ابْنِ أَمِيرٍ . . . وَعَدَدْتُ خَمْسَةً ؛ ثُمَّ قَالَتْ : هَذَا أَبُو جَرَّةَ ابْنِ عَمْرِو ، وَكَانَ أَمِيرًا ، ابْنُ سَعِيدٍ ، وَكَانَ أَمِيرًا ؛ ابْنُ سَلَمٍ ، وَكَانَ أَمِيرًا ، ابْنُ قَتَيْبَةٍ وَكَانَ أَمِيرًا .

* الإسكندر : ٢ - ٢٤ .

(١) ذراه : كنفه . (٢) الملبس : ثوب اللبس . يريد اتع وسار عريضا ، وهو مثل يضرب حين ينال الرجل : ممن أنت ؟ فيقول : من مضرة أو ربيعة أو اثنين ولم يخص ، أى عممت ولم تحسن .

فقال الحارثي : الأمير أعظم أم الخليفة ؟ فقلت : بل الخليفة . قال : أفاخليفة
أعظم أم النبي ؟ قلت : بل النبي . قال : والله لو عددت له في النبوة أضعاف
ما عدت له في الإمارة ، ثم كان باهلياً ما عباً^(١) الله به شيئاً .
فكادت نفس أبي جرة تخرج ؛ فقلت : انهض بنا ، فإن هؤلاء أسوأ
الناس آداباً .

(١) ما عباً الله به شيئاً : يريد : لم يكن له قدر عنده .

٦٧ — كلثوم العتافي*

كان أَحْوَان من قيس يَحْفَرَان قرية بالجزيرة ، فطال مقامهما بها حتى أَثْرَبَا ،
فخدما قوم من ربيعة؛ وقالوا: يَحْفَرَان هذه الضياع في بلدنا اوجمعوا لها جمعا، وساروا
إليهما ، فقاتلوهما حتى قُتِل أَحَدُهُمَا ؛ وعلى الجزيرة يومئذٍ عبد الملك بن صالح
الهاشمي^(١) ، فشكا القَيْسُ أمره إلى وجوه قيس ، وعرفهم قتل ربيعة أخاه .
فقالوا له : إذا جلس الأميرُ فادخل إليه . ففعل ذلك ، ودخل على عبد الملك
وشكا إليه ما لَحِقَهُ ، ثم قال له : وحسبُ الأمير أنهم لما قتلوا أخى وأخذوا مالى
قال قائل منهم :

لا يَحْوزَنَّ أَمْرَنَا مُصَرَّى بخفير ولا بفسور خفير

فقال عبد الملك : أَتَنْدُبُنِي^(٢) إلى العصبية ! وَزَبْرَهُ^(٣) .

فخرج الرجل مغموماً ، وشكا ذلك إلى وُجُوهِ قَيْس ، فقالوا : لا تُرْعَ ، فوالله
لقد قدَفْتَهَا في سُوَيْدَاء قلبه ، فعاوِدُهُ .

فعاوده في المجلس الآخر فزَبْرَهُ ، وقال له قوله الأول ، فقال له : إِنِّي لم آتَكَ
أَنْدُبَكَ للعصبية ، وإنما جئتُكَ مستعدياً^(٤) . فقال له : حَدِّثْنِي كيف فعل القوم ؟
فحَدِّثْهُ وَأَنْشُدْهُ ففَضِب ، وقال : كَذِبْتَ ، لعمرى ليحوزَنَهَا .

* الأغانى : ١٢ - ٨ .

(١) عبد الملك بن صالح : أمير من بنى المباس ، تولى الوصل ، ثم المدينة ، وبلغ الرشيد أنه
يطلب الخلافة فخبه ، وتوفي سنة ١٩٦ هـ . (٢) ندبه لأمر : دعاه إليه . (٣) زبره : زجره واتهره .

(٤) استعديت الأمير : استمنت به .

ثم دعا أحد قواده ، وقال له : اخرج ، وجرد السيف في ربيعة . فخرج وقتل منها مقتلة عظيمة ، قال كلثوم بن عمرو المتأني - وهو من ربيعة - قصيدة فيها :

هَذِي يَمِينُكَ فِي قُرْبَاكَ صَائِلَةٌ وَصَارَ مِنْ سِيوفِ الْهِنْدِ مَشْهُورٌ
إِنْ كَانَ مِنْ دَوُوْكَ إِيَّاكَ وَمَارَقَةٌ ^(١) وَغَضَبَةٌ دَرِيْنَهَا الْمَدَوَانُ وَالزُّورُ
فَإِنْ مِنْهَا ^(٢) الَّذِي لَا يُسْتَحْتُ إِذَا حُتَّ الْجِيَادُ وَضُمَّتْهَا الْمَضَامِيرُ ^(٣)
مُسْتَنْبِطُ عِزَمَاتِ الْقَلْبِ مِنْ فِكْكَرٍ مَا بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ اللَّهِ مَعْمُورٌ
وَبَلَّتِ الْقَصِيْدَةَ عَبْدُ الْمَلِكِ ، فَأَمَرَ قَائِدَهُ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ .

ولما قدم الرشيد الرافقة ^(٤) أنشده عبد الملك القصيدة ، فقال : لِمَنْ هَذِهِ ؟ فقال : لرجل من بني عتاب يقال له : كُاثُومُ بْنُ عَمْرِو ، فقال : وما يمنه أن يكون يبابنا ؟ وأمر بإشخاصه من رأس عين ^(٥) .

فوافق الرشيد ، وعلبه قميص غليظ وفرقة وخف ، وعلى كفه ملحقة جافية ؛ فلما رفع الخبرُ بقدومه أمر الرشيد بأن تُنْزِلَ له حجرة ، وتقام له وظيفة ؛ ففعلوا ، فسكنت المائدة إذا قُدِّمَتْ إليه أخذ منها رقائقاً وملعاً وخالط الملح بالتراب فأكله بها ، فإذا كان وقت النوم نام على الأرض ، والخدمُ يتمجبون من فعله ، وسأل الرشيد عنه فأخبروه بأمره ، فأمر بطرده .

فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد العقيلي وهو في منزله فلم عليه ، وانقلب له ، فرحب به وقال له : ارتفع ، فقال : لم آتلك للجلوس ، قال : فما حاجتك ؟ قال :

(١) الإنك : الكذب ، والمارقة : الخارجون . (٢) يشير إلى عبد الله بن هشام بن بطام الثغلي وكان أحد قواده . (٣) المضار : الموضع الذي تضمر فيه الخيل . (٤) بلدة على الفرات بناها للنصور . (٥) رأس عين : مدينة كبيرة من مدن الجزيرة .

دابةً أبلغُ عليها إلى رأس عَيْن ، فقال : يا غلام ؛ أعطِ الفرس الفلاني ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، ولكن تأمر أن تُشترى لي دابةً أتبلغُ عليها ، فقال لفلانه : امض معه ، فابتعْ له ما يريد . ففُضِيَ معه ، فمدل به العتَابِي إلى سوق الحِجِر ، فقال له : إنما أمرني أن أبتاع لك دابة ، فقال كثنوم : إنه أرسلك معي ولم يُرْسِلني معك فإن حملت ما أريد وإلا فانصرف . ففُضِيَ معه ، فاشتري حماراً بمائة وخمسين درهمًا وقال : ادفع ثمنه ، فدفعه . فرحَّكب الحمار بمِرْشَعة^(١) عليه وِرْدَعة ، وساقاه مَكْشوفتان .

فقال له يحيى بن سعيد : فضَحَّتْني ، أمِثْلِي بِحَمَلٍ مثلك على هذا ! فضحك وقال : ما رأيتُ قَدْرَكَ يستوجب أكثر من ذلك . ومضى إلى رأس عين ، وكانت تحتها امرأةٌ من بَاهِلَة ، فلامته وقالت : هذا منصور النري قد أخذ الأموال فحطى نسائه ، وبنى دَارَه ، واشترى ضياعاً ، وأنت هنا كما ترى ؛ فأنشأ يقول :

تَلَوُّمٌ عَلَى تَرَكِ الْيَقَى بِأَهْلِيَّةٍ	ذَوَى الْفَرُوعِهَا كُلِّ طَرَفٍ وَتَالِدٍ ^(٢)
رَأَتْ حَوْلَهَا النَّسْوَانِ يَرْفُلْنَ فِي النَّزَى ^(٣)	مَقْلَدَةٌ أَعْنَقَهَا بِالْقَلَانِدِ
أَسْرَكَ أُنَى نِلَتْ مَا نَالَ جَعْفَرٌ ^(٤)	مِنَ الْعَيْشِ ، أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ !
وَأَنْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغْصَى	مَمْعَصَا مَا بِالْمُرْهَفَاتِ الْبَوَارِدِ
رَأَيْتُ رَفِيعَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةً	بِمَسْتَوْدَعَاتٍ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ
دَعَيْتِي تَحْتِثُنِي مِثْقَى مَطْمَئِنَةٍ	وَلَمْ أَتَجَسَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْوَارِدِ !

(١) المِرْشَعة : ما يوضع تحت الميثة ، والميثة : هنة تتخذ للسرير .

(٢) الطرف هنا : الحديث من المال ، والتالد : غير الحديث من المال .

(٣) الأثر . (٤) جعفر البرمكي .

البَابُ الثَّالِثُ

في القصص التي تَنَقُّلُ ما كانوا يَتَفَسَّحُونَ به
من أَسْمَارٍ وَمُطَايَبَاتٍ، وَمُنَاقَدَاتٍ وَأَفَاكِهٍ، مما نال به
المُحَدِّثُونَ والنَّسَدَمَاءُ سَنِيَّ الْجَوَائِزِ وَالْخَلَعَ من الخلفاء
والوزراء، وما ارتفعت به مكاسمهم عند السَّادَةِ وَالْوُجُوهِ
في المَجْتِمَعَاتِ وَالْمُنْتَدِيَّاتِ .

٦٨ - بيع اسمه*

لَقِيَ تَابُطَ شَرًّا^(١) رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو وَهَبٍ ، وَكَانَ جَبَانًا أَفْجُوجَ^(٢) ،
وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ جَيِّدَةٌ ، فَقَالَ أَبُو وَهَبٍ لَتَابُطَ شَرًّا : بِمِ تَغْلِبُ الرِّجَالَ يَا ثَابِتُ وَأَنْتَ - كَمَا
أَرَى - دَمِيمٌ ضَنْيَلٌ؟ قَالَ : يَا نَسِي ، إِنَّمَا أَقُولُ سَاعَةً مَا أَلْقَى الرَّجُلُ : أَنَا تَابُطُ شَرًّا ،
فِيُخْلَعُ قَلْبُهُ حَتَّى أَتَاَالَ مِنْهُ مَا أُرِيدُ .

فَقَالَ لَهُ الثَّقَفِيُّ : أَقَطَ^(٣)؟ قَالَ : قَطَّ ، قَالَ : فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَ اسْمَكَ؟
قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَبِمِ تَبِيعْتَهُ؟ قَالَ : بِهَذِهِ الْحُلَّةِ وَبِكُنْيَتِي . قَالَ لَهُ : أَفْعَلْ . فَعَمِلَ ،
وَقَالَ تَابُطُ شَرًّا : لَكَ اسْمِي وَلِي كُنْيَتُكَ ، وَأَخَذَ حُلَّتَهُ ، وَأَعْطَاهُ طِمْرِيَّةَ^(٤) ، ثُمَّ
انْصَرَفَ .

وَقَالَ فِي ذَلِكَ يَخَاطِبُ زَوْجَةَ الثَّقَفِيِّ :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنْ حَلِيلَهَا . تَابُطُ شَرًّا وَاصْتَفَيْتُ أَبَا وَهَبٍ
فَبِمِ نَسَمْتُ اسْمِي وَبُيِّعْتُ بِاسْمِهِ . فَأَيْنَ لَهُ صَبْرِي عَلَى مُنْعَمِ الْخَطْبِ !
وَأَيْنَ لَهُ بَأْسُ كِبَاسِي وَسُورَتِي وَأَيْنَ لَهُ فِي كُلِّ فَادِحَةٍ قَلْبِي !

* مهذب الأغاني : ١ - ٢١٦ .

(١) هو ثابت بن جابر ، كان أجمع العرب وأبصرهم وأكيدهم ، اشتهر بالمدح والنزول ، توفي نحو
سنة ٨٠ ق . هـ . (٢) الأفج : الطول في حق وطيش وتسرع . (٣) أقط : أجب .
(٤) الطمر : السكاء البالي .

٦٩ - أنا كنتُ أوّلِي بهذا الشعر من أيك*

حجّ معاوية حِجَّتَيْن^(١) في خلافته ، وكانت له ثلاثون بَغْلَةً يَحْجُّ عليها نساؤه وجواربه؛ فحجّ في إحداهما، فرأى شيخاً يصلي في المسجد الحرام، عليه ثوبان أبيضان؛ فقال : من هذا ؟ قالوا : سَعِيَّة بن غَرِيض - وكان من اليهود .

فأرسل إليه بدّعه ، فأتاه رسوله ، فقال : أجب أمير المؤمنين . قال : أو ليس قد مات أمير المؤمنين ؟ قيل : فأجب معاوية . فأتاه فلم يسلّم عليه بالخلقة ، فقال له معاوية : ما فعلت أَرْضُكَ التي بَنِيَاء ؟ قال : يُكْسَى منها العاري ، ويردُّ فضلُها على الجار . قال : أفتبنيها ؟ قال : نعم . قال : بكم ؟ قال : بستين ألف دينار ، ولولا خَلَّةٌ^(٢) أصحاب الحى لم أبيعها : قال : لقد أغلّيت^(٣) ! قال : أما لو كانت لبعض أصحابك لأخذتها بستائة ألف دينار ، ثم لم تبال ! قال : أجل ، وإذ بخلت بأرضك فأنشدني شعر أيبك يرثي به نفسه فقال : قال أبي :

باليثِ شمري حين أنذبُ هالكاً	ماذا تؤبّئني به أنواح ^(٤) !
أيقُنْ : لا نبعذ ، فربُّ كريهة	فرجتها بشجاعةٍ وسمّاح
ولقد ضربتُ بفضلٍ مالى حقّه	عند الشتاء وهبّة الأرواح ^(٥)
ولقد أخذتُ الحقَّ غيرَ محاصم	ولقد رددتُ الحقَّ غيرَ ملاح ^(٦)
وإذا دُعيتُ لصِبةٍ سهلتُها	أدعى بأفلع مرةً ، وبمحاح

* الأغانى : ٣ - ١٣٠ .

(١) الحجّة : المرة من الحج ، وهى من السواذ ، لأن القياس الفصح (٢) الخلة : الحاجة والفقير .
(٣) جعلتها غالية . (٤) الأنواح : المأثات (٥) الأرواح . الرياح (٦) اللاحاة : النازعة .

فقال : أنا كنتُ بهذا الشعر أُولَى من أيك . قال : كذبتَ ولؤمتُ ! قال :
أما كذبتُ فتَمَّ ، وأما لؤمتُ فلم ؟ قال : لأنك كنتَ مَيِّتَ الحقِّ في الجاهلية
ومَيِّتُ في الإسلام ؛ أما في الجاهلية فقاتلتَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم والوَحْيَ حتى
جَعَلَ الله عزَّ وجلَّ كيِّدَكَ للرَّدود . وأما في الإسلام فنعمتَ ولدَ رسول الله صلى الله
عليه وسلم الخلافة ، وما أنت وهى ، وأنت طَلِيق ابن طَلِيق ^(١) ! فقال معاوية :
قد خَرِفَ ^(٢) الشيخ فأقيموه ؛ فأخَذَ بيده فأقيم .

(١) الطليق : الأسير الذى أطلق غنه إسماره ، وهو يريد أنه من الصلفاء الذين حاربوا النبي وآذوه .
فما غلبهم عام الفتح خطبهم فقال : يا معشر قريش ؛ ما ترون أُنَى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرًا ، أُنَى
كريم وابن أُنَى كريم . فقال : اذهبوا فأتم العلقاء .
(٢) خرف : قد عقله من السكر .

٧٠ - عبد الرحمن بن الحكم يترضى زياداً*

دخل بعض بني أمية = وفيهم عبد الرحمن بن الحكم - على معاوية ، عندما استلحق زياداً ، فقال له عبد الرحمن : يا معاوية ؛ لو لم تجد إلا الزنج^(١) لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة - يعنى على بني أبي العاص .

فأقبل معاوية على مروان ، وقال : أخرج عنا هذا الخليع^(٢) . فقال مروان : إى والله إنه لخليع ما يطاق ، فقال معاوية : والله لولا حلى وتجاوزى لعلت أنه يطاق ؛ ألم يلبنى شعره فى وفى زياد ؟ فقال مروان : أسمعنيه فأنشد :

ألا أبلغ معاوية بن حرب لقد ضاقت بما يأتى اليدان
ثم قال : والله لا أرعى عنه حتى يأتى زياداً ، فيترضاه ويعتذر إليه .

فجاء عبد الرحمن بن الحكم إلى زياد معتذراً يستأذن عليه ، فلم يأذن له .

فأقبلت قريش تكلمه فى أمر عبد الرحمن ، فلما دخل سلم فتشاور^(٣) إليه زياد يعينيه ، ثم قال : أنتب القاتل ما قلت ؟ قال عبد الرحمن : ما الذى قلت ؟ قال : قلت ما لا يقال ، قال : أصلح الله الأمير ! إنه لا ذنب لمن أعتب^(٤) ، وإنما الصفح عمن أذنب ، فاسمع منى ما أقول : هات ، فأنشده :

إليك أبا المنيرة تبّ ممّا جرى بالشام من خطلي^(٥) اللسان

* ابن أبي الحديد : ٤ - ٧١ .

(١) الزنج والزنج : جيل من السودان . (٢) الخليع : الرجل يبيع الجنايات يؤخذ بها أو لياؤه فيبرءون منه ومن جنائياته ، والخليع أيضاً : المشتمر بالعرب واللهو والملازم للفقار . (٣) التشاور : أن ينظر إليه يؤخر عينيه ويعل وجهه فى شئ العين التى ينظر بها . (٤) أعتب : الإعتاب رجوع المتوب عليه إلى ما يرضى العاتب . (٥) الخطل : النطق الفاسد المضطرب .

وأغضبتُ الغليفةَ فيكَ حتى دعاه قَرْطُ غَيْطٍ أَنْ هَجَانِي
وقلتُ لمن لَحَانِي^(١) في اعتذارِي : إِلَيْكَ اذْهَبْ فَشَأْنُكَ غَيْرُ شَأْنِي
عرفتُ الحقَّ بعد ضلالٍ رأيي وبعد النِّيَّ من زَيْغِ الْجَنَانِ^(٢)
زيادٌ من أَبِي سَفِيَّانٍ غُصْنٌ تَهْشَدِي نَاضِرًا بَيْنَ الْجِنَانِ^(٣)
أراك أَخَا وَعَمًا وَابْنَ عَمٍّ فَا أَدْرِ بِسَبَبٍ مَا تَرَانِي
وإن زبادة في آلِ حَرْبٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَسْطَى بَنِي
أَلَا أَبْلُغُ معاويةَ بن حَرْبٍ قَدْ ظَفِرَتْ بِمَا نَأَى الْيَدَانِ
فقال زياد : قد سمعنا شمرَكَ ، وقبلنا عذركَ ، فهاتِ حاجتَكَ . قال : تَكْتُبُ إِلَيَّ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالرَّضَا عَنِّي . قال : نَعَمْ ، ثُمَّ دَعَا بِكَاتِبِهِ فَكَتَبَ لَهُ بِالرَّضَا عَنْهُ . فَأَخَذَ
كِتَابَهُ وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ عَلَى معاويةَ ، فَلَمَّا قَرَأَهُ ، قَالَ : لَحَى اللَّهُ^(٤) زِيَادًا لَمْ يَنْتَبِهْ لِقَوْلِهِ :
« وَإِنْ زَبْدَةٌ فِي آلِ حَرْبٍ » .
ثم رَضِيَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَرَدَّهُ إِلَى حَالِهِ .

(١) لَحَانِي : لَامَنِي وَعَنَفَنِي . (٢) الْجِنَانُ : الْقَلْبُ . (٣) جَمْعُ جَنَّةٍ . (٤) لَحَى اللَّهُ : أَمْلَكَ وَلَمَنَهُ .

٧١ - أُنَاكُمْ غَرِيبُ الدَّارِ مَظْلُومٌ*

استعمل عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ رَجُلًا مِنْ آلِهِ عَلَى الْعُلَاقَةِ ، فَظَلِمَ رَجُلًا مِنْ
أَزْدِ شَنْوَةَ ، فَأَتَى الْأَزْدِيُّ عُتْبَةَ ، فَثَلَّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ :

أَمَرْتُ مَنْ كَانَ مَظْلُومًا لِيَأْتِيَكُمْ فَقَدْ أُنَاكُمْ غَرِيبُ الدَّارِ مَظْلُومٌ !
ثُمَّ ذَكَرَ ظُلَامَتَهُ ؛ فَقَالَ لَهُ عُتْبَةُ : إِنِّي أُرَاكَ أَعْرَابِيًّا جَافِيًّا ، وَاللَّهِ مَا أَحْسِبُكَ
تَدْرِي كَمْ نُصَلِّيَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ : قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ أَنْبَأْتُكَ ذَلِكَ أَنْجَمَلُ لِي عَلَيْكَ
مَسْأَلَةٌ ! قَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

إِنَّ الصَّلَاةَ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعٌ ثَلَاثٌ بَسْمُهُنَّ أَرْبَعٌ
* ثُمَّ صَلَاةُ الْفَجْرِ لَا تُصِغُ *

قَالَ : صَدَقَ . فَاسْأَلْ ، فَقَالَ : كَمْ قَفَّارٌ^(١) ظَهَرَ لَكَ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي ، فَقَالَ :
أَفْتَحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ ، وَأَنْتَ تَجْهَلُ هَذَا مِنْ نَفْسِكَ ! قَالَ : رَدُّوا عَلَيْهِ غَنِيمَتَهُ^(٢) .

* السَّكَّامِلُ لِلْمِرْد : ١ - ٢٠٩ .

(١) الْقَفَّارُ : جَمْعُ قَفَّارَةٍ ، وَهِيَ أَيْضًا الْفَرَّةُ . (٢) الْغَنِيمَةُ : تَصْغِيرُ غَنَمٍ ، قَالَ فِي اللِّسَانِ : إِذَا
صَفَرْتَهَا أَوْخَلْتَ عَلَيْهَا النَّاءَ لِأَنَّ أَحْسَاءَ الْجَمْعِ الَّتِي لَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا إِذَا كَانَتْ لِفَرِ الْأَدْمِيِّينَ
وَصَفَرْتَهَا فَالْثَّانِيَةُ لَهَا لِأَنَّهُ لَا زَمَ .

٧٢ - أَرَى فَيْكَ مَوْضِعًا لِلصَّنِيعَةِ*

أَخَذَ مُصْعَبٌ^(١) بْنُ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْخِطَابِ ، فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ ،
قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، مَا أَقْبَحَ بِكَ أَنْ أَقُومَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى صُورَتِكَ هَذِهِ الْحَسَنَةِ
وَوَجْهِكَ هَذَا الَّذِي يُسْتَعْضَاكَ بِهِ ، فَأَتَعَلَّقُ بِأَطْرَافِكَ وَأَقُولُ : أَيْ رَبُّ ! سَلِّ مُصْعَبًا
فِيمَ قَتَلْتَنِي ؟ قَالَ : أَطْلِقُوهُ .

قَالَ : أَجْمَلُ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ خِيَاتِي فِي خَفَضٍ . قَالَ : أَعْطُوهُ مِائَةَ أَلْفٍ .
قَالَ : يَا ابْنِي أَنْتَ وَأَنْتَى ، أَشْهَدُ اللَّهَ أَنَّ لَابْنَ قَيْسِ الرُّقَيْعَاتِ مِنْهَا خَمْسِينَ أَلْفًا . قَالَ :
وَلِمَ ؟ قَالَ لَقَوْلِهِ فَيْكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الْإِلَهِ	يَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاتُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ	جَبَرُوتٌ يَخْشَى وَلَا كِبَرِيَاةٌ
يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أُوذِيَ	لَمَحَ مَنْ كَانَ هُمُهُ الْإِنْفَاءُ

فَضَحَكَ مُصْعَبٌ ، وَقَالَ : أَرَى فَيْكَ مَوْضِعًا لِلصَّنِيعَةِ . وَأَمَرَهُ بِالزُّومِ ، وَأَخْمَنَ
إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ حَتَّى قُتِلَ .

* عيون الأخبار : ١ : ١٠٣ .

(١) أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام ، وُلِدَ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ الْبَصْرَةَ ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهِ الْكُوفَةَ
فَأَحْسَنَ الْبَيَاسَةَ ، وَأَجْرَى الْعَدْلَ ، خَرَجَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِقَاتِهِ ، ثُمَّ قَتَلَ وَجَلَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ سَنَةَ ٧١ هـ .

٧٣ - الرقية *

دخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان^(١) ، فوجده يتأوه ، فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ لو أَدْخَلْتَ عليك من بُؤْسِكَ بأحاديث العرب وبياسطك
استرحت ! فقال : لستُ بصاحبٍ لهو ، قال : ما الذى تشكوه يا أمير المؤمنين ؟ قال :
هَاجَ بى النِّسَاءُ^(٢) ليلتى هذه ؛ فيبلغ منى ماتراه .

قال : إِنَّ بُدَيْحًا مولاي أُرْقِي^(٣) انْطَلِقْ منه . فأمر بإحضاره .

فلما مثل^(٤) بين يدَيه قال عبد الملك : يا بُدَيْحُ ، ارْقِ رجلى ، قال :
يا مولاي ؛ أنا أُرْقِي الناسَ لها . ثم وضع يده عليها ، وجعل يقول ما لا يُسْمَعُ ، فقال
عبد الملك : قد وجدتُ راحةً بهذه الرُّقِيَّةِ ؛ أين فلانة ؟ اثْنُونِى بها تكتبها ؛
لئلا يهيجَ بى الوجعُ بالليل .

قال بديح : يمينا ؛ ما أكتبها إلا بتمجيل جائزى ، فأمر له بأربعة آلاف
درهم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، يمينا ، ما أكتبها حتى تُحْمَلَ جائزى إلى بيتى .
قال : تُحْمَلْ . فحُمِلَتْ .

* المستطرف : ٢ - ٢٣٢ .

(١) من أعظم الخلفاء ودهاتهم ، نشأ فى المدينة ، واستعمله معاوية عليها ، وانتقلت إليه الخلافة
سنة ٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٨٦ هـ . (٢) النساء : عرق من الورق إلى الكعب ، ولا يقال : عرق
النساء لأن الشيء لا يضاف إلى نفسه . (٣) يقال : رقى الرقيق رقية ، إذا عود وحث .
(٤) مثل : وقف .

فقال : يا أمير المؤمنين : يميناَ ما رقيتُ رجلَك إلا مباسطة بقول نصيب :
ألا إن ليلى العامرية أصبحتُ على البعد منى ذنبَ غيرةٍ تنقِمُ
فقال : وبلك ، ما تقول ! قال : ما رقيتُك إلا بها ، فقال : اكتمها
على ، قال : كيف وقد سارت بها الرُّكبان إلى أخيك بمصر ! فضحك حتى
فحص الأرضَ برجليه.

٧٤ - ظرف عباد الحجاز *

قل عبد الله بن عمر العمري : خرجتُ حاجاً ، فرأيتُ امرأةً جميلةً تفكلم بكلام أُرِفْتُ^(١) فيه ، فأدْبَيْتُ نَافِثِي مِمَّا ، ثم قُلْتُ لها : يَا أَمَةَ اللَّهِ ، أَلَسْتَ حَاجَةً ! أما تخافين الله ؟ فَسَفَرْتُ عَنْ وَجْهِ يَهْرُ الشَّمْسِ حَسَنًا ، ثم قَالَتْ : تَأْمَلُ يَا عَمِّ فَإِنِّي مِمَّنْ عَنَاهُ الْمَرْجِيُّ^(٢) بقوله :

أَمَاطَتْ كِسَاءَ الْخَزَّ عَنْ حُرُوجِهَا وَأَدْبَتْ عَلَى الْخَلْدِ بُرْدًا مُهْمَلًا
مِنَ اللَّاءِ لِمُحْجُجَيْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً^(٣) وَلَكِنْ لَيَقْتُلَنَّ الْبَرِيءَ الْمُفْهَلًا^(٤)
فَقُلْتُ لها : فَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ أَلَّا يُدْبِ هَذَا الْوَجْهَ بِالنَّارِ .

وبلغ ذلك سعيد بن المسيب^(٥) فقال : أما والله لو كان من بعض بُضَاءِ الْعِرَاقِ لَقَالَ لها : اغْرُبِي قَبْعَكَ^(٦) اللَّهُ ! وَلَكِنَّ ظَرْفَ عِبَادِ الْحِجَازِ .

* الْأَعْيَانُ : ١ - ٤٠٣ .

(١) أُرِفْتُ : تَكَلَّمْتُ بِفَاحِشِ الْقَوْلِ . (٢) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، شَاعِرُ غَزَلٍ يَنْحَوُّ عُمَرَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَكَانَ مِنَ الْأَدْبَاءِ الْمُظَرَّفَاءِ الْأَسْخِيَاءِ ، وَلَقَّبَ بِالْمَرْجِيِّ لِسُكْنِهِ قَرْيَةَ الْمَرْجِ فِي الطَّائِفِ . (٣) الْحِسْبَةُ : الْأَجْزُ . (٤) الْمُفْهَلُ : الْقِي لَا فُتْنَةٌ لَهُ . (٥) سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ ، سَيِّدُ التَّابِعِينَ ، جَمَعَ بَيْنَ الْحَدِيثِ وَالْفَقْهِ ، سَنَةَ ٩٤ هـ . (٦) قَبْعَهُ اللَّهُ : نَحَاهُ عَنِ الْخَيْرِ .

٧٥ - جرير وجارية الحجاج *

نزل جريرٌ على عَنبَسَةَ^(١) بن سعيد بواسط ، ولم يكن أحد يدخلها إلا بإذن الحجاج ، فلما دخل على عَنبَسَةَ ، قال له : وَمَحْك ! لَقَدْ غَرَّرت بنفسك ، فما حملك على ما فعلت ؟ قال : شعرتُ قلته اعتلج في صدري ، وجاشت به نفسي ، وأحببت أن يسمعه الأمير . ففتنه وأدخله بيتاً في جانب داره ، وقال : لا تَطْلَعَنَّ رأسك حتى ننظرَ كيف تكونُ الحيلةُ لك .

ولم يلبث أن أتاه رسولُ الحجاج من ساعته يدعوه في يوم قانظ ، وهو قاعد في الخضرَاء^(٢) ، وقد صُبَّ فيها ماء استنقع^(٣) في أسفلها ، وهو قاعد على سرير ، وكرسیٌّ موضوعٌ ناحية .

قال عنبسة : فعدتُ على الكرسي ، وأقبل على الحجاج يحدثني ، فلما رأيتُ تَطْلُقُهُ وطيبَ نفسه قلتُ : أصلح الله الأمير ! رجل من شعراء العرب قال فيك شِعْراً أجاد فيه ، فاستخفه عَجَبُهُ به حتى دعاه إلى أن رحل إليك ، ودخل مدينتك من غير أن يُسْتَأْذَنَ له . قال : وَمَنْ هو ؟ قلتُ ابنُ الخَطَفَى . قال : وأين ؟ قلتُ : في المنزل . قال : يا غلام ، فأقبل الغلمانُ يتسارعون . قال : صفْ لهم موضعه من دارك ! فوصفت لهم البيتَ الذي هو فيه .

* الأُتُنِي : ٨ - ٧٥ ، السكامل : ١ - ٣١٢ .

(١) هو عنبسة بن سعيد بن النعمان أحد أشراف بني أمية ، حبه عبد الملك بن مروان يوم قتل أخيه عمرو بن سعيد الأشدق . (٢) الخضرَاء : يراد بها خضرَاء واسط ، وتعرف بالقبعة الخضراء بناها الحجاج مع قصره في هذه المدينة . (٣) استنقع الماء : اجتمع .

فانطلقوا حتى جاءوا به ، فأدخل عليه وهو مأخوذ بصِغْفِيَّةٍ^(١) حتى رُمِيَ به في
الْخَصْرَاءِ ، فوقع على وجهه في الماء ، ثم قام يَنْفَشُ كَمَا يَنْفَشُ^(٢) النَّرْخُ . فقال له :
هيه ! ما أقدمك علينا بغير إذننا ؟ لا أم لك ! قال : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ اقلْتُ في
الأمير شعراً لم يقل مثله أحدٌ ؛ فحشَ به صدرى ، وأحببت أن يسمعه مني الأمير ؛
فأقبلتُ به إليه .

فطلَّقَ الْحِجَّاجُ وسكَّن ، واستنشدته ، فأثَّده ، ثم قال : يا غلام ، جاءوا يَسْعَوْنَ .
فقال : علىَ بالجارية التي بعتُ بها إلينا عاملُ اليمامة ؛ فأني بجاريةٍ بيضاءَ مَدِيدَةٍ
القائمة . فقال : إن أصبتَ صِفَتَهَا فهي لك . فقال : لبس لي أن أقولَ فيها وهي
جاريةُ الأمير . فقال : بلى ، فتأملُها واسألُها ؛ فقال لها : ما اسمُكِ ؟ فأصكت .
فقال لها الحجاج : خَبِّرِيه ، فقالت : أُمَامَةُ ، فأنشأ :

وَدَّعَ أُمَامَةُ حَانَ مَنكَ رَحِيلُ إِنِ الْوَدَاعَ لَنْ تُحِبَّ قَلِيلُ
مِثْلُ السَّكَّابِ تَمَايَلَتْ أَعْطَافُهُ فَالرَّيْحُ تَجْبُرُ مَقْنَهُ وَنَزِيلُ
هَذِي الْقُلُوبَ صَوَادِبًا تَيَمَّيَّنَتْهَا وَأَرَى الشَّفَاءَ وَمَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

فقال الحجاج : قد جعل الله لك السبيل إليها ، فخذُها فهي لك .

فضرب بيده إلى يَدِهَا ، فتمتعت عليه ، فقال :

إِنْ كَانَ طِبُّكُمْ^(٣) الدَّلَالُ فَإِنَّهُ حَسَنٌ دَلَالُكَ يَا أُمَامَ جَمِيلُ
فاستصَحَّكَ الحجاج ، وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة .

وكانت من أهل الرِّمَى ، وكان إخوتها أحراراً ، فاتبعوها ، فأعطوهم بها حتى
بلغوا عشرين ألفاً فلم يقبل ، فنفى ذلك يقول :

(١) الضَّعِيجُ : المُضْدَكُلُها أو وسطها بلحمها . (٢) تنفَّس الطائر : تنفس ريشه . (٣) الطب :
الغضب ، والدلال : الدالة .

إذا عرضوا عشرين ألفاً تبرعت لأتم حكيم حاجة هي ما هيأ
لقد زدت أهل الرى عندي مودة وحببت أضغاناً إلى الموالى
فأولدها حكماً وبلاً وحزرة بنيه .

٧٦ — أرادت عراراً بالهوان*

لما أخذ المجاج رأس ابن الأشعث وجه به إلى عبد الملك بن مروان ، مع
عرار^(١) بن عمرو بن شأس الأسدي، وكان أسود دميماً؛ فلما وردت به عليه جمل
عبد الملك لا يسأل عن شيء من أمر الوقعة^(٢) إلا أنباه به عرار ، في أصح لفظ ،
وأشبع قول ، وأجزأ اختصار .

فشفاه من الخبر ، وملاً أذنه صواباً ، وعبد الملك لا يعرفه ، وقد اقتحمته^(٣)
عينه حين رآه ، فقال عبد الملك متعظاً :

أرادت عراراً بالهوان ومن يرد لعمرى عراراً بالهوان فقد ظلم
وإن عراراً إن يكن غير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العم^(٤)
فقال له عرار : أتعرفني يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ! قال : فإنا والله عرار ،
فزاد في سنوره ، وأضعف له الجائزة .

* الكامل : ١ - ١٦٠

(١) ضبطه صاحب اللسان (مادة عرر) بالفتح ، ولا أورد البيت الثاني من البيتين الواردين في
القصبة بضمة بالكسر . (٢) الوقعة : الواقعة . (٣) اقتحمته : احتقرته . (٤) منكب عم :
طويل .

٧٧ - قد نجوت*

خرج المدبيل^(١) بن الفرخ يريد الحجاج^(٢) ، فلما صار ببابه حجبه الحاجب
فوثب عليه المدبيل ، وقال : إنه لن يدخل على الأمير - بعد رجالات قريش -
من هو أكبر مني ولا أولى بهذا الباب ؛ فنارعه الحاجب الكلام ، فأخفله^(٣) ،
وانصرف المدبيل عن باب الحجاج إلى يزيد بن المهلب ، فلما دخل إليه أنشأ
يقول :

لئن أرئج الحجاج بالبخل بابه فبإب الفقى الأزدي بالرفق يفتح
فتى لا يبلى الدهر ما قلّ ماله إذا جملت أيدى المكرم تسنح
يداه يد بالرفق تنهب ما حوت وأخرى على الأعداء تسطو وتجرح
إذا ما أتاه المرملون^(٤) تيقنوا بأنّ الفقى فيهم وشيكاً ميسرح
أقام على العافين^(٥) حراس بابه بنسادونهم ، والحز بالحرّ يفرح
هللوا إلى سبب الأمير وعرفه فإن عطاياهم على الناس تنفع
قال له يزيد : عرضت بنا وخاشرت بدمك ، وبالله لا يصل إليك وأنت
في حيرى ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم ، وأمر له بأفراس وقال له : الحق بملياء
تجد ، واحذر أن تملك حبال الحجاج ، أو تحتجك^(٦) تحاجنه ، وابتعث إلى
في كل عام ، فلك على مثل هذا ، فارتحل .

* الأغانى : ١٣ - ٢٠

(١) المدبيل : شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية . (٢) الحجاج : انظر صفحة ٢٨ .

(٣) أخفله : أغضبه . (٤) أرملوا : فقد زوجه . (٥) لما : طالب للمروق . (٦) تحتوبك .

وبلغ الحجاج خبره ، فأحفظه ذلك على يزيد ، وطلب العديل فهرب وقال :
أخوف بالحجاج حتى كما يحرك عظم في الفؤاد مبيض
ودون يد الحجاج من أن تنالني بساط لأبدى الناعجات^(١) عريض
مهايمه أشباه كأن سراجها ملا^(٢) بأبدى الناسلات رحيض^(٣)

ولكن الحجاج لج في طلبه حتى لفظته الأرض ، ونبا به كل مكان هرب
إليه ؛ فأتى بكر بن وائل ، وهم يومئذ بأدون ، فشكا إليهم أمره ، وقال لهم : أنا
مقتول ، أقتلوني هكذا وأنتم أعز العرب أقالوا : لا والله ، ولكن الحجاج
لا يرغم^(٤) ، ونحن نستوهبك منه ، فإن أجابنا فقد كُفيت ، وإن حادنا^(٥) في
أمرك ممنناك ، وسألنا أمير المؤمنين أن يهلك لنا .

فأقام فيهم ؛ واجتمعت ، وجوه بكر بن وائل إلى الحجاج ، فقالوا له : أيها
الأمير ؛ إنا قد جنينا جميعاً عليك جناية لا يفر مثلها ، وما نحن أولاء استسلمنا
وألقينا بأيدينا إليك ، فإما وهبت فأهل ذلك أنت ، وإما عاقبت فكنت المأسط
المالك العادل ؛ فقبس وقال : قد عفوت عن كل جرم إلا جرم الناسق المديل
فقاموا على أرجلهم وقالوا : مثلك أيها الأمير لا يستغنى على أهل طاعته وأوليائه
في شيء ، فإن رأيت ألا نكدر منتك باستثناء ، وأن تهب لنا العديل في أول
من تهب . قال : قد فعلت ، فهاتوه - فبجه الله - فأتوه به ، فلما مثل بين
يديه أنشأ يقول :

فلو كنت في سلمى أجا وشعابها لكان لحجاج على دليل

(١) ناعجات : جمع الناعجة : الناقة السريمة ، أو التي تصاد عليها لجاج الوحش . (٢) الملا :
جمع ملاة ، وهي الريلة . (٣) الرحيض : الثوب المفسول . (٤) لا يرغم : لا يامد .
(٥) حاد : غاضب وعاداه وغالقه .

بنى قبة الإسلام حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسول
إذا جاز حكمُ الناس ألجا حكمه إلى الله قاضٍ بالكتاب عقول
خليلُ أمير المؤمنين وسيفه لكلِّ إمامٍ صاحبٌ و خليل
به نصر الله الخليفة منهم وثبت ملكا كاد عنه يزول
فأنت كسيف الله في الأرض خالد تصول بمون الله حين تصول
وجازيت أصحابَ البلاد بلادهم فما منهم مما تُحبُّ نكول^(١)
وصلت بمرأى العراق فأصبحت مناكبها للوطء وهي ذلول
وما خفت شيئا غير ربي وحده إذا ما اتحيت النفس كيف أقول
ترى الثقلين: الجنَّ والإنس أصبحا على طاعة الحجاج حين يعول
فقال له الحجاج : أولى لك اقد نجوت ، وفرض له ، وأعطاه عطاءه .

(١) النكول : التكموس والجهن .

٧٨ — ما أنا يابرح أو يرضى أمير المؤمنين*

أوفد الحجاجُ ابنه محمداً إلى عبد الملك عاشرَ عشرة من أهل العراق ، وأوفدَ إليه جريراً^(١) معه ، ووصاه به ، وأمره بمسألة عبد الملك في الاستماع منه .

فقدم محمدٌ على عبد الملك فخطب بين يديه ، فأجلسه على سريره عند رجليه ، ثم دعا بالوفد رجلاً رجلاً ، فجعل كلّا خطب رجل قطع خطبته وتكلم جرير فقطع خطبته ، ثم قال : مَنْ هذا يا محمد ؟ فقال : هذا يا أمير المؤمنين ابنُ الخطّاف . قال : مادحُ الحجاج ؟ قال : وما دحك يا أمير المؤمنين ! فقال جرير : إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده مدحة فيه ! قال : هات ما قلت في الحجاج ، فأنشده :

صَبَرْتُ^(٢) النفسَ يابنَ أبي عَـقِيلٍ محافظَةً فكيف تَرَى الثَّوَابَا
ولو لم يَرْضَ رَبُّكَ لم يُنْزَلْ مع النصر الملائكةَ النِّصَابَا
إذا سَمَرَ^(٣) الخليفةُ نارَ حَرْبٍ رأى الحجاجَ أَثَقِبَهَا^(٤) شِهَابَا^(٥)

* المحاسن والساوي : ٢٣٠ ، طبع لبيزج ، الأغانى : ٨ - ٦٧

(١) كان جرير مقبلاً بالبادية ، فكتب إليه نويرة : أنت مقبلاً بالبادية ، وليس أحد يروى عنك ، والفرزدق قد ملأ عليك العراق ، فأنحدر إلى جماعة الناس ! فأشد بالرجل كما يشد بك ! فأنحدر وأقام بالبصرة ! فلذلك يقول :

وإذا شهدت لئن قومي مشهداً آثرت ذلك على بني ومال

فأوجه الحجاج ، وملاً بمدحه الأرض ، وبلغ أهل الشام وأمير المؤمنين ورواه الناس .

(٢) صبرت . حيث . (٣) سمر الحرب : أوقدها . (٤) الكوكب الثاقب : الضى .

(٥) الشهاب : الكوكب .

قال: صدقت كذلك هو، ثم قال: ابدأ بالحجاج، فأنشده:
طَرِبْتُ لِمَهْدِهِمْ حَيْجَةَ الْمَنَازِلِ وَكَيْفَ تَهْصِي^(١) المرمو الشيب شامل
فما فرغ منها حتى ظهر في وجه أمير المؤمنين الغضب، وقال: هات؛ ابدأ
بالحجاج، فأنشده:

هَاجَ الْمَوَى لِنَوَادِكِ الْمُتَهَاجِرِ فَانْظُرْ بِتَوْضُحِ^(٢) بَاكِرِ الْأَحْدَاجِ^(٣)
حتى أتى على قوله:
مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النِّفَاقِ عَلَيْهِم أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَابِ
أَمْ مِنْ بَفَّارٍ عَلَى النِّسَاءِ حَقِيقَةً إِذْ لَا يَتَّقِنَ بَمَيزَةِ الْأَزْوَاجِ
فحكلم الأخطل وقال: أين أمير المؤمنين يابن المَرَاغَةِ؟ فلم جرير أنه الأخطل
فَرَزَنَ^(٤) حِيَالُ وَجْهِهِ بَكْمِهِ، وقال: اخْضَأْ، ومضى حتى أنشده كلها.
فقال الخليفة: اجلس، فجلس، ثم قال: قم يا أخطل، هات مديح أمير
للمؤمنين.

قال جرير: فقام حِيَالِي، فأنشد أشعر الناس وأمدح الناس؛ فقال له الخليفة:
أنت شاعرنا وما دحنا، اركبهُ، فرمى بردائه، وألقى قبضه على منكبيه، ووضع
يده على عنقه، فقلت: يا أمير المؤمنين؛ لا يفعل. فقال أهل المجلس: صدق
يا أمير المؤمنين، فقال: دَعَهُ، وانتفض المجلس وخرجنا.

فقال جرير: فدخل الوفد عليه ثمانية أيام مع محمد كلهن أُحْجَبَ فلا أدخل

(١) التَّهْصِي: التظاهر بالصبا. (٢) تَوْضُح: اسم مكان. (٣) الْحَدَج: مركب للنساء كالخففة
جمعه أَحْدَاج. (٤) الْفَزَن: الدفء.

عليه ، ثم دخلوا في التاسع ، وأخذوا جوائزهم ، وتجهّشوا في العاشر للدخول والتوديع للرجيل .

فقال محمد : يا أبا حَرْزَةَ ، ما لي لا أراك تتجَهَّز ؟ قلتُ : كيف وأمير المؤمنين عَلَى سَاحِطٍ ؟ ما أنا بيارح أو يَرْضَى عَنِّي !

فلما دخل عليه محمد ليودّعه ، قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن ابنِ انْطَلَفَ مَادَحَك وشاعرك ، ومادح الحجاج سيفك وأميناك ، وقد لَزَمْتَنَا لَهُ صُحْبَةً وَذِمَامًا ، فإن رأيتَ أَنْ نَأْذَنَ لَهُ ؟ فإنه أبى أَنْ يَخْرُجَ معنا ، وأنتَ عَنْهُ غَضِبَان ، وآلَى أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ أَوْ تَرْضَى عَنْهُ فَيَدْخُلُ وَيُودِّعُكَ .

قال جرير : فَأَذِنَ لِي ؛ فدخلت عليه ، ودعوت له ، فقال : إنما أنت للحجاج قلت : ولك يا أمير المؤمنين .

ثم استأذنته في الإنشاد ، فسكت ولم يأذن لي ، فاندفعت فقلت :
أَنْصَحُ^(١) أُمَ فُؤَادِكَ غَيْرُ صَاحِرٍ

فقال : بل فؤادك !

قلت :

عَشِيَّةٌ مِمَّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ^(٢)

حتى فرغت منها ، وعلت أُنَى إِنْ خَرَجْتَ بغير جائزة كان إسقاطي آخر الدهر .

فلما بلغت إلى قولي :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ اللَّطَايَا وَأُنْذَى الْعَالَمِينَ بِطُؤُنِ رَاحٍ^(٣)

(١) تصحوا : ترك الباطل . (٢) الرواح : الذهاب عشية . (٣) الراح : جمع راحة : باطن الكف .

تبسم عبد الملك وقال : بلى ، كذلك نحن ، وما زلنا كذلك ؛ أعد فأعدت ، فطرب
لذلك ، ثم أنشدته إياها حتى أتيت إلى قولى :

نَمَزْتُ أُمَ حَرْزَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتُ لِلوَرْدَيْنِ ذَوَى لِقَاحِ

تُكَلَّلُ وَهِيَ سَاغِيَةٌ بَيْنَهُمَا بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّيْبِ الْقَرَّاحِ^(١)

فالتفت عبد الملك إلى محمد بن الحجاج ، وقال : أترى أُمَ حَرْزَةَ تُرْوِيهَا مَائَةً
من الإبل ؟ قال : إن لم يُرْوِها ذلك فلا أُرْوَاهَا !

قال : أخرجوا لنا مائة من النعم التي جاءت من عند كلب ، ولا تُرْذِلُوهَا^(٢) ؛
فشكرت له وشكر له أصحابي ومن شهدنى من العرب .

ثم قلت : يا أمير المؤمنين إنما نحن أشياخ من أهل العراق ، وليس فى واحدٍ
منا فضلٌ عن راحلته . قال : أفجعل لك أمانها ؟ قلت : لا ، ولكن الرِّعَاءَ
يا أمير المؤمنين ؛ فنظر جَنَبَتَيْهِ ، ثم قال لجلسائه : كم يجرى مائة من الإبل ؟
قالوا : ثمانية يا أمير المؤمنين . فأمر لى بثمانية أعبد ؛ وكان قد أهدى إليه بعض
الدهاقين^(٣) ثلاثَ صحاف فضة ، وهن بين يديه يقرعهن بالخيرزانة ، فقالت :
المُحَلَّبُ يا أمير المؤمنين فندس^(٤) إلى منهن واحدة ، قال : خذها لا نفعتك ،
قلت : بلى ، كل ما أخذته منك ينفعنى إن شاء الله وودعناه وانصرفنا .

وكتب محمد إلى أبيه بالحديث كله ، فلما قدمنا على الحجاج قال لى : أما والله
لولا أن يبلغ الخبيرُ أميرَ المؤمنين فيجد على لأعطيتك مثلها ولكن هذه خسون
راحلة وأحالتها حنطة ، تأفى بها أهلك ؛ فتميرهم ؛ فقبضتها وانصرفت .

(١) الأنفاس : جمع نفس ، وهو جرع للاء ، والشيب : البارد ، والقراح : الخالص ، يريد أنها
تطلم بللاء عند انقضاء الابن . (٢) أرذله : جعل فيه الرذالة ، وهى ما اتقى جيده .

(٣) الدهاقين : جمع دهقان ، وهو زعم فلاحي المعجم ، ورئيس الإقليم — مغرب . (٤) ندس لى
منهن واحدة : ففقد بها .

٧٩ - آكل *

قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص : قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمرو بن عبد العزيز وأيوب ابنة بستاناً لعمرو ، فجال حتى أتى صدره إلى غصن ، ثم قال : وبلك ! يا شمردل ؟ ما عندك شيء تطعمني ؟ قلت : عندي جَدَعٌ^(١) حافل^(٢) تَقْدُو عليه وتروح أخرى . قال عجّل به فأنيته به كأنه عُسْكَةٌ^(٣) تَمْنَن ، فجعل يأكل ، وهو لا يَدْعُو عُمرَ ولا ابنه ، حتى بقي منه فَنِيذ . فقال : يا أبا نضس ! هم اقال : إني صائم ، فأني عليه ، ثم قال : يا شمردل ؟ وبلك ! ما عندك شيء تطعمني ؟ قلت : دجاجات ست ، كأنهن رِثْلان^(٤) النعام ، فأنيته بهن فسكران يأخذ برجل الدجاجة فيأبى عظامها نقيّة فأني عليهن ، ثم قال : وبلك يا شمردل ! ما عندك شيء تطعمني ؟ قلت : سويق كأنه قرأضة الذهب ، فأنيته بمس^(٥) يغيب فيه الرأس ، فشربه ، فلما فرغ تحشأ كأنه صارخ في جب ، ثم قال : يا غلام ! أفرغت من غدائنا ؟ قال : نعم ! قال : ما هو ؟ نيف وثمانون قدراً ، فأني بها قدراً قدراً ، وبقناع^(٦) عليه رفاق ، فأكل من كل قدر ثلاث لقم ، ثم مسح بده ، واستلقى على فراشه ، فوضّيع الخوان ، وقعد يأكل مع الناس ، فما أنسكرت شيئاً من أكله .

* المقعد الفريد : - ١٦٨ ، نهاية الأرب - ٣٤٤

(١) الجذع : الصغير السن ، وهو يختلف في أسنان الإبل والحمل والبقر والشاء ، وهو من الغنم ما عمره سنة . (٢) شاة حافل : كثيرة اللبن . (٣) العسكة : آنية السمن . (٤) رثلان : جمع الرثال : وهو ولد النعام أو حوله . (٥) المس : القدح العظيم . (٦) البقاع : الطبق من عسب النخل .

٨٠ - نُزْلُ أُمِّ حَبِيبٍ *

نزل نَصِيبٌ ^(١) بامرأة تُسَكَّنِي أُمَّ حَبِيبٍ ، من أهل مَلَلٍ ^(٢) ، وكانت تُصِيفُ
 في ذلك للوضع وتَقْرِي ، ولا يزال الشريف ينزلُ بها فيُفْضِلُ عليها الفضلَ
 الكثيرَ ، ولا يزالُ الشريفُ ممن لم يَحُلْ بها ، يتناولها بالبرِّ لِيُعِينَهَا على مَرُوتِها ،
 فنزل بها نَصِيبٌ ومعه رجلان من قريش ، فلما أرادوا الرَّحْلَةَ عنها وصلَّها القرشيان ،
 وكان نَصِيبٌ لا مالَ معه في ذلك الوقت ؛ فقال لها : إِنْ شئتِ فلكِ أَنْ أُوجِّهَ إِلَيْكِ
 بمثل ما أعطاكِ أحدهما ، وإن شئتِ قلتُ فيكِ شعراً ؛ فقالت : بل الشعر ؛ فقال :
 أَلَا حَىَّ قَبْلَ الْبَيْنِ ^(٣) أُمَّ حَبِيبٍ وإِنْ لَمْ تَكُنْ عِنَاغِدًا قَرِيبَ
 وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَنَّى أَحْبَبْتُ صَادِقًا فَمَا أَحْسَدُ عِنْدِي إِذْنَ حَبِيبِ
 تَهَامٍ أَصَابَتْ قَلْبَهُ مَلِيلَةٌ غَرِيبُ الْهَوَى ، وَهَاهَا لَكُلِّ غَرِيبٍ

* الكامل : ١ - ٣٣٤

(١) نصيب بن رباح : شاعر غلٍ مقدم في النسيب والمناجاة توفي سنة ١٠٠ هـ .

(٢) ملل : موضع في طريق مكة بين الحرمين . (٣) البين : الفراق .

٨١ — امرأةٌ تحاورُ كثيرًا*

قال السائب راويةٌ كثيرٌ : واللهِ إني لأسير يوماً مع كثير^(١) ، حتى إذا كنا من المدينة على أميال ، لقيَنا امرأةً في رحالة^(٢) متنفقةً ، معها عبيدٌ لها يسعون معها ، فمرت جنباً بي^(٣) ، فسلتُ ، ثم قالت : بمن الرجل؟ قلت : من أهل الحجاز . قالت : فهل تروى لكثير شيئاً ؟ قلت : نعم ، قالت : أما والله ما كان بالمدينة من شيء هو أحب إليّ من أن أرى كثيرًا وأسمع شعره ، فهل تروى قوله :

* أهاجك برق آخر الليل وأصيب^(٤) *

قلت : نعم ، فأنشدها إياها إلى آخرها ، قالت : فهل تروى قوله :

كأنك لم تسمع ولم تر قبلها تفرق ألف لهنّ حين

قلت : نعم ، وأنشدتها . قالت : فهل تروى قوله أيضاً :

* أأطلال سعدى باللوى تُنعمد *

قلت : نعم ، وأنشدتها حتى أتيت على قوله :

فلم أر مثل العين ضنت بماها على ولا مثلى على الدمع يُحسد

فقلت : قاتله الله ! فهل قال مثلي قول كثير أحدٌ على الأرض ! والله لأن أكون رأيت كثيرًا أو سمعت منه شعره أحب إليّ من مائة ألف درهم .

* الأعاني : ١١ — ٤٨ .

(١) هو كثير بن عبد الرحمن ، اشتهر بزمه ، وشيبت بها ، وكان واقفياً شديد التعمص لآل أبي طالب ، توفي سنة ١٠٥ هـ . (٢) الرحالة : السرج . (٣) الجنب : الناحية . (٤) وأصيب : دائم .

قال السائب : قلتُ : هو ذاك الراكب أمامك ، وأنا السائب روايته ، قالت :
حيّاك الله ! ثم رَكَضَتْ بَعْلَهَا حَتَّى أَدْرَكَته ، فقالت : أنت كثير ؟ قال : مالك ؟
وبيك ! فقالت : أنت الذى تقول :

إِذَا حُسِرَتْ عَنْهُ الْعِمَامَةُ رَاعَهَا جَمِيلُ الْحَيَا أَغْفَلْتُهُ الدَّوَاهِنُ
والله ما رأيت عربياً قط أقيح ولا أحقر ولا ألام منك ! قال : أنت والله أقيحُ
منى والألم ، قالت له : أولستَ القاتل :

تَرَاهُنَّ إِلَّا أَنْ يُوْدِينَ نَظْرَةً بِمُؤَخَّرِ حَسِينٍ أَوْ يَقْلِبُن مَعَهَا
يُحَاذِرُن مَتَى غَوْرَةٌ قَدْ عَرَفَتْهَا قَدِيمًا فَمَا يَضْحِكُنْ إِلَّا تَبَسُّمًا
لئن الله من يفرّق^(١) منك ! قال : بل لعنك الله ، من أنت ؟ قلت : لا يضرك
إن لم تعرفنى . قال : والله إني لأراك لثيمة الأصل والعشيرة . قلت : حيّاك الله
يا أبا صخر ! ما كان بالمدينة رجل أحبّ إلى وجهها ولا لقاء منك . قال : لا حيّاك
الله ، ولكن ما على الأرض أحدٌ أبغضُ إلى وجهها منك . قالت : أتعرفنى ؟ قال :
أعرفُ أنك لثيمة من اللثام ، ثم تعرفتُ إليه فإذا هى غاضرة أمّ ولدي لبشر
ابن مروان .

قال السائب : وسأيرها حتى الجليل ، ثم قالت له : يا أبا صخر ؛ أضمنُ لك
مائة ألف درهم عند بشر بن مروان إن قَدِمْتَ عليه . قال : أَفِي سَبْكٍ لِيَاىِ أَوْ فِي
سَبْيِ إِيَّاكَ نَضْمَيْنِ لِي هَذَا ؟ والله لا أخرجُ إلى العراق على هذه الحال ، فلما قُمتُ
تودّعهُ سَفَرْتُ فَإِذَا هِيَ أَحْسَنُ مَنْ رَأَيْتُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَجْهًا ، وَأَمَرْتُ لَهُ بِمِثْرَةِ
آلَافِ دَرَاهِمٍ .

٨٢ - إفحام*

بينما كان كثيرٌ عزةً ماراً بالطريق يوماً ، إذ هو بمجوزٍ غنياء على قارعة^(١)
الطريق تمشي ؛ فقال لها : نَنَحِّيْ عن الطريق ، قالت له : ويحك ! ومَنْ نَكُونُ ؟
قال : أنا كثيرٌ عزة . قالت : قُبِعَكَ اللهُ ! هل مثلك يُنَحِّيْ له عن الطريق ؟
قال : ولم ؟ قالت : أَلَسْتَ القاتِل :

وما رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ طَائِبَةٌ التَّرى يَمِجُّ النَّدى جُجْجاًها وَعَرَارُها^(٢)
بَأَطْيَبَ من فيها إذا جُثَّتْ طَارِقاً وقد أوقدتُ بِالْجَمْرِ^(٣) اللَّذْنِ^(٤) زُرْها
ويحك يا هذا ! لو تَبَخَّرَ بِالْجَمْرِ اللَّذْنِ مثلى ومثلُ أُمِّكَ لَطابَ رِيحُها ؛ هَلَّا
قلت كما قال سيِّدُكَ امرؤُ القيس :

وكنْتُ إذا ما جُثْتُ بالليل طارِقاً وجدتُ بها طيباً وإن لم تَعَايِبْ
فَقَطَعْتَهُ^(٥) ، ولم يردَّ جواباً !

* المستطرف : ١ - ٥٥ .

- (١) قارعة الطريق : أعلاه . (٢) الجُجْجَات ، نبات له زهر أصفر طيب الريح . والعَرَارُ : نبت
طيب الريح أيضاً . (٣) الجمر : ما يخرجه من عود وغيره . (٤) اللَّذْنُ : البين .
(٥) اقْطَعُ الرجل : إذا اقْطَعَتْ حِجَّتَهُ ، وقطعه أيضاً وأقطعه .

٨٣ - بين كثير وعزة*

دخل كثير بن عبد الرحمن على عزة، فقالت : ما ينبغي أن تَأْذَنَ لَكَ في الجلوس .
قال : ولمَ ذلك ؟ قالت : لأنني رأيت الأَحْوصَ أَلَيْنَ جانباً عند القوافي منك في
شعره ، وأُضْرِعَ خَداً للنساء ؛ وإِنَّه الذي يقول :

بُأَيِّهَا اللَّائِمِيُّ فِيهَا لِأَضْرِمَهَا^(١) أَكْثَرَتْ لَوْ كَانَ يُغْنِي عَنْكَ إِكْثَارُ
أَقْصِرْ فَلَسْتَ مُطَاعاً إِذْ وَشَيْتَ بِهَا لَا الْقَلْبُ سَالٍ وَلَا فِي حُبِّهَا عَارُ
ويعجبنى قوله :

أُدُورُ وَلَوْ لَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَبْنَائِكُمْ مَا دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ
وَمَا كُنْتُ زَوَّاراً وَلَكِنْ ذَا الْهَوَى إِذَا لَمْ يُرَزَّ لَا بَدْءُ أَنْ سِيْزُورُ
لَقَدْ مَنَعْتُ مَعْرُوفَهَا أُمَّ جَعْفَرٍ وَإِنِّي إِلَى مَعْرُوفَهَا لَفَقِيرُ
ويعجبنى قوله :

كَمْ مِنْ دَنَى لَهَا^(٢) قَدْ صَرْتُ أَتْبَعُهُ وَلَوْ صَحَا الْقَلْبُ عَنْهَا كَانَ لِي تَبَعاً
لَا أَسْتَطِيعُ نَزْوَعاً عَنْ عَجْبَتِهَا أَوْ يَصْنَعُ الْحُبُّ بِي فَوْقَ الَّذِي صَنَعَا
أَدْعُو إِلَى هَجْرٍ مَا قَلْبِي فَيَتْبَعُنِي حَتَّى إِذَا قُلْتُ : هَذَا صَادِقُ نَزْعَا
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الْحُبِّ أَنْ مَنَعْتُ أَشْهَى إِلَى اللَّزْءِ مِنْ دُنْيَاهُ مَا مَنَعَا
وقوله^(٣) :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَدْرِ مَا الْهَوَى فَكُنْ حِجْراً مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْدَا

* ذيل زهر الآداب : ١٥٠ .

(١) أصرمها : أظلمها ، وأفارقها . (٢) لذني : القريب . (٣) البتان الأخيران العقبان
البيدي وغيره بهذا الموضع من شعر الأحوص ، وأُنشدما أبو بكر بن دريد لأعرابي .

وما العيشُ إلا ما تَلَدَوْتُمْهُ وإنَّ لَآمَ فِيهِ ذُو الشُّنَانِ وَقَدْ (١)
وإني لأَهْوَاهَا وَأَهْوَى لِقَاءَهَا كَأَيْشَمِي الصَّادِي (٢) الشَّرَابِ بِرَدِّهَا
فَقَالَ لَهَا كَثِيرٌ : وَاللَّهِ لَقَدْ أُجَادَ ؛ فَمَا اسْتَجَفَيْتِ (٣) مِنْ قَوْلِي ؟ قَالَتْ :
فَذَلِكَ قَوْلُكَ :

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَجْلَلَنَ بِجِلْسِي وَأُظْهَرَنَ مِنِّي هَيْبَةً لَا تَجْهَمُ
بِحَازِنَنَ مِنِّي غَيْرَةً قَدْ عَرَفْتَهَا قَدِيمًا فَمَا بَضَحَكَنَّ إِلَّا تَبَسُّمًا
تَرَاهُنَّ إِلَّا أَنْ يُؤَدِّينَ نَظَرَةً بِمَوْخِرِ عَيْنٍ أَوْ بِقَلْبَيْنِ مِمصَا
وَقَوْلُكَ :

وَدِدْتُ - وَبَيْتَ اللَّهِ - أَنْكَ بَكْرَةٌ جَنَّ (٤) وَأَنِّي مُصْعَبٌ (٥) نَمَّ نَهْرَبُ
كَلَامًا بِهِ عُرِّي (٦) فَمَنْ يَرَنَا يَقُلُ - عَلَى حُسْنِهَا - جَرِيَاءُ تُعَذِّى وَأُجْرَبُ
نَكُونُ لَدَيْ مَالٍ كَثِيرٍ مُغْفَلٌ فَلَا هُوَ يَرَعَانَا وَلَا نَحْنُ نَطْلُبُ
إِذَا مَا وَرَدْنَا مَتَهَلًّا صَاحَ أَهْلُهُ عَلَيْنَا ، فَمَا نَنْفَكُ نُنْسَقِي وَنُضْرَبُ
وَمَحْكًا لَقَدْ أُرِدَتْ فِي الشُّنْعَاءِ ، مَا وَجَدَتْ أُمْنِيَّةً أَوْ طَا مِنْ هَذِهِ الْفُرْجِ
مِنْ عِنْدِهَا خَجَلًا !

(١) ذُو الشُّنَانِ : الْبَغْسُ . فِدَاهُ : خَطَأَ رَأْيَهُ . (٢) الظَّمَانُ . (٣) اسْتَجَفَاهُ : عَدِمَهُ جَانِبًا .
(٤) الْهَجَابُ مِنَ الْإِبِلِ : الْبَيْضَاءُ الْكَرْمَةُ ، يَسْتَوِي فِيهِ الْفَذَرُ وَانْثَوَتْ وَالْجَمْعُ . (٥) الْمَصْعَبُ :
الْفَعْلُ . (٦) الْمَر : دَاءٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فَيَمِطُ عَنْهَا وَبِرْمَا حَتَّى يَبْدُو الْجِلْدُ ، وَهُوَ كَالْجُرْبِ لِلْإِنْسَانِ .

٨٤ — حوار بين شعراء

قَدِمَ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَدِينَةَ لِأَمْرِ ، فَأَقَامَ نَهْرًا ثُمَّ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ ، وَخَرَجَ
مَعَهُ الْأَحْوَصُ مُعْتَمِرًا .

قَالَ السَّائِبُ رَاوِيَةً كَثِيرًا : فَلَمَّا مَرَّ بِالرُّوْحَاءِ ^(١) اسْتَقْلَبَانِي ^(٢) ، فَخَرَجْتَ
أَتْلُوهُمَا ، حَتَّى لَحَقْتُمَا بِالرَّجْعِ ^(٣) . فَخَرَجْنَا جَمِيعًا حَتَّى وَرَدْنَا وَدَّانَ ^(٤) ، فَنَبَسِمَا
نُصِيبُ ، وَذُبِحَ لَهَا وَأُكْرِمَهَا .

وَخَرَجْنَا وَخَرَجَ مَعَنَا نُصِيبُ ، فَلَمَّا جِئْنَا إِلَى مَنْزِلٍ كَثِيرٌ قِيلَ لَنَا قَدْ هَبَطَ
قُدَيْدًا ^(٥) ، فَجِئْنَا قُدَيْدًا ، فَقِيلَ لَنَا : إِنَّهُ فِي خِيَمَةٍ مِنْ خِيَامِهَا ، قَالَ لِي ابْنُ أَبِي
رَبِيعَةَ : اذْهَبْ فَادْعُهُ لِي ، فَقَالَ نُصِيبُ : هُوَ أَحَقُّ وَأَشَدُّ كِبَرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيكَ ، فَقَالَ
لِي عُمَرُ : اذْهَبْ كَمَا أَقُولُ .

فَجِئْتُهُ فَهَشَّ لِي وَقَالَ : « اذْكُرْ غَائِبًا تَرَاهُ » ، لَقَدْ جِئْتُ وَأَنَا أَذْكُرُكَ ، فَأَبْلَغْتُه
رِسَالَةَ عُمَرَ ، فَخَدَّدَ إِلَيَّ نَظْرَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا كَانَ عِنْدَكَ مِنَ الْعَرَفَةِ بِي مَا كَانَ يَرُدُّعُكَ
عَنْ إِيْتَائِي بِمِثْلِ هَذَا ؟ قُلْتُ : بَلَى ، وَلَكِنْ سَتَرْتُ عَلَيْكَ ، فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَهْتِكَ
سِتْرَكَ ، قَالَ : إِنَّكَ وَاللَّهِ يَا بَنَ ذَكْوَانَ ، مَا أَنْتَ مِنْ شَكْلِي ، قُلْ لَابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ :
إِنْ كُنْتُ قُرْشِيًّا فَأَبَى قُرْشِيٍّ ، وَإِنْ كُنْتُ شَاعِرًا فَأَنَا أَشْعَرُ مِنْكَ . فَقَالَ : هَذَا
إِذَا كَانَ الْحَكَمُ إِلَيْكَ ، قَالَ : وَإِلَى مَنْ هُوَ ؟ وَمَنْ أَوَّلَى بِهِ مِنْي ؟

* الألفاظ : ١١ - ١٧ ، الكامل للمبرد : ١ - ٣٣٣ .

(١) الروحاء : موضع على ثلاثين ميلاً من المدينة . (٢) استقبلاني : طلبني أن أتلوها .

(٣) الرج : قرية بالطائف في الحجاز . (٤) ودان : موضع بين مكة والمدينة .

(٥) قديد : موضع قرب مكة .

قال السائب : فرجعت إلى القوم فأخبرتهم ، ففضحوا ، ثم ههوا معي إليه ، فدخلنا عليه في خيمة ، فوجدناه جالسا على جلد كبش ، فوالله ما أوسع للفرش ، فلما تحدثوا مليا ، وأفاضوا في ذكر الشعراء أقبل كثير على عمر فقال له : أنت تنعت المرأة فتشيب بها ، ثم تدعها وتنسب بنفسك ! أخبرني عن قولك :

قالت : تصدئ له ليعرقنا ثم اغزيه . يا أخت في حفر
قالت لها : قد عجزته فأني ثم اسبطرت^(١) تشد في أثرى

وقوله والدموع تسبقها لتسندن الطواف في عمر
أترك لو وصفت بهذا الشعر هرة أهلك ، ألم تكن قد قبحت وأسأت لها ، وقلت الهجر ! إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع ، كما قال هذا - وأشار إلى الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر^(٢) بأبياتكم ؛ مادرت حيث أدور
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى إذا لم يزلأ بد أن سبوزور
لقد منعت معروفها أم جعفر وإلى إلى معروفها لفقير

فدخلت الأحوص الأبهة ، وعرفت الخيلاء فيه . فلما عرف كثير ذلك منه قال له : أبطل آخرتك أولك ، أخبرني عن قولك :

فإن نصلي أصلك وإن نعودي لهجر بصد وصلك لا أبالي
ولا ألقى كمن إن سيم صرما^(٣) تعرض كي برد إلى الوصال

أما والله لو كنت فحلا لبايت ولو كسرت أفك ! ألا قلت كما قال هذا الأسود - وأشار إلى نصيب :

(١) اسبطرت : أسرع ، تشد : تجري وتسرع . (٢) أم جعفر : امرأة من الأنصار كان يشب بها الأحوص . (٣) صرما : قطيعة .

بزئيب ألم قبل أن يرخلَ الركب وفل: إن تملينا فسا ملك القلب
فانكسر الأوص ، ودخل نصيبا الأبهة ، فلما فهم ذلك منه قال : وأنت
يا أسود ؛ أخبرنا عن قولك :

أهيمُ بدَعْدِ مَاجِيَتْ وإن أُمْتُ فوا كبدي من ذا يهيمُ بها حدى !
أهْمَك من يُشَبِّبُ بها بعدك ! فقال نصيب : استوى الترقى ^(١) .

قال السائب : فلما أَمْسَكَ كثير أقبل عليه عمر فقال : قد أنصتْنَا لك فاستمع ،
أخبرني عن قولك لنفسك وتحيرك لمن تحب حيثُ تقول :

ألا ليقنا باعز من غير ربيبة بمران نرعى في الخلل ونُعذَّب !
كلانا به عُرٌّ ^(٢) فن يرنا بقل على حسنها جرباء تملدى وأجربُ
إذا ماوردنا منها صاها أهله عنيها ، فأنفق نرعى ونضرب
وددت ، وبيت الله ، أنك بكرة هجان ^(٣) وأنى مصعب ^(٤) ثم نهربُ
نكونُ بعيرى ذى غنى فيضيئنا فلا هو يرعى ولا نحن نطلبُ

وبلك ! تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرعى والطاردونسخ ، فأنى مكروه
لم تمنى لها ولنفسك ! ولقد أصابها منك قول الأول : معادة عاقل خير من مودة
أحمق ، فجعل يحتلج جسد كثير كله ، ثم أقبل عليه الأوص فقال : أخبرني
عن قولك :

وقلن - وقد يكذبن - فيك نفق وشوتم إذا ما لم تطع صاها ناعقة
وأعيتنا لا راضيا بكرامة ولا تاركاشكوى الذى أنت صادقة

(١) الترقى : نوع من اللب ، ومعنى الجملة : استويتا فمر بقلب واحد منا صاحبه ، وقى السكامل
« الترقى » وهى لبة على خطوط فاستواؤها انقضواها . (٢) امر : الجرب . (٣) الهجان
من الإبل : البيضاء السكرعة . (٤) المصعب : النحل .

فَأَدْرَكَتْ صَفْوَةَ الْوَدِّ مِنَّا فَلَمَتْنَا وَلَيْسَ لَنَا ذَنْبٌ ، فَنَحْنُ مَوَازِقُهُ^(١)
وَأَلْفَيْتَنَا سِلْمًا فَصَدَّعَتْ بَيْنَنَا كَمَا صَدَّعَتْ بَيْنَ الْأَدِيمِ خَوَالِقُهُ^(٢)
وَاللَّهُ لَوْ احْتَفَلَ عَلَيْكَ هَاجِيكَ مَازَادَ عَلَى مَا بَوَّلَتْ بِهِ^(٣) عَلَى نَفْسِكَ . نَحْفَقُ^(٤)
كَثِيرٌ كَمَا يَحْفَقُ الطَّائِرُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ نُصِيبُ فَقَالَ : أَقْبَلَ عَلَى ، فَقَدْ تَمَنَيْتُ
مَعْرِفَةَ غَائِبٍ عِنْدِي عِلْمُهُ حَيْثُ تَقُولُ :
وَدِدْتُ ، وَمَا نَفَيْتِ الْوَدَادَةَ ، أَنْتَى . بِمَا فِي ضَمِيرِ الْحَاجِبِيَّةِ عَالِمُ
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا سَرَّيْنِي وَعِلْمُهُ وَإِنْ كَانَ شَرًّا لَمْ تَلْعَنِي اللَّوْائِمُ
انْظُرْ فِي مِرْآتِكَ ، وَاعْرِفْ صُورَةَ وَجْهِكَ تَعْرِفْ مَا عِنْدَهَا . فَاضْطَرَبَ اضْطِرَابَ
الْمَصْفُورِ ، وَقَامَ الْقَوْمُ يَضْحَكُونَ .

(١) مَذَقَ الْوَدَّ : لَمْ يَخْلَعْهُ . (٢) الْخَالِقُ : صَانِعُ الْأَدِيمِ .
(٣) وَجَعَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ ، أَيْ مَا وَصَفَتْ بِهِ نَفْسَكَ . (٤) اضْطَرَبَ .

٨٥ - احتال حتى أقرأها رسالته*

كان عمرُ بنُ أبي ربيعة^(١) يَهْوَى كَلِمَ بَنَتِ سَعْدِ الْحَزْوَ مِيةً ، فأرسل إليها رسولاً^(٢) فضرَبَها وحَلَقَها^(٣) وأحْلَها أَلَا تَعَاوِدُ ؛ ثم أعادها ثانية ففعلت بها مثلَ ذلك ، فتَحَامَها رُسُلُه ؛ فابتاع أمة سوداء لطيفة رقيقةً ، وأتى بها منزله فأحسن إليها وكساها ، وآنسَها وعرفَها خبره ، وقال لها : إن أوصَلتِ لي رُقعةً إلى كَلِمٍ فقرأتَها فأنتِ حرةٌ ولكِ معيشتكِ ما بقيتِ .

فقال : اكتبِ لي مُسَكَّاتَةً^(٤) واكتبِ حاجتكِ في آخرها . ففعل ذلك فأخذتها ومضت بها إلى باب كَلِمٍ ، فاستأذنت ، فخرجت إليها أمةٌ لها ، فأنها عن أمرها ، فقالت : مكاتبةٌ لبعض أهل مَوْلَانِكَ جئتُ أَسْتَمِينُها في مكانتي ، وحادثَها وناشدَها حتى مَلَأَتْ قلبها .

فدخلت إلى كَلِمٍ وقالت : إن بالباب مكاتبةٌ لم أَرُقْطُ أجَلَ منها ولا أكل ولا آدب . فقالت : ائذني لها ، فدخلت ، فقالت : مَنْ كَاتَبَكَ ؛ قالت : عمرُ ابنُ أبي ربيعةَ الفاسقُ ؛ فافترى مكاتبتني . فدَتَّ بها لتأخذها فقالت لها : لي عليك عهدُ الله أن تَقْرِيها ؛ فإن كانت منكِ إلى شيءٍ لا بما أُحِبُّه ، وإلّا لم يُلْحَقْني

* الأغانى : ١ - ٣٠٤ .

- (١) من مخزوم ، بطن من قريش ، واختص شعره بوصف النساء ، والتدبيب بهن ، قال ابن جريج : ما دخل على الموانق في حجالهن شيء أشعر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة ، توفي سنة ٨٩٣ .
- (٢) رسول : يجوز استعماله للفذكر والمؤنث . (٣) حلقه أى أوجعه في حلقه .
- (٤) المكاتبة : أن يكتب الرجل عبده على مال يؤديه إليه متجهاً ، فإذا أداه صار حراً .

مِنْكَ مَكْرُوهٌ ، فَعَاهَدْتَهَا وَفَطِنْتُ ، وَأَعْطَيْتَهَا الْكِتَابَ إِذَا أَوَّلَهُ :

من عاشقٍ صَبَّ سِرُّهُ الْمَوَى	قد شَفَّهُ الْوَجْدُ إِلَى كَنْفِهِ
رَأَيْتُكَ عَيْتِي فِدَعَانِي الْمَوَى	إِلَيْكَ لِلْحَيِّينَ ^(١) وَلَمْ أَعْلَمْ
فَقَتَلْتَنِي ، يَا حَبِذَا أَنْتُمْ	فِي غَيْرِ مَا جُرْمٍ وَلَا مَأْتَمٍ
وَاللَّهُ قَدْ أَنْزَلَ فِي وَحْيِهِ	مُبَيَّنًا فِي آيَةِ الْحَكَمِ
مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَذَا ظَالِمًا	وَلَمْ يَقْدَحْهَا نَفْسَهُ يَظْلَمِ
وَأَنْتِ تَأْرِي فَتَسْلَقِي دَمِي	نَمْ اجْعَلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنْ بَيْنَنَا	أَوْ أَنْتِ فِيمَا بَيْنَنَا فَاحْكِي
وَجَالِسِيَنِي تَجَلِّيًا وَاحِدًا	مِنْ غَيْرِ مَاعَارٍ وَلَا تَحَرَمِ ^(٢)
وَخَيْرِي : مَا الَّذِي عِنْدَكُمْ	بِاللَّهِ قَتْلَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ؟

فلما قرأت الشعر قالت لها : إنه خداعٌ مليقٌ ، وليس لما شكاه أصلٌ . قالت : يا مولائي ؟ فما عليك من امتحانه ؟ قالت : قد أُذِنْتُ له ، وما زال حتى ظفِرَ بِيُعْيَتِهِ ، فتولَّى له : إذا كان السَّاءُ فليجْلِسْ في موضع كذا حتى يأتيه رسولي . فأنصرفت الجارية فأخبرته فذهبتُ لها .

فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تهيأت أجمل هيئة . وزينت نفسها وجلسها وجلست له من وراء سترٍ ، فنظَّم وجلس ، فتركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني عنك يا فاسق ؛ أَلَسْتَ الْقَاتِلُ :

هَلَا ارْعَوَيْتِ قَتْرَ حَيٍّ صَبًّا	صَدَيَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبًا
جَشِيمَ الزَّيَارَةِ فِي مَوَدُنْكُمْ	فَأَرَادَ أَلَّا تُحْفِدِي ذَنْبًا

وَرَجَا مُصَالَحَةً فَكَانَ لَكُمْ سَلَامًا^(١) وَكَنتَ تَرَيْنَهُ حَرَبًا
يَأْتِيهِ الصُّنْفَى مَوَدَّةً مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبًا^(٢)
لَا تَجْعَلَنَّ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا أَحْبَبْتَهُ وَهُوَ يَتَمَنَّى رَبًّا
وَصِلِ الْحَبِيبَ إِذَا شُغِفَتْ بِهِ وَأَطْلُ الزَّيَارَةَ دُونَهُ غِيًّا
فَلَذَّكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاصَلَةٍ لَيْسَتْ تَزِيدُكَ عِنْدَهُ قُرْبًا
لَا ، بَلْ يَمْلِكُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ فَيَقُولُ هَاهُ^(٣) وَطَالَمَا لِي

قَالَ لَهَا : جِئْتُ فِذَاكَ ، إِنْ الْقَلْبَ إِذَا هَوَى نَعْلَقَ السَّانَ بِمَا يَهْوَى !
فَتَزَوَّجَهَا ، فَوَلَدَتْ لَهُ ابْنَيْنِ .

(١) سلاما . (٢) الخطب : الخطاب . (٣) هاه : كلمة وعيد .

٨٦ — مَنْ لِي عَثْلِكَ يُعْتَبِنِي إِذَا اسْتَعْتَبْتَهُ !*

دخل حَمْزَةُ بْنُ بَيْضٍ^(١) على مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ ، فَوَعَدَهُ أَنْ يَصْنَعَ بِهِ خَيْرًا ثُمَّ شَغِلَ عَنْهُ ، فَاخْتَلَفَ عَلَيْهِ مَرَارًا ثُمَّ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ ، وَأَبْطَأَتْ عَلَيْهِ عِدَّتُهُ ، فَقَالَ ابْنُ بَيْضٍ :

أَعْخَلَدُ ^(٢) إِنْ اللَّهَ مَا شَاءَ يَصْنَعُ	يَحْمَدُ فَيُطْعِي مَا شَاءَ وَيَمْنَعُ
وَإِنِّي قَدْ أَمَلْتُ مِنْكَ سَعَابَةً	فَجَادَتْ سَرَابًا فَوْقَ بَيْدَاءٍ تَلْعُ
فَأَجْمَعْتُ صِرْمًا ثُمَّ قُلْتُ لَمَلَهُ	يَتُوبُ إِلَى أَمْرِ جَمِيلٍ وَيَرْجِعُ
فَأَبْأَسُنِي مِنْ خَيْرٍ مَخْلَدُهُ	عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ لِي فِيهِ مَقْطَعُ
يَحْمَدُ لِأَقْوَامٍ بَوْدُونُ أَنَّهُ	مِنَ الْبُغْضِ وَالشَّنَانِ أَمْسَى يَقْطَعُ
وَيَخْلُصُ بِالْمَعْرُوفِ عَنْ بَوْدِهِ	فَوَاللَّهِ مَا أَذْرى بِهِ كَيْفَ أَصْنَعُ
أُصْرِمُهُ ، فَالْعَصْرُ ثُمَّ مَقْبَلَةٌ	وَنَفْسِي إِلَيْهِ بِالْوَصَالِ تَطْلَعُ
وَشَتَانُ بَيْنِي وَالْوَصَالِ وَيَنْهِي	عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْتَقِيمُ وَتَطْلَعُ ^(٣)
فَأُعْقِبُنِي صِرْمًا عَلَى غَيْرِ لِحْنَةٍ	وَبِخْلًا وَقَدْ مَا كَانَ لِي يَتَبَرَّعُ
وَعِوْءُهُ مَا غَيَّرَ النَّاسَ قَبْلَهُ	فَنَفْسِي بِمَا يَأْتِي بِهِ لَيْسَ تَقْنَعُ

* الأغانى : ١٥ — ٢٣ .

(١) حمزة بن بيض : شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خاليف ماجن ، وكان منقطعاً إلى المهلب ابن أبي صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد وبلال بن أبي بردة واكتسب بالعرس من هؤلاء مالا عظيماً ، توفي سنة ١٢٠ هـ . (٢) أمير من بيت إمارة ورياسة وبطولة ولدا إمارة خراسان على عهد عمر بن عبد العزيز نائباً عن أبيه ، ثم رحل إلى الشام واندأ على الخليفة عمر بن عبد العزيز فأعجب به ، مات سنة ١٠٠ هـ . (٣) الطلع : المرج .

ثم كتبها في قِرطاسٍ ، وختمه ، وبعث به مع رجل ، فدفعه إلى غلامه ، فدفعه الغلام إليه .

فلما قرأه سأل الغلام : مَنْ صاحبُ الكتاب؟ قال لا أعرفه ، فأدخل إليه الرجل ، فقال : مَنْ أعطاك الكتاب ؟ ومن بعث به معك ؟ قال : لا أدري ، ولكن من صفته كذا وكذا ، ووصف صفة ابن بيض . فأمر به فضرب عشرين سوطاً على رأسه ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وكساه ، وقال : إنما ضربتك أدباً لك ؛ لأنك حلت كتاباً لا تدري ما فيه لمن لا تعرفه ، فإياك أن تعود لمثلها .

قال الرجل : لا والله ، أصلحك الله ! لا أحل كتاباً لمن أعرف ولا لمن لا أعرف . قال : احذر فليس كلُّ أحدٍ يصنع بك صنيعي .

وبعث إلى ابن بيض ، فقال له : أتعرف ما لحق صاحبك ؟ قال لا ، فخذته تحملاً بقصته . فقال ابن بيض : والله إنه لا يزال يتوق إلى العشرين سوطاً مع الخمائة أبداً ؛ فضحك تحملاً ، وأمر له بخمسة آلاف درهم وخمسة أثواب ، وقال : وأنت والله لا تزال نفسك تتوق إلى عتاب إخوانك أبداً . قال : أجل والله ، ولكن من لي بمثلك بعيني^(١) إذا استعنته ، وبفعل من مثل فعلك ، ثم قال :

وأبيضَ بهلول إذا جئتُ داره كفاي، وأعطاني الذي جئتُ أسألُ
وبُعيني يوماً إذا كنت عاتباً وإن قلت زدني قال حقاً سأفعل
تراه إذا ما جئتَه تطلبُ الندي كأنك تعطيه الذي جئتُ تسألُ

(١) يقال : أعتني فلان ؛ إذا ترك ما كنت أجده عليه ، ورجع إلى ما أَرْضاني عنه ، بعد استغاطه إياي عليه .

فله أبناء المهب فنية^(١) إذا لقيت حرب عوان تأكلوا^(٢)
 ترى الموت تحت الخافات أمامهم إذا وردوا علوا الرماح وأنهلوا^(٣)
 يجودون حتى يحسب الناس أنهم لجودهم نذر عليهم محلل
 فذلك ميراث المهب ، إنه كريم نساء للكارم أول
 فلما أنشده ابن بيس هذه الأبيات أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب
 وقال : نزيديك ما زدتنا ونضيف لك ، قال :

أخجلد لم تترك لنفسى بقية وزدت على ما كنت أرجو وآمل
 فكنت كما قد قال معن فإنه بصير كما قد قال إذ يتعمل
 وجدت كثير المال إذ صنّ معدماً يذم ويلعاه^(٣) الصديق المؤمل
 وإن أحق الناس بالجود من رأى أباه جواهاً للكارم يحزل
 وجدت يزيداً والمهب برزاً فقلت فإني مثل ذلك أفضل
 ففرت كما فازا وجاوزت غاية بقصر عنها السابق التمثل
 فأت غياث الليثامى وعصمة إليك رجاء الطالبى الخير يرحل
 وموت الفتى خير له من حياته إذا كان ذا مال يرضى ويغفل
 فقال له محمد : احتسك ، فإني ، فأعطاه ألفي دينار وجارية وغلاماً
 ويردونا .

(١) تأكل الرجل : غضب وهاج كأنه يأكل بفضه بضاً . (٢) العل : الشراب الثاني ،
 والثمل : الشراب الأول . (٣) يلومه .

٨٧ - هما قمرًا السماء وأنت نجم *

قدِمَ الفرزدق إلى المدينة في سنة مُجْدِبَةٍ ، فَنَشَى أَهْلُ الْمَدِينَةِ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ إِنْ الْفَرَزْدَقَ قَدِمَ مَدِينَتَنَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْجَدْبَةِ الَّتِي قَدْ أَهْلَكَتْ عَامَةَ الْأَمْوَالِ الَّتِي لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَا يَعْطِيهِ شَاعِرًا ؛ فَلَوْ أَنَّ الْأَمِيرَ بَعَثَ إِلَيْهِ فَأَرْضَاهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَلَّا يَعْزِضَ لِأَحَدٍ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ .

فَبَعَثَ إِلَيْهِ عَمْرٌ : إِنَّكَ يَا فَرَزْدَقَ قَدِمْتَ مَدِينَتَنَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْجَدْبَةِ ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَحَدٍ مَا يَعْطِيهِ شَاعِرًا ، وَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَخُذْهَا وَلَا تَعْزِضْ لِأَحَدٍ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ .

فَأَخَذَهَا الْفَرَزْدَقُ ، وَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي مَقِيفَةِ دَارِهِ ، عَلَيْهِ مَطْرَفٌ ^(١) خَزَّيْ أَحْمَرٌ ، وَجَبَّةٌ خَزَّيْ أَحْمَرٌ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ :

أَعْبَدَ اللَّهُ أَنْتَ أَحَقُّ مَا شِئَ وَسَاعِرٍ بِالْجَاهِـمِ الْكَبَارِ
نَمَا الْفَارُوقُ ^(٢) أَمَكُ وَابْنُ أَرْوَى أَبُوكَ فَأَنْتَ مُنْصَدِعُ النَّهَارِ
هَمَا قَمَرًا السَّمَاءُ وَأَنْتَ نَجْمٌ بِهِ فِي اللَّيْلِ يُدْلِجُ ^(٣) كُلُّ سَارٍ
فَخَلَعَ عَلَيْهِ الْجُبَّةَ وَالْعِمَامَةَ وَالْمِطْرَفَ ، وَأَمَرَ لَهُ بِمِثْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ .

* الْأَنْثَانِي : ١٩ - ٥٢ .

(١) رِوَاةٌ مِنْ خِزْمِ بْنِ مَرْبِطٍ لَهُ أَعْلَامٌ . (٢) عَمْرِو بْنُ الْمُطَّلَبِ . (٣) أَدْلَجَ : سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ .

فخرج رجلٌ كان حضر عبد الله والفرزدقُ عنده ، ورأى ما أعطاه إياه ،
وسمع ما أمره عمرُ به ألا يَمْرُضَ لأحدٍ ؛ فدخل إلى عمر بن عبد العزيز ، فأخبره ،
فبعث إليه عمر : أَلَمْ أَتَقَدِّمْ إِلَيْكَ يَا فِرْزَدُقُ أَلَّا تَمْرُضَ لِأَحَدٍ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ !
أَخْرَجَ ، فَقَدْ أَجَلْتُكَ ثَلَاثًا ، فَإِنْ وَجَدْتُكَ بَعْدَ ثَلَاثِ نَكَلَاتٍ بِكَ ، فَخُرجْ وَهُوَ
يَقُولُ :

فَأَجَلْنِي وَوَعَدَنِي ثَلَاثًا كَاوَعَدْتَ لِمَهْلِكِي هَامُودُ^(١) !

٨٨ - نَفَى الْأَحْوَصَ *

لما وَلَّى عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْخِلاَفَةَ لَمْ تَسْكُنْ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا عَمَرَ بْنَ أَبِي رَيْمَةَ
وَالْأَحْوَصَ . فَكَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْمَدِينَةِ : قَدْ عَرَفْتُ عَمَرَ وَالْأَحْوَصَ بِاتِّخَاذِ
وَالشَّرِّ ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاشْدُدْهَا وَاحْمِلْهَا إِلَيَّ .

فلما أتاه الكتاب حملها إليه ؛ فأقبل على عمر فقال له : هيه !
فلم أر كالتَّجْمِيرِ^(١) منظرَ تنظيرٍ ولا ككِتَابِي الْحِجِّ أَفْلَتَنَ ذَا هَوًى
وكم مَالِي عَيْنِيهِ مِنْ شَيْءٍ غَيْرِهِ إِذَا رَاحَ نَحْوَ الْجَمْرَةِ الْبَيْضِ كَالدُّمَى
فإِذَا لَمْ يُفَلِّتِ النَّاسَ مِنْكَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فَتَيُّ يُفْلِتُونَ ! أَمَا وَاللَّهِ لَوِ اعْتَمَتَ
بِأَمْرِ حَجَّكَ لَمْ تَنْظُرْ إِلَى شَيْءٍ غَيْرِكَ ، ثُمَّ أَمْرٌ بِنَفْيِهِ . قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَوْ
حَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ ! قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : أَعَاهَدُ اللَّهَ أَلَّا أَعُودَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الشَّعْرِ أَبَدًا
وَأُجَدِّدَ تَوْبَةً عَلَى يَدَيْكَ . قَالَ : أَوْ تَقُولُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَعَاهَدَ اللَّهُ عَلَى تَوْبَةٍ وَخَلَّاهُ .
ثُمَّ دَعَا بِالْأَحْوَصِ فَقَالَ : هيه !

اللَّهُ يَبْنِي وَبَيْنَ قِيَمِهَا يَهْرُبُ مَتَى بِهَا وَأَتَّبِعْ
بَلِ اللَّهِ بَيْنَ قِيَمِهَا وَيَبْنِيكَ ! ثُمَّ أَمْرٌ بِنَفْيِهِ إِلَى دَهْلِكَ^(٢) ، فَلَمْ يَزَلْهَا .
فَرَحَلَ إِلَى عَمْرِ عِدَّةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَكَلَّمُوهُ فِي أَمْرِهِ ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يُقَدِّمَهُ ،

* الْأَغَانِي : ٩ - ٦٤ .

(١) التَّجْمِيرُ : رَمَى الْجَارِ . (٢) دَهْلِكَ : بِلْدَةُ صَيْقَةَ حَارَةِ تَجَاهُ مِصْرَ ، كَانَ بَنُو أُمَيَّةٍ إِذَا
سَفَرُوا عَلَى أَحَدٍ قَرَرُوا إِلَيْهَا .

وقالوا له : قد عرفت نسبَه وقَدَمَه وموضعه ، وقد أخرجَ إلى بلادِ الشرك ، فنطلب منك أن تردّه إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودارِ قومه . فقال لم عمر : من الذى يقول :

فما هو إلا أن أراها فُجَاءَةً فَأُبْهِتَ حَتَّى مَا أَكَادُ أُحِيرَ^(١)

قالوا : الأخوص . قال : فمن الذى يقول :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم مادرتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زواراً ولكنَّ ذا الهوى إذا لم يُرَزَّ لا بدَّ أنْ سيزورُ
قالوا : الأخوص . قال : فمن ذا الذى يقول :

كَانَ ابْنِي صَبِيرَ^(٢) غَادِيَةً أَوْ دُمِيَّةَ زُبَيْتٍ بِهَا الْبَيْعُ
اللهُ يَبْنِي وَيَبْنِي قِيمَهَا يَهْرُبُ مِنِّي بِهَا وَأَتَّبِعُ

قالوا : الأخوص ، قال : والله لا أردّه مادام لى سلطان .

فكث هناك حتى مات عمر ، وولى الأمرَ يزيدُ بن عبد الملك ، فنزّته جيلةً يوماً :

كريمُ قريش حين يُنسَبُ والذى أقربت له بالملك كَهْلًا وأمرُدا
فطرب يزيد وقال : ويحك امنَّ كريمُ قريش هذا ؟ قالت : أنت
يا أمير المؤمنين ، ومن عسى أن يكون ذلك غيرك : قال : ومن قائل هذا الشعر
فيَّ ؟ قالت : الأخوص وهو منفى .

(١) لم يحر جواباً : لم يرجع ولم يزد .

(٢) صبير : سحابة يضاء .

فكتب برده وحمله إليه ، وانفذ إليه صلات سنّية ؛ فلما قدم إليه أدناه وقرّبه
وأكرّمه ، وقال له يوماً في مجلس حافل : والله لو لم تمت^(١) إلينا بحق ولا حبر
ولا رَحِمٍ إلّا بقولك :

وإني لأستحييكم أن يعودني إلى غيركم من سائر الناس مطمع
لكفاك ذلك عندنا . ولم يزل يُناديه حتى مات .

٨٩ — شهادة*

قال دُكَيْنُ الرَاجِزُ : امتدحتُ عَمَرَ بنَ عبدِ العزِيزِ وهو والى المدينة ، فأمرنى بخمسَ عشرةَ ناقةً كرائمَ ، ففكرتُ أن أُرِيَّ بِهِنَّ الفِجَاجَ ^(١) ، ولم تَطِبْ نفسى ببَيِّعِمِنْ . فقدمتُ علينا رُقَّةً من مِصرَ ، فسألنَّهم الصُّحْبَةَ ، فقالوا : ذلك إليك ، ونحنُ نخرجُ الليلةَ .

فَأَتَيْتُهُ فَوَدَعْتُهُ ، وعنده شَيْخَانِ لَا أَعْرِفُهُمَا ، فقال لى : يَا دُكَيْنُ ؛ إِنْ لى نَفْسًا تَوَاقَّةً ، فَإِنْ صِرْتُ إِلَى أَكْثَرِ مَا أَنَا فِيهِ فَأَتْنِى وَلَكَ الإِحْسَانُ . قلتُ : أَشْهَدُ لى بِذَلِكَ . قال : أَشْهَدُ اللَّهَ بِهِ . قلتُ : وَمِنْ خَلْقِهِ ؟ قال : هَذَيْنِ الشَّيْخَيْنِ ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى أَحَدِهِمَا قُلْتُ : مَنْ أَنْتَ أَعْرِفُكَ ؟ قال . سالمُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرِو . وقلتُ لِلْآخَرِ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : أَبُو يَحْيَى مَوْلَى الْأَمِيرِ .

فَخَرَجْتُ إِلَى بَلَدِى بِهِنَّ ، فَرَمَى اللَّهُ فِى أُذُنَيْهِمَا بِالْبَرَكَةِ حَتَّى اعْتَقَدْتُ ^(٢) مِنْهُنَّ الْإِبِلَ وَالْعَبِيدَ ؛ فَإِنِ ابْصَحَرَاءُ فَلَجَ ^(٣) إِذَا نَاعَ بَنَى سَلِيحَانِ . قلتُ : فَمَنْ الْقَائِمُ بِهِمَا ؟ قال : عَمْرُو بنُ عبدِ العزِيزِ .

فَوَجَّهْتُ نَحْوَهُ ، فَلَقِيْنِ جَرِيرَ مُنْصَرِّفًا مِنْ عِنْدِهِ ؛ قُلْتُ : يَا أَبَا حَرَزَةَ ^(٤) ، مَنْ أَتَيْنَ ؟ فقال : مَنْ عِنْدَ مَنْ يُعْطَى الْفُقَرَاءُ ، وَيَمْنَعُ الشُّعْرَاءُ ، فَانْطَلَقْتُ فَإِذَا هُوَ فِى عَرَصَةٍ ^(٥) دَارَ ، وَقَدْ أَحَاطَ النَّاسُ بِهِ ، فَلَمْ أَخْلُصْ إِلَيْهِ ، فَتَادَبْتُ :

* الأَخَايَ : ٩ - ٢٦١ ، المقَدِّدُ الفَرِيدُ : ١ - ٢٠٢ .

(١) أَصْلُ الْفَجِ : الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ ، وَجَمْعُ فِجَاجٍ . (٢) اعْتَقَدْتُ الشَّيْءَ : ائْتَرَاهُ أَوْ اقْتَنَاهُ .

(٣) فَلَجَ : اسْمُ وَادٍ . (٤) كُنْيَةُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ . (٥) الْعَرَصَةُ : كُلُّ بَقْعَةٍ بَيْنَ الدُّوَرِ وَاسِعَةٍ لَيْسَ فِيهَا بَنَاءٌ .

يَا عَمَرَ الْخَصِرَاتِ وَالْكَارِمِ وَتَعَمَّرِ الدَّسَائِعِ^(١) الْعِظَامُ
إِنِّي أَمْرٌ مِنْ قَطَنِ بْنِ دَارِمٍ طَلَبْتُ دَيْنِي^(٢) مِنْ أَخِي مَسْكَرِمٍ
إِذْ تَنَقَّحِي وَاللَّيْلُ غَيْرُ نَائِمٍ عِنْدَ أَبِي يَحْيَى وَعِنْدَ سَالِمٍ
فَقَامَ أَبُو يَحْيَى فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِهَذَا الْبَدْوَى عِنْدِي شَهَادَةٌ عَلَيْكَ ،
فَقَالَ : أَعْرِفُهَا ؛ أَذْنُ يَا دُكَيْنَ ، أَنَا كَمَا ذَكَرْتُ لَكَ ، إِن نَفْسِي لَمْ تَنْلُ شَيْئًا قَطْ
إِلَّا تَأْتِ لَاهُو فَوْقَهُ ، وَقَدْ نَلْتُ غَايَةَ الدُّنْيَا ، فَنَفْسِي تَتَوَقُّ إِلَى الْآخِرَةِ ، وَاللَّهِ
مَا رَزَأْتُ^(٣) مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ شَيْئًا ؛ وَلَا عِنْدِي إِلَّا أَلْفُ ذَرَمٍ ، نَخَذُ نَصْفَهَا .
قَالَ دُكَيْنُ : فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَلْفًا كَانَ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْهُ .

(١) الدَّسَائِعُ : الْعِظَامُ . (٢) يَشِيرُ إِلَى وَعْدِهِ السَّابِقِ . (٣) رَزَأَ مِنْ مَالِهِ شَيْئًا : إِذَا أَخَذَ .

٩٠ — فَنُفِضَ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَجِيرِ *

كان راعي^(١) الإبل يَقْضِي للفرزدق على جرير^(٢) وَبُفْضَلَهُ . فلما أَكْثَرَ مِنْ ذلك خرج جريرٌ إِلَى رجالٍ مِنْ قَوْمِهِ ، قَالَ : هَلَّا تَعَجُّبُونَ لِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَقْضِي للفرزدق عَلَى ، وَهُوَ يَهْجُو قَوْمَهُ وَأَنَا أُمَدِّحُهُمْ !

نَمَ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ يَمْشِي وَلَمْ يَرْكَبْ دَابَّتَهُ - وَكَانَ لِرَاعِي الْإِبِلِ وَالْفَرَزْدَقِ وَجَلَسَاتُهُمَا حَلْقَةٌ بِأَعْلَى الْمَرْبَدِّ بِالْبَصْرَةِ يَجْلِسُونَ فِيهَا - قَالَ جَرِيرٌ : نَخَرَجْتَ أَنْتَ عَرَضَ لَهُ لِالْتِقَاءِ حَيْثُ كُنْتُ أُرَاهُ يَمْزُ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَمَا يَسْرُنِي أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ ، حَتَّى إِذَا مَرَّ عَلَى بَنَاتِهِ وَابْنَتِهِ جَنَدَلٍ يَسِيرُ وَرَاءَهُ عَلَى مَهْرٍ لَهُ أَخَوَى مُحَذُوفٍ الذَّنْبِ^(٣) ؛ فَلَمَّا اسْتَقْبَلَتْهُ قُلْتُ : مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا جَنْدَلٍ ؟ وَضَرَبْتُ بِشِمَالِي عَلَى مَعْرِفَةِ بَنَاتِهِ ، ثُمَّ قُلْتُ : يَا أَبَا جَنْدَلٍ ؛ إِنْ قَوْلُكَ يُسْتَمْعَى ، وَإِنَّكَ تُفَضِّلُ الْفَرَزْدَقَ عَلَى تَفْضِيلًا قَبِيحًا ، وَأَنَا أُمَدِّحُ قَوْمَكَ وَهُوَ يَهْجُوهُمْ ، وَيَكْنِيكَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا ذُكِرْنَا أَنْ تَقُولَ : كَلَاهَا شَاعِرُ كَرِيمٍ ، وَلَا تَحْتَمِلُ مِنِّي وَلَا مِنِّهِ لَأَمَّةً .

فَبَيْنَمَا أَنَا وَهُوَ كَذَلِكَ وَمَارِدٌ عَلَى شَيْئًا إِذْ لَحِقَ بِهِ ابْنُ جَنْدَلٍ ، فَرَفَعَ

(١) هُوَ عُبَيْدُ بْنُ حَصِينٍ ، وَيَكْنَى أَبَا جَنْدَلٍ ، وَالرَّاعِي لِقَبِّ غَلَبَ عَلَيْهِ لِكَثْرَةِ وَصْنِهِ الْإِبِلَ وَجُودَةِ نَمَتِهِ لِإِيَّاهَا . (٢) هُوَ جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةِ الْخَطَنِيِّ أَشْبَرُ شُعْرَاءِ عَصْرِهِ ، وَأَصْفَاهُمْ دِيبَاجَةً . مَاتَ عَمْرُهُ كُلَّهُ يَتَاخَلَّصُ لِكُتُبِهِمْ ، وَكَانَ هَجَاءَ مَرَأً ، ثُمَّ ثَبَّتَ أَمَامَهُ غَيْرَ الْفَرَزْدَقِ وَالْأَحْطَلِ مَا بَ سَنَةِ ١١٠ هـ . (٣) الْأَخَوَى : الَّذِي يَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ مِنْ شِدَّةِ خُضْرَتِهِ . وَ مُحَذُوفٌ : مَقْصُوعُ الذَّنْبِ .

كَرَمَانِيَّة^(١) معه ، فضرب بها عَجَزَ بَنَفْتِه ، ثم قال : إِنِّي لَأَرَاكَ وَاقِفًا عَلَى كَلْبٍ
مِنْ بَنِي كَلَيْبٍ كَأَنَّكَ تَحْشَى مِنْهُ شَرًّا أَوْ تَرْجُو مِنْهُ خَيْرًا !

وَضَرَبَ الْبَغْلَةَ ضَرْبَةً فَوْحَحْتَنِي^(٢) رَنَحَةً وَقَعَتْ مِنْهَا قَلَنْسُوتِي ، فَوَاللَّهِ لَوْ عَرَجَ
عَلَى الرَّاعِي لَقُلْتُ : سَفِيهٌ غَوَى - بِعَنِي جُنْدَلَا ابْنَهُ - وَلَكِنْ لَا وَاللَّهِ مَا عَاجَ^(٣)
عَلَى ، فَأَخَذْتُ قَلَنْسُوتِي فَسَحَّيْتُهَا ، ثُمَّ أَعَدْتُهَا عَلَى رَأْسِي ، ثُمَّ سَمِعْتُ الرَّاعِيَّ قَالَ
لَابْنَهُ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ طَرَحْتُ قَلَنْسُوتَهُ طَرَحَةً مَشْثُومَةً .

فَانصَرَفَ جَرِيرٌ غَضَبَانٌ حَتَّى صَلَّى الْمَشَاءَ بِمَنْزِلِهِ فِي عِلِّيَّة^(٤) لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : ارْضَعُوا
إِلَيَّ بَاطِيَّةً^(٥) مِنْ نَبِيذٍ وَأَسْرَجُوا لِي . فَأَسْرَجُوا لَهُ ، وَأَتَوْهُ بِبَاطِيَّةٍ مِنْ نَبِيذٍ .
فَجَلَّ يُهُمُّهُمْ^(٦) ، فَسَمِعَتْ صَوْتَهُ يَهْوِزُ فِي الدَّارِ ، فَاطَّلَعَتْ فِي الدَّرَجَةِ حَتَّى نَظَرَتْ
إِلَيْهِ . فَإِذَا هُوَ يَحْبُو عَلَى الْفِرَاشِ عُرْيَانًا لَمَّْا هُوَ فِيهِ ، فَاتَّخَذَتْ وَقَالَتْ : ضَيْفُكُمْ
يَحْنُونُ ! رَأَيْتُ مِنْهُ كَذَا وَكَذَا ! فَقَالُوا لَهَا : اذْهَبِي لِطَيْتِكَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِهِ وَعَمَّا
يُمَارِسُ . فَازَالَ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَ السَّحَرُ ، ثُمَّ إِذَا هُوَ يَكْبُرُ ، فَقَالَا لَهَا ثَمَانِينَ بَيْتًا
فِي بَنِي نُمَيْرٍ ، فَلَمَّا خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ :

فَمَنْ الطَّرَفَ إِنْكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَغَبٍّ بَلَفَتْ وَلَا كِلَابًا

كَبِيرٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَخْزَيْتَهُ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ . ثُمَّ أَصْبَحَ ، حَتَّى إِذَا عَرَفَ أَنَّ النَّاسَ
قَدْ جَلَسُوا فِي مَجَالِسِهِمْ بِالْمَرْبِدِ ، وَكَانَ يَعْرِفُ مَجْلِسَهُ وَمَجْلِسَ الْفَرَزْدَقِ ، دَعَا بَدْهَنَ
فَأَذْهَنَ ، وَكَفَّ^(٧) رَأْسَهُ - وَكَانَ حَسَنَ الشَّعْرِ - ثُمَّ قَالَ : يَا غِلَامُ ! أَسْرِجْ لِي ،

(١) نوع من البساط . (٢) دَعَتْهُ : رَفَعَتْهُ . (٣) طَاجٍ : رَجْعٌ وَطَادٌ . (٤) الْعِلِّيَّةُ : الْفُرْقَةُ .

(٥) الْبَاطِيَّةُ : التَّاجُودُ ، وَهُوَ لِنَاءُ الْحَرِّ . (٦) الْمَهْمَةُ وَالْمُهِنَةُ : الصَّوْتُ الْخَفِيُّ . (٧) كَفَّ

شَعْرَهُ : جَمَعَهُ وَضَمَّ أَطْرَافَهُ .

فأخرج له حصاناً ثم قصد مجلسهم ، حتى إذا كان بموضع السلام قال : يا غلام -
ولم يسلم - قل لعبيد^(١) أبعثك نوتك تُكسيهنَّ المال بالعراق ! أما والذي نفس
جرير بيده لترجعنَّ رَمَيْرَ^(٢) يُسوهُنَّ ولا يسرهنَّ !

ثم اندفع فيها فأنشدها ، فنكس الفرزدق وراعى الإبل ، وأرَمَ^(٣) القوم ، حتى
إذا فرغ منها سار ، وثبت راعى الإبل ساعة ، ثم ركب بقلته بِشْرَ^(٤) وعَرَ^(٥) ،
وخلّى المجلس حتى ترقى إلى منزله الذي ينزله . ثم قل لأصحابه : ركبكم ركبكم ،
فليس لكم هاهنا مقام ، فضعكم والله جرير ! فقال له بعض القوم : ذاك شوؤمك
وشوؤم ابنك . ثم رحل بنو عير فوجدوا البيت قد سيقهم .

(١) هو راعى الإبل . (٢) الميرة : الطعام يتأثره الإنسان ، وقد مار ميراً . (٣) أرم القوم :
سكتوا . (٤) أصل العرب : الجرب .

٩١ - لا أهجو شاعراً هذا شعره *

هجا الأَحوص^(١) رَجُلًا من الأنصار من بني حَرَام يقال له ابن بشير ،
وكان كثير المال ؛ فغضب من ذلك ، وخرج حتى قَدِم على الفرزدق بالبصرة ،
وأهدى إليه وألطفه^(٢) فقبل منه ؛ ثم جلسا يتحدثان ، فقال الفرزدق :
من أنت ؟ قال : من الأنصار ؛ قال : ما أقدمك ؟ قال : جئتُ مستجيراً بالله
عز وجل ، ثم بك من رجلٍ هجاني ؛ قال : قد أبارك الله منسه وكفأك مثوته ؛
فأين أنت . عن الأَحوص ؟ قال : هو الذي هجاني ؛ فأطرق ساعة ثم قال : أليس
هو الذي قول :

أَلَا بِرسمِ الدَّارِ فَاسْتَنْطِقِ الرَّسْمَا قد هاج أحزاني وذكرني نعمًا
قال . بلى ؛ قال : والله لا أهجو رجلاً هذا شعره .

ففرج بشير فاشتري أفضل من الشراء الأول من الهدايا ، فقدم بها
على جرير ، فأخذها وقال له : ما أقدمك ؟ قال : جئتُ مستجيراً بالله وبك من
رجل هجاني ؛ فقال : قد أبارك الله عز وجل منه وكفأك ، أين أنت عن ابن عمك
الأَحوص بن محمد ؟ قال : هو الذي هجاني ؛ فأطرق ساعة ثم قال : أليس هو
الذي يقول :

* الأغانى : ٢ : ٢٦٢ .

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد الله من الأوس ؛ وكان ميالاً إلى الرخاء ، قليل المروءة والدين
مع ميل إلى هجو الناس ، إلا أنه كان شاعراً ذا ديباجة صافية ، وحلاوة وعذوبة ، توفي سنة
١٠٥ هـ . (٢) ألطفه : أكرمه ويره بطرب التحف .

نَمَشَى بِشَقِيٍّ فِي أَكَرِسٍ^(١) مَالِكٌ تَشِيدُ بِهِ كَالْكَلْبِ إِذْ يَنْبِيعُ النَّجْمَا
فَأَنَا بِالْخُشُوسِ^(٢) فِي جِذَمِ مَالِكٍ^(٣) وَلَا بِالْمُسَى ثُمَّ يَلْتَزِمُ الْإِسْمَا
وَلَكِنْ بَقِيَ إِنْ سَأَلْتَ وَجَدْتَهُ تَوْسَطَ مِنْهَا الْعَرَّ وَالْحَسْبَ الضَّخْمَا
قَالَ : بَلَى ، وَاللَّهِ ؛ قَالَ : فَلَا رَأْيَ لِي أَهْجُو شَاعِرًا هَذَا شَعْرُهُ . فَأَشْتَرِي أَفْضَلَ
مِنْ تِلْكَ الْمَدَائِي ، وَقَدِّمِ عَلَى الْأَخْوَصِ ، فَأَهْدَاهَا إِلَيْهِ وَصَالِحِ

(١) الأَكَرِس : جمع الأَكَرَس . وهو الجماعة من الناس . (٢) وجل خُشُوس : مرذول .

(٣) الْجِذَم : الأصل .

٩٢ — جارية*

وفد الكَمَيْت^(١) على يزيد^(٢) بن عبد الملك ، فدخل عليه يوماً وقد اشترَبَتْ له سلامة النَّس ؛ فأدخِلَتْ إليه والكَيتُ حاضر ، فقال له : هذه جارية تباع ، أفتري أن نبتاعها ؟ قال : إِي والله يا أمير المؤمنين ، وما أرى أن لها مثلاً في الدنيا فلا تفوتك .

قال : فصفا لي في شعر حتى أقبل رأيك ، فقال :

هي شمسُ النهار في الحسنِ إلّا أنها فُضِّلَتْ بقتل الطَّرَافِ^(٣)
عَصَّةٌ بضِ رَخمٍ لَمُوبٍ وَعِثَّةٌ^(٤) للثَن شَحْنَةُ^(٥) الأطرافِ
زَانِهَا دَلَّهَا وَفَرَّ نَبِيٌّ وَحَدِيثُ مُرْسَلٍ غَيْرِ جَافِ
خَلَقَتْ فَوْقَ مَنِيَّةٍ الْمُتَمَيِّ فَاقْبِلِ النَّصِيحَ يَا بَنَ عَبْدِ مَنَافِ
فَضَحَكَ يَزِيدُ وَقَالَ : قَدْ قَبِلْنَا نَصِيحَكَ وَمَشُورَتَكَ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِجَاهِزَةٍ سَنِيَّةٍ .

* مهذب الأغاني : ٥٠ - ٢٠٧

(١) هو الكَيت بن زيد الأسد ، كان شاعراً عالماً بلغات العرب ؛ خبيراً بآبائها ، من شعراء مضر المتصيين على اليمن ، وكان مشهوراً بالتشجيع لبني هاشم ، توفي سنة ١٢٦ هـ .

(٢) من ملوك الدولة الأموية في الشام ، تولى الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ ، ولم يطل عهده ؛ إذ توفي سنة ١٠٥ هـ .

(٣) الطَّرَاف : جمع ظريف . (٤) امرأة وعِثَّة ، كثيرة اللحم ، كأن الأصابع تسوخ فيها من لبنها وكثرة لحمها . وامرأة وعِثَّة الأرداف : لبنتها . (٥) الشَّحْنَةُ : الدقيق الضامر من الأصل لا هزالاً .

٩٣ — فَضَحْتُ شَيْخًا مِنْ قُرَيْشٍ وَعَذَّبْتَنِي *

حَدَّثَ مُصْعَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : أَتَانِي أَبُو السَّائِبِ ^(١) الْحَزْرَوِيُّ فِي لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا رَقَدَ السَّائِبُ ^(٢) فَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ : هَلْ مِنْ حَاجَةٍ ؟ فَقَالَ : سَهَرْتُ اللَّيْلَةَ فَذَكَرْتُ أَحَا لِي اسْتَمْتَعُ بِهِ ، فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا سِوَاكَ ! فَلَوْ مَضَيْنَا إِلَى الْعَقِيقِ ^(٣) فَتَنَاشَدْنَا وَتَحَدَّثْنَا أَقُلْتُ : نَعَمْ ! فَتَزَلْتُ ؛ فَازَالَ فِي حَدِيثٍ إِلَى أَنْ أُنْشِدْتَهُ فِي بَعْضِ ذَلِكَ يَبْتَغِي الْمَرْحَى :

بَا تَا بَأْنَمَ لَيْلَةٍ حَتَّى بَدَأَ صَبِيحُ بَلَوَحٍ ^(٤) كَالْأَغْرِ الْأَشَقَرِ
فَتَلَا زِمَا عِنْدَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْغَرِيمُ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُصْرِ
فَقَالَ : أَعِدْهُ عَلَيَّ فَأَعِدْتَهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنَ وَاللَّهِ ، أَمْرُهُ طَالِقٌ إِنْ نَطَقَ
بِحَرْفٍ غَيْرِهِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ .

فَضَيْنَا فَلَقِينَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَسَنٍ ، فَلَمَصَرْنَا إِلَيْهِ وَقَفَ بِنَا ، وَهُوَ مَنْصَرَفٌ يَرِيدُ
الْمَدِينَةَ ، فَلَمْ ، ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا أَبَا السَّائِبِ ؟ فَقَالَ لَهُ :

فَتَلَا زِمَا عِنْدَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْغَرِيمُ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُصْرِ

* الْأَغْنَى : ٢ : ٣٩٨ ، ذَيْلُ زَهْرِ الْأَدَابِ : ٣٨

(١) اسمه عبد الله ، وكان أشراف المدينة يقدمونه ويظلمونه لشمرف منصبه وحلاوة طريه ، وغزارة أدبه ، وجده بكى أبا السائب أيضاً ، وكان خليماً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الإسلام فسكان الي إذا ذكره يقول : نعم الخليل كان أبو السائب لا يدارى ولا يمارى (٢) السامر : السار ، وهم القوم يسمرون ، والسمر : حديث الليل . (٣) العقيق : موضع بالمدينة .

(٤) تلوح : بان ووضوح .

فالتفت إلى وقال : متى أنكرت عقلَ صاحبك ؟ قلت : منذ الليلة ! قال :
إنا لله ! أى كهلٍ أصيب به قريش !

ثم مضينا فلقينا محمد بن عمرَ النخعي ، قاضي المدينة ، يريد ما لأعلى بغلة له ،
وكان أثقل الناس جسما ، ومعه غلام له على عنقه مخلاة فيها قيدُ البغلة ، فلم عليه ،
ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فتلازما عند الفراق صباية أخذَ الغريم بفضلِ نوبِ الصر

فالتفت إلى وقال : متى أنكرت عقلَ صاحبك ؟ قلت : آنفا ! فتركني
وانصرف ، قلت : أفتدعه هكذا ؟ ما آمنُ أن يهوى^(١) في بعض آبارِ العقيق ؛
قال : صدقت ، يا غلام ؛ هات قيد البغلة ، فوضعه في رجله ، وهو ينشدُ البيت
ويشير بيديه إليه ، يرى أنه يفهمُ عنه قصته ، ثم نزل الشيخُ عن البغلة ، وقال :
يا غلام ؛ احمله على بقلتي ، وألحقه بأهله .

فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته الخبر ، فضحك وقال : قُبْحك الله
ماجنا ! فصَحَّت شيخنا من قريش ، وعذبتني وأنا لا أقدرُ أن أتحرَّك !

(١) يهوى : يسقط .

٩٤ — في دار هشام بن عبد الملك*

قال حماد^(١) الراوية كان انقطاعي إلى يزيد بن عبد الملك . فكان هشام^(٢) يَحْفُوْنِي لذلك دون سائر أهله من بني أمية في أيام يزيد . فلما مات يزيد ، وأقْصَتْ اختلافه إلى هشام رَحْفَهُ ، فكثتُ في بيتي سنة لا أخرجُ إلّا لمن أَرْتَقُ به من إخواني سرّاً .

فلما لم أسمعُ أحداً يدكرني سنة أُمِنْتُ نَفْرَجْتُ فصليت الجمعة ، ثم جالسُ فإذا شَرَطَيَّان قد وقفا على قفالي : يا حماد ؛ أجب الأمير يوسف بن عمر^(٣) . قلت في نفسي : من هذا كنتُ أَحَدَر ، ثم قلت للشَّرَطَيَّين : هل لكما أن تدعاني آتي أهلي فأودعهم وداع من لا ينصرف إليهم أبداً ، ثم أصبر معكما إليه ؟ فعلا : ما إلى ذلك من سبيل .

فاستسلمتُ في أيديهما وصرتُ إلى يوسف بن عمر وهو في الإيوان الأحمر^(٤) . فسلمتُ عليه فرد عليّ السلام ، ورمى إليّ كتاباً فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر . أما بعد فإذا قرأت كتابي هذا فابحث إلى حماد الراوية منْ بَأْتِيكَ به غير مَرَوَّع ولا مُتَمَتِّع^(٥) ، وادفع إليه

* ثمرات الأوقاف : ١ : ١١٣ ، الأغاني : ٦ : ٧٥ .

(١) هو حماد بن ميسرة ، كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتؤثره وتستره ، فيألوهم ويجزلون ملته . (٢) انظر صفحة ٥ ، (٣) لم يكن يوسف بن عمر والياً على العراق بعد ولاية هشام بسنة ، وإنما كان والياً عليها خالد القسري حتى سنة ١٣٠ هـ . ثم ولي يوسف بعده . (٤) الإيوان : البيت يبنى طولاً (٥) غير متمتع : من غير أن يصيبه أذى يلقفه ويرغبه .

خسمائة دينار وجلاً مهر^(١) يسير عليه اثنتى عشرة ليلة إلى دِمَشق .
فأخذت الخمسمائة الدينار ونظرت فإذا جل مرحول^(٢) ، فوضعتُ رجلِي في
الفرز^(٣) وسيرتُ اثنتى عشرة ليلة ، حتى وافيت باب هشام ، فاستأذنتُ فأذن لي ،
فدخلتُ عليه في دار قوراء^(٤) مفروشة بالرخام ، وهو في مجلس مفروش بالرخام ،
وبين كل رُحَاطَتَيْنِ قضيبُ ذهب ، وحيطانُهُ كذلك ، وهشامُ جالس على طِفْيسَةٍ
حمراء ، وعليه ثياب خَزْ حُر ، وقد نَضَمَ بالمشك والبنبر ، وبين يديه مسك
مفتوت في أوانى ذهب يُقَلِّبُهُ بيده فتفوح روائحهُ ، فسَلَّتُ فردةً عليّ ، واستدناي
فدنوت حتى قَبَلْتُ رجله ، وإذا جاريتان لم أَرَقِبلهما مثلهما ، في أذُن كل واحدة
منهما حلقتان من ذهب ، فبها لؤلؤتان تتوقدان .

فقال لي : كيف أنت يا حماد ؟ وكيف حالك ؟ فقلت : بخير يا أمير المؤمنين ؛
قال : أتدري فيم بعتُ إليك ؟ قلت : لا . قال : بعتُ إليك لبيتٍ خطر بهالي
لم أَدْرِ مَنْ قاله . قلت : وما هو ؟ فقال :
فدعوا بالصَّبُوح يوماً فجاءت قَيْنَةٌ في يمينها إبريقُ

قلت : هذا يقوله عَدِي بن زيد في قصيدة له . قال فَأَنشِدْنِيهَا ، فَأَنشَدَنِي :
بَكَرَ العاذِلُونَ فِي وَضَحِ الشَّبَحِ يَقُولُونَ لِي : أَلَا تَسْتَفِيقُ
وَيُلَومُونَ نَفْسَكَ يَا بَنِي - د - اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مُوهَوِقُ^(٥)
لستُ أَدْرِ إِذَا كَثُرُوا الْعَدْلُ عِنْدِي أَعْدُوْهُ يَوْمِي أَمْ صَدِيقُ

(١) مهرة بن حيدان : أبو قبيلة ، وهم حنظلي عظيم ، وإبل مبرية : منسوب لآلهم . (٢) مرحول :
عليه الرجل . (٣) الفرز : ركاب الرجل من حله ، فإذا كان من خشب أو حديد فهو ركاب .
(٤) دار قوراء : واسمة . (٥) الموهوق : الشدود بالوهق ، وهو الجبل .

زائها حننها وفرغ عيم
وثناباً مفلجاً عذاباً
فدعوا بالصُّبُوح يوماً لجاءت
قدّمته على عُقار كعين
مرّة قبل مزجها ، فإذا ما
وطئت فوقها فقايع كالدّ
ثم كان للزّاج ماء سماء
فطرب ، ثم قال : أحسنت والله يا حماد . يا جارية ؛ اسقيه . فسقتني
شربة ذهب بثلاث عقلي . وقال : أعد . فأعدت فاستخفّ الطرب ، حتى نزل
عن فرشه .
ثم قال للجارية الأخرى : اسقيه . فسقتني شربة ذهب بثلاث عقلي . فقلت :
إن سقتي الثالثة افتضحت . فقال : سلّ حوائجك . فقلت ؛ كأنّ ما كانت ؟
قال : نعم . قلت : إحدى الجاريتين ، فقال لي : هاجمها لك بما عليهما وما لهما .
ثم قال للأولى : اسقيه . فسقتني شربة سقطت معها فلم أعقل حتى أصبحت فإذا
بالجاريتين عفسد رأسي وإذا عذّة من الخدم مع كلّ واحد منهم بدرة ؛ فقال لي
أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول لك : خذ هذه فانقع بها .
فأخذتها والجاريتين وانصرفت .

(١) النزع : الشعر ، والأثني الكثير ، يطلق على الشعر وعلى البدن المتلى باللحم ، وهو
المراد هنا والصلت : الواضع . (٢) روق : طوال . (٣) الراوق : ناجود الشراب الذي
يروق فيه .

٩٥ — هروب الكميّة*

كان حكيمُ بن عُبَّاسِ الأعور الكَلْبِيُّ وَلِيماً بهجاء مُضِر ، فسُكِرَ شعراءه مضراً بهجوه ويُحْبِبُهُمْ ، وكان الكَمِيَّت يَقُول : هو والله أشعُرُ منكم . قالوا : فأجِبَ الرجل ؛ قَالَ : إِنْ خَالَدَ بن عبد الله الْقَسْرِيُّ مُحْسِنٌ إِلَيَّ ، فَلَا أَقْدِرُ أَنْ أَرُدَّ عَلَيْهِ . قالوا : فَاسْمَعْ بِأُذُنِكَ مَا يَقُولُ فِي بَنَاتِ عَمِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ مِنَ الْمَهْجَاءِ ، وَأَنْشُدُوهُ ذَلِكَ ؛ فَحَمِيَ الكَمِيَّتُ لِمَشِيرَتِهِ ، وَقَالَ قَصِيدَةً هَجَا فِيهَا أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَبَلَغَ خَالَداً خَبَرُهَا فَقَالَ : لَا أَبَالِي مَا لَمْ يَجُزْ لِمَشِيرَتِي ذِكْرٌ ، فَأَنْشُدُوهُ الْقَصِيدَةَ وَفِيهَا ذِمٌّ لِمَشِيرَةِ خَالَدٍ ، فَاحْفَظْتَهُ^(١) عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : فَعَلِمَهَا ، وَاللَّهِ لَا قَتْلَتُهُ !

ثم اشترى ثلاثين جارية بأعلى ثمن ، وَتَخَيَّرَهُنَّ نَهَابَةً فِي حُسْنِ الْوُجُوهِ وَالسَّكَالِ وَالْأَدَبِ ، فَرَوَّاهُنَّ الْمَهْشَمِيَّاتِ وَدَسَّهُنَّ مَعَ نَحَّاسٍ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَاشْتَرَاهُنَّ جَمِيعاً ، فَلَمَّا أُنِيسَ بِهِنَّ اسْتَنْطَقَهُنَّ ، فَرَأَى فَصَاحَةً وَأَدَباً ، فَاسْتَقْرَأَهُنَّ الْقُرْآنَ فَقَرَأْنَ . وَاسْتَنْشَدَهُنَّ الشُّعْرَ فَأَنْشَدَتْهُ قَصَائِدَ الْكَمِيَّتِ الْمَهْشَمِيَّاتِ ، فَقَالَ : وَيْلَ لَكُنَّ مَنْ قَاتَلَ هَذَا الشُّعْرَ ؟ قُلْنَ : الْكَمِيَّتُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ ، قَالَ : وَفِي أَيِّ بَلَدٍ هُوَ ؟ قُلْنَ : فِي الْعِرَاقِ ، ثُمَّ بِالْكُوفَةِ .

فَكَتَبَ إِلَى خَالَدٍ — وَهُوَ عَامِلُهُ عَلَى الْعِرَاقِ : ابْعَثْ إِلَيَّ بِرَأْسِ الْكَمِيَّتِ بْنِ زَيْدٍ ، فَبَعَثَ خَالَدٌ إِلَى الْكَمِيَّتِ فِي اللَّيْلِ ، فَأَخَذَهُ وَأَوْدَعَهُ السَّجْنَ ؛ وَلَمَّا كَانَ مِنْ

* الْأَغَانِي : ١٥٠ : ١١٠ .

(١) أَحْفَظْتُهُ : أَعْضَيْتُهُ .

الغد أقرأ من حضره من مضر كتاب هشام ، واعتذر إليهم من قتله ، وآذنتهم في إنفاذ الأمر فيه في غد .

ثم قال لأبان بن الوليد البجلي - وكان صديقاً للكُميت : انظر ماورد في صديقك ، فقال : عزَّ علىَّ والله ذلك .

ثم قام أبان فبعث إلى الكُميت بسلام على بئس وقال له : أنت حرٌّ إن لحقته وأبئس لك ، وكتب إليه : « قد بلغني ما صرت إليه وهو القتل إلا أن يدفع الله عز وجل ، وأرى لك أن تبعث إلى حُجِّي »^(١) ، فإذا دخلت إليك تنقبت نفاقها ، ولبست ثيابها وخرجت ، فإني أرجو ألا يؤوبه لك » .

فارس الكُميت إلى أبي وُضاح حبيب بن بديل وإلى فتیان من بني عمه ، فدخل عليه حبيب ، فأخبره الخبر ، وشاوره فيه ، فسدد رأيه .

ثم بعث إلى حُجِّي امرأته ، فقصَّ عليها القصة وقال لها : أي ابنة عم ، إن الوالي لا يقدم عليك ، ولا يسئلك قومك ، ولو خفتك عليك لـاعرضتُكِ له ؛ فآلبستُ ثيابها ولما زارها وخرَّعته ، وقالت له : أقبل وأدير ، ففعل ، فقالت : ما أنكر منك شيئاً إلا يبساً في كَتِفِكَ ، فاخرج على اسم الله - وأخرجت معه جارية لها - فخرج وعلى باب السجن أبو وُضاح ومعه فتیان من بني أسد ، فلم يؤوبه له ، ومشى والفتيان بين يديه ، فرمى مجلس من مجالس بني تميم ؟ فقال بعضهم : رجل ورب السكبة ، وأمر غلامه فاتبعه ، فصاح به أبو وُضاح : يا كذا وكذا ، لا أراك تتبع هذه المرأة منذ اليوم ! وأوماً إليه بتفعله ، فولى العبد مدبراً وأدخله أبو وُضاح منزله .

(١) حبي بنت نسيكف : زوج الكُميت ، وكانت ممن ينشع .

ولما طال على السجّان الأمر نادى الكميّ فلم يجبه ، فدخل لمعرفة خبره ، فصاحت به المرأة : وراك الّا أم لك ! فشق ثوبه ومضى صارخاً إلى باب خالد ، فأخبره الخبر ؛ فأحضر حُبِّي ، وقال لها : يا عدوّ الله ؛ احتلتِ على أمير المؤمنين ، وأخرجتِ عدوّه ! لأمثلنّ بكِ ، ولأصننّ ولأفعلنّ ! فاجتمعت بنو أسد وقالوا : ما سبيلك على امرأةٍ مِنّا خدعت ! نخافهم ، وحلّى سبيلها .

قال الراوى : وسقط غرابٌ على الحائط فنعب^(١) ، فقال الكميّ لأبى وضاح : إني لأخوذ ، وإن حائطك لساقط ، قال : سبحان الله ! هذا مالا يكون إن شاء الله . فقال له : لا بدّ من أن تحوّلنى^(٢) فخرج به إلى بنى علقمة - وكانوا يتشيّعون - فأقام فيهم ، ولم يُصبح حتى سقط الحائط الذى وقع عليه الغراب .

وأقام الكميّ مدةً متوالياً حتى إذا أيقن أن الطالب قد خفّ عنه خرج ليلاً فى جماعة من بنى أسد على خوفٍ ووجل - وكان عالماً بالنجوم مهتدياً - فلما صار سحيراً صاح بالفتيان : هوّموا^(٣) وقام هو يعلّى . ثم رأى واحداً منهم شخصاً ، فتضمّض^(٤) له ، فقال الكميّ : مالك ؟ قال : أرى شيئاً مقبلاً ، فنظرت إليه فقال : هو ذئب قد جاء يستطعمكم ، فجاء الذئب فربض فاحية ، فأطعموه يدَ جزور فتمزّقها^(٥) ، ثم أهوّزها له بإناء فيه ماء فشرب منه ، وارتحلوا ، فجعل الذئب يعوى ، فقال الكميّ : ما له ؟ وبله ! ألمْ نطعمه ونسقيه ؟ وما أعرقني بما يريد ؟ هو يُعلمنا أنا لسنا على الطريق ، تيامنوا يا فتيان ، فتيامنوا . فسكن عواؤه !

(١) نعب : صاح . (٢) تحوّل عنه : زال إلى غيره . (٣) أصل التهويم والتهوم : هز الرأس من التماس . (٤) تضمّض : خضع وذل . (٥) تمزّق : أكل ما عليه من اللحم .

ولم يزل يسير حتى جاء إلى الشام، وتوارى في بني أسد وتيمم، وأرسل إلى أشراف قريش - وكان سيدهم يومئذ عَنبَسَةَ بن سميذ بن العاص - فشت رجال قريش بعضها إلى بعض، وأتوا عَنبَسَةَ، فقالوا : يا أبا خالد ؛ هذه مَكْرُومَةٌ قد أتاك الله بها، هذا الكُمَيْتُ بن زيد لسانُ مضر، كتب أميرُ المؤمنين في قتله، فنجنا حتى نخلص إليك وإلينا .

قال : فرؤوه أن يموذَ بقبر معاوية بن هشام ؛ فمضى الكُمَيْتُ ، ففرب فسُطِطاه عند قبره ومضى عَنبَسَةَ ، فَأَتَى مَسْلَمَةَ بن هشام فقال له : يا أبا شاعر ؛ مَكْرُومَةٌ أُنْتُكَ بها تبلغُ الثَّرْبَا إن اعتقدتَها^(١) ، فإن علمت أنك نفي بها وإلا كتمتها . قال : وما هي ؟ فأخبره الخبر ، وقال : إنه قد مدحك بما لم يُسمع بمثله ؛ فقال : على خلاصه .

ودخل على أبيه هشام في غير وقت دخول - فقال له هشام : أجبْت حاجة ؟ قال : نعم ، قال : هي مَقْضِيَةٌ إلا أن يكون الكُمَيْت ، فقال : ما أحبُّ أن تسقني على حاجتي ، وما أنا والكُمَيْت ، فقالت أمه : والله لتفضيْن حاجته كائنة ما كانت . قال : قد قضيتها ولو أحاطت بما بين قُطْرَيْهَا^(٢) ؛ قال : هي الكُمَيْت يا أمير المؤمنين ! وهو آمن بأمان الله عز وجل وأمانى ، وهو شاعر مضر ، وقد قال فينا قولاً لم يُقَلْ مثله ، قال : قد أمنتَه وأجرتُ أمانك له ، فاجلس له مجلساً ينشدك فيه ما قال فينا .

(١) اعتقد مالا وضعية : انتقاما .

(٢) القطر : الجانب والناحية

فقد له ، فتكلم بخطبة ارتجلها ما سُمع بمثالها قط ، وامتدحه بقصيدته الرائية ،
ففى فيها حتى انتهى إلى قوله :

ماذا عليك من الوقوف بها وإنك غير ضاغر

درجت عليها العاديات الرائحات من الأعاصير^(١)

إلى أن قال :

فألآن صرتُ إلى أمية والأمرُ إلى الهابر

وجعل هشام يميز مسلة بقضيب في يده ، فيقول : اسمع ، اسمع ، ثم استأذنه
في مرثية معاوية ، فأذن له ، فأنشده قوله :

سأبكيك للدين والدنيا ولدين إننى رأيت يد العروف بمدك شلت

فدامت عليك بالسلام تحية ملائكة الله الكرام وصلت

فبكى هشام بكاء شديداً ، فوثب الحاجب فسكته ، ثم جاء الكميث إلى منزله
آمناً ، فحشدت له المضربة بالهدايا ، وأمر له مسلة بمشرين ألف درهم ، وأمر له
هشام بأربعين ألف درهم ، وكتب إلى خالد بأمانه وأمان أهل بيته ، وأنه لاسلطان
له عليهم ، وجمعت له بنو أمية مالا كثيراً .

ولم يجمع من قصيدته تلك يومئذ إلا ما حفظه الناس منها ، وسئل عنها ، فقال :
ما أحفظ منها شيئاً ، إنما هو كلام ارتجلته .

(١) الأعاصير : الأعاصير .

٩٦ — وشاية*

كان الوليد^(١) بن يزيد يُكرّم طُريحا^(٢)، وكانت له منه منزلةٌ قريبة ومكانة، وكان يُدني مجلسه، وجعله أولَ داخل وآخرَ خارج، ولم يكن يُصدِر إلا عن رأيه. فاستفرغ مديحه كلّه وعامة شعره فيه، فحسده ناسٌ من أهل بيت الوليد، وقَدِم حمادُ الراوية على التفتة^(٣) الشام، فشكّوا ذلك إليه، وقالوا: والله لقد ذهب طُريحٌ بالأمير، فما نالنا منه ليلٌ ولا نهار؛ فقال حماد: انتفوني من يُنشد الأمير بيتين من شعر؛ فأسقطَ منزلته.

فطلبوا إلى الخادم الذي كان يقومُ على رأس الوليد، وجعلوا له عشرة آلاف درهم على أن يُنشدَها الأمير في خلوة. فإذا سأله من قولٍ من هذا؟ قال: من قول طُريح، فأجابهم الغلام إلى ذلك وعلّوه البيتين.

فلما كان ذات يوم دخل طُريحٌ على الوليد، وفتح الباب وأذن للناس؛ فجلسوا طويلاً، ثم نهضوا، وبقي طُريح مع الوليد وهو ولي عهد. ثم دعا بفدائه فتذّياً جميعاً:

* الأغاني: ٣: ٣١٢

(١) كان الوليد قبل أن يلى الخلافة من فتيان بني أمية وطرفائهم وشعرائهم، ولما ولي الخلافة اتهمك في اللهو والشراب وسماع الفناء، مات مقتولا سنة ١٢٦ هـ. (٢) هو طُريح بن إسماعيل التتقي، نشأ في دولة بني أمية، واستفرغ شعره في الوليد بن يزيد، وأدرك دولة بني العباس، ومات في أيام الهندي سنة ١٦٥ هـ. (٣) التفتة: الحين والزمان.

ثم إن طريحاً خرج وركب إلى منزله ، وترك الوليد في مجلسه ليس معه أحد .
فاستلقى على فراشه ، واغضم النلامُ خلوته ؛ فاندفع يشد :
يسرى ركابى إلى منْ تَعْدِين به فقد أَقْتُ بدار الهُون ما صلحاً
سسىرى إلى سيِّدٍ تَمْنَحُ خلائِقُهُ ضَمْنِ الدَّسِيعَةِ^(١) قَرْنَمَ يَحْمِلُ المِدْحَ^(٢)
فأضنى الوليد إلى الغلام بسمه . وأعاد الغلام غير مرة . ثم قال الوليد : ويحك
يا غلام ! من قول من هذا ؟ قال : من قول طريح .

فغضب الوليد حتى امتلأ غيظاً ، ثم قال : والهفا على أمِّ لم تلدنى ! قد جعلته
أولَ داخلٍ وآخر خارج ، ثم يزعم أن هشام يحمل المِدْحَ ؛ ولا أُحْمِلُها .
ثم قال : على الحاجب ، فأتاه ، فقال : لا أعلم أنك أذنت لطريح ؛ فإن
حاورك في ذلك فاحطفه بالسيف .

فلما كان بالعمشى وصلَّتِ المصير جاء طريح للساعة التي كان يؤذّن لها فيها ؟
فدنا من الباب ليدخل ؛ فقال له الحاجب : ورائك ! فقال : مالك ! هل دخل على
ولى العهد أحدٌ بمدى . قال : لا ! ولكن ساعةً وليت من عنده دعانى فأمرنى
ألا أذن لك ، وإن حاورتنى في ذلك خطفتك بالسيف .

فقال : لك عشرة آلاف وأذن لى في الدخول عليه . فقال له الحاجب :
والله لو أعطيتنى خراج العراق ما أذنت لك في ذلك ، وليس لك من خير في
الدخول عليه فأرجع . قال : ويحك ! هل تعلم من دهاكى عنده ؟ قال الحاجب :

(١) الدسيسة : العطفة ، والقرم : السيد . (٢) يحمل المدح : بدخرها ويبرفها ويكافئ عليها
من قوله تعالى : « وكأين من دابة لا تعمل رزقها » .

لا والله ، والله لقد دخلتُ عليه وما عنده أحد ، ولكنَّ الله يُحدث ما يشاء في الليل والنهار .

فرجع طريق ، وأقام بباب الوليد سنةً لا يَخْلُصُ إليه^(١) ، ولا يقدر على الدخول عليه ، وأراد الرجوع إلى بلده وقومه . فقال : والله إن هذا لَمَجْرَبٌ بِي أَنْ أَرْجِعَ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَلْقَى وَلِيَّ الْعَهْدِ ، فَأَعْلَمَ مَنْ دَهَانِي عَنْهُ ؛ وَرَأَى أَنَا سَأَ كَانُوا لَهُ أَعْدَاءٌ قَدْ فَرَحُوا بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ، فَكَانُوا يَدْخُلُونَ عَلَى الْوَلِيدِ وَيَحْدِثُونَ ، وَيَصْدُرُّ عَنْ رَأْيِهِمْ ، فَلَمْ يَزَلْ يُلْطَفُ بِالْحَاجِبِ وَيَمْنِيهِ حَتَّى قَالَ لَهُ الْحَاجِبُ : أَمَا إِذَا كُنْتَ أَطْلَيْتَ الْمَقَامَ فَإِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَنْصَرِفَ عَلَى حَالِكَ هَذِهِ ، وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ ، إِذَا كَانَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، دَخَلَ الْحَمَّامَ ثُمَّ أَمَرَ بِسَرِيرِهِ فَأُبْرِزَ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ حِجَابٌ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَعْلَمْتُكَ ، فَتَكُونُ قَدْ دَخَلْتَ عَلَيْهِ وَخَفِيزَتْ بِحَاجَتِكَ ، وَأَنَا عَلَى حَالٍ عَظِيمٍ

فلما كان ذلك اليوم دخل الأمير الحمام وأمر بسريره فأبرز ، وجلس عليه ، وأذن للناس ؛ فدخلوا عليه ، والوليد ينظر إلى مَنْ أَقْبَلَ . وبعت الحاجب إلى طريق فأقبل وقد تنامَّ الناس ؛ فلما نظر الوليد إليه من بعيد صرف عنه وجهه ، واستعجباً أَنْ يَرِدَّه مِنْ بَيْنِ النَّاسِ ؛ فَدَنَا فسلم فلم يردَّ عليه السلام ؛ فقال طريق يستعطفه ويتضرع إليه :

نَامَ الْخَلِيْفَةُ مِنَ الْمَهْمُومِ وَبَاتَ لِي لَيْلٌ أَكْبَدُهُ وَهِيَ مُضْلِعٌ^(٢)
جَزَعًا لِمُعْتَبَرِ الْوَلِيدِ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنَ الْخَوَاتِ أَجَزَّ ع

(١) لا يخلص إليه : لا يصل إليه . (٢) مضلع : متقل .

يَا بْنَ الْخَلَّافِ إِنَّ سَخَطَكَ لَأَمْرِي أَنْسَيْتَ عِصْمَتَهُ بِلَاءَ مُقْطَعِ
فَلَا تُزِعَنَّ^(١) عَنِ الَّذِي لَمْ يَهَوَّهُ إِنْ كَانَ لِي - وَرَأَيْتَ ذَلِكَ مَزِيعُ
فَاعْطِفْ فِدَاكَ أَبِي عَلَى تَوْسَعًا وَفَضِيلَةً فَمُلَى الْفَضِيلَةَ تُنْبِعُ
فَلَقَدْ كَفَاكَ وَزَادَ مَا قَدْ نَالَنِي إِنْ كُنْتَ لِي بِبِلَاءٍ ضَرٌّ تَقْنَعُ^(٢)
فَرَّجَهُ وَأَدْنَاهُ وَضَعَكَ إِلَيْهِ وَعَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ .

- -

(١) نزع عن الشيء من باب جلس : انتهى . (٢) القصيدة في الأغاني صفحة ٣١٥ ج ٤ .

٩٧ - أشعب يبلغ رسالة*

بعث الوليدُ بن يزيد إلى أشعب^(١) بقدر ما طلق امرأته سعدة ، فقال له :
يا أشعب ؛ لك عندي عشرةُ آلاف درهم ، على أن تُبلغَ رسالتى سعدة ، فقال له :
أخضر المأل أنظر إليه ، فأحضر الوليدُ بذرة^(٢) ، فوضعا أشعب على عنقه ، وقال :
هاتِ رسالتك ، قال : قل لها بقولي لك :

أسعدةُ هل إليك لنا سبيلُ ؟ وهل حتى القيامةِ من تلاقٍ ؟

بلى ! ولعل دهرأ أن يؤاتى بموتٍ من حليكَ أو طلاقٍ

فأصبحَ شامتاً وقرّاً عيني ويُجمعُ شملنا بعد افتراقٍ

فأتى أشعب الباب ، فأخبرت بمسكانه فأمرت ففرش لها فرش ، وجلست
وأذنت له - وكان نساء المدينة لا يحتججن عنه - فدخل فأنشدها ، فلما أنشد البيت
الأول :

أسعدةُ هل إليك لنا سبيلُ ؟ وهل حتى القيامةِ من تلاقٍ ؟

قالت : لا والله ، لا يكونُ ذلك أبداً ، فلما أنشد البيت الثاني .

بلى ! ولعل دهرأ أن يؤاتى بموتٍ من حليكَ أو طلاقٍ

قالت : كلاً إن شاء الله ، بل يفعل الله ذلك به ، فلما أنشد البيت الثالث :

* العهد الجديد : ٣ : ١٨١ ، الأغاني : ٧ : ٢٧ ، نهاية الأرب : ٤ : ٤١

(١) هو أشعب بن جبير ، من ظرفاء أهل المدينة كان مولى لعبد الله بن الزبير ، وكان يجيد
الفناء ويُضرب المثل بطمعه ، عمر طويلاً ، وتوفي سنة ١٥٤ هـ . (٢) البصرة : كيس فيه
عشرة آلاف درهم .

فَأَصْبَحَ شَامِتًا وَتَقَرَّرَ عَيْنِي وَجُمِعَ شَمْلُنَا بَعْدَ افْتِرَاقِ

قَالَ : بَلْ تَكُونُ الشَّامَةُ بِهِ . ثُمَّ قَالَ لَخْدِمَاهَا : خَذُوا الْفَاسِقَ ، فَقَالَ :
يَاسِيدَتِي ؛ إِنَّهَا عَشْرَةُ آلَافٍ دَرَاهِمَ ، قَالَتْ : وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُكَ أَوْ تَبْلُغُهُ كَمَا بَلَغْتَنِي ، قَالَ :
وَمَا تَهَيَّبِينَ لِي ؟ قَالَتْ : بِسَاطِي الَّذِي تَحْتِي ، قَالَ : قَوْمِي عَنْهُ ، فَقَامَتْ ، فَطَوَاهُ ثُمَّ
قَالَ : هَاتِي رِسَالَتَكَ ، جُمِلْتُ فِدَاكَ ، قَالَتْ : قُلْ لَهُ :

أَتَبْكِي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتِ تَرَكْتَهَا فَقَدْ ذَهَبَ لُبْنَى ؛ فَمَا أَنْتَ صَانِعٌ ؟

فَأَقْبَلَ أَشْعَبُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْوَلِيدِ ، فَأَنشَدَهُ الْبَيْتَ ؛ فَقَالَ : قَتَلْتَنِي وَاللَّهِ ؛
فَا تَرَانِي صَانِعًا بِكَ ا

اِحْزَنْهُ إِمَّا أَنْ أُدْلِكَ مُنْكَسًّا فِي بَرٍّ ، أَوْ أُرْمَى بِكَ مِنْ فَوْقِ الْقَمَرِ مُنْكَسًّا ،
أَوْ أُضْرَبَ رَأْسُكَ بِمُودَى هَذَا ضَرْبَةً ا

قَالَ لَهُ : مَا كُنْتَ قَاعِلًا بِي شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ا قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ : لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ
لَعَذِبَ عَيْنَيْكَ قَدْ نَظَرْنَا إِلَى سَعْدَةَ .

قَالَ : صَدَقْتَ .

٩٨ — رُغْنِي رَاعِكَ اللَّهُ*

غَدَى أَشْعَبُ جَدِّيَا بَلَيْنِ أُمِّهِ وَغَيْرِهَا حَتَّى بَلَغَ غَايَةَ ، ثُمَّ قَالَ لِزَوْجَتِهِ : إِنِّي أَحِبُّ أَنْ تُرَضِّعِيهِ بِلَيْنِكَ ، فَفَعَلَتْ .

ثُمَّ جَاءَ بِهِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ ، فَقَالَ : تَاللَّهِ إِنَّهُ لَا بَنِي ، رَضَعَ بَلَيْنَ زَوْجَتِي ، قَدْ حَبَوْتُكَ بِهِ ، وَلَمْ أَرِ أَحَدًا يَسْتَأْهِلُهُ^(١) . سِرَّالْك . فَنَظَرَ إِسْمَاعِيلُ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ فَذُبَّحَ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَشْعَبُ وَقَالَ : الْكَافَّةُ . فَقَالَ : مَا عِنْدِي وَاللَّهِ الْيَوْمَ شَيْءٌ ، وَنَحْنُ مِنْ تَعْرِفٍ ، وَوَذَلِكَ غَيْرُ فَائِضٍ .

فَلَمَّا نَيَْسَ أَشْعَبُ مِنْهُ قَامَ مِنْ عِنْدِهِ ، فَدَخَلَ عَلَى أَبِيهِ جَعْفَرٍ ، ثُمَّ انْدَفَعَ فَشَهِقَ حَتَّى انْقَطَعَ أَصْلَاعُهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَخِي ، قَالَ : مَا مَعْنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ ، وَلَا عَلَيْكَ عَيْنٌ ، قَالَ : وَتُبْ ابْنُكَ إِسْمَاعِيلَ عَلَى ابْنِي فَذُبِّحْهُ ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ ؛ فَارْتَاعَ جَعْفَرٌ وَصَاحَ ، وَبَلَكَ الْوَفِيمُ ؟ وَتَرِيدُ مَاذَا ؟ قَالَ : أَمَا مَا أُرِيدُ ، فَوَاللَّهِ مَا لِي فِي إِسْمَاعِيلَ حِيلَةٍ ، وَلَا يَسْمَعُ هَذَا سَامِعٌ أَبَدًا بِمَدِّكَ .

فَجَزَّاهُ خَيْرًا ، وَأَدْخَلَهُ مَنَازِلَهُ ، وَأَخْرَجَ إِلَيْهِ مَائَتِي دِينَارٍ ، فَقَالَ : خُذْ هَذِهِ وَلَكِ عِنْدَنَا مَا تَحِبُّ .

وَخَرَجَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَهُوَ لَا يُبْصِرُ مَا يَطَّأُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا بِهِ مُسْتَرْسِلٌ فِي مَجْلِسِهِ ، فَلَمَّا رَأَى إِسْمَاعِيلُ وَجْهَ أَبِيهِ أَنْكَرَهُ ، وَقَامَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ ؛ فَصَلَّاهَا بِأَشْعَبٍ . فَقَتَلَتْ وَلَدَهُ ؟ فَاسْتَضَحَّكَ ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبْرَ ، فَأَخْبَرَهُ أَبُوهُ بِمَا كَانَ مِنْهُ ؛ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ .

* نهاية الأرب : ٤ : ٢٨

(١) يَسْتَأْهِلُهُ : يَسْتَفْهَمُهُ .

فكان جعفر يقول لأشعب : رُعتنى راعك الله ! فيقول : روعةُ ابنك بنا فى الجُدَى أكثرُ من روعتك بالمائتى الدينار .

٩٩ — كادت تموت فرحاً*

قال أشعب : تَمَلَّقتُ بأستار الكعبة ، قلت : اللهم أذهبْ منى الحُرْصِ والطلبِ إلى الناس ، فمروا بالقرشيين وغيرهم فلم يمتنى أحدٌ شيئاً ، فُجئتُ إلى أمى ، قالت : مالك ، قد جُئتَ خائباً ؟ فأخبرتها بذلك فقالت : والله لا تدخلُ حتى ترجعَ فَنَسْتَفِيلُ^(١) ربك ! فرجعت ، فجعلت أقول : ياربِّ أفلنى ، ثم رجعت ، فامررتُ بمجلسٍ لقرشٍ ولا غيرهم إلا أعطَوْنى .

ووهب لى غلام ؛ فُجئتُ إلى أمى بمِئالٍ مَوْقَرَةٍ^(٢) من كل شىء ، قالت : ما هذا الغلام ، فُخِفْتُ أَنْ أخبرها فتموت فرحاً إن قلت : وهبوه لى ، فقالت : أى شىء هذا ؟ قلت : غين ، قالت : أى شىء ! قلت : لام ، قالت : أى شىء ؟ قلت : ميم ، قالت : أى ميم ؟ قلت : غلام ؛ فُضِيَتْ عليها ، ولو لم أقطع الحروف لماتت فرحاً .

* نهاية الأرب : ٤ : ٢٨

(١) تطلب منه الإقالة ، أى : السقو . (٢) موقرة : عملة .

١٠٠ - هَلَمْ إِلَى حَتَّى أَكافِكَ*

قال ابن زَبَنَج : كان أبان بن عثمان من أهُزَل الناس ، فبينما نحن ذاتَ يوم عنده ، وعنده أشْعَب ، إذ أقبل أعرابي ، معه جمل أشقرُ أَرْعَرُ ^(١) يَنْطَلِي ^(٢) كأنه أنفى ، والشرُّ بَيْنَ في وجهه ، ما يدنو منه أحدٌ إلا شتمه ونهره ، فقال أبان : ادعوه لى ، فدعوه له ، وقيل : إن الأمير أبان بن عثمان بدعوك ؛ فأناه فسلم عليه ، فسأله أبان بن عثمان عن نسبه ، فانتسب له ، فقال له أبان : حيّاك الله يا خال ؛ اجلس ، فجلس .

فقال له : إني أطلبُ جلامِثَ جَلَلِك هذا منذُ زمان فلم أجده كما أشتهى بهذه الصفة وهذه الهامة والصورة والورك والأخفاف ، والحمد لله الذى جعل ظفري به عند من أحبه ، أتدبئنيه ؟ فقال : نعم أيها الأمير ! قال : فإني قد بذلتُ لك به مائة دينار ؛ فطعم الأعرابي وسرّ وانتفخ ، وبانَ الطمعُ في وجهه .

فأقبل أبان على أشعب ، ثم قال له : ويلك يا أشعب ! إن خالى هذا من أهلك وأقاربك - يعنى فى الطمع - فأوسيعَ له ممّا عندك ، فقال : نعم ! بأى أنت وزيادة ، فقال له أبان : يا خال ؛ إنما زدتك فى الثمن على بصيرة أن أجلّ يساوى ستين ديناراً ، ولكنى بذلتُ لك مائة دينار لقلة النقد عندنا ، وإني معطيك

* نهاية الأرب : ٤ : ٣٤

(١) الزعارة : التراسه وسوء الخلق .

(٢) يَنْطَلِي : يتقد من شدة الغضب .

عُرُوضًا^(١) تساوى مائة دينار .

فزاد طبعُ الأعرابي ، وقال : قد قَبِلْتُ ذلك أيها الأمير ! وأسرَّ أبان إلى أشعب ، فأخرج شيئاً منطوياً ، فقال له : أخرج ما جئتَ به ، فأخرج عمامةً باليةً تساوى أربعة دراهم ، فقال له : قومها يا أشعب ، فقال : عمامةُ الأمير يشهدُ فيها الأعياد والجُمُع ويُلقي فيها الخلفاء ، خسون ديناراً ! قال : ضَمَّها بين يديه .

قال ابن زُبَيْج : قال لي : أثبتَ قيمتها ؛ فكتبتُ ذلك ، ووَضَعْتُ العمامة بين يدي الأعرابي ، فكادَ يَدْخُلُ بعضُهُ في بعض غيظاً ، ولم يقدر على الكلام .

قال أبان : هاتِ فَلَئْسُوْني ، فأخرج أشعب قلنسوةً طويلةً باليةً قد علاها الوسخ والدُّهْن وتَغَرَّقَتْ ، تساوى نصفَ درهم قال : قوم ، فقال : قَلَّسُوْني الأمير تَمْلُوْ هَامَتِهِ ، ويصلي فيها الصلواتِ الخمس ، ويجلسُ فيها للحُكْمِ ثلاثون ديناراً ، قال لي : أثبتِ ، فأثبتُ ذلك ، ووضعتُ القلنسوةَ بين يدي الأعرابي ؛ فازبَدَ وجهه وَجَحَطَتْ^(٢) عيناه ، وهمَّ بالوثوب ، ثم تماسك .

ثم قال لأشعب : هاتِ ما عندك ، فأخرج خُفَّيْنِ خَلَقَيْنِ قد نُفِّيا وتَشَرَّيا وتَفَتَّتَا فقال : قوم ، فقال : خُفَّ الأميرُ يَطَّأُ بهما الرُّوضَةَ ويعلو بهما منبر النبي صلى الله عليه وسلم أربعمائة ديناراً ، فقال : ضَمَّها بين يديه ، ثم قال للأعرابي : اضمِ إليك متاعك ، وقال لبعضِ الأعوان : امضِ مع الأعرابي واقبضْ ما بقى لنا عليه من ثمن المتاع ، وهو عشرون ديناراً .

(١) العروض : كل ماسوى التقدين . (٢) جحطت عينه : عظمت مفتحتها .

فوثب الأعرابي ، فأخذ القماش^(١) ، فضرب به وجوه القوم لا يألُو في
في الرَّمْيِ .

ثم نهض كالمجنون ، حتى أخذ برأسِ بعيره ؛ وضحك أبان حتى سقط ،
وضحك من كان معه ، فكان الأعرابي بعد ذلك إذا لقي أشعبَ يقول له :
هلمْ إلىّ حتى أُكَافئك على تقويمك المتعاع ، يوم قومت ، فيهرب منه
أشعب .

(١) القماش : جمع قش ، وهو الردى . من كل شيء .

١٠١ - بوزع *

قال حماد : كان جعفر بن أبي جعفر المنصور ^(١) المعروف بابن الكردية يستخف مطيع بن إلياس ^(٢) ويحبّه ، وكان منقطعاً إليه ، وله معه منزلة حسنة ، فذكر له حماد الراوية ، وكان صديقه ، وكان مطرّحاً مجنّواً في أبيهم ، فقال له : اثبتنا به لتراه .

فأتى مطيع حماداً فأخبره بذلك ، وأمره بالمسير معه إليه ، فقال له حماد : دعني فإن دولتي كانت مع بني أمية ، ومالي عند هؤلاء خير . فأتى مطيع إلّا الذهاب إليه ، فاستمار حماد سواداً وسيقاً ثم أتاه ، فضى به مطيع إلى جعفر ، فلما دخل سلم عليه سلاماً حسناً ، وأثنى عليه ، وذكر فضله ، فردّ عليه ، وأمره بالجلوس فجلس .

فقال جعفر : أنشدني ؛ فقال : لِمَن أيها الأمير ؟ الشاعر بعينه أم لمن حضر ؟ قال : بل أنشدني لجريز .

قال حماد : فسلخ والله شعر جريز كلّه من قلبي إلا قوله :
 بان الخليلط برامتين ^(٣) فودّعوا أو كما اعترموا لبين نجزع

* الأغاني : ٦ : ٨١

- (١) انظر صفحة ٥٥ (٢) مطيع بن إلياس : شاعر من عظمى الدولتين الأموية والعباسية ، كان طريقاً لمبلغ النادرة ماجناً ، مولده ومنشؤه بالكوفة ، انقطع في الدولة العباسية إلى جعفر بن المنصور فكان معه إلى أن مات وكان صديقاً لحامد ، وتوفى سنة ١٦٦ هـ .
 (٣) رامتين ثنية رامة ، ورامة : موضع في طريق البصرة إلى مكة ، وكثير من أسماء المواضع تثنى في الشعر لضروره .

فاندفعت فأنشدته إياها ، حتى انتهت إلى قوله :

وتقول بَوَزَعُ : قد دبت على العصا هَلَا هَزْنَتِ بـمـيرنا يَا بَوَزَعُ

فقال لي جعفر : أعد هذا البيت ، فأعدته ، فقال : بَوَزَعُ أي شيء هو ؟

قلت : اسم امرأة ؛ فقال : امرأة اسمها بوزع اهو يرى من الله ورسوله ونبي^(١)

من الصباس بن عبد المطلب إن كانت بَوَزَعُ إلا غولاً من الفيلان ، تركتني والله

يا هذا لا أنام الليلة من قزع بَوَزَعُ ، يا غلمان ، قفاه ! فَصُفِّتُ^(٢) والله حتى لم أدر

أين أنا ؛ ثم قال : جُروا برجله ؛ فجروا برجلي حتى أُخْرِجْتُ من بين يديه

مستحوباً ، فتخترق السواد وانكسر جفنُ السيف ، ولقيت شراً عظيماً مما جرى علي ؛

وكان أغلظ من ذلك كله وأشدّ بلاءً ثمن السواد وجفنُ السيف .

فلما انصرفت أتاني مطيع بن إبّاس يتوجّع لي ، فقلت له : ألم أخبرك أنني

لأصيبُ منهم خيراً وأن حَطَّيْتُ قد مضى مع بني أمية !

(١) نبي : منجى وبعده . (٢) القفا : ما وراء العنق ، وهو مؤنث وقد يذكر .

١٠٢ — المنصور يطلب من يسّليه بالشعر*

لما مات جعفر بن أبي جعفر المنصور مشى أبوه في جنازته من المدينة إلى مقابر
قريش ، ومضى الناس أجمعون معه حتى دَفَنه ، ثم انصرف إلى قصره ، وأقبل على
الربيع فقال : يا ربيع ؛ انظر مَنْ في أهل ينشدني :
* أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَيْبِهَا تَوَجَّعٌ ^(١) *

حتى أنسلى بها عن مصيبتى .

قال الربيع : فرجْتُ لى بنى هاشم وهم بأجمعهم حضور ، فسألتهم عنها ؛
فلم يكنْ فيهم أحدٌ يحفظها ؛ فرجعت فأخبرته . فقال : والله لَمُصِيبَتِي بأهل بيتي
ألا يكون فيهم أحدٌ يحفظُ هذا ؛ لِقَلَّةِ رَغْبَتِهِمْ فى الأدبِ أعظمُ وأشدُّ على من
مصيبتى بآبئى !

ثم قال : انظرْ هل فى القوَادِ والعوامِ من الجندِ مَنْ يعرفها ؟ فأبى أحبُّ أن
أسممها من إنسان يُنْشِدُها ؛ فرجعت فاعترضت الناس ؛ فلم أجد أحداً ينشدها إلا
شيخاً كبيراً مؤدِّباً قد انصرف من موضع تأديبه ؛ فسألته : هل تحفظ شيئاً من
الشعر ؟ فقال : نعم ! شعر أبى ذؤيب ^(٢) ، فقلت : أنشدنى ، فابتدأ القصيدة العينية

* عصر المأمون : ١ : ١٧٥

(١) بقية البيت : * والدهر ليس بمحب من يجزع *

وهى نحو سبعين بيتاً أورد ابن رشيْقُ أبياتاً منها فى السمة ، ورواها صاحب جهرة العرب فى
المراني صفحة ٢٦٤ ، وهى لأبى ذؤيب الهذلى . فى ديوان الهذليين ج ١ س ٢١-٢٠ طبع دار الكتب
(٢) هو خالد بن خويلد ، شاعر مجيد محضرم قدم المدينة عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ،
فأسلم وحسن إسلامه ، وتوفى فى غزوة إفریقیة مع ابن الزبير .

فقلت له : أنت بُنَيِّق ، ثم أوصلته إلى النصور ، فاستنشدته إياها ، فأشدد :

أَمِنْ النُّونِ^(١) وَرَبِّهَا تَتَوَجَّعُ والدهرُ ليس بمُعْتَبِرٍ مِنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمَيَّةُ : مَا لِحَسَمِكَ شَاحِبًا منذ ابْتَدَلْتَ^(٢) ، وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ
أَمْ مَا لِحَسَمِكَ لَا يَلَامُ^(٣) مَضْجَعًا إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَلِكَ الْمَضْجَعُ
فَاجْتَبَاهَا : أَمَّا لِحَسَمِي إِنَّهُ أَوْدَى^(٤) بَنِيَّ مِنَ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا
أَوْدَى بَنِيَّ فَأَعْقَبُونِي^(٥) حَسْرَةً بعد الرِّقَادِ وَعِبْرَةً مَا تُقْلَعُ^(٦)
سَبَقُوا هَوَىَّ وَأَعْقَفُوا^(٧) لَهْوَاهُمْ فَتَخَرَّمُوا^(٨) وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ
فَقَبَّرْتُ بِعَدَمِ بَعِيشٍ نَاصِبٍ وَإِخَالِ أُنَى لَاحِقٍ مُسْتَتَبِعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بَأَنْ أَدَافَعَ عَنْهُمْ وَإِذَا لِلنِّيَةِ أَقْبَلْتُ لَا تُدْفَعُ
وَإِذَا لِلنِّيَةِ أَشْبَبْتُ^(٩) أَظْلَارَهَا أَلَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ
حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهَا ، فَأَجَازَهُ بِمِائَةِ دَرَاهِمٍ .

(١) للنون : اللثة ، وهى مؤنثة . (٢) ابتذلت : أى ابتذلت نفسك وأهنتها حسرة وأسى .

(٣) لا يلام : لا يوافق . (٤) أودى بنى : هلكوا . (٥) أعقبوني : خلفوا لى .

(٦) ما تطلع : ما تنقطع . (٧) أعفوا : أسرعوا . (٨) تخرموا : ماتوا .

(٩) أشبت : أعلقت ، والنتيجة : التضيقة .

١٠٣ - صر إلى متى شئت *

كان أزهري^(١) السَّمانَ صديقاً لأبي جعفر المنصور في أيام بني أمية ، وكانا قد سافرا جميعاً ، وسما الحديث ، وكان المنصور يألفه ويأنسُ إليه . فلما أفضت الخلافة إليه شَخَّصَ^(٢) إليه من البصرة : فسأله المنصور عن روجته وبناته - وكان يعرفهنَّ بأسمائهنَّ - وأظهر رِثَّةً وإكرامه ، ووصله بأربعة آلاف درهم ، وأمره ألاَّ يَقْدَمَ إليه مُسْتَعِيجاً^(٣) .

فَمَا كَانَ بَعْدَ حَوْلٍ صَارَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : أَلَمْ آمُرْكَ أَلَّا تُصِرَّ إِلَى مُسْتَعِيجٍ ! فَقَالَ لَهُ : مَا صِرْتُ إِلَيْكَ إِلَّا مُسَلِّماً وَمَجْدُوداً بِكَ عَهْداً . قَالَ : مَا أَرَى الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرْتِ وَأَمْرُ لَه بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، كَأَمْرِهِ أَلَّا بِصِيرَ إِلَيْهِ مُسَلِّماً وَلَا مُسْتَعِيجاً .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ صَارَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : إِنِّي لَمْ أَقْدَمَ عَلَيْكَ لِلْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَبْتَنَى عِهُمَا ، وَإِنَّمَا بَلَّغْنِي أَنَّ عِلَّةَ عَرَضَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَتَيْتُهُ عَائِداً ، فَقَالَ : مَا أَظْنُكَ أَتَيْتَ إِلَّا مُسْتَوْصِلاً ، وَأَمْرُ لَه بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلِ أُلْحِقَ عَلَيْهِ بَنَاتُهُ وَزَوْجُهُ ، وَقُلْنَ لَهُ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ صَدِيقُكَ ، فَارْجِعْ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : وَيَحْتَكُنْ . مَاذَا أَقُولُ لَهُ ، وَقَدْ قُلْتُ لَهُ : أَتَيْتُكَ مُسْتَعِيجاً وَمُسَلِّماً وَعَائِداً ، مَاذَا أَقُولُ فِي هَذِهِ لِلْمَرَّةِ ؟ وَبِمَ أَحْتَجُّ ؟ فَأُبَيِّنَ عَلَى الشَّيْخِ إِلَّا الْإِلْحَاقَ .

* المَعْرُودَى : ٢ - ٢٣٧ . وَتِمْرَاتُ الْأَوْزَانِ : ١ - ١٢٦

(١) هو أزهري بن سعد الباهلي ، عالم بالحديث من أهل البصرة كان يردد على المنصور العباسي ، وله منه أخبار ، توفي سنة ٢٠٣ هـ . (٢) شَخَّصَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ : ذَهَبَ . (٣) الْإِسْتِجَاعُ : طَلَبُ الْعَطَاءِ .

فخرج فأتى المنصور ، وقال : لم آتكَ مُشْتَرِفاً^(١) ولا زائراً ولا عائداً ، وإنما
جئتُ لسماعِ حديثِ سَمْعَاءَ جميعاً في بلد كذا من فلان عن النبي صلى الله عليه
وسلم ، فيه اسمٌ من أسماء الله تعالى ، مَنْ سأل الله به لم يردّه . ولم يَحْبِبْ دَعْوَتَهُ .
فقال له المنصور : لا تُرِدْهُ فَإِنِّي قد جَرَّبْتُه فوجدته غيرَ مُستعجاب . وذلك أَنِي
منذ جئتُني أسأل الله به ألا يردَّكَ إِلَيَّ ، وأنتَ ذا ترجع ، لانفكَّ تقول مُسلماً
أو عائداً أو زائراً . ووصله بأربعة آلاف درهم ، وقال له : قد أَعَيْتُنِي فِيكَ الحيلة ،
فصِرْ إِلَيَّ متى شئت !

(١) للشيء قد : طالب لطلبه .

١٠٤ - أَتَذَكِّرُ إِذْ لَحَافُكَ جِلْدَ شَاةٍ*

بداكر جماعةً فيما بينهم آثار مَعْنٍ ^(١) وأحبر كرمه ، معجّبين بما هو عليه من
الثَّوَدَةِ وَوَفَرَةٍ ^(٢) الحلم ، ولين الجانب ، وعالوا في ذلك كثيراً ؛ فقام أعرابي ، وأخذ
على نفسه أن يُفَضِّيه . فأنسكروا عليه ، ووعدوه مائة بعير ، إن هو فَعَلَ ذلك .
فَعَمِدَ ^(٣) الأعرابي إلى بعيرٍ فسَلَخَهُ ، وارْتَدَى بِإِعَابِهِ ^(٤) ، واحتَذَى ^(٥) ببعضه
جاعلاً باطنه ظاهراً ، ودخل عليه بصورته تلك ، وأنشأ يقول :

أَتَذَكِّرُ إِذْ لَحَافُكَ جِلْدَ شَاةٍ وَإِذْ تَمَلَّكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ !

قال مَعْنٍ : أَذْكُرُهُ وَلَا أَنْسَاهُ ! قال الأعرابي :

فَسَبَّحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكًا وَعَلَّمَكَ الْجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ !

قال مَعْنٍ : إِنْ لَاقَى بَعْزٌ مِنْ يَشَاءُ وَيَدُلُّ مِنْ يَشَاءُ ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

فَلَسْتُ مُسْلِمًا إِنْ عِشْتُ دَهْرًا عَلَى مَعْنٍ بِتَسْمِيرِ الْأَمِيرِ

قال مَعْنٍ : السَّلامُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ فِي تَرْكِهِ ضَيْرٌ ^(٦) ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

سَأُرْجِلُ عَنْ بِلَادٍ أَنْتَ فِيهَا وَلَوْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَى الْفَتِيرِ

قال مَعْنٍ : إِنْ جَاوَزْتَنِي فَرَحَبًا بِالْإِقَامَةِ ، وَإِنْ جَاوَزْتَنِي فَصَحْبًا بِالسَّالِمَةِ ،

قَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

* بحر الآداب : ٣ - ٢٦٣

(١) من أشهر أجياد العرب ، أدرك المصريون : الأموي ونجب بني ، ولاد المنصور لإمارة
سجستان ، فأقام بها ، ثم قُتِلَ بِهَا غِيلَةً سَنَةَ ١٥١ هـ . (٢) كثرة . (٣) عمد إلى الشيء .
قصد إليه . (٤) الإهاب : الجلد ما لم يذبح . (٥) احتذى : اتَّعَلَّ . (٦) الضير : الضرر .

فَجَدُّ لِي يَابْنَ^(١) نَاقِصَةَ جِمالٍ فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى السَّيْرِ
 فقال ممن : أعطوه ألف دينار ، تخفّفُ عنه مشاقَّ الأسفار ، فأخذها وقال :
 قِيلَ مَا أَتَيْتَ بِهِ وَإِنِّي لِأَطْمَعُ مِنْكَ فِي الْمَالِ الْكَثِيرِ
 فَتَنّ قَدْ أَتَاكَ لِلْمَلِكِ عَنَّا بَلَا عَقْلٍ وَلَا رَأْيٍ مُنْسِيِرِ
 فقال ممن : أعطوه ألفاً ثانياً ، كي يكونَ عَنَّا راضياً . فتقدم الأعرابي إليه ،
 وقبل الأرض بين يديه وقال :

سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُبَيِّتَكَ دَهْرًا فإِنَّكَ فِي الْبَرِيَّةِ مِنْ نَظِيرِ
 مِنْكَ الْجُودُ وَالْإِفْصَالُ حَقًّا وَفَيْضُ بَدْيِكَ كَالْبَحْرِ الْغَزِيرِ

فقال ممن : أعطيناه على هجرنا ألفين ، فليعط أرساة على مدحنا .
 فقال الأعرابي : بأى أيها الأمير ونفسى ١ فأنت نسيحٌ وحدك في الحلم ، ونادرة
 دَهْرِكَ في الجود (وإِنَّكَ لَمَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . ولقد كنتُ في صفاتك بين مصدّقٍ
 ومُكَذِّبٍ ، فلما بَلَغْتُكَ صَفَرُ الْخَبَرِ^(٢) الْخَبَرِ ، وأَذْهَبَ ضَمَفُ الشكِّ قُوَّةَ الْيَقِينِ ،
 وما بمثنى على ما فعلتُ إلا مائةُ بَئيرٍ جُعِلَتْ لِي عَلَى إِغْضَابِكَ .

فقال له الأمير : لا تُتَرَبِّبْ^(٣) عَلَيْكَ ١ ووصله بمائتي بَئيرٍ : نصفُها للرَّهْمانِ
 والنصف الآخر له ؛ فانصرف الأعرابي دَاعِيًا لَهُ ، شاكرًا لِحُبَاتِهِ ، مُعْجَبًا بِأَنَاتِهِ .

(١) يَابْنَ ناقصة بدلًا من قوله : ابن زائدة . (٢) الْخَبَرُ : الْخَبَرُ .

(٣) لا تُتَرَبِّبْ : لا لوم عليك .

١٠٥ — لقد كان ذلك الرجل شؤماً*

خرج ممن بن زائدة في جماعة من حواصه للصيد ، فاعترضهم قطيع^(١) خيلاء ، ففترقوا في طلبه ، وانفرد ممن خلف ظلي حتى انقطع عن أصحابه ، فله ظفر به نزل فذبحه ؛ فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار ؛ فركب فرسه ، واستقبله ؛ فلم عليه ؛ فقال : من أين ؟ وإلى أين ؟ قال : أتيت من أرض لها عشرون سنة مجدية ، وقد أخضبت في هذه السنة ؛ فزرعتها مقشاة^(٢) فأخرجت القثاء في غدير أوان ؛ فجئت منها ما استحسنته ، وقصدت به ممن بن زائدة لكرمها للشكور ، وفضله المشهور ، ومعروفه للثانور ، وإحسانه للوفور .

قال : وكم أملت منه ؟ قال : ألف دينار ، قال : فإن قال لك : كثير ! قال : خمسمائة : قال : فإن قال لك : كثير ! قال : ثلثمائة ! قال : فإن قال لك : كثير ! قال : مائة . فما زال به حتى قال : لا أقل من الثلاثين ! قال : فإن قال لك : كثير قال : أدخل قوائم حمارى في عينه ، وأرجع إلى أهل خائباً .

ففضحك ممن ، وساق جواده حتى لحق بأصحابه ، ونزل في منزله ، وقال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار يقشاه فأدخل به على .

فأتى الرجل بعد ساعة ، فلما دخل عليه لم يعرفه لهيقته وجلاله ، وكثرة حشمه وخدمه ، وهو متصدّر في دسسته^(٣) ، والخدم قيام عن يمينه وشماله وبين يديه .

* المتطرف : ٢ - ٢٣٧

(١) العظيم من الخيلاء : اللطافة . (٢) القثاء : موضع رراعة القثاء . (٣) الدست : صدر البيت .

فلما سلم عليه قال : ما الذى أتى بك يا أخا العرب ؟ قال : أملتُ فضلَ الأمير ،
وأنتيته بقتله في غير أوان . فقال : كم أملتَ فينا ؟ قال : ألف دينار . قال : كثير !
فقال في نفسه : والله لقد كان ذلك الرجل شؤماً على . ثم قال : خمسمائة دينار . قال :
كثير ، ثم ما زال به إلى أن قال : خمسين ديناراً ، فقال له : كثير . فقال : لا أقل
من الثلاثين ؛ فضحك ممن .

فلم الأعرابي أنه صاحبه ؛ فقال : ياسيدى ؛ إن لم تُجِبْ إلى الثلاثين فالجار
مربوط بالباب ؛ وما هو ذا ممن جالس . فضحك ممن حتى استلقى على فراشه ،
ثم دعا بوكيله ، فقال : أعطه ألفاً ، وخمسمائة ، وثلاثمائة ، ومائة ، وخمسين ، وثلاثين ،
ودع الجار مكانه .

١٠٦ - حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ *

شَرِبَ أَبُو دُلَامَةَ^(١) فِي الْحَانَاتِ^(٢) ؛ فَشَى وَهُوَ يَمِيلُ ، فَلَقِيَهُ الْقَسَسُ
فَأَخَذُوهُ قَتِيلَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ وَمَا دُنُوكُ ؛ فَقَالَ :

دِينِي عَلَى دِينِ بَنِي الْمُبَاسِ مَاخِمْ الطَّيْنَ عَلَى الْقِرْطَاسِ
إِذَا اصْطَلَبْتُ أَرْبَعًا بِالْكَاسِ فَقَدْ أَدَارَ شُرْبَهَا بِرَاسِي

* فَعُلَ بِمَا قُلْتُ لَكُمْ مِنْ بَاسٍ *

فَأَخَذُوهُ وَخَرَقُوا ثِيَابَهُ وَسَاجَهُ^(٣) ، وَأَتَى بِهِ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ فَأَمَرَ بِحُبْسِهِ مَعَ
الدَّجَاجِ فِي بَيْتٍ ؛ فَلَمَّا أَفَاقَ جَمَلَ يَنَادِي غَلَامَهُ مَرَّةً ، وَجَارِيَتَهُ أُخْرَى ، فَلَا يَحْيِيهِ
أَحَدٌ ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْمَعُ صَوْتَ الدَّجَاجِ ، وَزُقَاءً^(٤) الدُّبُوكِ .

فَلَمَّا أَكْثَرَ قَالَ لَهُ السَّجَّانُ : مَا شَأْنُكَ ؟ قَالَ : وَبِكَ ! مَنْ أَنْتَ ؟ وَأَيْنَ أَنَا ؟
قَالَ : أَنْتَ فِي الْحَبْسِ ، وَأَنَا السَّجَّانُ . قَالَ : وَمَنْ حَبَسَنِي ؟ قَالَ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ :
وَمَنْ خَرَقَ طَيِّلسَانِي ؟ قَالَ : الْحَرَسُ .

فَطَلَبَ أَنْ يَأْتِيَهُ بِدَوَاةٍ وَقِرْطَاسٍ ، فَعَمِلَ ، فَكَتَبَ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ لِلنَّصُورِ
بِقَوْلِ :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَدُنْتُكَ نَفْسِي عَلَامَ حَبَسْتَنِي وَخَرَقْتَ سَاجِي أ

* نِهَاجَةُ الْأَوْب : ٤ - ٤٢ ، الْأَغَانِي : ١١٠ - ٢٥١ ، (طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ) .

(١) هُوَ زَنْدِ بْنِ الْجَوْنِ شَاعِرٌ مَطْبُوعٌ مِنْ أَهْلِ الْفَرَفِ وَالِدَعَابَةِ ، أَسْوَدُ اللَّوْنِ ، نَشَأَ فِي الْكُوفَةِ
وَاتَّصَلَ بِالْخُلَفَاءِ مِنْ بَنِي الْمُبَاسِ ، فَكَانُوا يَسْتَطْفِقُونَهُ ، وَيُنَادُونَهُ عَلَيْهِ بِمَلَاتِهِمْ ، وَأَخْبَارُهُ كَثِيرَةٌ .
تَوَلَّى سَنَةَ ١٦٦ هـ . (٢) الْحَانَاتُ : الْوَضَاعُ الَّتِي تَبَاعُ فِيهَا الْحُزُورُ . (٣) السَّاجُ : الطَّيْلَسَانُ
الْأَخْضَرُ أَوِ الْأَسْوَدُ . (٤) زُقَاءُ الدُّبُوكِ : صِيَاحُهُ .

أمن صهباء^(١) صافية الزجاج كأن شعلتها لهب السراج
وقد طيخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف^(٢) النضاج
تمش لها القلوب وتشمها إذا برزت ترفق في الزجاج
أفاد إلى السجون بغير جرم كأي بعض عمال الخراج
فلو مهم حيت لكان سهلا ولكني حيت مع الدجاج
وقد كانت تحبني ذنوبي بأى من عقابك غير ناج
على أئى - وإن لاقيت شرًا - تخبرك بعد ذاك الشر راج

فلست دعاه المنصور ، وقال : أين حيت يا أبا دلامة ؟ قل : مع الدجاج !
قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أفوق^(٣) إلى الصباح . فضحك وخذل سبيله ،
وأمر له بجائزة .

فلما خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ! أما سمعت قوله :
« وقد طيخت بنار الله » - يعنى الشمس - فأمر برده ، ثم قال : يا خبيث ؛ شربت الخمر ؟
قال : لا ، قال : أفل تقل : طيخت بنار الله - تعنى الشمس ؟ قال : لا ، والله
ما عنيت إلا نار الله للوقدة التى تطلع على فؤاد الربيع ا فضحك المنصور ؛ وقال :
خذها ياربيع ، ولا تعاود التعرض له .

(١) الصهباء : الخمر . (٢) النطف : جم الطفلة ، وهى الخمر . (٣) أفوق : أصبح .

١٠٧ — ماضره لو أن ذنوب العالمين على ظهري ؟*

قال أيوب المورياني لأبي جعفر - وكان يَشْنَأُ^(١) أبا دُلَامَةَ : إن أبا دُلَامَةَ معتكف على الحجر ، فما يحضر صلاة ولا مسجداً ؛ وقد أَفْسَدَ فِتْيَانُ العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لأَجَرْتِ^(٢) فيه وفي غيره مِنْ فِتْيَانِ عسكرِكَ يَقْطَعُهُ عَنْهُمْ . فلما دخل عليه أبو دُلَامَةَ قال له : ما هذا الجون الذي يبغى عنك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أنا والجون ، وقد شارفتُ بابَ قبري ! قال : دَعْنِي مِنْ اسْتِكَانَتِكَ وَتَضَرُّعِكَ ، وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر في مسجدى ؛ فأتين فأتاك لأَحْسِنَ أَدَبِكَ وَلَا أُطِيلَنَّ حَبْلَكَ .

فوقع في شرِّه ، وزم المسجد أبا ما ، ثم كتب قصته ودفعها إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه ، وكان فيها :

ألم تعلموا أن الخليفة لَزَنِي ^(٣)	بمسجده والقصر ، مالى وللة مصر !
أصلى به الأولى جميعاً وعصرها	فوبى من الأولى وَوَبَى من العصر !
أصليهما بالكروه في غير مسجدى	فما لى فى الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قوى مساجد جمة	ولم ينشرح يوماً لنشيانها ^(٤) صدرى
بكلفى من بعد ما شئتُ خطه ^(٥)	يحط بها عنى الثقل من الوزر
وما ضره - والله يفتر ذنبه -	لو أن ذنوب العالمين على ظهري !

* مهذب الأغاني : ٩ : ٣٣ ، الأغاني : ١٠ - ٢٤٦ ، ديل زهر الآداب : ٩١

(١) يفضه ويكرهه . (٢) نالكَ الأجر والثواب . (٣) اللز : لزوم الشيء بالشئ . وإلزامه به . (٤) القهاب إليها . (٥) الخطه : الأمر .

فقال : قد أعفيناك من هذه الحال على أن نصلي في مسجد قبيلتك ، ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أغل^(١) ؛ فقال : أفضل . قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك ، والله لئن فعلت لأعذبنك^(٢) . فقال أبو دلامة : البلية في شهر أخف منها في طول الدهر ، سمعاً وطاعة ! فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد ، وكان المهدي يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يحمي به ، فشق ذلك عليه ، وفزع إلى الخيزران ، وإلى أبي عبيد الله^(٣) ، وإلى كل من يلوذ بالمهدي ليشفعوا له في الإعفاء من القيام ، فلم يجيبهم . فقال له أبو عبيد الله : الدال على الخير كفاعله ، فكيف شكرتك ؟ قال : أتم شكر ، قال : عليك بريلة^(٤) فإنه لا يخالفها . قال : صدقت ، ثم رفع إليها رقة بقول فيها :

أبليتَ ريلةً أنى كنتَ عبداً لأبيها
فغنى يرحمهُ الله وأوصى بنى إليها
وأراها نسيتهى مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشى مشيةً ما أشتها
قائداً لى ليلة التذو ركأتى أبتغيها
ولقد عشتُ زماناً فى فيأى وجيها
فى ليالى من شتاء كنت شيخاً أصطليها
قاعدا أوقد ناراً لضباب^(٥) أشتويها

(١) أغل : قرب وأشرف (٢) حده : أقام عليه الحد (٣) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله كان من رجال آل المنصور ثم المهدي . (٤) ريلة : هى ابنة الخليفة أبي الباس ، وزوج المهدي . (٥) الضب : دوبة من الحشرات ، تحرس العرب على صيده وأسلحه ، وجهه ضباب .

وَصَبَّوحٍ وَغُبُوقٍ فِي عِلَابٍ ^(١) أَحْقَسِيهَا
مَا أَبَالِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَلَا نُسَمِعُهَا
فَاطْلُبِي لِي فَرْجًا مِنْهَا وَأَجْرِي لَكَ فِيهَا

فلما قرأت الرقعة ضحكت ، وأرسلت إليه : بهطلبر حتى تمضي ليلة القدر .
فكتب إليها : إني لم أسألك أن تكلميه في إعناني علماً قابلاً ، وإذا مضت ليلة
القدر فقد بقي الشهر وكتب تحتها أبياتاً :

خَافِي إِلَهَكَ فِي نَفْسٍ قَدْ اجْتَضِرَتْ قَامَتْ قِيَامَتُهَا بَيْنَ الصَّلَينَا
مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ مِنْ هَمٍّ فَأَطْلُبِي إِنْ خَافَ النَّيَا قَبْلَ عَشْرِينَا
بَالِيَةَ الْقَدْرِ قَدْ كَثُرَتْ أَرْجُلُنَا يَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ حَقًّا مَا تَمْنِينَا
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي خَيْرٍ أَوْ مُلَهُ فِي لَيْلَةٍ بَعْدَ مَا قَامَا ثَلَاثِينَا
فلما قرأت الرقعة ضحكت ، ودخلت على المهديّ ؛ فشفت له إليه ، وأنشدته
الآبيات ، فضحكت حتى استلقي ، ودعابه وريطة معه في الحجلة ^(٢) ، فدخل فأخرج
رأسه إليه وقال : قد شفت رية فيك ، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم .

فقال : أما شفاعة سيدي فيّ حتى أعفيتني فأعفاها الله من النار ، وأما السبعة
الآلاف فلما أن تمتها بثلاثة آلاف فتصير عشرة ، أو تنقصني منها ألفين فتصير
خمس آلاف ؛ فإني لأحسن حساب السبعة . فقال : قد جعلتها خمسة ، فقال :
أعيزك بالله أن تختار أدنى الحالين ، وأنت أنت اثم تكلمت فيه رية فأنعمها
له عشرة آلاف درهم .

(١) جمع علة : وهي قدح نضم من جلد الإبل أو من خشب يحلب فيه . (٢) الحجلة : بيت
يزين بالتياب والأسرة والستور .

١٠٨— لو أن لي مهبجة أخرى لجُدتُ بها*

قال أبو دلامة : أتى بي إلى النصور وأنا سكران ؛ خُف ليخْرِجَنِي في
بَعْثِ حرب ، فأخرجني مع رَوْح بن حاتم^(١) الهَلَبِي لقتال الشُّرَاة^(٢) . فلما التقى
الجمان ، قلت لـ رَوْح : أما والله لو أنَّ تحتي فرسك ، ومعى سلاحك لأثَّرت في عدوك
اليوم أترأ ترثويه .

فضحك وقال : والله لأدفنَّ ذلك إليك ، ولأخذنك بالوفاء بشرطك ؛ ونزل
عن فرسه ، ونزل سلاحه . ودفعهما إلى ودعا بغيرها .

فلما حصل ذلك في يدي ، وزالت عني حلاوة الطمع ، قلت له : أيها الأمير ،
هذا مقام المائذ بك ، وقد قلتُ بيتين فاسمهما . قل : هات ، فأنشدته :

إني استعجرتك أن أقدم في الوغى لتطاعن وتنازل وضرب
فهب السيوف رأيتها مشهورة فتركها ومضيت في الهُرابِ
ماذا تقول لما يحى وما يرى من واردات الموت في النُّشابِ^(٣) !
قال : دَع عَنْكَ هذا .

وبرز رجل من الخوارج بدعو لل مبارزة . فقال : اخرج إليهِ يا أبا دلامة!
قلت : أنشدك الله أيها الأمير في دعي ! قال والله لتخرجن . قلت : أيها الأمير ،

(١) هو روح بن حاتم بن قبيصة بن الهباب بن أبي صفرة ، ولي أفریقیة والبصرة وغيرها ، وكان
جليلاً شجاعاً . (٢) الشُّرَاة : هم الخوارج ، وقد لزمهم هذا اللقب ، لأنهم زعموا أنهم شروا
دنياهم بالآخرة ، أي باعوها . (٣) النُّشاب : السهم .

فإنه أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جانع ماشيت منى جارحة من الجوع ، فمَرَّ لى بشىء آكله ثم أخرج .

فأمر لى برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف . فلما رأى الشَّارِى^(١) أقبل محوى وعليه فَرَوْ قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فأقنع^(٢) ، وعينه تَقْدَان ، فأسرع إلى . فقلت له : على رِسْلِكَ^(٣) يا هذا كما أنت ! فوقف .

قلت : أقتل من لا يفتلك ؟ قال : لا . قلت : أقتل رجلاً على دينك ؟ قال : لا . قلت : أقتل ذلك قبل أن تدعو من تقائله إلى دينك ؟ قال : لا ، قال : فاذهب عني إلى لمة الله اقلت : لأفعل أو تسمع منى . قال : قل . قلت : هل كانت بيننا قط عدواة أو تررة^(٤) ؟ أو تعرفني بحال تحفظك على^(٥) ؟ أو تعلم بين أهلى وأهلك ونزراً ؟ قال : لا ، والله . قلت : ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأى ، وإن نهوراك ، وأنتحل مذهبك ، وأدين دينك ، وأريد السوء لمن أرادك لك . قل : يا هذا ! جزاك الله خيراً فأنصرفت .

قلت : إن معى زاداً أحب أن آكله معك . وأحب مواكلتك لتتأكَّد المودة بيننا ، ويرى أهلُ المسكر هوانهم علينا : قل : فافعل . فتقدمت إليهم حتى اختلَّت أعناق دوابنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكاً ! فلما استوفينا ودَّعنى . ثم قلت له : إن هذا الجاهل - إن أقت على طلب المباررة - تدبى إليك فتتعبى وتتعب . فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل . قال : قد فعلت . ثم انصرف وانصرفت .

(١) الخارجى . (٢) أقنع : تقيس . (٣) رسل : تحمل . (٤) تر : تار . (٥) تحفظك : تضيحك .

قلت لروح : أما أنا فقد كفيتك قرني ، قل لغيري أن يكفيك قرنه كما
كفيتك . فأمسك ! وخرج آخر يدعو إلى المِبارزة فقال لي : اخرج إليه . قلت :
إني أعوذ بروح أن يقدمني إلى البراز^(١) فَخَزَيَّ بِي بنو أسدٍ
إن البراز إلى الأتزان أعلمه
قد حَالَ قَتْلُكَ الدنيا إذ صمدت لها
إن المهلب حب الموت أوردتكم
لو أن لي مهجة أخرى جلدت بها
فضعك وأعاقى .

١٠٩ — يهجو نفسه*

دخل أبو دُلَامَة على المهديّ وعنده عيسى بن موسى ، والعبّاس بن محمد ،
وجماعةٌ من بني هاشم ، فقال المهديّ : يا أبا دُلَامَة . قال : لبيك يا أمير المؤمنين !
قال : بنّ لم تهيجُ واحداً من في هذا المجلس لأقطعنّ لسانك . فنظر إلى القوم ،
فشكلما نظر إلى واحدٍ منهم غمره بأنّ عليه رضاه . فعلم أنه قد وقع . وقال : أنا أخذُ
منّ بالجلس ثم أنشد :

ألا أبلغُ إليكَ أبا دُلَامَة فليس من السّكرام ولا كرامه
إذا لبسَ العمامةَ كان قِرْداً وخيبراً إذا نزعَ العمامةَ
جمعتَ دَمَامَةً وجمعتَ لَوْماً كذاك اللّومُ تبعه الدمامةُ
فإنّ لكُ قد أصبتَ نعيمَ دُنْيَا فلا تفرّحْ فقد دَنَتْ القيامةُ

فضحك المهديّ وسرّ القومُ إذ لم ينسُ إلى أحدٍ منهم ، ثم قال له المهديّ :
نعم . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر لي بكلبٍ صَيِّد . فسبّه وقال : ما تصنعُ به ؟
فقلل : الحاجةُ لي أم لك ؟ فقال : صدقت : أعطوه كلباً . فأعطيه . فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ لا بد لهذا الكلب من كَلَّاب^(١) . فأمر له بفلام يملوك ؛ فقال :
يا أمير المؤمنين ، أو يهَيِّئ لي أن أصيدَ راجلاً ؟ فقال : أعطوه دابة . فقال : ومن
يسوس الدابة ؟ فقال : أعطوه غلاماً سائساً . فقال : ومن يتحرّر الصيد ويصلحه ؟

* ذيل زهر الآداب : ٨٩ ، ٩٠ مذهب الأغانى : ٩ - ٢٠ ، "شعر" : ١ - ٨٦ ، المحاسن

والمساوي : ٢٨٧ ، طبع ليزج ، الأغانى : ١٠ - ٢٥٨

(١) الكلاب : من يرمى الكلاب .

فقال : أعطوه طَبَّاخًا . فقال : ومن يَأْوِيهم ؟ فقال : أعطوه دارًا .
فبَكَى أَبُو دَلَامَةَ وقال : ومن يَمُونُ هؤلاءَ كُلَّهم ؟ فقال : يُكْتَبُ لَهُ بِمِائَةِ
جَرِيبٍ ^(١) عامرة ، ومائتي جريب عامرة . فقال : وما الفَامِرَةُ ؟ قال : التي لَا نَبَاتَ
فيها . قال : فأنَا أُعْطِيكَ مائتي أَلْفَ جريب من فيافي بَنِي أُسْدٍ . فضحك وقال :
ما تريد ؟ قال : بيتَ لَمَالٍ . قل : كَلَى أَنْ أُخْرِجَ لِلْمَالِ مِنْهُ . قال : بصيرُ حِينْثُ
غامراً ، فاستفرغَ ضَحِكًا ^(٢) وقال : اذهب فقد جمعتها لك كلها عامرة . فقال :
يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، انْذَنْ لِي أَنْ أَقْبَلَ بِدُكِّكَ . قل : أَمَا هَذِهِ فَدَعَهَا . فقال : والله
ما تَمْنَعُ عِيَالِي شَيْئًا أَهْوَنَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ! فَنَاولَهُ بَدَهُ فَقَبَّلَهَا .

(١) الجريب : الزروعة . (٢) استفرغ ضحكاً : بالغ في الضحك .

١١٠ — كلُّ امرئٍ يأكلُ زادَهُ*

خرج المهدي وعلي بن سليمان إلى الصيد، فسَنَعَ لهما^(١) قطعاً من ظباء، فأُرْسِلَتْ
الكلابُ، وأُجْرِيت الخيلُ، فرمى المهدي سَهْمًا، فصرع ظبيًا، ورمى علي بن
سليمان فأصاب كلبًا فقتله؛ فقال في ذلك أبو دلامة:

قد رمى المهدي ظبيًا شكَّ بالسهم فُوادةً
وعلي بن سليمان رَمَى كلبًا فصَادَهُ
فهنئنا لهما كلُّ امرئٍ يأكلُ زادَهُ

فضحك المهدي حتى كاد يستط عن سَرَجِهِ، وقال: صدق والله أبو دلامة،
وأمر له بمجازة، ولُقِّب علي بن سليمان بصائد الكلب، فَمَلَّقَ اللقبَ به.

* معاهد التتبع: ١ - ٢١٤، الأغاني: ١٠ - ٢٥٨

(١) عرض لها.

١١١ - حماد والفضل*

قال بعض الرواة :

كُنَّا فِي دَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَدِيِّ عِيسَى بَازٍ^(١) ، وَقَدْ اجْتَمَعَ فِيهَا عِدَّةٌ مِنَ الرُّوَاةِ وَالْعُلَمَاءِ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَآدَابِهَا وَأَشْأَارِهَا وَلُفَاتِهَا ، إِذْ خَرَجَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْجَبِّ ، فَدَعَا بِالْفَضْلِ الصَّبِيِّ الرَّائِيَةِ فَدْخَلَ ، فَسَكَّتْ مَلِيًّا ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا وَمَعَهُ حَمَادُ وَالْفَضْلُ^(٢) جَمِيعًا ، وَقَدْ بَانَ فِي وَجْهِ حَمَادٍ الْإِنْكَسَارُ وَالْغَمُ ، وَفِي رُجَّةِ الْفَضْلِ السَّرُورُ وَالنَّشَاطُ .

ثُمَّ خَرَجَ حُسَيْنُ الْخَادِمِ بَعْدَهُمَا ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ؛ إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُعَلِّمُكُمْ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ حَمَادًا الشَّاعِرَ بِمِثْرِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، لِمَجُودَةٍ شِعْرِهِ ، وَأَبْطَلَ رِوَايَتَهُ لَزِيادَتِهِ فِي أَشْعَارِ النَّاسِ مَا لَيْسَ مِنْهَا ، وَوَصَلَ الْفَضْلَ بِخَمْسِينَ أَلْفًا لَصِدْقِهِ وَصِحَّةِ رِوَايَتِهِ ؛ فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمَعَ شِعْرًا جَيِّدًا مُخَدَّنًا فَلْيَسْمَعْ مِنْ حَمَادٍ وَمَنْ أَرَادَ رِوَايَةً صَحِيحَةً فَلْيَأْخُذْهَا عَنِ الْفَضْلِ .

فَسَالْنَا عَنْ السَّبَبِ فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الْمُهَدِيَّ قَالَ لِلْفَضْلِ لِمَا دَعَا بِهِ وَخَدَّهَ : إِنِّي رَأَيْتُ زُهَيْرَ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ افْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ بِأَنْ قَالَ :

* دَعَا ذَا وَعَدَّ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ *^(٣)

* الْأَفْأَقِي : ٦ - ٩٠

(١) عيسى باز : محلة كانت شرق بغداد ، بنى بها المهدي قصره الذي سماه قصر اللام .

(٢) هو الفضل بن محمد بن يحيى الضبي ؛ رابطة عالم بالأدب من أهل الكوفة ، نزم للمهدي .

وصنف له كتاب الفضليات ، توفي سنة ١٦٨ هـ . (٣) هرم بن سنان : مدح زهير .

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فإلّا الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له الفضل : ما سمعتُ
بأمر المؤمنين في هذا شيئاً إلا أني تَوَهَّمْتُه كان يسكر في قولٍ يقوله ، أو يروى
في أن يقول شيئاً ، فمدك عنه إلى مدح هَرَم وقال : « دَعْ ذَا . . . » أو كان
مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : « دَعْ ذَا . . . » أي دَعْ ما أنت فيه من الفسك
وعُدَّ القول في هَرَم . فأَمَسَكَ عنه .

ثم دعا حماداً فسأله عن مثل ما سأل عنه الفضل فقال : ليس هكذا قال زهير
يا أمير المؤمنين ؛ قال : فكيف قال ؟ فأنشده :

لَمَنِ الدَّيَّارُ بَقُتَّةٍ ^(١) الْحِجْرُ أَفْوَيْنَ ^(٢) مَذْجَجٍ وَمَذْ دَهْرٍ
قَفْرًا يَمْنَدُ فَمِ النَّحَائِتِ مِنْ ^(٣) ضَفْوَى ^(٤) أَوَّلَاتِ الضَّالِّ وَالسَّدْرِ ^(٥)
دَعَا وَوَعَدَ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ خَيْرِ الْكُهُولِ وَسَيِّدِ الْخَضِرِ
فَأَطْرَقَ الْمَهْدَى شَاعَةً ، ثم أقبلَ على حمادٍ فقال له : قد بلغَ أمير المؤمنين عنك
خَبْرًا لَا بُدَّ مِنْ اسْتِحْلَافِكَ عَلَيْهِ ، ثم استخلفه بِأَيِّمَانِ الْبَيْعَةِ وَكُلِّ يَمِينٍ مُخْرَجَةٍ
لِيَصْدُقَنَّهُ عَنْ كُلِّ مَا يَسْأَلُهُ عَنْهُ ، فحلف له بما تَوَقَّعَ مِنْهُ .
ثم قال له : اصدقني عن حال هذه الأبيات وَمَنْ أَضَافَهَا إِلَى زَهِيرٍ ؛ فَقَرَأَ لَهُ
حِينَئِذٍ أَنَّهُ قَائِلُهَا ، فَأَمَرَ فِيهِ وَفِي الْفَضْلِ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ شُهْرَةٍ أَمْرَهَا وَكَشْفَتِهِ .

(١) القنّة : أعلى الجبل ، والحجر : موضع بالجماعة . (٢) أفوين : آبار . (٣) النحائت : آبار في
موضع معين . (٤) ضفوى : مكان دون المدينة . (٥) أولات الضال والسر : نوعان من الشجر
(اللسان مادة تحت) .

١١٢ - في خباء الأعرابي *

خرج للمهدي يُتَصَيَّدُ؛ فغَارَ^(١) به فرسه، حتى وقع في خِباءٍ أعرابيٍّ، فقال :
يا أعرابيُّ ! هل من قِرمي ؟ فأخرج قُرْصَ شعير فأكله ؛ ثم أخرج له فَضْلَهُ من
لبن فسقاه ، ثم أناه بنبِيذ في رَكْوَةٍ^(٢) فنسقه .

فلما شرب قال : أتدري من أنا ؟ قال : لا ، قال : أنا من خَدَم أمير المؤمنين
الخاصة . قال : بارك الله لك في موضعك ! ثم سقاه مرةً أخرى فشرب ، فقال :
يا أعرابيُّ ! أتدري مَنْ أنا ؟ قل : زعمتَ أنك من خَدَم أمير المؤمنين الخاصة .
قال : لا ؛ أنا من قُوَّادِ أمير المؤمنين .

قال : رَحِبْتَ بلادك ، وطابَ مُرادك ! ثم سقاه الثالثة ، فلما فرغ قال :
يا أعرابيُّ ! أتدري مَنْ أنا ؟ قال : زعمتَ أنك من قُوَّادِ أمير المؤمنين . قال : لا ؛
ولكنني أمير المؤمنين ! فأخذ الأعرابيُّ الرِّكْوَةَ فأوكأها^(٣) . وقال : إليك عني !
فوالله لو شربت الرابعة لادَّعَيْتَ أنك رسولُ الله .

فضحك المهدي حتى غَشِيَ عليه . ثم أحاطت به الخليل ، ونزلت به الأمراء
والأشراف ؛ فطار قلبُ الأعرابيِّ ؛ فقال له : لا بأسَ عليك ، ولا خوف ، ثم أمر له
بِكُسوةٍ ، ومالٍ جزيل .

* المتطرف : ٢ - ٢٣٣

(١) غار : أتى التور ، وهو الملمس من الأرض . (٢) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب
فيه الماء . (٣) أوكأ على ما في سقائه : شدّه بالوكاء . والوكاء : ما يشد به رأس القربة ، والمراد
ربطها وكف عن سقيه منها .

١١٣ — دَعَا بِفِرَاقٍ مِّنْ تَهْوَى أَبَانَ*

قال أَبَانُ بن عبد الحميد : نزل في ظاهر البَصْرَةِ قومٌ من أعراب قَيْسِ عَيْلانَ ،
وكان فيهم بَيَّانٌ وفَصَّاحَةٌ ، فكان نِشَارُ يَأْتِيهِمْ ، وَيُنشِدُهُمْ أشعارَهُ التي يمدح بها
فِيساً ؛ فَيُجِجُونَهُ لذلكَ ، وَيُظَمُّونَهُ ، وكان نساؤُهُنَّ يَجْلِسْنَ معه ، وَيَتحدَّثْنَ إليه
وَيُنشِدُهُنَّ أشعارَهُ في الغزل . وكنتُ كَثِيراً ما آتَى في ذلك الموضع فَأَسْمَعُ
منه ومنهم .

فَأَتَيْتُهُمْ يوماً فَإِذَا هم قد ارتحلوا ، فَجِئْتُ إلى بَشَّارٍ ؛ فقلت : يا أبا معاذ ؛ أعلتَ
أن القومَ قد ارتحلوا ؟ قال : لا . قلت : فاعلمْ ، قال : قد علئتُ لا علئتُ !
ومضت

فلما كان بعد ذلك بأيام سمعتُ الناسَ يَنشِدُونَ :

دَعَا بِفِرَاقٍ مِّنْ تَهْوَى أَبَانَ ففاض الدمعُ واحترق الجَنَانُ
كَأَنَّ شَرَارَةً وَقَعَتْ بِقَلْبِي لها في مقلتي ودَّيْ اسْتِنَانٌ^(١)
إِذَا أُنشِدْتُ أَوْ نَسَمْتُ عَلَيْهَا رياح الصيفِ هاجَ لها دخانُ

فعلتُ أنها لبشار ؛ فَأَتَيْتُهُ ، فقلت : يا أبا معاذ ؛ ما ذنبِي إليك ا قال : ذنبُ
غُرَابِ البَيْنِ . فقلت : هل ذكرتنِي بغير هذا ؟ قال : لا . قلت : أُنشِدُكَ اللهَ
أَلَا تَزِيدُ ، فقال : امضْ لئلا نلُكَ قَدَّ تَرَكَتُكَ .

* عصر اللأُمُون : ٢ — ٢٧٢

(١) استن الرجل : مضى على وجهه ، واستن السراب : اضطرب .

١١٤ - رواية أبي نواس والمتّابي *

كان كلثوم المتّابي^(١) يَصْعُ من قَدْرِ أبي نواس ، فقال له راوية أبي نواس
يوماً : كيف تضع من قَدْرِ أبي نواس وهو الذي يقول :

إذا نحن أثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَأَنْتَنِي وَفَوْقَ الَّذِي نُنْذِي
وإن جَرَتِ الألفاظُ مِنَّا بِمَدْحَةٍ لِنُصِرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْمِي
قال المتّابي : هذا سَرَقَهُ ! قال : مِمَّنْ ؟ قال : من أبي دهبيل الجمحي
حيث يقول :

وإذا يقال لبعضهم : نِمْمَ الْفَتَى فَأَنْتَ لِلنَّسِيرةِ ذَلِكَ الذَّمُّ
عَمَّ النَّسَاءَ فَلَا يَجُوزُ بِمِثْلِهِ إِنْ النَّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُمُّ
قال : لقد أحسن في قوله :

فتمشّت في مفاصِلهم كتمشّي البرء في السّم

قال : سرّقه أيضاً ، قال له : ممّن ؟ قال : من سوسة الفقمسي حيث يقول :
إذا ما سَقِمْ حُلَّ عَنْهَا وَكَأَنَّهَا تَصَعَّدَ فِيهِ بِرَبِّهَا وَتَصَوَّبَا
وإن خالطت منه الحشَى خِلْتَ أَنَّهُ عَلَى سَالِفِ الأَيَّامِ لَمْ يُبْقِ مُوَهَّبَا
قال : فقد أحسن في قوله :

* المصنوع : ٢ - ٢٧٤

(١) هو الحسن بن ماني ، رحل إلى بغداد ، واصل فيها بالخلفاء من بني العباس ، وهو أول
من نهج الشعر طريقته الحضريّة ، وأخرجه من الأبهة البدوية ، توفي سنة ١٩٢ هـ .

وما خُلِقَتْ إِلَّا لِبَدَلٍ أَوْ كَفُّهُمْ وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مِنْ بَرٍّ
قال : قد سَرَقَهُ أَيْضًا ، قال : مِمَّنْ ؟ قال : من مروان بن أبي حفصة
حيث يقول :

وما خُلِقَتْ إِلَّا لِبَدَلٍ أَوْ كَفُّهُمْ وَالسُّهُمُ إِلَّا لِتَحْجِيرِ مَنْطِقٍ
قال : فسكت الراوية ، ولو أتى بِشَعْرِهِ كُلِّهِ لَقَالَ : سَرَقَهُ !

١١٥ — ألا موت يباع*

كان للمهاجى قبل اتصاله بالسلطان حالٌ ضعيفة ، فبينما هو فى بَعْضِ أَسْفَارِهِ مع رفيق له من أصحاب الحُرث^(١) ، وأهل الأدب إذ أنشده :

أَلَا مَوْتُ مُبَاعٌ فَأَشْتَرِيهِ فهذا العيشُ مالا حِرْفِيهِ
أَلَا رَحِمَ الْمُتَمَيِّنُ نَفْسَ حُرٍّ تصدقْ بالوفاةِ على أَخِيهِ

فرنى له رفيقه ، وأحضر له بدرهم وما أَمْسَكَ رَمَقَهُ ، وحفظ البيتين وتفرقا .
ثم ترقى المهاجى إلى الوزارة ، وأخفى الدهر على ذلك الرجل ؛ فتوصل إلى إيصال رقعة مكتوب فيها :

ألا قل للوزير - فدتهُ نفسى - مقالاً ذا كِرَأٍ ما قد نسيهِ
أَتَذْكُرُ إذ تقولُ لَصْنُكَ عَيْشٍ : ألا موتٌ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ !

فلما قرأها تذكر ما كان ؛ وأمر له بسبعائة درهم ؛ ووقع تحت رفقته : (مَثَلُ
الَّذِينَ يَبْذِفُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) . ثم قلدهُ عملاً يرتزقُ منه .

* المخطوط : ٢ - ٦٠

(١) الحُرث : الزرع .

١١٦ — قد وجدناك ممتعاً*

قال الأصمعي^(١) : تصرّفتُ في الأسبابِ على باب الرشيد مؤملاً الظفر به ،
والوصولَ إليه ؛ حتّى ، إنى صرْتُ لبعضِ حرسِهِ خديناً^(٢) . فإني في ليلةٍ قد نثرتُ السمادة
، التوفيقُ فيها الأرقى بين أجفان الرشيد ، إذ خرج خادمٌ فقال : أما بالحضرة أحد
نحسن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ! ربّ قيّد مُصنِّقٍ قد حلّه التيسير ! فقال لي
الخادم : ادخل ، فلعلها تكون ليلةٌ يُغرسُ في صباحها النّبيّ إن فُزْتُ بالخطوة
عند أمير المؤمنين .

فدخلتُ فواجهتُ الرشيدُ في مجلسه ، والفضلُ بن يحيى إلى جانبه ؛ فوقف بي
الخادم حيث يسمعُ التسليم ، فسَلّتُ فردّةً على السلام ، ثم قال : يا غلام ؛ أريحهُ
ليُفرِّخَ رُوعه^(٣) ، إن كان وجد للروعة حِجاً !

فدنوتُ قليلاً ثم قلت : يا أمير المؤمنين ؛ إضاءةُ مجدك وبهاءُ كرمك مُجبران
لنَ نظرٍ إليك من اعتراضِ أذيةٍ ، فقال : اذنُ . فدنوتُ ، فقال : أشاعرُ أم
راوية ؟ فقلت : راويةٌ ليكلُّ ذى جدٍ وهزلٍ ؛ بعد أن يكون محسناً ، فقال :
نالله ما رأيتُ أذكاه أعظم من هذا ! فقلت : أنا على اللّيدان ؛ فأطلق من عنائي
يا أمير المؤمنين !

* خزائن الأدب : ٤ - ٣٤٦ ، أمالي المرتضى : ٣ - ٩٦

(١) الأصمعي : عبد الملك بن قريب راوية العرب ، كان كثير الطواف في البرادى بقبس علومها

ويتلقى أخبارها ويتعجب بها الخلفاء ، توفي سنة ٢١٩ هـ .

(٢) خيلاً وصديقاً . (٣) ينهب خوفه .

فقال : أنصفَ القارة^(١) من رَمَها . ثم قال : ما المعنى في هذه الكلمة بديئاً ؟ قلت : القارة هي الحرة من الأرض ؛ وزعمت الرواة أن القارة كانت رُمأةً للتبابعة ، والملك إذ ذاك أبو حسان ، فواقف^(٢) عسكره عسكر السُفد^(٣) ، فخرج فارس من السُفد ، قد وضع سهمه في كبده قوسه فقال : أين رُمأة العرب ؟ فقالت العرب ؛ قد أنصف القارة من رَمَها . فقال لى الرشيد : أُصِبت .

ثم قال : أتروى لرؤبة بن العجاج والمعجاج شيئاً ؟ قلت : ها شاهدان لك بالتوافق وإن غيباً بالأشخاص ، فأخرج من ثني فرشه رقعة ثم قال : أنشدنى :

* أرقى طارقُهم طرقات *

فصيتُ فيها مضى الجواد في سنن ميدانه تهديرُها أشداق ، فلما صرتُ إلى مديحه لبنى أمية ، ثنيت لسانى إلى امتداحه لأبى العباس في قوله :

* قلت لزيد لم تَصِلْ مريمه *

فلما رآنى قد عدلتُ من أرجوزة إلى غيرها قال : أعن حيرة أم عن عمد ؟ قلت : عن عمد ، تركت كذبه إلى صِدْقه فيا وصف به جدك من مجده ! فقال

(١) في اللسان : زعموا أن رجلين التقيا ، أحدهما هاري (والقارة قبيلة) ، والآخر أسدى ، فقال : إن شئت صارعتك ، وإن شئت ساقبتك ، وإن شئت راءيتك ، فقال الهاري : قد أنصفتني وأنتد :

قد أنصف القارة من رماها إذا ما فُتة نلقاهـ

* نردأ ولاها على أنراها *

(٢) للواقعة : أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة . (٣) السُفد : بساتين نزهة ، وأماكن مثمرة بمرقد .

الفضل : أحسنت ، بارك الله فيك ! مثلك يؤهل لمثل هذا المجلس ، فلما أُنيتُ على آخرها قال لي الرشيد : أتروى كلمة عدى بن الرقاع :

* عَرَفَ الدَّيَّارَ تَوَهُّمًا فَاعْتَادَهَا *

قلت : نعم . قال : هات ! فضيت فيها حتى إذا صرت إلى وصف الجمل قال لي الفضل : ناشدتك الله ألا تقطعَ علينا ما أمتنعنا به من السهر في ليلتنا هذه بصفة جمل أجرب . فقال له الرشيد : اسكت فالإبل هي التي أخرجتك من دارك ، واستكّبت تاج ملكك ، ثم ماتت وعُلمت جلودها سياعلاً فُربتَ بها أنت وقومك !

قال الفضل : لقد عوقبتُ على غير ذنب ، والحمد لله ! فقال الرشيد : أخطأت ، الحمد لله على الصم ، ولو قلت : أستغفر الله كنت مُصيباً . ثم قال لي : امض في أمرك ، فأنشدته ، حتى بلغتُ إلى قوله :

* تَرْجِي أَغْنَى كَانَ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ^(١) *

استوى جالساً ثم قال : أتحفظ في هذا ذكر؟ قلت : نعم ذكرت الرواة أن الفرزدق قال : كنتُ في المجلس ، وجري إلى جانبي ، فلما ابتدأ عدى في قصيدته قلت لجري مُسرّاً إليه : هَلَمْ نسخر من هذا الشاعِر ، فلما ذقنا كلامه بئسنا منه ، فلما قال :

* تَرْجِي أَغْنَى كَانَ إِبْرَةَ رَوْقِهِ *

(١) الروق : القرن ، والأغْنَى من الغزلان : الذي في صوته غنة .

- وعدى كالستريح - قال جرير : أما نراه يستلب بها مثلاً ؟ فقال الفرزدق :
يالكُم ، إنه يقول :

* قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا *

قال عَدِيّ : قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا .

فقال جرير : أَكَانَ سَمُوكَ مَحْبُوءاً فِي قَلْبِهِ ؛ فقال له : اسكت ، شغلني سُبُوكَ
عن جيد الكلام ، فلما بلغت إلى قوله :

ولقد أراد الله إِذْ وَلَّا كَهَا مِنْ أُمَّةٍ إِصْلَاحَهَا وَرِشَادَهَا

قال الرشيد : ما نراه حين أنشد هذا البيت ؟ قلت : قال : كذلك أراد الله .
فقال الرشيد : ما كان في جلالة ليقول هذا ، أحسبه قال : ما شاء الله ا قلت : وكذا
جاءت رواية ؛ فلما أتيت على آخرها قال : أتروى لذي الرئمة شيئاً ؟ قلت : الأكمة ،
قال : فما أراد بقوله :

مُمرُّ أُمِّرْت فَفَلَهُ أُسْدِيَّةٌ ذِرَاعِيَّةٌ حَلَالَةٌ بِالمَصَانِعِ

قلت : وصف حمار وحشٍ أَسْمَنَهُ بقل روضةٍ نَوَاشَجَتْ أَصُولُهُ ، ونشأ بكت
فروعه ، من مطر سحابة كانت بنوء الأسد ثم في الذراع من ذلك ، فقال الرشيد :
أُرْحُ ، فقد وجدناك مُتَمِّعاً ، وعرفناك مُحَسِّناً .

ثم قال : أَجِدُ مَلَّالَةً - ونهس - فأخذ الخادم يصلح عقب النمل في رحله -
وكانت عربية - فقال الرشيد : عَقَرْتَنِي يَا غِلَامُ ! فقال الفضل : قاتل الله الأعاجم !
أما إنهما لو كانت سِنْدِيَّةً لما احتجَّتْ إلى هذه الكلفة ، فقال الرشيد : هذه نمل
ونمل آباءى ، كم تمارِضُ فلا تُفَرِّقْ من جواب ممض .

ثم قال : يا غلام ، يُؤمر صالح الخادم بتعجيل ثلاثين ألف درهم على هذا الرجل ، في ليلته هذه ، ولا يحجب في الاستأنف ، فقال الفضل : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه غيره ، لأمرت لك بمثل ما أمر لك ، وقد أمرتُ لك به إلا ألف درهم ، فخلق الخادم صباحاً .

قال الأصمعي : فاصليتُ من غدٍ إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألف درهم .

١١٧ - تَعَوَّذْتُ حَسَنَ الصَّبْرِ حَتَّى أَفِئْتُ*

قال أبو العتاهية : حبسني الرشيد لتركى الشعر ، وغُلقتْ عَلَى الأبواب ،
فَبَقِيتُ دَهْشًا كَمَا يَدَّهْشُ مِثْلِي لَتِلْكَ الْحَالِ ؛ فنظرت فإذا رجلٌ جالسٌ فى جانب
السجن وهو مقيد ، فجعلتُ أنظرُ إليه ساعة ، فتمثل بقوله :

تَعَوَّذْتُ حَسَنَ الصَّبْرِ حَتَّى أَفِئْتُ فَأَسْلَفَنِى حَسَنُ الْعِزَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَصَبْرَتْنِى بِأَسَى مِنَ النَّاسِ رَاجِيًا لِحَسَنِ صَنِيعِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أُدْرِى

فقلت له : أَعِذْ - أَعِزَّكَ اللَّهُ - هَٰذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، فقال لى : وبلك يا أبا العتاهية !
ما أسوأ أدبك ! وأقلَّ عَقْلَكَ ! دخلت على السجن فما سلَّمتَ تسليمَ الْمُسْلِمِ عَلَى
المسلم ، ولا سألتَ مسألةَ الحرِّ للحرِّ ، ولا توجَّعتَ توجعَ المبتلى للمبتلى ، حتى إذا
سمعتَ بيتين من الشعر الذى لا فضيلةَ فيكَ سِوَاهُ لم تهبر عن استعادتِهما ولم تُقدِّم
قبل مسألةَك عنهما عذرًا لنفسك فى طلبهما !

فقلت : يا أحمى : إني دَهَشْتُ من هذه الحال فلا تَعَذِّلْنِى واعذُرْنِى متفضلاً ،
فقال : أنا والله بالدهشِ والخبرةِ أولى منك ؛ لأنك حُبِسْتَ عَلَى أن تقول الشعر
الذى به ارتفعتَ وبلغتَ ما باغتَ ، وإذا قلته أَمِنْتَ ، وأنا حُبِسْتُ عَلَى أن أدلَّ
على ابن رسول الله لِيُقْتَلَ أو أَقْتَلَ دُونَهُ ، ووالله لا أدلُّ عليه أبداً ، والساعة يدعى
بى فَأُقْتَلَ ، فأينا أحقُّ بالدهشِ ؟

قلت : أنت والله أولى ، سلمك الله وكفاك ! ولو علمتُ أن هذه حالك
ماسألتك ، قال : إذن لا أبخل عليك ، ثم أعاد على البيتين حتى حفظتهما ،
وأجزتهما بقولي :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما نسكرتُ منه طال عتبي على الدهر
ثم سألتُه عن اسمه ، فقال : أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد .
ولم نلبث إلا قليلاً حتى سمعنا صوت الأقفال ، فقام ، فسكب عليه ماء من جرّة
كانت عنده ، ولبس ثوباً نظيفاً ، ودخل الحرس ومعه الشموع ، فأخرجونا جميعاً ،
وقدّم قبلي إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا نسألي عنه ، وافعل
ما بدالك ، فلو أنه تحت ثوبي ما كشفتُ عنه ؛ فأمر به فضربتُ عنقه . ثم قال
لي : أظنك يا أبا إسماعيل ارتكبت ، قلت : دون مارأيتك تسيلُ منه النفوس ! قال :
ردّوه إلى محبسه ، فردّوني .

١١٨ — مَلَّ كِتَابُهُ إِخْصَاءَ مَا يَهَبُ

خرج الفضل^(١) بن يحيى للصيد والقنص، وبينا هو في موكبه إذ رأى أعرابيا على ناقه قد أقبل من صدر البرية، يركض في سيره، فقال: هذا يقصدني فلا يكلمه أحدٌ غيري.

فلما دنا الأعرابي، ورأى المضارب تضرّب، والخيام تُنصب، والعسكر الكثير والجم الغفير، وسمع الفوغاء والضجة، ظن أنه أمير المؤمنين؛ فنزل وعقل راحلته؛ وتقدّم إليه، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال: احضن عليك ما تقول. فقال: السلام عليك أيها الأمير، قال: الآن قاربّت؛ اجلس، لجلس الأعرابي.

فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ قال: من قَصَاعَة، قال: من أدناها أو من أقصاها؟ قال: من أقصاها. فقال: يا أخا العرب؛ مثلك من بقصد من ثمانية فرسخ لأى شيء؟ قال: قصدت هؤلاء الأمجاد الأنجاد، الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد، قال: من هم؟ قال: البرامكة!

قال الفضل: يا أخا العرب؛ إن البرامكة خلّق كثير، وفيهم جليل وخطير، ولا بكل منهم خاصة وعامة؛ فهل أفردت لنفسك منهم من اخترت وأنتقته

* المختار من نوادر الأخبار .. مخطوط.

(١) وزير الرشيد، كان من أجود الناس، وله في هذا أخبار كثيرة، سجن في نكبة البرامكة، وتوفى في سجنه بالرقعة سنة ١٩٣ هـ.

لحاجتك ؟ قال : أجل ، أطولهم باعاً ، وأسمحهم كفاً . قال : من هو ؟ قال : الفضل .
ابن يحيى .

قال له الفضل : يا أخا العرب ؛ إن الفضلَ جليلُ القدرِ عظيمُ الخبرِ ، إذا جاس
للناس مجلساً عاماً لم يحضرَ مجلسه إلا العلماءُ والفقهاءُ ، والأدباءُ والشعراءُ ، والكتّابُ
والمناظرونُ للعلم . أعالم أنت ؟ قال : لا . قال : أفأديب أنت ؟ قال : لا . قال : أفأعارف
أنت بأيام العرب وأشعارها ؟ قال : لا . قال : ورَدْتَ على الفضل بكتاب وسيلة ؟
قال : لا . فقال : يا أخا العرب غَرَّكَ نفسك ؛ مثلك يقصدُ الفضل بن يحيى ، وهو
ما عرفتكَ عنه من الجلالة ! بأي ذريعة أو وسيلة تقدّم عليه !

قال : والله يا أمير ؛ ما قصدتهُ إلا لإحسانه المعروف ، وكرمه الموصوف ، ويتبين
من الشعر قلتهما فيه . قال الفضل : يا أخا العرب ؛ أنشدني البيتين ، فإن كانا يصلحان
أن تلقاه بهما أشرتُ عليك ببقائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتُكَ
بشيء من مالى ، ورجعتُ إلى باديتك ، وإن كنت لم تستحقْ بشمرك شيئاً . قال :
أفتفعلُ أيها الأمير ؟ قال : نعم . قال : فإني أقول :

ألم ترَ أنَّ الجلودَ من عهدِ آدمَ تحدرُ حتى صارَ يمتصُّه الفضلُ
ولو أن أماً مسها جوعُ طفليها غَدَتُهُ بِاسْمِ الفضلِ لا غَدَاً للطفلِ
قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك : هذان البيتان قد مدحنا بهما
شاعر ، وأخذ الجائزة عليهما فأنشدني غيرهما فما تقول ؟ قال : أقول :

فد كان آدمُ حينَ وفاته أو صاك وهو يجرُ بالحوباء^(١)
يبنيهِ أن ترعىهم فرعيهم وكفيت آدمَ عولة الأبناء

(١) الحوباء : النفس .

قال : أحسنت يا أبا العرب ؛ فإن قال لك الفضلُ - مُمتحنا : هذان البيتان
أخذتهما من أفواه الناس ، فأنشدني غيرهما ، فما تقولُ وقد رمتك الأدباء بالأبصار ،
وامتدَّت الأعناقُ إليك ، وأنت تحتاج أن تناضلَ عن نفسك ؛ قال : إذن أقول :
مَلَّتْ جَهَابُ^(١) فَضْلٍ وَزَنَ نَائِلِهِ وَمَلَّ كُتَّابُهُ إِحْصَاءَ مَا يَهَبُ
وَاللَّهِ لَوْلَاكَ لَمْ يُمْدَحْ بِمَكْرُمَةٍ خَلَقَ وَلَمْ يَرْتَفِعْ بِجَدِّ وَلَا حَسْبُ
قال : أحسنت يا أبا العرب ! فإن قال لك الفضلُ : هذان البيتان مسروقان ،
أنشدني غيرهما ، فما تقول ؟ قال : إذن أقول :

ولو قيل للمعروف نادِ أبا العلاء لنادى بأعلى الصوت يا فضل يا فضل
ولو أنفقت جدواك من رملٍ عالمٍ^(٢) لأصبح من جدواك قد نفذ الرملُ
قال : أحسنت يا أبا العرب ؛ فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان
أيضاً : أنشدني غيرهما فما تقول ؟ قال : أقول :

وما الناس إلا أثنان صَبٌّ وبَذِلٌ وإني لَذَلِكَ الصَّبُّ ، والباذِلُ الفضلُ
على أن لي مثلاً إذا ذَكَرَ الْوَرَى وليس لِفَضْلٍ في مِصَاحَتِهِ مِثْلُ
قال : أحسنت يا أبا العرب ! فإن قال لك الفضلُ : أنشدني غيرهما ، فما تقول
قال : أقول أيها الأمير :

حكى الفضلُ عن يحيى مِصَاحَةَ خَالِدٍ فقامت به التَّقْوَى وقام به العدلُ
وقام به للمعروفُ شَرَفًا وَمَعْرِبًا ولم يك للمعروف بَعْدُ ولا قَبْلُ
قال : أحسنت ؛ فإن قال لك : قد ضَجَرْنَا من الفاضل والمفضول ، أنشدني
بيتين على السكْنِيَّةِ لا على الاسم ، فما تقول ؟ قال : إذن أقول :

(١) جهابذة : جمع جهبذ ، وهو القائد الجدير . (٢) موضع به رمل .

أَلَا يَا أَبَا الْعَبَّاسِ يَا وَاحِدَ الْوَرَى وَيَا مُلِكَ خَدِّ الْمُلُوكِ لَهُ تَمَلُّ
إِلَيْكَ تَسِيرُ النَّاسُ شَرْقًا وَمَغْرِبًا فَرَادَى وَأَزْوَاجًا كَانَهُمْ تَمَلُّ
قال : أَحَسَنْتَ يَا أَخَا الْعَرَبِ ؛ فَإِنْ قَالَ لَكَ الْفَضْلُ : أَنْشَدْنَا غَيْرَ الْأَسْمِ وَالْكُفْنِيَّةِ .
قال : وَاللَّهِ لَنْ زَادَنِي لِلْفَضْلِ ، وَامْتَحَنَنِي بَعْدَ هَذَا لِأَقُولَنَّ أَرْبَعَةَ آيَاتٍ مَا سَبَقَنِي
إِلَيْهَا عَرَبِيٌّ وَلَا بَحْيِي ، وَلَنْ زَادَنِي بَعْدَهَا لِأَجْمَعَ قَوَائِمَ نَاقِي هَذِهِ وَأَجْمَلَهَا فِي فَمِهِ ،
وَلَأَرْجِعَنَّ إِلَى قَضَاعَةِ خَاسِرًا وَلَا أَبَالِي .

فَنَكَسَ الْفَضْلُ رَأْسَهُ ، وَقَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ : يَا أَخَا الْعَرَبِ ؛ أَنْصِفْنِي الْآيَاتِ
الرَّابِعَةِ ، قَالَ : أَقُولُ :

وَلَا تَمُتْ لِمَتِّكَ يَا فَضْلُ فِي النَّدَى فَقُلْتُ لَهَا : هَلْ يَقْدَحُ الْيَوْمُ فِي الْبَحْرِ ؟
أَتَسْهِنَ فَضْلًا عَنْ عَطَايَاهُ لِلْوَرَى فَمِنْ ذَا الَّذِي يَنْهَى السَّحَابَ عَنِ الْقَطْرِ
كَأَنَّ نَوَالَ الْفَضْلِ فِي كُلِّ بَلَدٍ تَحْدُرُ مَاءُ الْمَزْنِ فِي مَهْمَةٍ يَقْفَرُ
كَأَنَّ وَفُودَ النَّاسِ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ إِلَى الْفَضْلِ لَاقَوْا عِنْدَهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ
فَأَمْسَكَ الْفَضْلُ نِمْ سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ ضَاحِكًا ، نِمْ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :
يَا أَخَا الْعَرَبِ ؛ أَنَا وَاللَّهِ الْفَضْلُ بْنُ بَحْيٍ ، سَلْ مَا شِئْتَ ؛ فَقَالَ : سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ أَيْهَا
الْأَمِيرُ إِنَّكَ أَمْرٌ أَوْ قَالَ لَهُ : نِمْ . قَالَ لَهُ : فَأَقْلَبْنِي ، قَالَ : أَقَالُكَ اللَّهُ ، أَذْكَرُ حَاجَتَكَ .
قال : عَشْرَةَ آلَافِ دَرْهَمٍ . قال الْفَضْلُ : ازْدَرَيْتَ بَنًا وَبَنَفْسَكَ يَا أَخَا الْعَرَبِ ،
تُعْطِي عَشْرَةَ آلَافٍ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَأَمْرٌ بِدَفْعِ الْمَالِ .

فَلَمَّا صَارَ الْمَالُ إِلَيْهِ ، حَسَدَهُ بَعْضُ أَتْبَاعِ الْفَضْلِ ، وَقَالَ : يَا مَوْلَايَ ؛ هَذَا إِسْرَافٌ
يَأْتِيكَ جِلْفٌ مِنْ أَجْلَافِ الْعَرَبِ بِآيَاتٍ اسْتَرْقَاهَا مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ ، فَتَجْزِيهِ بِهَذَا
الْمَالِ ! قَالَ : اسْتَحَقَّ بِحُضُورِهِ إِلَيْنَا مِنْ أَرْضِ قَضَاعَةِ .

قال : أقسمت عليك إلا أخذتَ سهمًا من كِنَانَتِكَ ، وركبتَهُ في كَيْدِ قَوْسِكَ
وأومأت به إلى الأعرابي ، فإن ردَّ عن نفسه بيتَ من الشعر ، وإلا كان له في
بعضِ المال كفاية .

فأخذ الفضلُ سهمًا ، وركبه في كَيْدِ قَوْسِهِ ، وأومأ به إلى الأعرابي وقال له :
ردَّ سهمي بيتَ من الشعر ، فأنشأ يقول :

لَقَوْسُكَ قَوْسُ الْجُودِ وَالْوَتَرُ النَّدَى وَسَهْمُكَ سَهْمُ الْمَرْءِ فَارِمٍ بِهِ فَقَرِي
فَضِيحُكَ الْفَضْلُ ، وَأَنْشَأ يَقُولُ :

إِذَا مَلَكَتْ كَفِّي مَنْأَلًا وَلَمْ أُزَلْ فَلَا أَنْبَسْتَ كَفِّي وَلَا نَهَضَتْ رِجْلِي
عَلَى اللَّهِ إِخْلَافُ الَّذِي قَدْ بَذَلْتَهُ فَلَا يُبْقِي لِي بُخْلِي وَلَا مُثْلِي بَذْلِي
أُرَوِّى بِجَيْلٍ نَالٍ مَجْدًا يُبْخِلُهُ وَهَاتُوا بَكْرِيَّامَاتٍ مِنْ كَثْرَةِ الْبَذْلِ
ثم قال الفضل لتأبيه : أعطِ الأعرابي مائة ألف درهم لقصدِهِ وشعرِهِ ، ومائة
ألف ليكفينا شرَّ قَوَائِمِ نَاقَتِهِ .

فأخذ الأعرابي المال وانصرف وهو يبكي ، فقال له الفضل : ممَّ بكاؤُكَ
يا أعرابي ، أَسْتَقْلَلَا لِلْمَالِ الَّذِي أُعْطَيْنَاكَ ! قال : لا ، ولكني أبْشِكُ عَلَى مِثْلِكَ
يَأْكُلُهُ التُّرَابُ وَتَوَارِيهِ الْأَرْضِ ، وَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

لِعَمْرُكَ مَا الرِّزْيَةُ قُدُّ مَالٍ وَلَا فَرْسٌ يَمُوتُ وَلَا يَمِيرُ
وَلَكِنَّ الرِّزْيَةَ قُدُّ حُرٍّ يَمُوتُ لِمَوْتِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ

ثم انصرف الأعرابي .

١١٩ — اسمي مشتق من اسمك *

قال عبد الله بن منصور : كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحيى فأناه الحاجب ، فقال : إنَّ بالباب رجلاً قد أُكْثِرَ في طَلَبِ الإِذْنِ ، وزعم أنَّ له يداً يَمُتُ بهما ، فقال : أَدْخِلْهُ .

فدخل رجل جميل رث الثياب ، فسَلَّمَ وأَحْسَنَ ؛ فأومأ الفضل إليه بالجلوس فجلس ، فلما علم أنه قد انطلق وأَمْسَكَهُ الكلام ، قال له : ما حاجتك ؟ قال له : قد أَعْرَبَتْ عنها رثائَةُ هَيْئَتِي ، وَضَعَفَ طاقَتِي ، قال : أَجَل ! فما الذي تَمَتُّ به ؟ قال : ولادة تقربُ من ولادتك ، وجِوار بدنو من جِوارك ، واسمُ مشتق من اسمك ! قال : أما الجِوار فقد يمكن أن يكونَ كما قلتَ ، وقد يوافق الاسمُ الاسمَ ، ولكن ما علمك بالولادة ؟ قال : أَعْلَمْتَنِي أُمِّي أَنها لما وَضَعْتَنِي ، قيل : إنه ولد الليلة ليحيى بن خالد غلام ، وَوُضِعَ الفضل ، فَسَمَّيْتُ فَضَيْلاً ، إعظاماً لاسمك أن تُلَحِقَنِي بك ؛ فَخَبَسَ الفضل ، وقال : كم أَتَى عليك من السنين ؟ قال : خمس وثلاثون : قال : صدقت ! هذا المقدار الذي أَتَيْتُ عليه ، فما ضلَّتْ أُمُّكَ ؟ قال : توفيت ، رحمها الله ! قال : فما منعك عن اللحاق بنا فيما مضى ؟ قال : لم أَرْضَ نفسى للقائِكَ في حادثة تُقْعِدُنِي عن لقاء الملوك ! قال : يا غلام ؛ أَعْطِه لكل عام من سِنِّيهِ ألفاً ، وَأَعْطِه من كُسُوتنا ومراكبنا ما يَصْلُحُ له !

١٢٠ — بديهة قينة *

اعترض هارون الرشيد قينة فننت :

ما تقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غصبوا
فلما ابتدأت به تغير وجه الرشيد ، وعلت أنها قد غلطت ، وأنها إن مرّت
فيه قُتِلت ، فننت :

ما تقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غصبوا
وأنهم ممدّنُ التفاق فما تفسد إلا عليهم العرب
فقال الرشيد ليحيى بن خالد - وكان حاضراً : أسيمت يا أبا علي ؟ فقال :
يا أمير المؤمنين ؛ نبتاع ، ونُسنى ^(١) لها الجائزة ، ويعجل لها الإذن ليسكن قلبها ؛
قال : ذلك جزاؤها ، قومي فأنت منى بحث تحبين . فقال يحيى :
جزيت أمير المؤمنين بأمنها من الله جنات تفوز بعدنها

* الأغانى : ٥ : ٨٥ .

(١) سنى الجائزة : تجزله حتى تكون سنية .

١٢١ - لا أذوق المدام إلا شميما*

حبس أبو نواس في شرب الخمر ، وكان الفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويصاھدم ويتقدم ، ودخل في حبس الزنادقة؛ فرأى فيه أبا نواس - ولم يكن يعرفه - فقال له : يا شاب ؛ أنت مع الزنادقة ؟ قال : معاذ الله ! قال : فلعلك ممن بعيد الكُشْب ؟ قال : أنا آكل الكُشْب بصوفه ! قال : فلعلك ممن يبعدُ الشمس ؛ قال : إني لأتجنب القعود فيها بُخْصاً لها ! قال : فبأي جُرْم حبست ؛ قال : حبست بتهمة أنا منها برى* ! قال : إيس إلا هذا ! قال : والله لقد صدقتك .

فجاء إلى الفضل فقال له : يا هذا ؛ أئحبس الناس بالتهمة ! قال : وما ذاك ؟ فأخبره بما ادعى من جُرْمه . فتبس الفضل ، ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدعاه به ، وتقدم إليه أن يحتب الخمر والسكر . فقال : نعم ، قيل له : فبعد الله ! قال : نعم ! فأخرج .

فبعث إليه فتیان من قریش ، فقال لهم : إني لا أشرب . قالوا : وإن لم تشرب فأنستاً بحديثك . فأجاب ، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم ترنح لها ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول :

أُثِمَّا الرَّائِحَانِ بِاللَّوْمِ لَوْمًا لَا أَذُوقُ الْمُدَامَ إِلَّا شِمِيمًا
نَالِي بِالْمَلَامِ فِيهَا إِمَامًا لَا أَرَى لِي خِلَافَهُ مُسْتَقِيمًا
فَاصْرِفَاها إِلَى سِوَايَ فَإِنِّي لَسْتُ إِلَّا عَلَى الْحَدِيثِ نَدِيمًا
كَبُرَ حَظِّي مِنْهَا إِذَا هِيَ دَارَتْ أَنْ أَرَاهَا وَأَنْ أَشْمَّ النَّسِيمًا
فَسَكَتَنِي وَمَا أَحْسَنُ مِنْهَا قَعْدَتِي^(١) يَزِينُ التَّحْكِيمَا
كُلٌّ عَنْ حَمَلِهِ السَّلَاحَ إِلَى الْحَرِّ بِِ فَأَوْصَى الْمُطِيقَ إِلَّا يُقِيمَا

(١) القعدة من الخواارج : التي يرى رأى القعدة الذين يرون التحكيم حقاً؛ غير أنهم قعدوا عن الخروج على الناس .

١٢٢ — إِنْ بَعْدَ الْعُمْرِ يَسِرْ *

قال مسلم بن الوليد^(١) : كنتُ جالساً عند خياط يازاء منزلي ؛ فمرَّ بي إنسانٌ أعرفه ، فقمْتُ إليه وسلَّمْتُ عليه ، وجئتُ به إلى منزلي لأُضيِّفه^(٢) ، وليس معي درهم ، بل كان عندى زوج أخفاف فأرسلتهما مع جاريتين ليمض معارفى ، فباعهما بقسمة درهم ، واشترى بهما الخبز واللحم .

فجلسنا نأكل ، وإذ بالباب يُطرقُ ، فنظرتُ من شقِّ الباب ، وإذا بإنسان يسأل : هذا منزل فلان ؟ ففتحتُ الباب وخرجتُ ، فقال : أنت مسلم بن الوليد ؟ قلت : نعم ، فأخرج لى كتاباً ، وقال : هذا من الأمير^(٣) ؛ فإذا فيه : قد بمنّا لك بعشرة آلاف درهم لتكونَ فى منزلك ، وثلاثة آلاف درهم تجعلُ بها لقدمك علينا .

فأدخَلْتُهُ إلى دارى وزدتُ فى الطعام ، واشتريتُ فاكهةً ، وجلسنا فأكلنا ، ثم وهبتُ لضيفى شيئاً يشتري به هديةً لأهله .

وتوجهنا إلى الأمير بالرفقة^(٤) ، فوجدناه فى الحمام ، فلما خرج استوفذن لى عليه ، فدخَلْتُ فإذا هو جالس على كرسى ، ويده مُسْطُ ، يسرِّحُ به لحيته ،

* المستطرف ٢ - ٧٠

(١) أحد الشعراء المبدعين ، اتصل بالرشيد ، وعُد من شعرائه ، ومدح البرامكة وحن رأيهم فيه ثم قرّبه الفضل بن سهل ، ومات سنة ٢٠٨ هـ بجزان . (٢) أضاف الرجل : أنزل ضيفاً .

(٣) هو يزيد بن مزيد الشيبانى قائد الرشيد . الرقة : بلد على الفرات واسعة ديار ربيعة

وبلد آخر غربي بباداد .

فلست عليه فرد أحسن رد ، وقال : ما الذى أتعذك عنا ؟ قلت : قلة ذات اليد ،
وأنشده قصيدة مدحته بها . قال : أتدري لم أحضرتك ؟ قلت : لا أدري ،
كنت عند الرشيد منذ ليالٍ أحادثه ، فقال لى : يا يزيد ، من القائل فيك :

سَلَّ الخليفةُ سيفاً من بَنى مُضَرٍ يعصى فيخترقُ الأجسامَ والهَامَا^(١)
كالذهرِ لا ينفى عَمائِهِمْ به قد أوسع الناسَ إنعاماً وإِرْغاماً

قلت : والله لا أدري يا أمير المؤمنين ! فقال : سبحان الله ! يُقال فيك مثلاً
هذا ولا تدري من قاله ؟ سألت ! فقيل لى : هو مسلم بن الوليد !

فأرسلت إليك ، فانهض بنا إلى الرشيد . فسرنا إليه ، واستؤذن لنا ، فدخلنا
عليه ، فقبلت الأرض بين يديه ، وسلمت فرداً على السلام ، فأنشده ما لى فيه من شعر ،
فأمر لى بمائتى ألف درهم ، وأمر لى يزيد بمائة وتسعين ألف درهم ، وقال : ما ينبغي
أن أسأوى أمير المؤمنين فى المعطاء .

(١) الهامة : الرأس ، والجمع هام .

١٢٣ - رَاوِيَةُ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ*

كان داودُ بنُ يزيد بن حاتم المهلبى^(١) يَحْلِسُ للشعراء في السنَةِ مجلساً واحداً ، فيقصِدونه لذلك اليوم ويُنشِدُونه ، فوجّه إليه مسلم رَاوِيَتَهُ بقصيدته التي أولها :
لَا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودٍ نَهَى النَّهْيَ عَنْ هَوَى الْمُهَيْبِ الرَّعَادِيْدِ^(٢)
فقدِمَ عليه يومَ جلوسه للشعراء ولحقه عقب خروجه عنه ، ففقدِمَ إلى الحاجب
وَحَصَرَ لثامَهُ عن وجهه ، ثم قال : استأذن لي على الأمير ؛ قال : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قال :
شاعر ، قال : قد انصَرَمَ وَقُتِكَ وانصرف الشعراء وهو على القيام .

فقال له : ويمك ! إني قد وفدتُ على الأمير بشعرٍ ماقلت العربُ مثله ، وكان
مع الحاجب أدبٌ يفهمُ به ما يسمع ، فقال : هاتِ حتى أسمع ، فإن كان الأمرُ كما
ذكرتِ أوصلتُكِ إليه ، فأنشده بعضُ القصيدة ، فسمع شيئاً بقصرُ عنه الوصف ؛
فدخل على داود فقال له : قدِمَ على الأمير شاعرٌ بشعرٍ ماقلت العرب مثله ، فقال :
أَدْخِلْ قَائِلَهُ ! فلما مَثَلَ بين يديه سلم ، وقال : قدِمْتُ على الأمير - أعزّه الله - بمديحٍ
يُسمِعُه ، فيعلمُ تقدى على غيري مِمَّنْ امْتَلَحَ ؛ فقال : هاتِ !

فلما افتتح القصيدة وقال : « لَا تَدْعُ بِي الشَّوْقَ . » استوى جالساً ، وأطرق حتى

* عصر المأمون : ٢ - ٣٨١

(١) أمير من الشجعان العقلاء ولاء الرشيد السند فأنبقت له أمورهما واستمر إلى أن توفي فيها سنة ٢٠٥ هـ . (٢) أي لا تدعى مشتافاً ، وسأله دجيل عن معنى ذلك ، فقال : لا تدعى مريب النواحي ، فليست كذلك ، وكان لهذا القَبِّ كارهاً . والمعمود : المشغوف عشقاً . والمهيب : الضامرات المحصور . وامرأة رعديدة : يترجرج لهما من نمتها . وكذلك الرخصة الناعمة .

أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه ، فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم
أيها الأمير ! قال : في كم قلته يافتي ؟ قال : في أربعة أشهر أبداك الله . قال : لو قلته
في ثمانية أشهر لكنت محسناً ، وقد اتهمتُك ، لجودة شعرك وخول ذِكْرِكَ ، فإن
كنتَ قائلَ هذا الشعر فقد أنظرْتُكَ أربعة أشهر في مثله ، وأمرتُ بالإجراء عليك ،
فإن جئتنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف درهم وإلا حرمتُك .

فقال : أو الإقالة - أعزَّ الله الأمير . قال : قد أقلتك ، قال : الشعر لمسلم بن
الوليد وأنا راويته والوافدُ عليك بشعره : فقال : أنا ابنُ حاتم ! إنك لما افتتحت
شعره فقلت : « لا تدع في الشوق إلى غير مَمُود^(١) » سمعتُ كلامَ مسلم يناديني ،
فأجبتُ نداءه واستويتُ جالساً ، ثم قال : يا غلام ، أعطه عشرة آلاف درهم ،
واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم .

١٢٤ — لَمَاقَةٌ*

قال محمد بن أيوب : كان بالبصرة رجلٌ من بني تميم ، وكان شاعراً ظريفاً ،
خيبتا ما كراً ، وكنتُ أنا والى البصرة ، آنسُ به وأستَحْلِيهِ^(١) ، فأردتُ أن
أخذعه ؛ فقلتُ له : أنت شاعر ظريف ، والمأمون أجودُ من السحاب الحافل^(٢)
والريح العاصف ، فما يمنعك منه ؟

قال : ما عندى ما يَمْنَعُنِي^(٣) قلت : فأنا أعطيك نجيباً^(٤) فارهاً ، ونفقةً
سابقة ، وتخرجُ إليهِ وقد امتدحتهُ ، فإنك إن حَظِيتَ ببقائه صِرتَ إلى
أَمْنِيَّتِكَ .

قال : والله أيها الأمير ، ما إخالك أبدتَ ، فأعدَّ لي ما ذكرت . فدعوت له
بِنَجِيبٍ فارٍ ، وقلت له : شأنك به فامْتِطِهْ ، قال : هذه إحدى الحسينين ، فما بال
الأخرى ؟ فدعوتُ له بثلاثمائة درهم ، وقلت : هذه نفقتك ، قال . أَحَسْبُكَ أيها الأمير
فَصِرتَ في النفقة ، قلت : لا ، هي كافية إن قَصِرتَ^(٥) عن السرف ، قال : ومتى
رأيتَ في أكبر سَعْدٍ سرفاً حتى تراه في أصاغرِها !

فأخذ النجيب والنفقة ، ثم حَمَلَ أَرْجوزَةً ليست بالطويلة ، فأنشَدَ فيها وحذف
مها ذِكْرِي والثناء على ، وكان مارِداً^(٦) ، فقلت له : ما صنعتَ شيئاً ، قال :

* الطبري : ١٠ : ٢٩٧

(١) أستَحْلِيهِ : أستغفهِ . (٢) السحاب الحافل : كثير الماء . (٣) أقله : جملة . (٤) النجيب
من الإبل : الثورى الخفيف السريع ؛ فارهاً : نسيطاً حاداً قويا . (٥) قصر عن السرف : امتنع
عن الإسراف . (٦) المارِد من الرجال : العاقى الشديد .

وكيف ؟ قلت : تأتي الخليفة ولا تُنْثِي على أميرك ! قال : أيها الأمير ؛ أردت أن
تُخَدِّعَنِي فوجدتني خَدَّاعاً ! أما والله ما لي كرامتي حملتني على نجيبيك ، ولا جُدْتُ لِي
بِمَالِكَ الَّذِي مَارَاهِمَ أَحَدٌ قَطَّ إِلَّا جِئِلَ اللَّهُ خَذَهُ الْأَسْفَلَ ، ولكن لا ذُكْرَكَ فِي
شِعْرِي ، وأمدحك عند الخليفة .

قلت : قد صدقت ؛ فقال : أما إذا أبديت ما في ضميرك ، فقد ذكرتُك
وأثَّبتُ عليك ؛ قلت : فأنشدني ما قلت ، فأنشدنيهِ ، فقلت : أحسنت ، ثم
ودَّعَنِي وخرج .

وأتى الشام وإذا للأمون بَسَلْمُوس .

قال : فأخبرني ، قال : بينا أنا في غزاة قُرَّة ، قد ركبْتُ نَجِيبِي ذاك ، ولبست
مُطْعَمَاتِي^(١) ، وأنا أروم العسكر ، إذا أنا بكَهْلٍ عَلَى بَغْلٍ قَارِيهِ ، ما يَقَرُّ قَوَارِهِ ،
ولا تدرك خطاه ؛ فقلقاني مكافئة^(٢) ومواجهة ، وأنا أرددُ نَشِيدَ أَرْجوزِي ،
فقال : سلامٌ عليكم ، بكلام جَهْوَرِيٍّ وَلِسَانٍ بَسِيطٍ ؛ فقلت : وعليكم السلام
ورحمة الله وبركاته ! قال : فف إن شئت ، فوقفت ، فتَهَوَّعَتْ مِنْهُ رَاحَةُ الْعَنْبَرِ
وَالسَّكَّ الْأَذْفَرُ ، فقال : ما أَوْلُكُ ! قلت : رجل من مُضَرٍ ، قال : ونحنُ من
مُضَرٍ . قال : ثم ماذا ؟ قلت : رجل من بني تميم . قال : وما بعد تميم ؟ قلت :
من بني سَعْدٍ ، قال : هيه ! فما أَقْدَمَكَ هَذَا الْبَلَدَ ؟ قال : قصدتُ هَذَا الْمَلِكَ الَّذِي
ما سمعتُ بِمِثْلِهِ أَنْذَى رَاحَةً ، ولا أَوْسَع رَاحَةً ، ولا أطول باعاً ، ولا أَمْدَ بَقَاعاً^(٣) !

(١) القطعات : القساء من الثياب . (٢) المكافئة : مصادفة الوجه بالوجه مفاجأة .

(٣) البقاع في الأمل : للشرف - ن الأرض والجبل .

قال : فما الذى قصدته به ؟ قلت : شعرٌ طيبٌ يلذُّ على الأفواه ، وتقتفيه الرواة ، ويحلُّو فى آذان المستمعين ؛ قال : فأنشِذه ، فنضبت وقلت : يا ركيك^(١) ! أخبرتك أنى قصدت الخليفة بشعرٍ قُلْتُهُ ، ومدحٍ حَبَّرْتُهُ ، تقول : أنشدنيه ! فتناقل والله عنها ، وتطامن لها .

قال : وما الذى تأمل منه ؟ قلت : إن كان على ما ذُكِرَ لى عنه فألفُ دينار ، قال : فأنا أعطيك ألفَ دينار إن رأيتُ الشعرَ جيداً والكلامَ عذّباً ؛ وأضعُ عنك العناء ، وطول التردّد ، ومتى تصل إلى الخليفة ، وينتك وبينه عشرة آلاف راميح ونابيل^(٢) !

قلت : فلى الله عليك أن تفعل ! قال : نعم ، لك الله على أن أفل ؛ قلت : ومعل الساعة مال ؟ قال : هذا بفل ، وهو خير من ألف دينار ، أنزل لك عن ظهره .

فنضبتُ أيضاً ، وعارضنى نَزَقٌ سَعْدٍ وخِفَّةٌ أحلامها ، فقلت : ما يساوى هذا البغلُ النجيب ! قال : فدعُ عنك البغل ، ولك الله على أن أعطيك الساعة ألفَ دينار ! فأنشدته :

مأمون يا ذا اللين الشريف	وصاحب المرتبة الهنيئة ^(٣)
وقائد الكتيبة ^(٤) الكشيقة	هل لك فى أرجوزة ظريفة
أظرف من قفه أبى حنيفة	لا والذى أنت له خليفة
ما ظلمت فى أرضنا ضميعة	أميرنا مؤنته خفيفة

(١) الركيك من الرجال : الضعيف فى عقله ورأيه . (٢) الرامح : ذو الرمح ، والنابيل : صاحب النبل ، ومى السهام . (٣) النيفة : العالية المرتبة . (٤) الكتيبة : الجيش .

وما اجتبي شيئاً سوى الوظيفَةِ فالذنبُ والنجمةُ في سقيفةِ

* واللصُّ والتاجرُ في قطيفةِ^(١) *

فوالله ما عدا أن أنشدته ، فإذا زُهاه^(٢) عشرة آلاف فارس قد سدّوا الأفق ،
يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! فأخذني أفكَل^(٣) ،
ونظر إلى تلك الحالة ، فقال : لا بأس عليك أي أخى ؛ قلت ، يا أمير المؤمنين ؛
جعلني الله فداك ! أتعرف لغات العرب ؟ قال : إى لعمر الله ! قلت : فمن جعل
السكاف منه مكان القاف^(٤) ؟ قال : هذه حـَـيـِـر ؛ فقلت : لعن الله ولعن من
استعمل هذه اللفّة بعد اليوم !

فضحك للأمون وعلم ما أردتُ ، والتفت إلى خادمٍ إلى جانبه ، فقال : أعطه
ما معك ، فأخرج إلى كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ، فقال : هاك ، ثم قال :
السلام عليك ومضى ، فكان آخر العهد به !

(١) أصل القطيفة دثار غزل . (٢) زهاه : قمر . (٣) أفكل كُحِد : وعدة وقسميرة .

(٤) يشير إلى قوله له أولاً : ياركك .

١٢٥ — لولا حمقه وحمق صاحبه لمت جوعاً*

قال المأمون يوماً لأحمد بن أبي خالد^(١) : اغدُ على باكرٍ لأخذ القدر من التي عندك ، فإنها قد كثرت لنفطع في أمورٍ أحببنا ، فقد طال انتظارهم إياها . فبسكّر ، وقد له المأمون ، فجعل يمرُّ ضُهاً عليه ويوقع عليها ، إلى أن مرَّ بقصة رجل من اليزيديين يقال له فلان اليزيدي ؛ فصَحَفَ^(٢) وكان جائئاً فقال : التَّريدي ؛ فضحك المأمون ، وقال يا غلام ، تريدُ ضخمه لأبي العباس ، فإنه أصبح جائئاً ! فنجّل أحمد . وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ، ولكنَّ صاحبَ هذه القصة أحمقٌ ، وضع فوق نَسَبته ثلاث قطع ، قال : دَع هذا عنك ، فالجوعُ أَضْرَبُك حتى ذكرتَ التَّريدي ؛ فجاءوه بصَحْفَةٍ عظيمة ، كثيرة المُرَاق والودَك^(٣) ؛ فاحتشم أحمد : فقال للمأمون : بحياتي عليك ، لما عدلتَ نحوها . فوضع القصص ومال إلى التَّريد ، فأكل حتى انتهى ، والمأمون ينظر إليه ، فلما فرغ دعا بطيخة ففسل يده ، ورجع إلى القصص ، فمرت به قصة فلان الحمهي فقال : فلان الخبيص ، فضحك المأمون وقال : يا غلام ، جاماً^(٤) فيه خبيص ، فإن غداً أبى العباس كان مبتوراً^(٥) .

* عصر المأمون : ١ - ٣٠٦

(١) أحمد بن أبي خالد وزير المأمون بعد الفضل بن سهل وكان شهما . (٢) المصحف : التي يروى الخطأ عن قراءة المصحف بأشباه الحروف — مولة . (٣) الودك : الدم ، والمراق جمع عرق : وهو القطعة من اللحم . (٤) الجام : إناء من فضة . الخبيص : المصول من التمر والسمن . (٥) يتره : قطعه قبل الإتمام .

فجعل أحد وقال : يا أمير المؤمنين ؛ صاحب هذه القصة أحق ، ففتح الميم فصارت
كأنها ستغان ، قال : دَعْ عنك هذا ، فلو لا حقُّه وحقُّ صاحبه لمت جوعاً ،
فجاءوه بجام خبيص ، فجعل ، فقال له المأمون : بحياتي عليك ألا مات إليها !
فانحرف فأنثني عليه ، ونسل يده ، ثم عاد إلى القصص ، فما أسقط حرفاً حتى أتى
على آخرها .

١٢٦ — إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ

نصيب ولا حظ تنى زوالها*

أشرف المأمون يوماً على قصره فرأى رجلاً يكتب بفحمته على حائط قصره .
فقال المأمون لبعض خدَمِه : اذهب إلى ذلك الرجل ، فانظر ما كتب وأنثني به .
فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً ، وقبض عليه ، وقال له : ما كتبت ؟ فإذا هو
قد كتب هذا البيت :

يا قصرُ جُمِعَ فيك الشؤمُ والُومُ متى يُعشَّشُ في أركانك الجُومُ !

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين . فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب
بى إليه ، فقال الخادم : لا بد من ذلك ، ثم ذهب به .

فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين ، وأُعلِمَ بما كتب ، قال له المأمون : وبِلك !
ما حاكك على هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرُك هذا ؛

من خزائن الأموال والحلى والخلل ، والطعام والشراب والفُرُش والأواني ،
والأمتعة والجواري، والخدم وغير ذلك، مما يقصرُ عنه وصفي، ويمجِرُ عنه فهمي،
ولمّا قد مررتُ عليه الآن وأنا في غاية من الجوع والفاقة ؛ فوفقتُ مُفكراً في أمري،
وقلتُ في نفسي : هذا القصر عامر عال، وأنا جائع ، ولا فائدة لي فيه، فلو كان
خراباً ومررت به لم أعدم رُخامةً أو مسجراً أبيعه وأتقوّتُ بشمعه ؛ أو ما علِمَ
أُميرُ المؤمنين رعاه الله قولَ الشاعر :

إذا لم يكنْ للره في دولةِ امرئٍ نصيبٌ ولا حظٌ بمئى زوالها
وما ذاك من بُغضٍ لها غيرَ أنه يُرجى سواها ، فهو يهوى انتقامها
فقال المأمون : يا غلام ؛ أعطه ألفَ درهم . ثم قال : هي لك في كل سنة ،
مادام قصرنا عامراً بأهله مسروراً بدولته .

١٢٧ - خَلْقِ دِعْبَلِ*

قال محمد بن موسى الضبي، وكان نديماً لعبد الله بن طاهر : بينما نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة ، إذ أكرنا بالأدب وأهله ، وشعراء الجاهلية ، إذ بلغ إلى ذكر المحدثين حتى انتهى إلى ذِكْرِ دِعْبَلِ^(١) فقال : وَتَحَلَّ بِاضْبِي ! إني أريد أن أحدثك بشيء على أن تستره طول حياتي ؛ فقلت له : أصلحك الله ، أنا عندك في موضع غِيْنَةٍ ؟ قال : لا ، ولكن أُطِيبُ لنفسي أن توثق لي بالآتيان ؛ لأركن إليها ، ويسكن قنبي عندها ، فأحدثك حينئذ .

قلت : إن كنت عند الأمير في هذه الحال فلا حاجة به إلى إقضاء سره إلي ، واشتغافته مراراً فلم يعفني ؛ فاستحييت من مراجعته ، وقلت : فليَرَ الأميرُ رأيَه ؛ فقال لي : يا ضبي ؛ قل : والله ، قالت : والله ، فأمرها على عَمُوساً^(٢) مؤكدة بالبيعة والطلاق وكل ما يحلِف به مسلم .

ثم قال : أشعرت أن دِعْبَلًا مَدْخُوئُ النَّسَبِ ؟ وأمستك ، فقلت : أعزَّ الله الأمير ! أفي هذا أخذت اليهود والموانيق ومغلظ الأيمان ! قال : إني والله ، فقلت : ولم ؟ قال : لأنني رجلٌ لي في نفسي حاجة ، ودعبل رجل قد حَمَلَ نفسه على الممالك ، وحمل جذعهُ على عنقه ؛ فليس يجد مَنْ يَصَابُهُ عليه ، وأخاف إن بلغه أن يقول

* الأغانى : ١٧ - ٥٦

(١) هو دعبل بن علي بن رزيق ؛ شاعر مضبوط هجاء ، لم يعلم من لسانه أحد من عصره من الخلفاء والوزراء والولاة ، ولا ذى نباهة ، أحس إليه أو لم يحسن ، توفي سنة ٢٤٦ هـ .
(٢) العيوس القموس : أتى نفسه صاحبها في الإثم .

فِي مَا يَبْقَى عَلَى عَارِهِ عَلَى الدَّهْرِ ، وَقُصَّارَايَ إِنْ ظَفَرْتُ بِهِ ، وَأَسْمَتُهُ الْيَمَنُ - وَمَا
أَرَاهَا تَفْعَلُ ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمَ شَاعِرُهَا ، وَالذَّابُّ عَنْهَا ، وَالْحَامِي لَهَا دُونَهَا - أَنْ أَضْرِبَهُ
مِائَةَ سَوْتٍ ، وَأَتَقْلَهُ حَدِيدًا ، وَنَيْسِرًا ، فِي ذَلِكَ عِوَضًا عَلَى مَا آرَى مِنْ الْهَجَاءِ وَفِي
عَقَبِهِ مِنْ بَعْدِي .

قُلْتُ مَا أَرَاهُ يَفْعَلُ وَيُقَدِّمُ عَلَيْكَ ، قَدْ لِيَ : يَا عَاجِزُ ؛ أَتَرَاهُ أَقْدَمَ عَلَى
الْإِسْتِدَاءِ وَالْإِمِينِ ، وَالْمَأْمُونِ وَعَلَى أَبِي وَلَا يُقَدِّمُ عَلَى ! قُلْتُ فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ
فَقَدْ وَفَّقَ الْإِمِيرُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَى

وَكَانَ دَعْبِلُ صَدِيقًا لِي ، قُلْتُ : هَذَا شَيْءٌ قَدْ عَرَفْتَهُ ، فَمَنْ أَيْنَ قَالَ الْإِمِيرُ
إِنَّهُ مَدْخُولُ النَّسَبِ ، وَهُوَ فِي الْبَيْتِ الرَّفِيعِ مِنْ خُرَّاعَةٍ ؟ فَقَالَ : أَسْمَعُ ، إِنَّهُ كَانَ أَيَّامَ
تَرْغَرَعٍ خَامِلًا لَا يُؤْتِيهِ لَهُ ، وَكَانَ يَنَامُ هُوَ وَمُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي إِزَارٍ وَاحِدٍ لَا يَمْلِكُكَانِ
غَيْرُهُ ، وَمُسْلِمُ أَسْتَادُهُ ، وَهُوَ غَلَامُهُ يَتَخَذُمُهُ ، وَدَعْبِلُ حِينَئِذٍ لَا يَقُولُ شَيْئًا بِفِكْرِهِ ،
حَتَّى قَالَ :

لَا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ الشَّيْبَ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

وَعَنِّي فِيهِ بَعْضُ الْمَغْنِينِ وَشَاعٍ ، فَفُتِّي بِهِ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ؛ فَطَرَبُ ، وَسَأَلَ
عَنْ قَاتِلِ الشَّعْرِ ، فَقِيلَ لَهُ : دَعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَهُوَ غَلَامٌ نَشَأَ مِنْ خُرَّاعَةٍ ، فَأَمَرَ
بِإِحْضَارِ عَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَخِلْعَةٍ مِنْ نِيَابِهِ ، فَأَخْضَرَ ذَلِكَ ، فَدَفَعَهُ مَعَ خَادِمٍ مِنْ
خَاصَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ بِهَذَا إِلَى خُرَّاعَةٍ ، فَسَأَلْ عَنْ دَعْبِلِ بْنِ عَلِيٍّ ، فَإِذَا
ذُكِّتَ عَلَيْهِ فَأَعْطِهِ هَذَا ، وَقُلْ لَهُ : لِيَحْضُرَ إِنْ شَاءَ ، وَإِنْ لَمْ يُحِبَّ ذَلِكَ فَدَعِهِ ،
وَأَمْرُ الْمَغْنِيِّ بِجَائِزَةٍ .

فسار الغلام إلى دُعبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه . فلما دخل عليه وسلم أمره بالجلوس فجلس ، واستنشهده الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقاً سنياً ، فكان أولَ مَنْ حَرَّضَهُ على قول الشعر ؛ فوالله ما بلغه أن الرشيد مات حتى كافأه على ما فعله من العطاء السيِّ ، والفنى بعد الفقر ، والرفعة بعد الخمول بأقبح مكافأة ، وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت ومجا الرشيد :

وليس حتى من الأحياء نفعه	من ذى يمان ومن بكرٍ ومن مضرٍ
إلا وهم شركاء في دماهم ^(١)	كما تشارك أيسارٌ على جزر ^(٢)
فقل وأسرّ وعريق وصنبة ^(٣)	فعل الفزاة بأرض الروم وانتزير ^(٤)
أرى أمية معذورين إن قتلوا	ولا أرى لبني العباس من عذرٍ
أربع بطوس على قبر الزكي إذا	ما كنت ترابع من دين على وطور ^(٥)
قبران في طوس : خير الناس كلهم	وقبر شرهم ؛ هذا من العبر !
ما ينفع الرّجس من قرب الزكي ولا	على الزكي قرب الرّجس من ضرر
هيئات كل امرئ رهن بما كسبت	له يداه فخذ ما شئت أو قدّر

فهذه واحدة ، وأما الثانية فإنّ اللّامون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى دس إليه قوله :

(١) أيسار جمع ياسر ، وهو القى على قمة الجزور ، والجزور : نوق تذبح وتسم أقباناً للعقارة . (٢) الجزر : جبل من الترك ، بلادهم شمال فارس . (٣) طوس : مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد ، دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا . وأربع : أقم . والوطر : الحاجة .

أَنْ يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ يَرِثُ الْخِلَافَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقٍ
إِنْ كَانَ إِبْرَاهِيمَ ^(١) مُضْطَلَمًا بِهَا فَلْتَصْلَحَنَّ مِنْ بَعْدِهِ لِمَخَارِقِ ^(٢)

فلما قرأها المؤمنون ضحكوا وقال : قد صفحتُ عن كل ما هيجانا به ؛ إذ قرن
إبراهيم بمخارق في الخلافة ، وولاه عهده وكتب إلى أبي أن يكاتبه بالأمان ،
ويحمل إليه مالا ، وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل .
فكتب إليه أبي بذلك ، وكان واثقا به ، فصار إليه ، فحمله وخلص عليه ، وأجازه
وأعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المؤمنون ففعل . فلما دخل وسلم عليه تبسم في وجهه ،
ثم قال : أنشدني ^(٣) .

مدارسُ آياتٍ خلتُ من تلاوةٍ ومنزلٍ وحيٍ مُقْفِرِ التَّوَصَّاتِ ^(٤)

فجَزِعَ ، فقال له : لك الأمان فلا تخف ، وقد رويها ولكني أحب سماعها
مِنْ فَيْكِ ، فأنشده :

مدارسُ آياتٍ خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٍ وَحْيٍ مُقْفِرِ التَّوَصَّاتِ
لَأَلِّ رَسُولِ اللَّهِ بِالْخُفْيِ مِنْ مَيِّ وَبِالرَّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجَمَّاتِ ^(٥)
دِبَارُ عَلِيٍّ وَالْحُسَيْنِ وَجَعْفَرٍ وَهَمَزَةُ السَّجَّادِ ذِي الثَّنَاتِ ^(٦)
دِبَارُ عَفَاها ^(٧) كُلُّ جَوْنٍ مُبَادِرٍ ^(٨) وَلَمْ تَعْفُ لِلْأَيَّامِ وَالسَّنَوَاتِ

(١) يريد إبراهيم بن المهدي ، وهو عم المؤمن ، وقد اشتهر بالفناء وأنقش من قعره .
(٢) مخارق : مذنبي معروف . (٣) من القصائد المشهورة في مدح آل البيت . (٤) للفقر :
الحالي من الناس ، والوصفات : ساحات النار . (٥) أسماء مواضع بمكة . (٦) الثنفة : الركبة
ويجتمع الساق والخصف ، والسجاد ذو الثنفتين : علي بن الحسين لأن طول السجود أثر في ثنفته
(٧) عفاها . عفاها . (٨) الجون المبادر : السحاب الماطر .

فَقَا نَسْأَلُ الدَّارَ الَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا مَتَى عَهْدُهَا بِالصُّومِ وَالصَّلَاةِ !
وَأَيْنَ الْأَلَى شَعَلَتْ بِهِمْ غُرْبَةُ النَّوَى أَفَانَيْنِ^(١) فِي الْأَفَاقِ مُتَفَرِّقَاتِ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ وَمَكْذَبٌ وَمُضْطَّعِنٌ^(٢) ذُو إِحْنَةٍ وَرِيَّاتِ
وَمَضَى فِيهَا حَتَّى أَتَى عَلَى آخِرِهِ

وَالْمَأْمُونُ يَبْكِي حَتَّى اخْضَلَّتْ لَحْيَتُهُ بِدُمْعِهِ . فَوَاللَّهِ مَا شَمَرْنَا بِهِ إِلَّا وَقَدْ شَاعَتْ لَهُ
أَبْيَاتٌ يَهْجُو بِهَا الْمَأْمُونُ بَدَّ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ وَأَنْسَهُ بِهِ ، حَتَّى كَانَ أَوَّلَ دَاخِلٍ وَآخِرِ
خَارِجٍ مِنْ عِنْدِهِ^(٣) .

(١) الْأَفَانَيْنِ : الْأَنْوَاعُ أَوْ الْأَحْوَالُ . (٢) مُضْطَّعِنٌ : حَاقِدٌ ، وَالْإِحْنَةُ : الْمَدَاوَةُ وَالْحَقْدُ ،
وَلَثَرَاتٌ : جَمْعُ تَرَةٍ : الثَّأْرُ . (٣) كَانَ مِمَّا قَالَهُ فِي الْمَأْمُونِ :

أَبُومَنِ الْمَأْمُونِ خَطَّةٌ جَاهِلٌ أَوْ مَا رَأَى بِالْأَمْسِ رَأْسَ عَمَدٍ
إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ سَيُوفُهُمْ قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَفْتُكَ بِعَقْدٍ
شَادُوا بِذِكْرِكَ بَعْدَ طَوْلِ غَوْلِهِ وَاسْتَنْفَذُوكَ مِنَ الْخَضِيِّضِ الْأَوْهَدِ

وَكَانَ الْمَأْمُونُ إِذَا أَنْتَدَ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ يَقُولُ :

قَبِحَ إِلَهُ دَعِيلًا ، فَأُؤْتِجُهُ إَكَيْفَ يَقُولُ عَنِّي هَذَا ، وَقَدْ وَلَدْتُ فِي حَجَرٍ خِلَافَةَ ، وَرَضْتُ
نَدِيهَا ، وَرَبِيتُ فِي مَهْدِهَا .

دِيكَ دِعْبِلْ *

قال أحمد بن خالد : كنا يوماً بدار صالح بن عليّ ببغداد ، ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على سطح البيت ديك طار من بيت دِعْبِلْ ، فلما رأيناه قلنا : هذا صيدنا ، فأخذناه .

قال صالح : ما نصنع به ؟ قلنا : نذبحه ، فذبحناه وشويناكه . وخرج دعبيل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح ، فطلبه منا فوجدناه ؛ وشربنا يوماً ، فلما كان من الغد خرج دعبيل ، فصلى الغداة ، ثم جلس في المسجد ، وكان ذلك المسجد يجمع الناس يجتمع فيه جماعة من العلماء ، ويتناهبهم الناس . وقال :

أَسْرَ الْمُؤَذِّنُ صَالِحٌ وَضِيؤُهُ أَسْرَ الْكَمِيِّ هَفَاً خِلَالَ اللَّائِطِ^(١)
بَعَثُوا إِلَيْهِ بَنِيهِمْ وَبَنَاتِهِمْ مِنْ بَيْنِ نَائِقَةٍ وَأَجْرٍ سَامِطِ^(٢)
بِتَنَازَعُونَ كَأَنَّهُمْ قَدْ أَوْفَقُوا خَاقَانَ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ^(٣)
نَهْشَوْهُ فَانْتَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ وَتَهَشَّمَتْ أَفْئَادُهُمْ بِالْحَاطِطِ

فسكرتها الناس عنه ومضوا ، فقال لي أبي - وقد رجع إلى البيت - ويحك ! ضاقت عليكم المأكلة فلم تجدوا شيئاً تأكلونه سوى ديك دعبيل ! ثم أُنْذِلَ الشعر وقال : لا تدع ديكاً ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته ، وبعثت به إليه ، وإلا وقعنا في لسانه . ففعلت ذلك .

* مذهب الأغانى ٢ : ٢٥٥

(١) اللَّائِطُ : موضع القتال ، والكمي : الشجاع . (٢) ناعط : قبيلة من همدان .

(٣) ناعط : قبيلة من همدان .

١٢٩ — بين البادية والحضر *

قدم على بن الجهم^(١) على المتوكل - وكان بدويًا جافياً - فأنشده قصيدة قال فيها :

أنت كالكلب في حفاطك للودِّ وكالتيس في قراع الخطوب
أنت كالدلو لا غديمنالك دلوًا من كبار الدلا كثير الذنوب^(٢)
فعرف المتوكل قوته ، ورقّة مقصده ، وخشونة لفظه ، وأنه ما رأى سوى
ماشبه به ادمم الخالطة وملازمة البادية ؛ فأمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة ،
فيها بستان حسن ، يتخلله نسيم لطيف يعذّي الأرواح ، والجسر قرب منه ،
فيخرج إلى بحلات بغداد ، فيرى حركة الناس ومظاهر مدينتهم ويرجع
إلى بيته .

فأقام ستة أشهر على ذلك ، والأدباء والفضلاء يتماهدون بحالته ومحاضراته ،
ثم استدعاه الخليفة بعد مدة لينشده ؛ فحضر وأنشد :

عيون لها بين الرصافة^(٣) والجسر جَلْبَنُ الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
فقال المتوكل : لقد خشيتُ عليه أن يذوب رقّة ولطافة .

* محاضرات الأبرار : ٢ - ٣

(١) هو عربي قرشي شاعر فصيح مطبوع ، خص بالمتوكل حتى صار من جلسائه ، ثم أبغضه بعد ذلك ونهاه إلى خراسان بعد أن حبسه مدة ، وذلك لسكرة سعايته بندمائه ، مات سنة ٢٤٩ هـ .

(٢) يطلق الذنوب على ما في الدلو من الماء . (٣) الرصافة : محلة ببغداد .

١٣٠ — الجاحظ في مرضه *

قال بعض البرامكة : كنت أتقلد السند ؛ فاتصل بي أن صُرِفَتْ عنها وكنت كَسَبْتُ ثلاثين ألف دينار ؛ خِفْتُ أن يَفْجَأَ بي الصارف ، ويُسَمَّى إليهِ بالمال ؛ فَصُنِفَتْهُ عشرة آلاف إهليلجَةٍ ^(١) ، في كل إهليلجة ثلاثة مثاقيل ، وجعلها في رَحْلي ، ولم أبعده أن جاء للصارف ؛ فركبت البحر ، وانحدرت إلى البصرة ، فَبَرَزْتُ أن بها الجاحظ ^(٢) وأنه عليل .

فأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه ، فأفضيت إلى باب دار لطيف فَرَعْتُه ؛ فخرجت إلى خادم صراء ؛ فقالت : من أنت ؟ قلت : رجل غريب ، يَحِبُّ أن يدخلَ إلى الشيخ ، فيسرَ بالنظر إليه ا

فأدّت ماقلت . وكانت للمسافة قريبةً لصفر الدهليز والحجرة . فسمعتَه يقول : قولي له : وما تصنع بشقيّ مائل ، ولعاب سائل ، ولون حائل ^(٣) ا فأخبرتني ، قلت : لا بدّ من الوصول إليه . فقال : هذا رجل قد اجْتَازَ البصرة ؛ فسمع بي وبعثني ؛ قال : أراه قبل موته ؟ ليقول قد رأيت الجاحظ ا

ثم دخلت فسلمت ؛ فردّ ردّاً جميلاً ، واستدنانى ، وقال : من تكون أعزّك الله ! فالتفت لي ، فقال : رحم الله أباك وقومك الأسخياء الأجواد الكرام الأتجاد

* زهر الآداب : ٢ - ١٨٦ ، ذيل زهر الآداب : ١٦٥

(١) الإهليلج : ثمر ، والواحدة بهاء ، ويظهر أنه صاغها على شكل هذا الثمر . (٢) هو عمرو بن بحر ، والجاحظ لقبه ، كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المتزلة ، ألف كثيراً ، وعاش طويلاً ، وتوفى سنة ٢٥٥ هـ . (٣) حال لونه : تغير .

فقد كانت أيامهم رَوْضَ الأُزْمَنَةِ ، ولقد انجَبَرَ بِهِمْ قَوْمٌ كَثِيرٌ ، فَسَقِيَاهُمْ
وَرِزِيًا^(١) ! فدعوت له ، ، قلت : أنا أسأل الشيخ أن ينفدني شيئاً من الشعر ؛
أذكره به ، فأشدني :

انن قَدُمْتُ قَبْلِي رَجَالٌ فَطَالَمَا مَشَيْتَ عَلَى رِسْلِي فَكُنْتَ لِلْمَقْدَمَا^(٢)
وَلَكِنْ هَذَا الدَّمُ تَأْتِي صُرُوفُهُ فَتَبْرِمُ مَنَقُوصًا وَتَنْقُصُ مُبْرَمًا
ثم نهضت ، فلما قاربت الدهليز صاح بي فقال : يا فتى ؛ أ رأيت مفلوجاً ينفعه
الإهليلج ؟ قلت : لا ! قال : فأنا بنفعي الإهليلج الذي معك ! فأهْدِ اِمنسه ،
فقلت : السمع والطاعة .

رخرجت مُفْرِطَ التَّعَجُّبِ مِنْ وَقُوعِهِ عَلَى خَبْرِي ، حَتَّى كَأَن بَعْضَ أَحْبَابِي كَاتِبَهُ
بِخَبْرِي حِينَ صَفَتَهُ ، وَأَنْفَذَتْ إِلَيْهِ مَائَةَ إِهْلِيلَجَةٍ .

(١) سقياهم ورعيًا : دعاء لهم بالخير . (٢) رسل : رسل : رسل .

١٣١ - ظبي مذبوح ، ورجل ميت جريح ، وفتاة ميتة*

قال موسى بن هارون : كنت عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد جاءه الزبير بن بكار^(١) فأعلمه أن المعتز بعث إلى أخيه محمد بن عبد الله بن طاهر بأمر بإحضاره وتقليده القضاء . فقال له الزبير بن بكار : قد بلغت هذه السن وأتوتل القضاء ! أو بعد ما رويت أن من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكن ! فقال له : فتلق بأمر المؤمنين بسر من رأى ، فقال له : أفعل .

فأمر له بمال ينفعه ، وبظهر يحمله ويحمل ثقله . ثم قال له : إن رأيت يا أبا عبد الله أن تعيدنا شيئاً قبل أن نفترق ؟ قال : نعم ! انصرفت من محرم الحرام ، فبينما أنا بأثاية العرج ، إذا أنا بجماعة محتمة ، فأقبلت إليهم وإذا رجل كان يقنع الأطباء ، وقد وقع ظبي في حباله فذبحه ، فانتفض في يده فضرب بقرنيه صدره ، فنشيب القرن فيه فمات . وأقبلت فتاة كالمهاة ، فلما رأت زوجها ميتاً شبهت ثم قالت :

يا حسن لو بطل لكنه أجل على الأثاية ما أودى به البطل
يا حسن جمع أحشائي وأقلقتهم وذلك يا حسن لولا غير جال^(٢)

* الأغاني ٩ - ٤٤ هـ معجم الأدياء : ١١ - ١٦٢

(١) الزبير بن بكار ، كان علامة نسابه إخبارياً ، ثقة ، توفي سنة ٢٥٦ هـ .

(٢) جمع أحشائي : جملها منضمة إلى بعضها ، وجلل : يسر ، إذ المراد أن الأمر الذي كان يسير لولا غيره مما هو مترتب عليه من العظام .

أضحت فتاة بنى نهْدٍ عَلَانِيَةً^(١) وبمُلَسَّابَيْنِ أَيْدِي الْقَوْمِ مُحْتَمَلُ
نَمِ شَهَقَتْ فَاتَتْ ، فَمَا رَأَيْتُ أُعْجِبَ مِنَ الثَّلَاثَةِ : الظَّيِّ مَذْبُوحٌ ، وَالرَّجُلُ
جَرِيحٌ مَيِّتٌ وَالْفَتَاةُ مَيِّتَةٌ .

فَأَمَرَ لَهُ عَبِيدُ اللَّهِ بِمَالٍ آخَرَ . ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَى أَخِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بِمَدِّ خُرُوجِ
الزَّرِيرِ ، فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي أَخَذَنَاهُ مِنَ الْفَائِدَةِ فِي حَبْرِهِ أَكْثَرُ عِنْدِي مِمَّا أُعْطِينَاهُ
مِنَ الْحَبَاءِ^(٢) وَالصَّلَاةِ .

(١) عَلَانِيَةً : ظَاهِرَةً . (٢) الْحَبَاءُ : الصَّلَاءُ .

١٣٢ — جوائزه الصَّلَاة*

كان ابن الدَّبَر إذا مدحه شاعر فلم يرضَ شعره قال لفلانه : امض به إلى
المسجد الجامع ، فلا تفارقه حتى يصلِّي مائة ركعة ثم خله .
فتحاماه الشعراء إلا الأفراد الجيدين ، فجاء أبو عبد الله الحسين بن
عبد السلام البصري ، فاستأذنه في النشيد ، قال : قد عرفت الشرط ؟ قال : نعم !
وأنشده :

أردنا في أبي حسنٍ مديحاً	كما بالمدح يُنتَجَمُ الولاةُ
قلنا : أكرمُ الثقلين طُرّاً	ومن كَفاه دجلةُ والفراتُ ^(٢)
فقالوا : يَقْبَلُ المَدْحَ لكن	جوائزه عليهم الصَّلَاةُ
قلتُ لهم : وما تُنْفِي صَلاتي	عيالي ، إنما الشأنُ الزكاةُ
فيأمر لي بكسر الصاد منها	فتصبح لي الصَّلَاةُ هي الصَّلَاتُ

فضحك واستظرفه ، وقال : من أين أخذت هذا ؟ قال : من قول أبي تمام
الطائي :

هذا الحمام فإن كسرت عِيافةً^(٣) من حائهن فإنهنَّ حِمَام^(٤)
فأحسن صلته .

* زهر الآداب : ٢ - ١٨١

(١) انتجع فلاناً : أذناه يطلب معروفه . (٢) الثقلين : الإس والجن . (٣) غفت الطير عِيافة :
زجرتها ، وهو أن تنزع بأسمائها ومسافتها وأنوائها فتسعد أو تتشاءم . (٤) الحمام : اللوت .

١٣٣ - ما معي إلا قفّاي *

كان رجل ببغداد يعرف بابن المغازلي يتسكّم على الطريق ، ويقصُّ على الناس أخباراً ونوادير ومضاحك ، وكان في نهاية الحذق لا يستطيع من براه ويسمع كلامه إلاّ بضحك .

قال : وقت يوماً في خلافة المعتضد^(١) على باب الخاصة ، فحضر حلقتي بعضُ خدام المعتضد ، فأخذت في حكاية الخدم ، فأعجب خادم بحكايتي وشُغِف بنوادرى ثم انصرف عني .

فلم يلبث أن عاد إليّ وأخذ بيدي ، وقال : إني لما انصرفت عن حلقتك دخلت : فوقفت بين يدي المعتضد أمير المؤمنين ، فذكرت حكايتك ، وما جرى من نوادرِكَ فاستضحكت ، فرآني أمير المؤمنين ، فأسكّر ذلك مني ، وقال : ويلك ، مالك ! قلت : يا أمير المؤمنين ؛ على الباب رجل يعرف بابن المغازلي يضحك ويحاكي ، ولا يدع حكاية أعرابي وتركى ومكّي ونحوى وزنجي وخدام إلاّ حكاها ويخاط ذلك بنوادر تضحك التارك وتُصبى الخليم ، وقد أمرني بإحضارك ، ولي نصف جائزتك . فقلت له ، وقد طمعت في الجائزة السنية : يا سيدي ؛ أنا ضيف وفقير ، وقد منَّ الله عليّ بك ، فاعليك إن أخذت بعضها ؛

* السمرودي : ٣ - ٢٤٤

(١) يرمع بالخلافة بعد وفاته سنة ٢٧٩ هـ وظهر بظهور الخلفاء العاملين ، وكان عارفاً بالأدب موسوقاً بالعلم ، توفي سنة ٢٨٩ هـ .

سُدَّسَهَا أَوْ زَيَّعَهَا ، فَأَبَى إِلَّا نَصَفَهَا ، فَطَعَمْتُ فِي النِّصْفِ ، وَقَنْتُ بِهِ .
فَأَخَذَ بِيَدِي ، وَأَدْخَلَنِي عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ وَأَحْسَنْتُ ، وَوَقَفْتُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي أَوْقَفْتُ
فِيهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ ، وَقَدْ كَانَ يَنْظُرُ فِي كِتَابٍ ، فَلَمَّا نَظَرَ فِي أَكْثَرِهِ أَطْبَعَهُ ،
ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ ، وَقَالَ : أَنْتَ ابْنُ الْمَنَازِلِيِّ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ :
قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَحْكِي وَتُضْحِكُ ، تَأْتِي بِحِكَايَاتٍ عَجِيبَةٍ وَنَوَادِرَ ظَرِيفَةٍ ، قُلْتُ : نَعَمْ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ الْحَاجَةُ تَقْتَضِي الْحِيلَةَ ؛ أَجْمَعُ بِهَا النَّاسَ ، وَأَتَقَرَّبُ إِلَى قُلُوبِهِمْ
بِحِكَايَاتِهَا أَلْتَمِسُ رِزْقَهُمْ ، وَأَعِيشُ بِمَا أَنَالَهُ مِنْهُمْ ، قَالَ : فَبَاتِ مَعْنَدُكَ ، وَخَذْ فِي
فَنَّاكَ ، فَإِنْ أَضْحَكْتَنِي أَجْزَيْتَكَ بِخَمْسِمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَإِنْ لَمْ أَضْحَكْ فَهَلْ لِي عَلَيْكَ ؟
قُلْتُ : مَا مَعِيَ إِلَّا قَتَالَى ، فَاصْطَفَعَهُ مَا أَحْبَبْتُ ، وَكَمْ شُئْتُ وَبِمَا شُئْتُ ! فَقَالَ لِي :
قَدْ أَنْصَفْتُ ؛ إِنْ ضَحِكْتُ فَهَلْ لِي مِنْكَ مَضْمُونٌ ، وَإِنْ أَنَا لَمْ أَضْحَكْ فَصَفَعْتُكَ نَهْذَا
الْجَرَابَ عَشْرَ صَفَعَاتٍ .

قُلْتُ فِي نَفْسِي : مَلِكٌ لَا يَصْفَعُ إِلَّا بِشَيْءٍ بِسِيرٍ خَفِيفٍ هَيْنَ ؛ ثُمَّ التَفْتُ ، وَإِذَا
أَنَا بِجَرَابِ أَدَمَ نَاعِمٍ فِي زَاوِيَةِ الْبَيْتِ ، قُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا لَغَطَا حَزْرِي ^(١) وَلَا أَخَافُ
ظَلْمِي ، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ جَرَابٍ فِيهِ رِيحٌ ! إِنْ أَضْحَكْتُهُ رَجَحْتُ ، وَإِنْ أَنَا
أَضْحَكُهُ فَأَمْرُهُ عَشْرَ صَفَعَاتٍ بِجَرَابٍ مَنفُوخٍ هَيْنَ .

ثُمَّ أَخَذْتُ فِي النَوَادِرِ وَالْحِكَايَاتِ ، فَلَمْ أَدْعُ حِكَايَةَ أَعْرَابِي وَلَا بَحْوِي
وَلَا قَاضٍ ، وَلَا عِبَارَةً وَلَا نَادِرَةً ، وَلَا حِكَايَةَ ، إِلَّا أَحْضَرْتُهَا ، وَأَتَيْتُ بِهَا حَتَّى نَفِدَ
جَمِيعُ مَا مَعْنَدِي ، يَوْصَدَعُ رَأْسِي ، وَلَمْ يَبْقَ وَرَائِي خَادِمٌ إِلَّا هَرَبَ ، وَلَا غِلَامٌ إِلَّا
ذَهَبَ لَنَا اسْتَفْزَمَ الضَّحْكَ .

(١) المزور : التقدير والمطلن .

قلت : قد نَفِدَ - والله يا أمير المؤمنين - مامى ، وتصدع رأسى ، وذهب
مماشى ، وما رأيت قط مثلك ، وما بقيت لى إلا نادرة واحدة ، قال : هاتها ! قلت :
يا أمير المؤمنين ؛ وعدتني أن تصفنى عشراً ، وجعلتها مكان الجائزة ؛ فأسألك أن
تصف الجائزة ، وتضيف إليها عشراً ؛ فأراد أن يضحك ، فاستمسك ، ثم قال :
فَعَلْ . يا غلام ؛ خذْ يده ، فأخذ يدي ، ومددتُ قفاى ؛ فصِفمت بالجراب صفقة ،
فكأنما سقط على قفاى قلعة ، وإذا فيه حصى مدور ، كأنه صنجحات ، فصِفمت به
عشراً ، كادت أن تنفصل رقبتي ، وينكسر عنقي ، وطلَّنت أذنائى ، وقدهح الشعاع
من عيني .

فلما استوفيت العشرة صِحَّت : ياسيدى ؛ نصيحة ، فرفع الصنع عنى ، فقال :
مانصيححتك ؟ قلت : ياسيدى ؛ إنه ليس فى الدنيا أحسنُ من الأمانة ، ولا أقبحُ من
الخيانة ، وقد ضمنت للخدام الذى أدخلنى عليك نصفَ هذه الجائزة على قلبها أو
كثرتها . وأمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - بفضلَه وكرمَه قد أضاعها ؛ وقد
استوفيت نصفها ، وبقيَ لخدامك نصفها .

فضحك حتى استلقى ، واستغفَرَه ما كان قد سمعه منى أولاً ، وتحامل له ، وصبر
عليه ؛ فما زال يضرب برجليه ، ويمسك بمرآء^(١) بطنه ، حتى إذا سكن ضحكُه ،
ورجعت إليه . نفسه قال : على بفلان الخدام ، فأتى به - وكان طَوَّالاً - فأمر
بصَّعَه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أى شئ قضيت ؟ وأى جنابة جُنابتي ؟ قلت له :
هذه جائزتي ، وأنت شريكى ، وقد استوفيت نصفها ، وبقي نصيبك منها ، فلما أخذه

(١) المِرْق : مِرْق من أسفل البطن ولان ، ولا واحد لها ، أو جمع مِرْق .

الصَّعْغُ ، وطرقَ قَفَاهُ الصَّافِعُ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ أَقُولُ لَهُ : أَقُولُ لَكَ : إِنِّي ضَعِيفٌ فَقِيرٌ ،
وَشَكُوتُ إِلَيْكَ الْحَاجَةُ وَاللَّسَكَةُ ، وَقُلْتُ لَكَ : يَا سَيِّدِي ؛ لَا تَأْخُذْ نَعْفُهَا ، لَكَ
سَدَسُهَا ، لَكَ رُبْعُهَا ، وَأَنْتَ تَقُولُ : مَا آخُذُ إِلَّا نَعْفُهَا ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ -
أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - جَوَازُهُ صَعْغٌ ، وَهَبْتُهَا لَكَ كُلَّهَا ؛ فَعَادَ إِلَى الضَّعْكَ .

فَلَمَّا اسْتَوْفَى صَعْفَهُ ، وَسَكَنَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ضَحْكَه أَخْرَجَ صُرَّةً كَانَتْ تَدْعُهَا
فِيهَا خَمْسَمِائَةُ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ - وَقَدْ أَرَادَ الْإِنْصِرَافَ - قِفْ ، هَذِهِ كُنْتُ أَعْدَدْتُهَا
لَكَ ، فَلَمْ يَدْعُكَ فَضُولُكَ حَتَّى أَحْصَرْتَ لَكَ شَرِيكَاً فِيهَا ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَأَيْنَ الْأَمَانَةُ ؟ وَدِدْتُ أَنَّكَ تَدْفَعُهَا كُلَّهَا إِلَيْهِ وَنَعْفُهُ مَعَ الْعَشْرَةِ عَشْرَةَ أُخْرَى ،
وَتَدْفَعُ لَهُ الْخَمْسَمِائَةَ الدِّرْهَمَ . فَقَسَمَ الدِّرَاهِمَ بَيْنَنَا وَانْصَرَفْنَا .

١٣٤ — قد شقي منه صدورنا*

قال أبو علي الحاتمي^(١) : كان أبو الطيب المتنبى^(٢) عند وروده مدينة السلام
التَّحَفَ رِداءَ الكبير ، وأذال^(٣) ذُبُولَ التَّيِّه ، وصعَرَ خَدَّه ، ونأى بجانبه ؛ وكان
لا يَلْقَى أحداً إلَّا نَافِضاً^(٤) مِذْرَوِيَّه ، راغلا من التَّيِّه في بُرْدِيَّه . يَحْتَلُّ إليه أن
العِلْمَ مَقْصُورٌ عليه ، وأن الشَّعْرَ مَحْرُومٌ لَمْ يَفْتَرَفْ نَمِرَ مائه غيرُهُ ، وروضٌ لَمْ يَرْعَ
نُوراً ، سواه ، فذَلَّ بذلك مُدْبِذَةً أَجْرَتُهُ رَسَنَ^(٥) الجَهِلِ فيها ، فظَلَّ يَمْحُ في
تَنَنِّيهِ ؛ حتَّى تَحْتَلَّ أَنَّهُ القَرِيعُ^(٦) الذي لا يُقَارَعُ ، والنَزِيعُ^(٧) الذي لا يُجَارَى ولا
يُنَارَعُ ، وأنه رَبُّ الْمَلَبِّ وَمَالِكُ الْبَصَبِ ، وَثَقُلَتْ وَطْأَتُهُ على أَهْلِ الْأَدَبِ
بمدينة السلام .

فطأ طأ كثير منهم رأسه ، وَخَفَضَ جَنَاحَهُ ، وَطَلَمَنَ على التَّسْلِيمِ لَهُ جَأَشُهُ^(٨) ،
وَتَحْتَلَّ أَبُو عَمْدٍ الْمُهَلِّىَ أن أحداً لا يَقْدِرُ على مُسَاجَلَتِهِ وَجُجَارَاتِهِ ، ولا يَقُومُ
لِغَنَمِهِ بشيءٍ من مَطَاعِنِهِ ، وساءَ مُعَزَّ الدولة أن يَرِدَ عن حضرةِ عدوِّهِ رجلٌ ،

* معجم الأدباء : ١٨ - ١٥٩

(١) هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة
(٢) هو أحمد بن الحسين ، أشهر شعراء المحدثين ، وصاحب الشعر السَّكِيمِ والمنايا الدقيقة والمختصرة .
ولد بالكوفة ونشأ بها ، وتأدب بفصاحة أهل البدو ، ومدح سيف الدولة من أهل الشام ، ومدح
كافوراً بمصر ، ومدح عضد الدولة أعظم ملوك بني بويه ووزيره ابن العبيد ، وقتل قرب بغداد
سنة ٣٥٤ هـ . (٣) أذال : تبخر ، وجرد ذيله على الأرض تيمناً . (٤) نافضاً : محرراً ،
والذروان : ناحيتا الرأس . (٥) الرسن : الجبل . (٦) القريع : الذي يقارعك ، والمقارعة :
المصاربة بالسيف . (٧) النزيع : التصريف من القوم الذي نزع إليه عرف كريم . (٨) الجأش :
الغضب ، وقيل للغلب .

فلا يكون في مملكته أحدٌ يماثلُهُ في صناعته ، ويساويه في منزلته .

نَهَضْتُ^(١) حينئذٍ مُتَتَبِعًا عَوَارَهُ ، ومتعقبًا آثارَهُ ، ومُطْفِئًا نَارَهُ ، ومُهَيِّئًا أَسْتَارَهُ ، ومقلماً أظفارَهُ ، وناثراً مطاويه ، وممزقاً جلبابَ مساويه ، متخفياً أن نجتمعنا دارُ ، فأجرى أنا وهو في مِصْمَارٍ يُعَرِّفُ فيه السابقُ من المسبوق ؛ حتى إذا لم أجد ذلك قصدتُ موضعه الذي كان يحلُّهُ في رَبِضٍ مُحْتَدٍ^(٢) .

فوافقَ مَصِيرِي إليه حضورَ جماعةٍ قرأ شيئاً من شعره عليه ، حين أودنَ بحضوري ؛ واستَوْدِنَ عليه لدخولي نهضَ عن مجلسه مُسْرِعاً ووارى شخصه عني مُسْتَخْفِياً ؛ فنزلتُ عن بدلةٍ كانت تحتي ، وهو يراني نازلاً عنها ؛ لانيهاى بها إلى أن حاذَيْتُهُ ، فجلستُ في موضعه ، وإذا تحته قطعة من « زَبَلٍ »^(٣) مُحَلَّقَةٍ ، قد أكلتها الأيامُ ؛ وتماوَرَتْهَا السنون ؛ فهي رسوم خافية ، وسلوك^(٤) بادية ، حتى إذا خرج إلى نهضتُ إليه فوقَّيْتُهُ حق السلام ، غير مُشَاحٍ^(٥) له في القيام ؛ لأنه إنما اعتمدَ بنهوضه ألا ينهض لي عند موافاقي .

وَإِذَا هُوَ قد ليس سبعة أقبية ، كلُّ قَبَاءٍ^(٦) منها لون ، وكان الوقتُ آخر أيام الصيف ، وأخلفها بتخفيف اللبس ، فجلستُ وجلس ، وأعرض عني ساعة لا يُبِيرُنِي فيها طَرْفَهُ ، ولا يسألني عما قصدتُ له ، وقد كَذَبْتُ أَعْيُنُ^(٧) غِيظًا ، وأقبلتُ أَسْتَحْفُ رأيي في قَصْدِهِ ، وأفندتُ نفسي في التوجُّهِ نحو مثله ، ولوى عِذاره عني مقبلاً على تلك الزَّعْنَفَةِ^(٨) التي بين يديه ، كلَّ واحدٍ يرميُ إليه ، ويوحى

(١) نهض: نهض، وعواره: عيبه . (٢) ربض: موضع . (٣) زبلو: مناهها لحاف بالفارسية .
(٤) السلوك: جمع لسلوك ، وهي الخيط الذي يخالط به التوب . (٥) نمازخ . (٦) القباء: توب بلبس فوق الثياب . (٧) أعين: أقطع . (٨) الزعنفة: الطائفة من القبيلة تنرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أصلهم واحداً .

بطرف ، وبشر إلى مكاني بيده ، ويوقفه من سِنَّة جهله ؛ وهو يأبى إلا أزوَّاراً وفاراً ، وجرياً على شاكلة خلقه المشكلة .

ثم رأى أن يثني رأسه إلى ؛ فوالله ما زادني على أن قال : أى شىء خبرك ؟ قلت : أنا بخير ، لولا ما جنيتُ على نفسى من قصْدِكَ ، وكلفتُ قدسىَّ في المصير إلى مثلك ؛ ثم تحدّرتُ عليه تحدّث السيل إلى القرار ، وقلتُ له : أين لى - عافاك الله - ميمٌ تهلكَ وخيلاؤك وعُجْبُكَ ؟ وما الذى يوجبُ ما أنت عليه من التعجّر والتنمّر^(١) ؟ أنسبَ فرمختُ سماءَ المجد به ! أم علمُ أصبحتَ علماً يقعُ الإيمانُ إليك فيه ! هل أنت إلا وتِدُّ بَقَاعَ^(٢) في شرِّ البقاع ؟ وجفاءً^(٣) سيلٌ دَفَاعُ ! يا لله ! استنّتَ النِّصَالُ حتى القرعى^(٤) ، وإني لأسمعُ جَمْعَةً^(٥) ولا أرى طِحْنًا .

فأمْتَقِعَ لونه عند سماع كلامى ، وعَصِبَ^(٦) ريقه ، وجَحَفَتَ عيناه ، وسَقَطَ في يده ، وجعل بليغٌ في الاعتذار ليّنًا ، كاد يَطْفُفُ عليه عِطْفٌ صغيعى عنه .

ثم قلت : يا هذا ، إن جاءك رجلٌ شريفٌ في نسبه تجاهلتَ نسبه ، أو عظيمٌ في أدبه صغرتُ أدبه ، أو مُتَقَدِّمٌ عند سلطانِه لم تعرّفَ موضعه ، فهل العِرْثُ تراثُ لك دون غيرك ؟ كلا والله ، لكُنْكَ مَدَدَتِ السِّكِّيرُ سِرّاً على نَقَصِكَ ، وضربته رِوَاثًا دون جَهْلِكَ .

فناد إلى الاعتذار ، وأخذتِ الجماعةُ في تليينِ جانبي ، والرغبةِ إلى قبولِ

(١) التنمر : التنبه بالتمر ، والتمر لا يلقى إلا متكرراً غضبان . (٢) البقاع : أرض سهلة مطمئنة .

(٣) ما غاه السيل من الزبد . (٤) مثل يضرب للرجل يدخل نفسه في قوم ليس منهم ، والقرعى من النصال : الذى أصابها قرع ، وهو بئر ، والاستنان : النفاط . (٥) مثل يضرب للذى يكثر الكلام ولا يعمل ، والذى يمد ولا ينى ، والمجسمة : صوت الرحى ونحوها ، والطنن : الدقيق . (٦) عصب : جف .

عُذْرُهُ، واعْتَادَهُ مُيَاسَرَتَهُ، وَأَنَا آتِي إِلَّا اسْتَشْرَاءً^(١) وَاجْتِرَاءً، وَهُوَ يُؤَكِّدُ الْأَقْسَامَ وَيُوَالِصُهَا أَنَّهُ لَمْ يَعْزُفْ، فَأَقُولُ لَهُ : يَا هَذَا ! أَلَمْ يُسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْكَ بِاسْمِي وَنَسَبِي ! أَمَا فِي هَذِهِ الْمَصَابِيَةِ مَنْ يُرَفِّقُ بِي لَوْ كُنْتُ جِهْلَتَنِي ! وَهَبْ ذَلِكَ كَذَلِكَ ! أَلَمْ تَرَنِي مُتَمَطِّيًا بِغِلَّةٍ رَائِمَةٍ يَمْلُوهَا مَرَكَبٌ ثَقِيلٌ ، وَبَيْنَ بَدْيِ عِدَّةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ؟ أَمَا شَاهَدْتَ لِبَاسِي ؟ أَمَا شَمِعْتَ نَشْرَ عَطْرِي ؟ أَمَا رَأَيْتَ شَيْءًا مِنْ أَمْرِي أُتَمَيَّزُ بِهِ فِي نَفْسِكَ عَنْ غَيْرِي ؟ وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ مَا أَكَلْتَهُ يَقُولُ : خَفِضْ عَلَيْكَ، ارْفُقْ، اسْتَأْنِ^(٢)؛ فَأَصْحَبَ^(٣) جَانِبِي بِمَعْضِ الْأَصْحَابِ ، وَلَئِنْ شَمَائِي^(٤) بِمَعْضِ اللَّيَّانِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ سَاعَةً .

ثُمَّ قُلْتُ : أَشْيَاءُ تَخْتَلِجُ فِي صَدْرِي مِنْ شِعْرِكَ أَحَبُّ أَنْ أُرَاجِعَكَ فِيهَا ، قَالَ : وَمَا هِيَ ؟ قُلْتُ : خَيْرٌنِي عَنْ قَوْلِكَ :

فَإِنْ كَانَ بِمَعْضِ النَّاسِ سَيْفًا لِلدَّوْلَةِ فَنَفِي النَّاسِ بَوَاقَاتِ لَهَا وَطُبُولُ

أَهْكَذَا يَدْعُ لِلْمُلُوكِ ! وَعَنْ قَوْلِكَ :

وَلَا مَنْ فِي جَنَازَتِهَا تِجَارٌ بَكُونُ وَدَاعِهَا بَغَضُ النَّمَالِ

أَهْكَذَا تُؤَيِّنُ أَخَوَاتِ الْمُلُوكِ^(٥) ! وَاللَّهِ لَوْ كَانَ هَذَا فِي أَدْنَى عِيِيدِهَا لَكُنْ قَبِيحًا .

يَا أَخْبَرَنِي عَنْ قَوْلِكَ :

خَفِ اللَّهُ وَاسْتَرْ ذَا الْجَهَالِ يُرْقِعُ فَإِنْ لَحَتْ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ^(٦)

(١) اسْتَشْرَاءً : لِبَاجَةِ وَعِنَادَا . (٢) اسْتَأْنِ : لَا تَجْعَلْ . (٣) أَصْحَبَ جَانِبِي : اتَّخَذَ

(٤) شَمَائِي : اِتِّمَاعِي وَإِبَائِي . (٥) مِنْ قَصِيدَةِ اللَّغْنِي فِي رِثَاءِ وَالِدَةِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وَأَوَّلِهَا :

نَعْدُ الْمَرْفِيَةَ وَالْمَوَالِي وَتَحْتَلُّا النَّوْنَ بِلَا قِتَالِ

(٦) الْعَوَاتِقُ ، جَمْعُ طَائِفَةٍ : الْجَارِيَةِ أَوَّلُ مَا أُحْرِكَتْ ، وَالْخُدُورِ : السُّورُ .

أَمْ كَذَا تَنْسِبُ بِالْحَبِيبِينَ ! وَعَنْ قَوْلِكَ :

وَإِذَا أَشَارَ عَجْدَتًا فَكَأَنَّهُ قَرِذٌ يُقَبِّقُهُ أَوْ عَجْوزٌ تَلْعَلُ

أما كان لك في أفانين الهجاء التي تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الرذل الذي ينفر عنه كل طبع ، ويمجّه كل سمع ! وعن قولك :

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ . إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

أفدلم مرتبًا بتناوله النظر لا يقع عليه اسم شيء ! وما أراك نظرت إلا إلى قول جرير :

مَا زِلْتُ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بِدَمْعِهِمْ خَيْلًا تَسْكُرُ عَلَيْهِمْ وَرَجُلًا لَا

فَأَحَلَّتْ لِلْعَنَى عَنْ جِهَتِهِ ، وَعَبَّرَتْ عَنْهُ بِغَيْرِ عِبَارَتِهِ ؛ وَعَنْ قَوْلِكَ :

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ وَصَفْتُكَ مُعْجَزٌ وَأَنْ ظَنُّونِي فِي مَعَالِيكَ تَطْلَعُ^(١)

فاستمرت الظلّع لظنونك ؛ وهي استمارة قبيحة ! وتعجبت من غير متمعن . لأن من أعجز وصفه لم يستنكر قصور الظنون وتحيرها في معاليه ، وإنما نقلته وأنشدته من قول أبي تمام :

تَرَقَّتْ مِنْهُ طُودٌ عَزِيزٌ لَوْ ارْتَقَتْ بِهِ الرِّيحُ فُتْرًا^(٢) لَا تَلْتَمِثُ وَهِيَ ظَالِمٌ

وعن قولك تمدح كافورًا :

إِنْ نِلْتُ مَا أَمَلْتُ مِنْكَ فَرُبَّمَا شَرِبْتُ بِمَاءِ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وَرُدُّهُ

لأنها مدح أو ذم ! قال : مدح ! قلت : إنك جملة بخيلا لا يوصلك إلى خيره من جهته ، وشبهت نفسك في وصولك إلى ما وصلت إليه منه بشريك من ماء يعجز الطير وِرْدُهُ لبعده وتراعى موضعه .

(١) الطلّع : التميز في الشيء . (٢) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف المشية .

وأخيراً أيضاً عن قولك في صفة كلبٍ وظبي :

وصار ما في جلده في المرجلِ فلم يضرنا معه فقد الأجدل^(١)

فأى شيء أعجبك من هذا الوصف ؟ أعلوبة عبارته ؟ أم لطف معناه ؟
أما قرأت رَجَز^(٢) ابن هاني وطرد^(٣) ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعاني التي
ابتدعها هذان الشاعران وغرر المعناني التي اقتنصاها ما تشاغلُ به عن بُنَيَات
صدرك هذه ؟ وألا اقتصرت على ما في أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم
تُسِفَ إلى هذه الألفاظ القليلة والأوصاف المختلفة !

فأقبل علىّ ، ثم قال : أين أنت من قولي :

كان الهام^(٤) في الهيجا عيونٌ وقد طُبعتْ سيوفُك من رقادٍ

وقد صُنّتْ الأسيئة من مُهومٍ فسا يخطرُنْ إلا في السوادِ

وأين أنت من قولي في صفة جيش :

في قَيْليق^(٥) من حديدٍ لو رميتَ به صرفَ الزمانِ لما دارتْ دوائرُهُ

وأين أنت من قولي :

لو تَعَلَّ الشجرُ التي قابلتها مدتْ محببةً إليك الأغصانُ

وأين أنت من قولي :

(١) الضمير في جلده للظبي ، والمرجل : القدر من النعاس ، والضمير في معه للكلب ، والأجدل :
الصقر . (٢) الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستغلق ست مرات . (٣) الطرد : مزاونة
الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر . (٤) الهام : جمع هامة ، والهيجاء أسماء الحرب ،
وطيح السيف : طرقة . (٥) القَيْليق : الجيش . وجمله من حديد لكثرة ما عليه من الدروع ،
وصرف الزمان : حدثاته .

أُقَدِّحُ^(١) في الخِيَمَةِ الْعَدَلُ وتشمُلُ مَنْ دَهَرَهَا يَشْمَلُ !
وما اعْتَمَدَ اللَّهُ تَقْوِيضَهَا^(٢) ولكنْ أَشَارَ بِمَا تَفْعَلُ
وفيها أَصِفْ كِتَابَةً :

وَمَعْلُومَةٌ^(٣) زَرَدٌ ثَوْبُهَا ولكنهُ بِالْقَنَاءِ مُخْمَلُ
وَأَيْنَ أَنْتَ عَنْ قَوْلِي :

النَّاسُ مَا لَمْ يَرَوْكَ أَشْبَاهُ وَالدهرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ
وَالجودُ عَيْنٌ وَأَنْتَ نَاطِرُهَا وَالْبَاسُ بَاغٍ وَأَنْتَ بِنَمَاهُ
أَمَّا يُبْلِيْكَ إِحْسَانِي فِي هَذِهِ عَنْ إِسَاءَتِي فِي تِلْكَ !

قلت : ما أعرفُ لك إِحْسَانًا في جميع ما ذكرته ؛ إنما أَنْتَ سَارِقٌ مُتَّبِعٌ ،
وَأَخَذْتُ مَقْصَرٌ ، وَقَبْلًا تَقْدُمُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي ابْتِكَرَهَا أَصْحَابُهَا مَنْدُوحَةٌ عَنْ
التَّشَاغُلِ بِقَوْلِكَ . فَأَمَّا قَوْلُكَ :

كَأَنَّ الْمَسَامَ فِي الْهَيْجَا عَيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سَيُوفُكَ مِنْ رُقَادٍ
فَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ بَيْتِ مَنْصُورِ النَّمِيرِيِّ :

فَسَكَتْنَا وَقَعَ الْخُسَامُ بِهَامِهِ خَدَرَ الْمَنِيَّةِ أَوْ نَعَسُ الْهَاجِمِ
وَأَمَّا قَوْلُكَ :

فِي فَيْلَتِي مِنْ حديدٍ لَوْ رَمَيْتَ بِهِ صَرَفَ الزَّمَانِ لَمَّا دَارَتْ دَوَائِرُهُ
فَنَقْلَتُهُ قَلِيلًا لَمْ تُحَسِّنْ فِيهِ ، مِنْ قَوْلِ النَّاجِمِ :

(١) ضربت خيمة لسيب الدولة فسقطت من ريح هبت . (٢) تقويضها : هدمها ، واعتمد
الأمر : قصد . (٣) معلومة : مجموعة مضمومة ، والمُخْمَلُ : ما جعل لأجل ، وهو هذب القطيفة ونحوها .

ولى فى حامدٍ أَمَلٌ بَبيدٍ ومدحٌ قد مدحتُ به طَريفُ
مدحٌ لو مدحتُ به اللَّيالى لما دارتُ علىَّ لها صروفُ
والناجمُ إنما نظمهُ من قول أرسطاليس، قد تكلمت بكلام لو مدحتُ به الدهر
لما دارتُ علىَّ صروفهُ .

وأما قولك :

لو تغفلُ الشجرُ التى قابَلَتْها مدَّتْ محييةً إليك الأغصنا
فهذا معنى متداول ، نساجلته^(١) الشعراء ، وأكثرتُ فيه ؛ فن ذلك قول
الفرزدق :

يكاد يُمسِكُهُ عِرْفَانٌ رَاحَتَهُ ركنُ الحطيمِ إذا ما جاء يَسْتَلِمُ
ثم تكررَ فى أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :
لو سعتُ بقعةً لإعظامٍ أخرى لَسَمَى نَحْوَهَا السَّكَّانُ الجديبُ
وأخذهُ البحرى فقال :

لو أن مُشتاقًا تكَلَّفَ فوق ما فى وَسْعِهِ لشيءٍ إليك المنبرُ
وأما قولك :

وما اعتمدَ الله قَوْبَصَها ولَمَكْنُ أشار بما تَقَعْلُ
فقد نظرتُ فيه إلى قول رجلٍ مدح بعضَ الأسماء بالموصل ، وقد كان عزم
على السيرِ فاندقَ لَوَاؤُهُ ، فقال :
ما كان مُندَقَ اللواءِ لريسةٍ تُخشى ولا أمرٍ يكون مزِيلًا^(٢)

(١) نساجلته : بارت فيه . (٢) زيله : فرقه .

لَكِنْ لَأَنَّ الْعُودَ صَمَفَ مَتْنَهُ صِرُّ الْوَلَايَةِ فَاسْتَقَلَّ الْوَصِيلَا
وَأَمَّا قَوْلُكَ :

وَمَعْلُومَةٌ زَرَدُ ثَوْبُهَا وَلَكِنَّهُ بِالْقَنَّا مُخْمَلُ

فَمِنْ قَوْلِ أَلِي نَوَاسِ :

أَمَامَ خَبِيسٍ^(١) أَرْجُوَانِي كَأَنَّهُ قَيْصُ مَخْوَكُ مِنْ قَنَّا وَجِيَادٍ^(٢)

وَأَمَّا قَوْلُكَ :

النَّاسُ مَالِمُ يَرْوُكَ أَشْبَاهُ وَالْدَّهْرُ لَفْظٌ وَأَنْتَ مَعْنَاهُ

فَمِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ نَضْرٍ بْنِ بَسَامٍ فِي عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ يَرْتِيهِ :

قَدْ اسْتَوَى النَّاسُ وَمَاتَ الْكَيْلُ وَصَاحَ صَرْفُ الدَّهْرِ : أَيْنَ الرِّجَالُ

هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ فِي نَعْتِهِ قَوْمُوا انْظُرُوا كَيْفَ تَزُولُ الْجِبَالُ !

قَوْلُهُ : « قَدْ اسْتَوَى النَّاسُ وَمَاتَ الْكَيْلُ » هُوَ قَوْلُكَ : « النَّاسُ مَالِمُ يَرْوُكَ

أَشْبَاهُ » .

فَقَالَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ : مَا أَحْسَنَ قَوْلَهُ ! « قَوْمُوا وَانْظُرُوا كَيْفَ تَزُولُ الْجِبَالُ ! »

فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ : اسْكُتْ ؛ مَا فِيهِ مِنْ حُسْنٍ ، أَلَمْ يَسْرِقْهُ مِنْ قَوْلِ

النَّابِغَةِ الذِّبْيَانِي :

بِقَوْلِهِمْ حِصْنٌ ثُمَّ تَأَبَى نَفْسُهُمْ وَكَيْفَ بَحْصَنِ الْجِبَالُ جُنُوحُ !

قَالَ الْحَاتِمِيُّ : فَقُلْتُ : قَدْ سَرَقَهُ النَّابِغَةُ مِنْ أَوْسٍ حِينَ قَالَ :

أَلَمْ تُكْسِفِ الشَّمْسُ شَمْسُ النَّهْرِ وَالْبَدْرُ لِلْقَمَرِ الْوَاجِبِ^(٣)

(١) الخبيس : الخبيث . (٢) جمع جيد : المجموعة الصغيرة . الواجب : الغائب .

لنقد فضالة لا يستوي ال قعود ولا خلة الذاهب
ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأخذ .

فقال الرجل : أجل ، فقال المتنبي : يا محسد ؛ خذ بيده ، وأخرجه - يريد
بمحسد ابنه - فراجته إلى أن تركه ، ثم قلت له : وأما قولك : « والدهر لفظ
وأنتم معناه » فنقول من قول الأخطل - إن كان البيت له - في عبد الملك بن مروان :
وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر ، لا عار بما فعل الدهر
وقد قال جرير :

أنا الدهرُ بفتى الموت والدهرُ خالد فجنني بمثل الدهر شيئاً تطاوله
حين قال له الفرزدق :

فإني أنا الموت الذي هو نازل بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله
أفترى أن جريراً أخذ قوله : « بفتى الموت » من أحد ؟ وأن أحداً شره
في إفناء الموت ؟ ففكر طويلاً ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ، عمران بن حطان حيث
يقول :

لن يُعجزَ الموتُ شيء ، دونَ خالقِهِ وللموتِ فإنِ إذا ما ناله الأجلُ
وكلُّ كَرْبٍ أمامَ الموتِ مُتَضِعٌ بالموتِ والموتُ فيما بعده جَلَلُ
فأمات الموت ، وأحياه ، وما سبقه إلى ذلك أحد .

ثم قلت له : أترى أن البيت المتقدم ، الذي يقول فيه :
وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر
مأخوذ من أحد ؟ فأطرق هنيهةً ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يُستدلُّ

على موضعك ، ومواضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ؛ أساء سمعاً
فأساء إجابة ! ما أردتُ ما ذهبتَ إليه . قلت : فإنه أخذه من قول النابغة ، وهو
أول من ابتكره :

وَعَيَّرَنِي بَنُو ذُبْيَانَ خَشِيَّتَهُ وما علىَّ بَأْسَ أَخْشَاكَ مِنْ عَارِ
ثم أخذه أبو تمام فأحسنَ بقوله :

خَشِمُوا لَصُورَتِكَ الَّتِي هِيَ فِيهِمْ كَالْوَبِ يَأْتِي لَيْسَ فِيهِ يُعَارِ
قال : ومنَ أبو تمام ؟ قلت : الذي سُرقتْ شِعْرُهُ ، فَأَنشَدَتْهُ . قال : هذه
خلائقُ السُّفَهَاءِ ، ولا خلائقُ العلماء . قلت : أجل ؛ أنت سَفَهْتَ رأيي ولم يكنْ
سفيهاً ، أَلستَ القائل :

ذِي الْمَعَالِي فَلْيُطْلَعَنَّ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَا
شَرَفٌ يَنْطَحُ الثَّرِيَا بِرَوْقِهِ ^(١) وَغَرٌّ يُقْلِقُ الْأَجْبَلَا
قال : بلى ، قلت : فَإِنَّكَ أَخَذْتَ الْبَيْتَ الْأَوَّلَ مِنْ بَيْتِ بَكْرِ بْنِ النَّطَّاحِ :
يُطْلِقُ النَّدَى بَوَاجِهِ حَيْهَ وَصُدُورَ الْقَنَا بَوَاجِهِ وَقَا
هَكَذَا هَكَذَا تَسْكُونُ لِلْعَالَى طُرُقُ الْجِدَّةِ غَيْرُ طُرُقِ الْمَزَاجِ

وَأَخَذْتَ الْبَيْتَ فَأَنشَدْتَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ :

هَمَّةٌ تَنْطَحُ الثَّرِيَا وَجَدُّ أَلِفٌ لِلْحَضِيضِ قَهْوٌ حَضِيضُ
قال : وبأى شيء أفسدُ ؟ قلت : بَأَن جَعَلْتَ لِلشَّرَفِ قَرْنًا . قال : وأنى لك !
بذلك ؟ قلت : أَلَمْ تَقُلْ : يَنْطَحُ السَّمَاءَ رِوْقِيهِ ، وَالرُّوْقَانِ : الْقَرْنَانِ ؟ قال : أجل !
إِنَّمَا هِيَ اسْتِمَارَةٌ . قلت : نعم ، هِيَ اسْتِمَارَةٌ خَبِيثَةٌ .

قال : أفسمتُ غيرُ مُخْرَجٍ في قسَى إني لم أقرأ شعراً قطُّ لأني تملككم هذا !
فقلت : هذه سوءةٌ لو سترتها كان أولى ! قال : السوءةُ قراءةُ شعرٍ مثله ؛
أليس هو القائلُ :

خَشَنْتُ عَلَيْهِ أَخْتَ بَنِي حَشَيْنٍ وَأُنْجِحَ فِيكَ قَوْلَ الْعَاذِلَيْنِ
والذي يقول :

لمرى ، لقد حرَّرتُ يومَ لَيْقِيتهُ لَوَانَ الْقَضَاءِ وَحَدَه لَمْ يُبْرِدِ
والذي يقول :

تَكَادُ عَطَايَاهُ يَجْنُ جُنُوبُهَا إِذَا لَمْ يُعَوِّذَهَا^(١) بِنِعْمَةِ طَالِبِ
والذي يقول :

نَسْعُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى^(٢) نَضِجَتْ أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ نَضِجِ الثَّيْنِ وَالْعَنْبِ
والذي يقول :

وَلِيٍّ وَلَمْ يَظْلَمْ وَهَلْ ظَلَمَ أَمْرُوهُ حَتَّ النَّجَاءِ^(٣) وَخَلَفَهُ الْقَنْيْنُ
والذي يقول :

كَانُوا رِدَا زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصَّوفاً
والذي يقول :

أَقُولُ لِقُرْحَانَ مِنَ الْبَيْنِ لَمْ يُصِْبْ رَسِيسٌ^(٤) الْهَوَى بَيْنَ الْحِشَا وَالتَّرَائِبِ
مَا قُرْحَانُ الْبَيْنِ ؟ أَخْرَسَ اللَّهُ لِسَانَهُ ! فَأَحْفَظُنِي^(٥) ذَلِكَ وَقَلْتُ : يَا هَذَا ؛ مِنْ

(١) يعوذها : يحفظها . (٢) الشرى : مأسدة جانب الثورات يضرب بها المثل . (٣) النجاء :
السرعة في الشيء . (٤) رسيس الهوى : بقيته وأثره . (٥) فأحفظني : فأغضبي .

أَدْلُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّكَ قَرَأْتَ شِعْرَ هَذَا الرَّجُلِ تُبَيِّنُكَ مَسَاوِيَهُ ؛ فَمَلْ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى
اخْتِلَافِكَ بِإِنْكَارِهِ أَوْضَحُ مِمَّا ذَكَرْتَهُ ؟ وَهَلْ يَسْمُ أَبَا تَمَامٍ أَوْ يَسْمُهُ بِمِيسْمِ
النَّقِصَةِ مَا عُدَّتْهُ مِنْ سَقَطَاتِهِ ، وَتَحْوَنَتَهُ ^(١) مِنْ أَتْيَاتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي
النُّونِيَةِ :

نَوَالِكُ رَدِّ حُسَادِي فُلُولًا وَأَصْلَحَ بَيْنَ آبَائِي وَيَنِي

فَهَلَّا اغْتَفَرْتَ الْأَوَّلَ لِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ !
وَأَمَّا قَوْلُهُ :

نَسَمُونَ أَلْفًا كَأَسَادِ الشَّرَى نَضِجَتْ أَعْمَارُهُمْ قَبْلَ نَضْحِ التِّينِ وَالْعَنْبِ ^(٢)
فَلِهَذَا الْبَيْتِ خَيْرٌ لَوْ اسْتَقَرَّتْ صُحُفُهُ لِأَقْصَرَتْ عَمَّا تَنَاولَتْهُ بِالطَّمَنِ فِيهِ .
ثُمَّ قَصَصْتُ الْخَبَرَ ، وَقُلْتُ : فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ مُتَقَدِّمِي
الشُّعْرَاءِ وَأُمَرَاءِ السُّكَلَامِ وَأَرْبَابِ الصَّنَاعَةِ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ .

قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قُلْتُ : لَوْ قَالَ قَائِلُ : إِنْ أَحَدًا لَمْ يَبْتَغِدْ بِأَوْجَزٍ وَلَا أَحْسَنَ
وَلَا أَحْصَرَ مِنْ قَوْلِهِ :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ
لَمَّا عُنِفَ فِي ذَلِكَ ، وَفِيهَا يَقُولُ :

(١) تَحْوَنَتُهُ : تَقَصَّصَتْ . (٢) أَيْ أُنْ جَيْشٍ ، الْمَدْرُكَانِ نَسَمِينَ أَلْفًا حُلَّ أَجْلِهِمْ فَبَدَّلَ أَنْ يَنْضَحَ
التِّينَ وَالْعَنْبَ ، وَفِي هَذَا تَهَكُّمٌ بِالْمُتَجَمِّعِينَ وَالْبَيْتُ مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي ابْتَدَأَهَا بِقَوْلِهِ :
لَيْفَ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ
وَقَدْ حَكَمُوا أَنَّ الْمُتَجَمِّعِينَ كَانُوا حُدْرُوا النَّهْمِ نَضْحَ عُمُورِيَّةٍ وَ هَذَا الْأَوَّلُ ، وَقَالُوا : إِنَّا نَحْدُو
الْكُتُبَ أَنَّهُ لَا تَنْتَعِجُ إِلَّا فِي وَقْتِ نَضْحِ التِّينِ وَالْعَنْبِ فَلَمْ يَسْمَعْ الْمُتَعَمِّرُ أَقْوَالَهُمْ ، وَسَارَ بِعِدَّتِهِ
فَعَدَّهَا

رمى بك الله بُرْجِيهَا فَهَدَمَهَا ولورمى بك غير الله لم يصب
وفيها يقول :

فَتَحَّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وتبرز الأرض في أبوابها التُّشْبِ
وفيها يقول :

بِكْرُفًا افْتَرَعَتْهَا كَفَّ حَادِقَةٍ ولا ترق إليهما همة التُّوبِ
وفيها يقول :

غَادَرَتْ فِيهَا بِهِمَ اللَّيْلِ وَهُوَ ضَحَى يشله^(١) وسفاهاً صُبَّحَ من اللَّهَبِ
حتى كَانَ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغَبَتْ عن لونها ، وكان الشمس لم تغيب

وفيها يقول :

أَجَبَتْهُ^(٢) مُعَلِّيًا بِالسِّيفِ مُنْصَلِتًا ولو أُجِبَتْ بِغَيْرِ السِّيفِ لم يحب
وأما قوله :

أَقُولُ لَتَرْحَانُ مِنَ الْبَيْنِ ٠٠٠ فإنه يريد رجلاً لم يَقْطَعْ أَحَابُهُ ، ولم يبينوا
عنه قبل ذلك ، إذا كانت حاله كذلك كان موقعُ البين أشدَّ عليه ، وأفت في
عضده ، والأصل في هذا ؛ أن التُّرْحَانَ الذي لم يُجَذَّرْ^(٣) قط ، وقد
خال جرير :

• وَكُنْتُ مِنْ زَفَرَاتِ الْبَيْنِ قُرْحَانًا •

وفي هذه القصيدة من المعاني الرائعة ، والتشبيهات الواقة ، والاستعارات

(١) يشله : يطرده ، يقول : إن الليل المظلم صار نهاراً باشتغال النيران التي كانت تطارد الظلام
(٢) المراد صوت المرأة التي استغاثت به . (٣) يجذر : يسب بالجنوى .

البارعة ما يَنْقَرُ معه هذا البيتُ وأمثاله . على أَنَّا أَبْنَأُ عن صحة معناه وعن أمثاله ،
فمن ذلك :

إذا العيسُ لَاقَتْ بِي أَبَا دُلْفٍ قَدْ تَقَطَّعَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّوَابِ
يرى أَقْبَحَ الْأَشْيَاءِ أَوْبَةً آمِلٍ كَسَتْهُ يَدُ الْمَأْمُولِ حُلَّةً خَائِبِ
وأَحْسَنُ مِنْ نُورٍ يَفْتَحُهُ التَّنْدَى بِيَاضِ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْعَالِبِ
ولو كَانَ يَفْنَى الشَّعْرُ أَفْنَاءَ مَا قَرَّتْ^(١) حَيَاضُكَ مِنْهُ فِي الْعُصُورِ النَّوَابِ
ولسَكَنَهُ فَيْضُ الْعُقُولِ إِذَا انْجَلَّتْ سَحَابُ جُودٍ أَغْشَيْتْ بِسَحَابِ

فهره ما أوردته وقصر عنان عبارته ، وحبس بُذَيَاتِ صدره ، وعَقَلَ عن
الإجابة لانه ، وكاد يَشْفَبُ^(٢) لولا ما تحوَّفه من عاقبة شَفْبِهِ ، وما عَرَفَهُ من
مكائى فى تلك الأيام ، وأن ذلك لا يَنْمُ له ، فإزاد على أن قال : قد أ كثرَتْ فى
أبى تَمَامٍ ، لا قدس الله أبا تمام ودَوَّيه ا

قلت : ولا قدس السارق منه والواقع فيه ! ثم قلت له : ما الفرق فى كلام
العرب بين التقديس والقداس والقداس ؟ فقال : وأى شىء غرضك فى
هذا ؟ فقلت : للذاكرة . فقال : بل المهارة^(٣) ! ثم قال : التقديس : التطهير فى
كلام العرب ؛ ولذلك سُمِّيَ الْقُدُسُ قُدْسًا ، لأنه يشتمل على الذى به الطهور ، وكل
هذه الأحرف تؤول إلىه .

قلت : ما أحسبك أنعمت النظر فى شىء من علوم العرب ، ولو تقدمت
منك مطالعة لها لما استعجزت أن تجمع بين معانى هذه الكلمات مع تنابها ،

(١) ماقرت : ما جمعت . (٢) يشفب : يهيج الشر . (٣) المهارة : المسابة بالفيج من القول .

وذلك لأن « القَدَّاس » بتشديد الدال : حجرٌ يُلقَى في البئر ليعلمَ به غزارةُ مائهم من قَلْبِهِ ، حكى ذلك ابنُ الأعرابي . والقَدَّاس : الجُنَانُ ، حكى ذلك الخليل ، و« القادس » : السفينة ، قال الشاعر يصف ناقه :

وَتَهْفُو بِهَا دِلْمَا مُتْلِعٌ^(١) كَمَا اقْتَحَمَ الْقَادِسَ الْأُرْدُمُونَ^(٢)

فلما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمةٌ إليك اللثة . قلت : وكيف نلَّهها ، وأنت أبو عذرها^(٣) وأولى الناس بالتحقيق بها والتوسُّع في اشتقاقها ، والكلام على أفانينها ! وما أحدٌ أولى بأن يُسأل عن لُفَّتِهِ منك . فشرَّعتِ الجماعةُ الحاضرة في إعفاء وقبول عذره ، والتواحُي^(٤) له ، وقال كلٌّ منهم : أنت أولى بالراجحة والياسرة لمثل هذا الرجل من كلِّ أحد .

وكنْتُ قد بلغتُ شفاءَ نفسي ، وعلمْتُ أن الزيادة على الحدِّ الذي انتهتُ إليه ضَرْبٌ من البَنَى لا أراه في مذهبي ، ورأيتُ له حقَّ القَدَمَةِ^(٥) في صناعته ، فطأطأتُ له كَتِفِي ، واستأنفتُ جِيعًا من وصفه ، ونهضتُ .

فنهض لي مشيِّمًا إلى الباب ، حتى ركبتُ ، وأقسمتُ عليه أن يعودَ إلى مكانه ؛ ونشأغلتُ بقيةَ يومٍ بشُغْلٍ عَنِّي ، تأخرتُ معه عن حَضَرَةِ المَلِيبِ ، وانتهى إليه الخبرُ ، وأتقنَى رسله ليلاً فأَتَيْتُهُ ، فأخبرته بالقصة : فكان من سروره وابتهاجه بما جرى ما منَّه على مباكرةٍ مُعَرِّ الدَّوْلَةِ ، قائلاً له : أعلمتَ ما كان من فلان والمتنبي ؟ قال : نعم ، قد شَقَّيْ منه صُدُورَنَا .

(١) من أطلع فلان : مد عنقه متطاولاً . (٢) الأردمون : جمع أردم : وهو الملاح الحافز .

(٣) أبو عذرها : يريد محمد سبيها . (٤) أي موافقته . (٥) القدمة : القدم .

١٣٦ - نقد شعر امر القيس *

وصل إلى حَضْرَةِ سيف الدولة رجل من أهل بندا ، وكان يَنْقُرُ^(١) العلماء
والشعراء بما لم يَدْفَعْهُ ، ولا يَنْكُرُهُ الوَثَمُ .

فلتقاء سيف الدولة باليمن ، وأُعْجِبَ به إعجاباً شديداً ، فقال يوماً : أخطأ
امرؤ القيس في قوله :

كأنِّي لم أَرْكَبْ حِوَاداً لِلذَّةِ ولم أُنْبِطَنْ كاعباً^(٢) ذات خُجَالِ
ولم أَسْبَأْ الزُّوقَ^(٣) الرُّوِيَّ^(٤) ولم أَقْلِ نَخِيلِي كُرْمِي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ^(٥)
وهذا معدول عن وجهه ، ولا شك فيه .

ف قيل : وكيف ذلك ؟ إنما سبيله أن يقول :

كأنِّي لم أَرْكَبْ حِوَاداً ولم أَقْلِ نَخِيلِي كُرْمِي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ
ولم أَسْبَأْ الزُّوقَ الرُّوِيَّ لِلذَّةِ ولم أُنْبِطَنْ كاعباً ذات خُلْجَالِ
فيقترن ذكر الخليل بما يشاكلها في البيت كله ، ويقترن ذكر الشراب واللهو
بالنساء ، ويكون قوله : « للذَّة » في الشراب أطبع منه في الركوب .

فبهت الحاضرون ، واهتز سيف الدولة ، وقال : هذا انتهدى وحق أبي ا
فقال له بعض الحاضرين من العلماء : أنت أخطأت وطمنت في القرآن إن
كنتَ نَعَمْتَ .

* ذل زهر الآداب : ٢٥٩

(١) نفر ارجل : غايه . (٢) ال كاعب : من نهى تديهاها . (٣) سبأ آخر : اشتراها .

(٤) الزوق : السقاء . (٥) الروي : الروي - (٦) أجفال : أسرع وذمب .

فقال سيف الدولة : وكيف ذلك ؟ فقال : قال الله تعالى : ﴿ إِنْ لَكَ إِلَّا
تَجْوَعُ فِيهَا وَلَا تَمْرِي ، وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ ، وعلى قياسه يجب أن
يسكون : وإن لك ألا تجوع فيها ولا تظن ، ولا تمرى فيها ولا تضحى ، وإعاطفه
امرؤ القيس بالواو التي لا توجب تعقيباً ، ولا ترتبُ ترتيباً^(١) .
فجعل واقطع !

(١) روى مثل هذا من المتنبي مع سيف الدولة إذ أشده فصيدته التي مطلعها :
على قدر أهل الزم تأتى الزائم وتأتى على قدر الكرام اللكام
إلى أن قال :

وقفت وماى الموت شكك لو اقف كأنك فى جفن الردى وهو نام
تمر بك الأبطال كللى هزعة ووجهك وضاح وثفرك باسم
فأنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجزهما على صدرهما ، وقال : ينشأن تطبيق عجز الثانى على
الأول ، وعجز الأول على الثانى ، وأنت فى ذلك مثل امرئ القيس فى قوله :
كأنى لم أركب الخ

فقال له أبو الطيب : أدام الله عز مولانا ! إن صبح أن الذى استدرك هذا على شعر امرئ القيس
أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤ القيس ، وأخصأت أنا ، ومولانا يعرف أن البراز لا يعرف التوب
معرفة الماتك ولما قرن امرؤ القيس لغة النساء بلغة الركوب للصيد ، وقرن الساحة فى
شراء الخمر للاضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتيت به
بذكر الردى ليجاهه ، ولما كان وجهه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً ، وعينه من أن تكون
بكية قلت : « ووجهك وضاح » ؛ لأجيب بين الأضداد فى المعنى . فأعجب سيف الدولة ووصله
بمخساة دينار .

١٣٥ — لا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ابْنُ مَعْمَرٍ *

قال الرياشي : اشترى بصرى جازية على أرفع ما تكون من الجلال والصباحة ، فكلف بها - وكان مُتْرِيًّا - فأففق عليها ما في بده حتى أُمْلِقَ ^(١) ؛ فأشارت عليه بييمها شفقةً عليه .

فلما حَضَرَ بها السوق أُخِذَتْ إِلَى ابْنِ مَعْمَرٍ - وكان عاملاً على البصرة - فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وَهَمَّ بالانصراف أنشدت :

هنيئاً لك المال الذي قسد حوبته ولم يبق في كَفِّيْ غَيْرُ الْعَذْكَرِ
أقول لنفسي وهي في غَشْيِ كُرْبَةٍ أَقْلَى فَقَدْ بَانَ الْحَبِيبُ أَوْ اكْثَرِي
إذا لم يكن للأمر عندي حيلة ولم تجدي شيئاً سوى الصبر فاصبري
فاشدد بكاء مولاها ، وأنشد :

فلولا قعود الدهر بي عنك لم يكن يفرقنا شيء سوى الموت فاصبري
أروح بهم في الفؤاد مبرح أناجي به قلباً طويلاً التفكير
عليك سلام لا زيارة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابنُ مَعْمَرٍ

فقال ابن معمر : قد شئت ، خذها ولك المال ، فانصرفا راشدين ، فوالله لا كنت سبباً لفرقة محبين !

* تزيين الأسواق : ١٣١

(١) أُمْلِقَ . الغفر .

١٣٦ — الشعر بضاعة تجدى *

قال إبراهيم السويقي مولى للمهالبة : تنابعت على سنون ضيقة ، وألح على العسر وكثرة العيال وقلة ذات اليد ؛ وكنت مشتهراً بالشعر أقصد به الإخوان وأهل الأقدار وغيرهم ، حتى جفأني كل صديق ؛ وملئ من كنت أقصده ، فأعزّني ذلك جدا .

فبينما أنا جالس مع امرأتى في يوم شديد البرد ، إذ قالت : يا هذا ؛ قد طال علينا الفقر ، وأضر بنا الجهد^(١) ، وقد بقيت في بيتي كأنك زمن^(٢) ؛ هذا مع كثرة الولد ؛ فأخرج عنى واكفني نفسك ، ودعنى مع هؤلاء الصبيان ، أقوم بهم مرة ، وأقصد بهم أخرى ؛ ثم ألحّت على فى المصوبة ، وقالت : يا مشنوم نعلت صناعة لا تجدى عليك شيئاً .

قال : فضجرت منها ومن قولها ، وخرجت على وجهى فى ذلك البرد والريح ، وليس على إلا فروّ خلّق ، ليس فوقه دثار ، ولا تحته شعار ، وهى عنى لأزار ، لو قد جاءت ريح شديدة ذهبت به من بلاه وكثرة رقاعه ؛ فخرجت متعبراً لأدري أين أقصد ، ولا حيث أذهب .

فبينما أنا أجيل الفكرة إذ أخذتني سماء يقطر متدارك ، فدققت^(٣) إلى دار

* المقدم الفريد : ٤ - ٥

(١) الجهد : المشقة . (٢) الزمن : اللبث . (٣) دققت له مكان كذا : انتهيت إليه .

على نابهاروشن^(١) مُطلّ ، ودكان^(٢) لطيف ، وليس عليه أحد ، فقالت : أَسْتَر
بالرّوشن إلى أن يسكن المطر .

فقصّدتُ قَصْدَ الدار ، فإذا بجارية قاعدة قد جلست على باب الدار كالحافظة
عليه ، فقالت لي : إليك يا شيخُ عن بابنا ، فقالت : أنا - وبحك ! لستُ بسائل ،
ولا أنا ممن تُتَخَوّفُ نَاحِيَتَهُ . فجلست على الدُّكان ، فلما سكنتُ نفسي سمعت
نغمة رخيمة من وراء الباب تدلُّ على نغمة امرأة فأصغيتُ ، فإذا بكلام يدلُّ على
عتاب ، ثم سمعت نغمة أخرى مثل ذلك وهي تقول : فملتِ وفملتِ ، والأخرى
تقول : بل أنت فملتِ وفملتِ ، إلى أن قالت إحداها : أنا - جعلتُ فداك - إن
كنتُ أسأتُ فاغفري ، واحفظي بيتي لمولانا إبراهيم السويقي ، فقالت الأخرى :
وما قال ؟ فإنه يلغني عنه أشمارُ ظريفة ، فأندشتها تقول :

هَبْنِي يَا مُعْذِيقِي أَسَأْتُ وَبِالْهَجْرَانِ قَبْلَكُمْ بِدَأْتُ
فَأَبْنِ الْفَضْلُ مِنْكَ فَدَنِّكَ نَفْسِي عَلَى إِذَا أَسَأْتُ كَمَا أَسَأْتُ !
فقالت : ظَرُفُ وَاللَّهِ وَأَحْسَنُ .

قال إبراهيم : فلما سمعتُ ذكرى ، وذكر مولانا ، علمتُ أمهما من بعض نساء
المهالبة ، فلم أتمالك أن دفعت الباب ، وهجمتُ عليهما فصاحتا : وراءك يا شيخ عَنَّا
حتى نستتر . وتوهمتا أني من أهل الدار ، فقلت لهما : جعلتُ فداكما ! لا تحتكما
عني ، فإنني أنا إبراهيم السويقي ، ثم قلت لإحداها : بحق حرمتي إلّا شفقتني فيها ،
وهبت لي ذنبها ، واسمعي مني ، فأنا الذي :

(١) الروحش : الرف ، والرداد الظلة . (٢) الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها .

خذى بيدي من الحزن^(١) الطويل فقد ينفو الخليل عن الخليل
 فقالت: قد فعلتُ، وصفعتُ عن زلتها؛ ثم قالت: يا أبا إسحاق؛ مالى
 أراك بهذه الهيئة الرثة، واليزرة الخلق^(٢)! فقلت: يا مولاتى، تمدى على الدهر،
 ولم ينصفنى الزمان، وجفانى الإخوان، وكسدت بضاعتى، فقالت: عز على ذلك!
 وأومأت إلى الأخرى، فضربت يدها على كُمها، فسلت دُمْلجاً^(٣) من ساعدها،
 ثم ثنت باليد الأخرى فسلت منها دُمْلجاً آخر، فقالت: يا أبا إسحاق؛ خذ هذا،
 واقعد على الباب مكانك وانتظر الجارية حتى تأتىك، ثم قالت: يا جارية، سكن
 المطر؟ قالت: نعم، فقامتا.

وخرجتُ وقعدتُ مكانى، فما شعرت إلا والجارية قد وافت بمندبل فيه خمسة
 أثواب، وصرّة فيها ألف درهم، وقالت: تقول لك مولاتى: أُنْفِقْ هذه فإذا احتجبت
 فصرّ إلينا حتى نزيدك إن شاء الله.

فأخذت ذلك وقت، وقلت فى نفسى: إن ذهبت بالدُمْلَجَيْنِ إلى امرأتى
 قالت: هذا لبناتى وكأثرتنى^(٤) عليهما، فدخلت السوق، فبعتهما بخمسين ديناراً،
 وأقبلت.

فلما فتحت الباب صاحت امرأتى وقالت: قد جئت أيضاً بشؤمك! فطرحت
 الدنانير والدرام بين يديها والثياب، فقالت: من أين لك هذا؟ قلت: من الذى
 تشاءمته به، وزعمت أنه بضاعتى التى لا تجدى، فقالت: قد كانت عندى فى غابة
 الشؤم، وهى اليوم فى غاية البركة!

(١) الحزن: ضد السرور. (٢) يتوى فيه للذكر وللؤنث. (٣) الدملج: ما على الباعد
 من الخلى. (٤) كأثرته: غلبه بالكثرة.

١٣٧ — حديث جويرية*

قال متم المبدى: خرجتُ من مكة زائراً قبر النبي صلى الله عليه وسلم
فإني لَيْسُ سَوْقُ الْجَحْفَةِ^(١) إِذَا جَوَيْرِيَّةُ^(٢) تَسُوقُ بَعِيراً ، وتترنم بصوتٍ مَلِيحٍ طَيِّبٍ
حُلُوٌّ فِي هَذَا الشَّعْرِ :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي حِيلَ دُونَهُ بِنَا أَنْتَ مِنْ بَيْتٍ وَأَهْلُكَ مِنْ أَهْلِ
بِنَا أَنْتَ مِنْ بَيْتٍ وَحَوْلِكَ لَذَّةٌ وَظِلَّكَ لَوْ بِسَطَاعِ بِالْبَارِدِ السَّهْلِ
ثَلَاثَةُ أَيَّامَاتٍ : فَبَيْتٌ أَجِبُهُ وَيَتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلِي
قلت : لمن هذا الشعر يا جَوَيْرِيَّةُ ؟ قالت : أَمَا تَرَى تِلْكَ السَّكْوَةَ الْمَوْفَاةَ
بِالسَّكَلَةِ^(٣) الْحَمَاءَ ، قلت : أَرَاهَا ، قالت : من هناك نهض هذا الشعر ؛ قلت :
أَوْ قَائِلَهُ فِي الْأَحْيَاءِ ؟ قالت : هِيَهَاتَ ! لَوْ أَنَّ لِمَيْتٍ أَنْ يَرْجِعَ لَطَوَّلَ غَيْبَتَهُ لَكَانَ ذَلِكَ ؛
فَأَعْجَبَنِي فَصَاحَةُ لِسَانِهَا ، وَرَقَّةُ أَلْفَاظِهَا : فقلت لها : أَلَاكَ أَبَوَانِ ؟ فقالت : فَقَدْتُ
خَيْرَهُمَا وَأَجَلَّهُمَا . وَلِي أُمٌّ ، قلت : وَأَيْنَ أُمُّكَ ؟ قالت : مِنْكَ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ .

فَنَظَرْتُ فَإِذَا امْرَأَةٌ تَبِيعُ الْخَرَزَ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ بِالْجَحْفَةِ ، فَانْتَبَهْتُ فَقُلْتُ :
يَا أُمَّاهُ ، اسْتَمْعِي مِنِّي ، فقالت لها : يَا أُمَّهُ ، فَاسْتَمْعِي مِنْ عَمِّي مَا بَلَقِيهِ إِلَيْكَ ،
فَسَالَتْ : حَيَّاكَ اللَّهُ ا هِيَه ، هَلْ مِنْ خَبَرٍ ؟ قلت : هَـدْهُ ابْنَتُكَ ؟ قالت :
كَذَا كَانَ يَقُولُ أَبُوهَا ، قلت : أَقْرَبُوجِيْنَهَا لِي ؟ قالت : أَلِمَّةٌ رَغِبَتْ فِيهَا ا وَاللَّهِ
مَا عِنْدَهَا جَمَالٌ وَلَا لَهَا مَالٌ ، قلت : لِحَلَاوَةِ لِسَانِهَا ، وَحَسَنِ عَقْلِهَا ، فقالت :

* الأماي : ٢٠ - ٦

(١) الجحفة : قرية على اثنين وعشرين ميلاً من مكة . (٢) جويرية : تصغير جارية . (٣) السكلة :
الزرق الرقيق .

أَيْنَا أَمْلِكُ بِهَا ، أَنَا أَمْ هِيَ بِنَفْسِهَا ؟ قُلْتُ : بَلْ هِيَ بِنَفْسِهَا . قَالَتْ : قَايَئَاهَا نَغْلَظُ ،
قُلْتُ : لَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَحْيَ مِنَ الْجَوَابِ فِي مِثْلِ هَذَا ! فَقَالَتْ : مَا ذَاكَ عِنْدَهَا ،
أَنَا أَخْبَرُ بِهَا . قُلْتُ : يَا جَارِيَّةُ ، أَمَا تَسْتَمْعِينَ مَا يَقُولُ أُمُّكَ ؟ قَالَتْ : قَدْ سَمِعْتُ .
قُلْتُ : فَمَا عِنْدُكَ ؟ قَالَتْ : أَوْ لَيْسَ حَسْبُكَ أَنْ قُلْتُ : إِنِّي أَسْتَحْيِي مِنَ الْجَوَابِ فِي
مِثْلِ هَذَا ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَسْتَحْيِي مِنْ شَيْءٍ فَلَمْ أَفْعَلْهُ ؟ أَتُرِيدُ أَنْ يَكُونَ سُلْطَانُكَ عَلَيَّ ؟
لَا وَاللَّهِ ، لَا يَشُدُّ عَلَيَّ رَجُلٌ حَوَاءَهُ^(١) وَأَنَا أَجِدُ مَذْقَةَ^(٢) لَبَنٍ أَوْ بَقْلَةَ أَلْبَنٍ
بِهَا مِمَّاى .

فَوَرَدَ عَلَى وَاللَّهِ عَجَبُ كَلَامٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، قُلْتُ : أَتَزَوَّجُكَ وَالْإِذْنَ
فِيهِ إِلَيْكَ ! وَأَعْطَى اللَّهُ عَهْدًا أَلَّا أُصْدِرَ فِي أَمْرِكَ شَيْئًا إِلَّا عَنْ إِرَادَتِكَ ، قَالَتْ :
إِذْنُ وَاللَّهِ لَا تَسْكُونُ لِي فِي هَذَا إِرَادَةٌ أَبَدًا وَلَا بَعْدَ الْأَبَدِ إِنْ كَانَ بَعْدَهُ بَعْدُ ! قُلْتُ :
قَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ ، وَتَزَوَّجْتُهَا وَحَمَلْتُهَا وَأَمَّا مَعِيَ إِلَى الْمَرَاقِ . وَأَقَامَتْ مَعِيَ حَتَّى
فَارَقْتُ الدُّنْيَا .

(١) الحَوَاءُ اسْمُ الْمَسْكَنِ الَّذِي يَحْوِي النَّارَ وَيُجَمِّعُهُ . (٢) مَذْقُ اللَّبَنِ : خَانِطُهُ ، وَالْمَذْقَةُ : الطَّائِفَةُ
مِنْ اللَّبَنِ الْمَذْقُوقِ .

١٣٨ - أحلف وأنا في هذه السن *

باع مَزِيدُ الدَّبِي دَابَّةً ، فلما كان من الغد أتاه النخاسون^(١) طمعاً ، فلما نظروا إليهم قد أقبلوا نحوه قام يصلي ، فأطال الصلاة ، فقالوا له : ومم لا يعرفونه : يا عبد الله ؟ قد ذهب يومنا - وأطعمهم طولَ قيامه ، وكان أحسن الناس سمناً ، وأظهرهم هدباً - فانتقل^(٢) عن صلاته ، وقال : ما بالكُم ؟ قد قطعتم على صلاتي !

فقالوا له : قد ظهر بالدابة عيبٌ ، قال : وما عيبه^(٣) ؟ قالوا : يخلع الرِّسَن^(٤) ! قال : لا أعرفه بهذه الصفة ؟ فإذا تريدون ؟ قالوا : خصلة من ثلاث : إما الحَظِيطة^(٥) ، وإما ردُّ الثمن وأخذ الدابة ، وإما اليمين بالله أنك ما تعرف هذا فيه .

فقال : أما الثمن فقد فرقناه ، وأما الحَظِيطة فما تمكنا ، وأما اليمين فإني ما حلفت قط على حقٍ ولا على باطلٍ ؛ فأعفوني منها ، فإنها أصعبُ الحُصط^(٦) عندي . قالوا : ما من ذلك بدٌ ؛ فأنطأ بنا إلى الوالى .

فقام معهم ، فلما بصر به الوالى ضحك ، وقال : ما جاء بك يا أبا إسحاق ؟ نقصت عليه القصة ، فقال : قد أنصفت التوم . فقال : أعز الله الأمير ، أحلف وأنا في هذه

* ذيل زهر الآداب : ١٥٧

(١) النخاس : بائع الدواب . (٢) انتقل عن صلاته : انصرف . (٣) الدابة تقم على الذكر أيضاً . (٤) الرسن : الخيل ، وما كان من زمام على أنف .. (٥) الحَظِيطة : ما يحيط من الثمن (٦) الحطة : الطريقة .

السن ، وضرب يده على خيته وبكى ا وقال : ما حلفتُ على حقٍّ ولا على باطل والتوى^(١) .

قال : لا بد ا فالتوى ساعة ، ثم قال : أصلح الله الأمير ؛ فإن حلتُ نفسي على الحمين وحلفتُ وأَعْتَوَيْ^(٢) بمد . قال : أوجِعْهُمْ ضرباً وأَحْبِسْهُمْ ا فلما سَمِعَ ذلك استقبل القبلة ، وأقسم بأغلظ الأيمان . وقال : لقد كان عندي دواب كلهم تَخْلَعُ أَرْسَانَهَا ، فكان الحمار يقوم فيميدها عليها ، ويصلحها بقمه قليلاً قليلاً ، فضحك الوالى حتى فَحَصَ الأرض برجليه ، وبُهِتَ الْإِنَّاخُونَ ومحبوا منه ، وانصرفوا عنه .

(١) اتوى : تناقل ولم يفعل . (٢) الإعانت : تكليف غير الطاقة .

١٣٩ - ضَرْتَانِ*

تَزَوَّجَ رَجُلٌ امْرَأَةً جَدِيدَةً عَلَى امْرَأَةٍ قَدِيمَةٍ ، فَكَانَتْ جَارِيَةً الْجَدِيدَةِ تَمُرُّ عَلَى
بَيْتِ الْقَدِيمَةِ ، فَنَقُولُ :

وَمَا يَسْتَوِي الرَّجُلَانِ رَجُلٌ صَحِيحَةٌ وَأُخْرَى رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَشَلَّتِ
ثُمَّ تَعُودُ فَتَقُولُ :

وَمَا يَسْتَوِي الثَّوْبَانِ ثَوْبٌ بِهِ الْبِلَى وَثَوْبٌ بَأَيْدِ الْبَائِسِينَ جَدِيدٌ
فَرَمَتْ جَارِيَةُ الْقَدِيمَةِ عَلَى بَابِ الْجَدِيدَةِ يَوْمًا وَقَالَتْ :

نَقْلُ فُؤَادِكَ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٌ فِي الْأَرْضِ بِالْفَهْ الثَّقَى وَحَنِينُهُ أَمْدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ !

١٤٠ — من كذب الأعراب *

تَكَاذِبُ أَعْرَابِيَانِ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا : خَرَجْتُ مَرَّةً عَلَى فَرَسٍ لِي ، فَإِذَا بِظُلْمَةٍ
شَدِيدَةٍ فَمَضَيْتُهَا ^(١) حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْهَا ، فَإِذَا قِطْعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ تَفْتَحْهُ ^(٢) ، فَازَلْتُ
أَحِلُّ بِفَرَسِي عَلَيْهَا حَتَّى أَنْبَهْتُهَا ؛ فَانْجَابَتْ ^(٣) .

فَقَالَ الْآخَرُ : لَقَدْ رَمَيْتُ ظَلِيماً مَرَّةً بِسَهْمٍ ، فَعَدَلَ الظُّلْمِيُّ يَمَنَةً ، فَعَدَلَ السَّهْمُ
خَلْفَهُ فَتَيَاسَرَ ^(٤) الظُّلْمِيُّ ، فَتَيَاسَرَ السَّهْمُ خَلْفَهُ ، ثُمَّ عَلَا ، فَعَلَا السَّهْمُ خَلْفَهُ ، وَانْحَدَرَ
فَانْحَدَرَ خَلْفَهُ ، حَتَّى أَخَذَهُ ا

* الكامل : ١ - ٣٥٧

(١) قَصَدْتُهَا . (٢) لَمْ تَسْتَقِظْ . (٣) انْجَابَتْ : انْكَشَفَتْ . (٤) تَيَاسَرَ : سَارَ يَسَارًا .

١٤١ - قَسَمَ فَأَحْسَنَ الْقِسْمَةَ*

حدثت أعرابي كان يزلُّ بالبصرة قال : قَدِمَ أعرابي من البادية ، فأمرئسه ، وكان عندي دجاج كثير ، ولى امرأة وابنان وابنتان منها ، قلت لامرأتى : بادري واشوى لنا دجاجة ، وقدَّمِها إلينا تنفدى .

فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتى وابنتى وابنتاى والأعرابى فدَقَفْنَا، إليه الدَّجاجة وقلنا له : اقسمنا بيننا - ربد أن نضعك منه - فقال : لا أَحْسِنُ القسمة ؛ فإن رضيتُم بقسمتى قسمتها بينكم ، قلنا : فلأننا نرضى ، فأخذ رأس الدجاجة فقصها فذَوَّلْنِيه ، وقال : الرأسُ للرأس - وقطع الجناحين - وقال : الجناحان للابنين - ثم قطع السَّاقَيْنِ - فقال : الساقون للابنتين ، ثم قطع الزَّوْجَيْنِ^(١) وقال : المعجز للمعجوز ؛ وقال : الزَّوْر للزائر . وأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا .

فلما كان من الغد قلت لامرأتى : اشوى لنا خمس دجاجات ، فلما حضر الغداء قلت : اقسم بيننا . قال : إني أظن أنيكم وجدتم^(٢) في أنفسكم ، قلنا : لا ، لم نجد في أنفسنا ؛ فاقسم ! قال : أقسم شفعاً أو وترزاً^(٣) ؟ قلنا : اقسم وترزاً ، قال : أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ، ورمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : وابنتك ودجاجة ثلاثة ، ورمى إليهما بدجاجة ، ثم قال : وأنا ودجاجتان ثلاثة ، وأخذ دجاجتين ، وسخر بنا .

* نهاية الأرب : ١ - ١٧ ، الحيوان : ٢ - ١٣٠

(١) اربكى : ذب الصَّائِر - (٢) وجد : حزن - (٣) الوتر : التفرد ، والشفع ضدّه .

ثم رأنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه ؛ فقال : ما تنظرون ؟ لعلكم كريهتم قسمة
الوتر ، لا يجي . إلا هكذا ؛ فهل لكم في قسمةٍ للشفع ؟ قلنا : نعم ؛ فضمنَّ إليه
ثم قال : أنت وابنك ودجاجة أربعة ، ورمى إلينا بدجاجة ، ثم قال : والمجوز
وابنتاها ودجاجة أربعة ، ورمى إليهنَّ بدجاجة ، ثم قال : أنا وثلاث دجاجات
أربعة ، وضمَّ إليه الثلاث ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت
فهمَّتَنيها !

١٤٢ - زهد وأدب*

قال محدث : قصدت منزل ابن بكّار الرواسي في أشبونة^(١) وقرت الباب ،
فنادى : مَنْ هذا ؟ فقلت : رجلٌ تمّن بتوسّل لروايك بقرابة ، فقال : لا قرابة إلا
بالتقى ؛ فإن كنت من أهله فادخل ، وإلا فتنح عني .

فقلت : أرجو في الاجتماع بك والافتباس منك أن أكون من أهل التقى ،
فقال : ادخل ، فدخلت عليه ، فإذا به في مُصَلّا ، وسُبحَة أمامه ، وهو يعدّد جوبها
ويسبح ، فقال لي : أُمهاني حتى أتمّ وظفني من هذا التسبيح ، ثم أقضى حقك ؛
فعمدت إلى أن فرّغ .

لها قصي شمله عطف عليّ ، وقال : ما القرابة التي بيني وبينك ؟ فانتسبت له ،
فعرّف أبي ، وترحم عليه ، وقال لي : لقد كان نعم الرجل ، وكان لديه أدبٌ ومعرفة ،
فهل لديك أتمّ مما كان لديه شيء ؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلّم
الأدب ، وقد تملقتُ من ذلك بما أتميزُ به ؟ فقال لي : هل تنظم شيئاً ؟ قلت : نعم ؛
وقد أبلجني الدهر إلى أن أرتزقَ به . فقال : يا ولدي ، إنه بئسما يُرتزقُ به . وبع
ما يبتغى به إذا كان على غير هذا الوجه ، وإن كان تحلّ الميعة عند الضرورة ؛
فأنشدني - أصلحك الله - بما على ذِكرك من شعرك .

* نفع النيب : ٢ : ١١٢

(١) أشبونة : بلد بالعرب .

فطلبتُ بخاطري شيئاً أقابله به مما يوافق حاله ، فواقع لي إلا فيما لا يوافقه من مجون ووصف خمر وما أشبه ذلك . فأطرفتُ قليلاً ، فقال : لعلك تنظم ، قلتُ : لا ، ولكني أفكر فيما أقابلُك به ، فتَوَلَّى أكثرُهُ فيما حافى عليه الصَّاحِبُ والسُّخْفُ ، وهو غيرُ لائقٍ بمجلك .

فقال : أنشدني ما وقع لك غير متكلف ، فلم يمدني خاطري إلا بشعر أُجْنَبِيٍّ^(١) فيه ، فقال : أما كان في نظمك أظهرُ من هذا ؟ قلتُ له : ما وقَّعتُ لغيره^(٢) ، فقال : لا بأس عليك ، فأنشدني غيره ، ففكرتُ إلى أن أنشدته قولي :

ولما وقَّعتُ على رَبعهم تحرفتُ وجدي بالأجرع^(٣)
وأرسلَ دَمْعِي شِرَارَ الدُّمُوعِ لِنَارِ تَأَجَّجٍ فِي الْأَصْغَرِ
فقام عدولي لَمَّا رَأَى بَكَائِي وَقَفًا عَلَى الْأَذْمَعِ
قلتُ له : هَذِهِ سَنَةٌ لِمَنْ حَفِظَ الْعَهْدَ وَالْأَرْثَمَ^(٤)

فرايتُ الشيخ قد احتاط ، وجعل يمجئ ويذهب ؛ ثم أوف ، وقال : أعيدُ بحقَّ آبائك الكرام . فأعدتُ فأعاد ما كان فيه ، وجعل يردد . قلتُ له : لو علمتُ أن هذا يحرِّكُك ما أنشدتُك إياه ، فقال : وهل حرَّكُك مني إلا خيراً وعِظَةً أيا بُنَيَّ : إن هذه القلوبُ الخَلَاءُ لله كالأوراقِ التي جُفَّتْ ، وهي مستعدةٌ لهبوبِ الريح ، فإن هبَّ عليها أنزلَ ريحَ لَمَبٍ بها كيف شاء ، وصادف منها طوعه .

(١) مجن من باب قعد : هزل .

(٢) راجع هذا الشعر في صفحة ١١٢ من الجزء الثاني من فتح الطيب ، وقد حذفنا منه قصه لما فيه من المجون . (٣) الأجرع : الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل . (٤) الأربع : جمع ربح : الدار بينهما

فأنجيني مَنزعه ، وتأنستُ به ؟ ولم أر عنده ما يُعتَاد من هؤلاء للتدبّين
من الانكاش ؛ بل مازال يحدثني بأخبار فيها هزلٌ ، ويذكر لي من تاريخ بني أمية
وملوكتها ما أرتاحُ له ، ولا أعلم أكثره .

فلما كثر تأنسي به ، أهويتُ إلى يده كي أقبّلها ، فضمّها بسرعة ، وقال :
ما شأنك ؟ قلت : أرغب في أن تنشدي شيئاً من نظميك ؛ فقال : أمّا نظمي في
زمان الصبا فكان له وقتٌ ذهب ، ويجب للنظم أن يذهب معه ، وأمّا نظمي في
هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله ؛ وهو يشغل عليك ، قلت له : إن أنصفَ سيدي
أنشدي من نظم صباه ، ومن نظم شيخوخته ، فآخذُ كلانا بحظّه . فضحك ، وقال :
ما أعصيك وأنت ضيفٌ ، ولك حرمة أدب ، ووسيلةُ قصد ، ثم أنشدني وقد بدا
عليه الخشوع وحنقته المبرّة :

تق بالذي سواك من	عدم فإنك من عدم
وانظر لنفسك قبل قرّ	عر السن من فوط الندم
واحذر - وقيت - من الوري	واصحهم أحمى أصم
قد كنتُ في تيسر إلى	أن لاح لي أهدى علم
فاقتدتُ نحو ضيائه	حتى خرجتُ من الظلم
لكن قناديلُ الهوى	في نور رشدي كالحُم (١)

فوالله لقد أدركني فوق ما أدركه ، وغلب على خاطري بما سمعت من هذه
الآيات ، وفلتتُ بي من اللوعة غاية لم أحد منها التخلص إلا بعد حين ، فقال لي
الشيخ : إن هذه بقطة يرجي معها خيرك والله مرشدك ومتقذك ، ثم قال لي :

(١) الحم : الرماد والنعيم ، وكل ما احترق من النار .

يا بُنَيَّ ؛ هذا ما نحنُ بسبيله الآن ، فاسمعْ ما قلتهُ فيما مضى ، والله وليُّ المفترِّ ،
وأنشد :

أَطْلَّ عِذَارُ عَلَى خَذِهِ فظنوا سُلوَى عن مذهبي
وقالوا : غراب لوشك النوى قلت : اكتسى البدرُ بالذهبِ ^(١)
وناديتُ قلبي : أين السيرُ وبدرُ الدُّجى حلَّ بالمقربِ ^(٢)
فقال : ولو رُمْتَ عن حَبِّهِ رحيلاً عصيت ولمْ أذهبِ

فسمعت منه ما يقصر عنه صدور الشعراء ، وشهدت له بالتقدّم ، وقلت له :
لم أر أحسن من نظمك في جذرٍ ولا هزل . ثم قلت له : إأرويه عنك ؟ فقال : نعم ؛
ما أرى فيه بأساً بعد اطلاع من يَعْلَمُ السرائر على ما في الضمائر ، فقلت له : فإن
أسبغت على النعمة بزيادة شيء من هذا الفنّ فعلت ما تملك به قلبي آخر الدهر .
فقال بابني : لا تملك قلبك غير حبِّ الله تعالى ، ثم قال : ولا أجمع عليك ردّ قول
ومنمّا ، ثم أنشد :

أيها الشادِنُ الذي حُسْنُهُ في الوردِ غربِ
لحظُ ذاك الجلالِ يُطْ في ما بي من اللّهبِ
وعليه أحومُ دَهْ رى ولتكني أخيبُ
كلَّارُمْتُ زَوْرَةَ قَيْصِ الله لي رقيبُ

فأزجَ قلبي من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجزُ من التعبير عنه ، فقلت له :
زدني زادك الله خيراً ، فأنشدني :

ما كان قلبي بدري قدرَ حبِّكمُ حتى بَمَدُّمُ فلم يقدر على الجَلِيلِ

(١) الذهب : الظلمة . (٢) المقرب : برج في السماء .

وكنْتُ أحسب أني لا أضيقُ به ذُرْعًا فاحان حتى فتَّ في عضدي
ثم استمرت على كرهٍ مَرِيْرَةٍ^(١) فكاد يَفْرُق بين الروح والجسد
عساكم أن تلافوا باللقا رَمَقِي فليس لي مهجة تَقْوِي على السكْمِ
ثم قال : حسبك ، وإن كلفتنِي زيادة ، فألله حسبك ، قلت له : قد وَكَلْتَنِي
إلى كريم غفور ، فبالله إلا مازدتني ؛ وأَكْبَيْتُ لأَقْبَلَ رجليه ، فضمَّهما وأنشدني
شعراً رقيقاً ؛ ملا سمي عجائب ، وبسط أنسى ، وكتبته كلَّ ما أنشدني ، ثم قلت
له : لولا خوفي من الثقليل عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا نجد
ما تشده . فقال : إن عدت إلى هنا تذكرت وأنشدتك ، فما عندي مما أضيفك به
غير ما سمعته وما تراه .

ثم قام وجاء من بيت آخر في داره بصحفة فيها حساً^(٢) من دقيق وكسورٍ
باردة ، فجعل يَتُّ فيها ، ثم أشار إلى أن أشرب ، فشربت ، ثم شرب إلى أن
أُتينا على آخرها ، ثم قال : هذا غداء عنتك نهاره ، وإنه لنعمة من الله تعالى ، أستديم
شكرها انصالحا .

قلت له : يا عم ؛ ومن أين عيشك ؟ فقال ؛ عيشي بتلك الشبكة أصطادُ
سها في سواحل البحر ما أُقَاتُ به ، ولِي زوجة وبنت يمود من غزَّ لها مع ذلك ما يجد
به معونة ؛ وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خيرٌ كثير .

فتركته ، وفي نيتي أن أعود إلى زيارته بعد أيام خوفَ الثقليل ، فعدتُ إليه
بعد ثلاثة أيام ، ففترتُ الباب ، فكلمتني المرأة بلسان عليه أثر الحزن ، وقالت :
إن الشيخ قد خرج إلى الغزو ، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم ، ناله كالجنون ،

(١) المريرة : القوة . (٢) الحسا : الرق .

قلت له : ما شأنك ؟ فقال : إني أريد أن أموت شهيداً وهؤلاء جيران لي قد عزموا على الغزو ، وأنا ماضٍ معهم ، إنم اختال في سيف ورمح ، وتوجه معهم ، وقال : نفسي هي التي قتلتني بهواها ، أفلا أقتص منها فأقتلها ! فقلت لها : من خَلَفَ للنظر في شأنكم ؟ فقالت : ليس ذلك لك ؛ فالذي خلقنا له لا نحتاج معه إلى غيره ، فأدركني من جوابها روعة ، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحاً .

قلت : إني قريبه ، ويجب علي أن أنظر في حالكم بعده ؛ فقالت : يا هذا ، إنك لست بذي محرم ، ولنا من المجائر من ينظر لنا ، ويبيع غزلنا ، ويفتقد أحوالنا ؛ فجزاك الله عنا خيراً . انصرف عنا مشكوراً !

قلت لها : هذه دراهم خذوها لتستعينوا بها ، فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ من غير الله ، وما كان لنا أن نخلّ بالمادة .

فانصرفت نادماً على ما فاني من الاستكثار من شمر الشيخ . ثم عدت بعد ذلك لداره سائلاً عنه ، فقالت لي المرأة : إنه قد قبله الله تعالى ؛ فعملت أنه قتل ؛ فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ .

فانصرفت معتبراً من حاله .

١٤٣ - تشابه خاطرين*

قال ابن ظافر : صرنا في بعض الشكاي على البساتين ، فرأينا فيها بئراً عليها
دولابان متعاذبان ، وهما يثنان أنين الأشواق ، وفيضان ماء أغزر من دموع
المُشاق ، والروض قد جلا للأعين زبرجده ، والأصيل قد راقه حسنه ، فنثر عليه
عسجده ، والزهر قد نظم جواهره في أجياد الفصوص ، والسواق قد أزلت من
سلاسل فضمتها كل مصون ، والنبات قد اخضر شاربه وعارضه ، وطرف النسيم
قد ركضه في ميادين الزهر راحكه ، ورضاب الفيث قد استقر من الطيف في
لمى ، وحيات المجارى حائرة تخاف من زمرد النبات أن يدركها القمى ، والبحر قد
صقل النسيم درعه وزعفران العشى قد ألقى في ذيل الجو درعه ؛ فأوسع ذلك
المكان قلوبنا استحواداً ، وملأ أبصارنا وأسماعنا مسرة والتذاذاً ، وجلسنا ننذاكر
ما في تركيب الدواليب من الأعاجيب ، ونقتاشد ما وصفت به من الأشعار الغالية
الأسعار ، فأفضى بنا الحديث الذى هو ذو شجون إلى ذكر قول الأعمى^(١) الطالبي
في أسد نحاس يتدف الماء :

أسد ولو أتى أنا قش الحساب لقلت : صخره
فكانه أسد السما • يمج من فيه الجرة

* نفع الطيب : ٢ - ٢٩٢

(١) هو جعفر الأعمى الطليل ، وقال عنه في مطلع من الأنفس : له ذهن يكشف النامض
الذى يخفى ، ويرف رسم الشكل ، وإن كان قد عفا ، . . . من ٢٨٥ مطلع الأنس .

فقال القاضي أبو الحسن علي بن المؤيد : يتولد من هذا في الدولاب معنى
 يأخذ بمجامع السامع ، ويُطربُ الرائي والسامع ؛ فتأملت ما قاله بعين بصيرتي
 البصيرة ، واستمددت مادة غريزي الغزيرة ؛ فظهر لي معنى ملائي إطراباً ، وأوسعى
 إعجاباً ؛ وأطرق كلُّ منا ينظّم ما جاش به مدُّ بحره ، وأنباه به شيطان فكره ،
 فلم يكن إلا كنفرة المصفور ، الخائف من الناطور^(١) ، حتى كمل ما أردناه من غير
 أن يقف واحدٌ منا على ما صنعه الآخر ، فكان الذي :

حبّ— إذا ساعة العشاء والدُّو	لاب يُهْدَى إلى النفوس المسرّة
أدّهم لا يزال يمدو ولكن	ليس يمدو مكانه قدّر ذرّة
ذو عيون من القواديس يبكي	كلّ عين من فائض الدمع رّة
فلّك دائرٌ يرينسا نجومًا	كلّ نجم يُبْدي لنا الجمرّة

وكان الذي قلت :

ودولاب ينّ أنين تَكَلَّى	ولا فقد شكاه ولا مَضَرّة
تري الأزهار في ضحك إذا ما	بكي بدموع عين منه رّة
حكى فلّك تدور به نجوم	تؤثر في مرائرنا الممرّة
يظلّ النجم يُشرق بمدّ نجم	ويضرب بمد ما تجرى الجمرّة

فمجبنا من اتفاقنا ، وقضى المَجِبّ منه سائرُ رفاقنا .

١٤٤ — إنا تـوجد في قـمـر البحـار الفـصـوص *

ألف أبو العلاء صاعد كتاب الفصوص ، وافق أن أبا العلاء دفعه — حين
كـمـل — لـتـلام له يـحـمـله بـين يـدـيه ، وعبـر النـهر — نـهر قـرطـبة — نـخـات الفـلام رـجـلـه ؛
فـسـقط في النـهر هو والـكتاب ا

قال في ذلك بعض الشعراء بيتاً بحضرة المنصور هو :
قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكذا كل قبيـل يـفـوص
فضحك المنصور والحاضرون .
فلم يـرُغ ذلك صاعداً ، ولا هالـه ، وقال مرثـلاً مجيـباً :
عاد إلى مـقـدنه إنا تـوجد في قـمـر البحـار الفـصـوص ا

الباب الرابع

في القصص التي تُورَّخُ مذكورَ أيامهم وتفصلُ مشهور وقائعهم ، ومقتل كبرائهم ، ونصف الحروب والمنازعات التي كانت تدور بين قبائلهم أخذاً بالثار ، أو حماية الذمار .

[انصرتنا في هذا الباب على القصص الأدبي ، أما تفصيل الأيام وتاريخها فقد
أوردناها كتابي « أيام في الجاهلية » و « أيام الرب في الإسلام »]

١٤٥ — كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجَّونِ إِلَى الصَّفَا أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ*

حدث بعض أهل العلم ، أن سَيْلًا جاء فدخلَ البيتَ فَانْهَدَمَ ، فأعادته جُرُهم
على بناء إبراهيم ، ثم استخفَّت جُرُهم بحقَّ البيت ، وارتكبوا فيه أمورًا عظامًا ،
وأحدثوا فيه أحداثًا قبيحة ، وكانت للبيت خِزَانَةٌ ، وهى بئر فى بطنه ، باقى فيها للمتاع
الذى يُهدى له ، وهو يومئذ لا سَقَفَ عليه ، فتَوَاعَدَ خمسة من جُرُهم أن يسرقوا
كلَّ ما فيها ، فقام على كل زاوية من البيت رجلٌ منهم ، واقفم الخامس ، فجعل
الله عزَّ وجلَّ أعلاه أسفله ، وسقط منكسًا فهلك ، وفرَّ الأربعة الآخرون .

فلما كثر بُنى جُرُهم بِمَكَّةَ قام فيهم مُضَاضُ بن عمرو فقال : يا قوم : احذروا
البُنى فإنه لا بقاء لأهله ، وقد رأيتم من كان قبلكم من المالبق اسْتَخَفُّوا بِالْحَرَمِ ،
ولم يعظَّموه ، وتنازعوا بينهم ، واختلفوا حتى سَلَطَكم الله عليهم فاجتحمتموهم ، ففترقوا
فى البلاد ، فلا تستغفروا بحقَّ الحرم وحرمة بيت الله ، ولا تظلموا مَنْ دَخَلَهُ ، وجاءه
معظمُ الحرُماته ، أو خائفوا ورغب فى جواره ، فإنكم إن فعلتم ذلكم نخوفت أن
تخرجوا منه خروج دُلٍّ وصغار ، حتى لا يقدر أحدٌ منكم أن يصل إلى الحرم ، ولا
إلى زيارة البيت الذى هو لسكم حرزٌ وأمن ، والطيرُ تَأْمَنُ فيه .

فقال قاتل منهم : ومن الذى يُخرجنا منه ؟ ألسنا أعزُّ العرب وأكثر مالا وسلاحاً ؟ فقال مُضاض : إذا جاء الأمر بطل ما تدّكرون ، فقد رأيتم ما صنع الله بالعماليق بَقَتْ فى الحرم فسلط الله عليهم الذر^(١) فأخرجهم منه ، ثم رموا بالجذب من خلفهم حتى ردّهم الله إلى مساقط رءوسهم . ثم أرسل عليهم الطوفان .

فلما رأى مُضاض بن عمرو بَقِيَهُمْ ومقامهم عليه عَمِد إلى كنوز السكبة وهى غَزَّالَان من ذهب ، وأسياف قَدَمِيَّة^(٢) خُفِرَ لَهَا لَيْلًا فى موضع زمزم ودفنها .

فبيناهُمْ على ذلك إذ سارت القبائل من أهل مَآرِب ، وعليهم مُزَيِّبَاء ، وهو عمرو بن عامر ، فلما انتهوا إلى مكة وأهلها أرسل إليهم ابْنُهُ ثُمْلَيْبَةُ فقال لهم : يا قوم ؛ إنا قد خرجنا من بلادنا ، فلم نزل بلدة إلا أفسح أهلها لنا ، فنقيم معهم حتى نرسل رُؤَاداً فیرتادوا لنا بلدًا يحملنا . فأفسحُوا لنا فى بلادكم حتى نقيم قَدَر ما نستريح ، ونرسل رُؤَاداً إلى الشام وإلى الشرق فحينما بلغنا أنه أمثل لَحِقْنَا به ، وأرجو أن يكون مقامنا معكم يسيراً .

فأَبَتْ ذلك جُرُهم إِبَاءً شديداً ؛ واستكبروا فى أنفسهم ، وقالوا : لا والله ، ما محبُّ أن ينزلوا فيضيتوا علينا مراتبنا ومواردنا ، فأرحلُوا عنا حيث أحببتُمْ ، فلا حاجة لنا ببجواركم .

فأرسل إليهم : أنه لا بد من المقام بهذا البلد حولا حتى ترجع إلى رُسُلِى التى

(١) الذر : صغار النمل . (٢) قَدَمِيَّة : نسبة إلى قَدَمَة ، وهى بلد بالهند ، إليها ينسب الرصاص والسيوف .

أرسلت ، فإن أنزلتوني طَوْعاً نزلت وحدثتكم وأسيتكم^(١) في الرقي والماء ، وإن أبيتم أقت على كرهكم ، ثم لم ترنوا معي إلا فضلاً ، ولا تشربوا إلا رنقاً^(٢) ، وإن فالتموى فالتسكم ، ثم إن ظهرت عليكم سبيت النساء ، وقتلت الرجال ، ولم أترك منكم أحداً ينزل الحرم أبداً .

فأبت جُرم أن تنزله طوعاً ، وتهيأت لقتاله ، فاقتلوا ثلاثة أيام أفرغ عليهم فيها الصبر . ومنعوا النصر ، ثم انهزمت جُرم ، فلم يفلت منهم إلا الشديد ، وكان مضاض بن عمرو قد اعتزل حريمهم ، ولم يمتهم في ذلك وقال : قد كنت أهدركم هذا .

ثم رحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قنّوى^(٣) وما حوله .

فلما حازت خُزاعة أمر مكة ، وصاروا أهلها جاهم بنو إسماعيل - وقد كانوا اعتزلوا حرب جُرم وخُزاعة ، فلم يدخلوا في ذلك - فسألهم السكّني معهم وحولهم ، فأذنوا لهم ، فلما رأى ذلك مضاض - وقد كان أصابه من الصابة إلى مكة أمر عظيم - أرسل إلى خُزاعة يستأمنها ، ومَتَّ إليهم برأيه ونوّريه^(٤) قومه عن القتال ، وسوء العشرة في الحرم ، واعتزله الحرب ، فأبت خُزاعة أن يقرّوهم ونفّوهم عن الحرم وقالوا : من دخله منهم فدمه هدر^(٥) .

فنزعت إبل المضاض من قنّوى تريد مكة ، فخرج في طلبها حتى وجدها قد دخلت مكة ، فحضر إلى الجبال نحو أجيّاد حتى ظهر على أبي قُبَيْس بنبصر

(١) أسيتكم : شاركتكم . (٢) الرقي : السكّر من الماء . (٣) قنّوى : واد يصب في البحر في أوائل أرض اليمن . (٤) النّوريع : السكف عن الشيء . (٥) أي باطل ليس فيه قود .

الإبل في بطن وادي مكة ، فأبصر الإبل تُنَحَّر وتؤكل لاسبيل له إليها ، فغاف إن
هبط الوادي أن يُقَتَلَ ، فولى منصرفاً إلى أهله وأنشأ يقول :

كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُوجِ إِلَى الصَّفَا أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَسْكَةِ سَامِرٍ
وَلَمْ يَتَرَبَّعْ واسطاً مَجْنُونَةً إِلَى الْمُنْحَى مِنْ ذِي الْأَرَاكِ حَاضِرٍ
بَلَى مَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَاذَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ^(١) الْقَوَائِرُ
وَأَبْدَلْنَا رَبِّي بِهَا دَارَ غُرْبَةٍ بِهَا الذُّبُّ يَهْوِي وَالْعَدُوُّ لِلْخَائِرِ
أَقُولُ إِذَا نَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ أَتَمِّمْ أَذَا الْعَرْسِ لَا يَبْعُدُ سَهِيلٌ وَعَالِمٌ^(٢)
وَبَدَّلْتُ مِنْهُمْ أَوْجَهَا لَا أُرِيدُهَا وَحَيْرٌ قَدْ بَدَّلَتْهَا وَالْيَحَايِرُ^(٣)

فَهَلْ فَرَجَ آتٍ بَشَى تَحْبُسُهُ وَهَلْ جَزَعُ مَنْجَبِكَ مِمَّا نَحَاذِرُ أ

(١) الجدود : المظروط . (٢) إذا العرش : أي إذا العرش . (٣) يحاير : اسم قبيلة .

١٤٦ - ألا من يشتري سهراً بنوم*

ففرقت حمير على ملكها حسان ، وخالفت أمره ؛ لسوء سيرته فيهم ، ومألوا إلى أخيه عمرو ، وحملوه على قتل حسان ، وأشاروا عليه بذلك ، ورغبوه في ذلك ، ووعدوه حسن الطاعة والوزارة ، فنهاه ذورعين من بيت حمير عن قتل أخيه ، وعلم أنه إن قتل أخاه نديم وفر عنه النوم ، وانتقضت عليه أموره ، وأنه سيمارقب الذي أشار عليه بذلك ، ويعرف غشهم له .

فلما رأى ذورعين أنه لا يقبل ذلك منه وخشى العواقب قال :

ألا من يشتري سهراً بنوم سعيده من بيت قريز عين
فإنما حمير غدوت وخانت فخذرة الإله لدى رعين

ثم كتب البيتين في صحيفة ، وختم عليها بخاتم عمرو ، وقال : هذه وديعة لي عندك إلى أن أطلبها منك ؛ فأخذها عمرو ودفعها إلى خازنه ، وأمره برفقها إلى الخزانة ، والاحتفاظ بها إلى أن يسأل عنها :

فلما قتل أخاه ، وجلس مكانه في ذلك مُنِع منه النوم ، وسلط عليه السهر ؛ فلما اشتد ذلك عليه ، لم يدع باليمن طبيباً ولا كاهناً ، ولا مُنْجِماً ، ولا عرافاً ولا عاتقاً ، إلا جمعهم ، ثم أخبرهم بقصته . وشكا إليهم ما به . فقالوا له ما قتل رجل أخاه أو ذا رحم منه على نحو ما قتل أخاك إلا أصابه السهر ، ومنع منه النوم !

فلما قالوا له ذلك أقبل على مَنْ كان أشار عليه بقتل أخيه وساعده عليه من
أقْبَالَ حَيْرٍ ، فقتلهم وأَفْنَاهُمْ .

فلما وصل إلى ذِي رُعَيْن قال له : أَيُّهَا لَذَّكَ ؛ إِنَّ لِي عِنْدَكَ بَرَاءةً مِمَّا تَرِيدُ أَنْ
تَصْنَعَ بِي . قال : وما بَرَاءَتُكَ وَأَمَانُكَ ؟ قال : مُرْ خَازِنُكَ أَنْ يُخْرِجَ الصَّحِيفَةَ الَّتِي
اسْتَوْدَعْتُكَهَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا .

فَأَمَرَ خَازِنَهُ فَأَخْرَجَهَا ، فَنَظَرَ إِلَى خَاتَمِهِ عَلَيْهَا ثُمَّ فُضَّهَا ، فَإِذَا فِيهَا الْبَيْتَانِ :
* أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بِقَوْمٍ ^(١) * .

ثم قال له : أَيُّهَا الْمَلِكُ ؛ قَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ قَتْلِ أَخِيكَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ
ذَلِكَ أَصَابَكَ الَّذِي قَدْ أَصَابَكَ ، فَكَتَبْتُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ بَرَاءَةً لِي عِنْدَكَ مِمَّا عَلِمْتُ
أَنَّكَ تَصْنَعُ عَن أَشَارٍ عَلَيْكَ بِقَتْلِ أَخِيكَ !
فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ وَعَفَا عَنْهُ ، وَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ .

(١) ذُهِبَتْ مَثَلًا ، وَيَضْرِبُ لِمَنْ نَهَضَ النَّمْلَةَ وَكَرِهَ الْعَافِيَةَ .

١٤٧ - غثك خيرٌ من سمين غيرك*

كانت بين مذحج وحِمْيَر من أحياء العرب حربٌ شديدة ، فرَّ مَعْنُ بْنُ عَطِيَّةَ الْمَذْحِجِيِّ فِي حَمَلَةٍ حَمَلَهَا بِرَجُلٍ مِنْ أَعْدَائِهِمْ صَرِيحاً : فَاسْتَعَاثَهُ وَقَالَ : أَمِنُّ عَلَى كَفَيْتِ الْبِلَاءِ . فَأَقَامَهُ مَعْنُ ، وَسَارَ بِهِ سَبْعَ بُلُغٍ فَأَمَّنَّهُ ، ثُمَّ عَطَفَ أَوْلَئِكَ الْقَوْمَ عَلَى مَذْحِجٍ فَهَزَمُوهُمْ وَأَسْرَوْا مَعْنًا وَأَخَاهُ يَقَالُ لَهُ : رَوْقٌ ، وَكَانَ يُصَنَّفُ وَيُحْمَقُ (١) .

فلما انصرفوا إذا صاحبُ مَعْنٍ الذي نَجَّاهُ أَخُو رُبَيْسِ الْقَوْمِ ، فَنَادَاهُ

مَعْنُ وَقَالَ :

يَا خَيْرَ جَارٍ بِيَدِي أَوْلَيْتَهَا نَجْ مُنْجِيكَ

هَلْ مِنْ جَزَاءٍ عِنْدَكَ الْيَوْمَ لِمَنْ رَدَّ عَوَديكَ

فَعَرَفَهُ صَاحِبُهُ ، فَقَالَ لِأَخِيهِ : هَذَا الْمَآءُ عَلَى ، وَمُنْقِذِي بَعْدَ مَا أَشْرَفْتُ عَلَى الْمَوْتِ فَهَبْ لِي ، فَوَهَبَهُ لَهُ ، نَحْلِي سَبِيلَهُ ، وَقَالَ : إِنِّي أَخْبَرْتُ أَنَّ أَضْعَافَ لَكَ الْجَزَاءِ ، فَأَخْتَرْتُ أَسِيرًا آخَرَ ؛ فَأَخْتَارَ مَعْنُ أَخَاهُ رَوْقًا ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى سَيِّدِ مَذْحِجٍ وَهُوَ فِي الْأَسَارَى .

ثم انطلق مَعْنُ وَأَخُوهُ رَاجِعَيْنِ ، فَرَأَى بِأَسَارَى قَوْمِهِمَا ، فَسَأَلُوا مَعْنًا عَنْ حَالِ

* جميع الأمثال : ٢ - ٤

(١) حقه : نسبة إلى الحق . وضمه : عده ضميماً .

سيدهم ، فأخبرهم الخبر ، فقالوا لمن : قبضك الله تدعُ سيدَ قومك وشاعرهم
لأفئدته ، وتفك أخاك هذا الأنوك^(١) الفسل^(٢) الرذل^(٣) . فوالله مانسكاً جرحاً
ولا أعمل رجماً ، ولا ذعرَ ررحاً^(٤) ؛ وإنه لقبيح المنظر سعى الخبر ؛ لبهم : فقال
ممن : « غثك خيرٌ من ميمين غيرك^(٥) » .

(١) الأنوك : الأحمق . (٢) الفسل : الرذل القبيح لأمروءة له . (٣) الرذل : الدون
الخبث . (٤) المرح : اللال السائم . (٥) ذهب مثلاً .

١٤٨ - مقتل كليب *

كان كَلَيْبٌ^(١) قد عَزَّ وساد في ربيعة؛ فَبَغَى بَغْيًا شديداً ، وكان هو الذي
يُبْزِلُهُمْ منازلَهُمْ ويَرْحَلُهُمْ ، ولا يَنْزِلُونَ ولا يَرْحَلُونَ إلَّا بأمره ، فَضُرِبَ بهِ المثلُ
في العِرَّةِ ؛ فقيل : أَعَزُّ من كليب وائل ! وكان لا يُجِيرُ أحدٌ من بكر وتَغْلِبَ إلَّا بإِذنه ،
ولا يُحْمِي حَتَّى إلَّا بأمره ، وكان إذا حَتَّى حَتَّى لا يُقَرَّبَ .

وكان لمرءة بن ذهل بن شيبان عشرة بنين ، جَسَّاسٌ أصفرهم ، وكانت أختهم
عند كليب .

وكان لجَسَّاسٍ^(٢) خالة تُعرف بالبَسُوس ، فجاءت فزلت على ابن أختها
جَسَّاس ، فسكانت جارةً لبني مرة ، ومعها ابنٌ لها ، ولها ناقة خَوَّارة^(٣) ، ومعها
فَصِيلٌ ، فرأى كَلَيْبُ الناقةَ فأَنسَكِرَها ، فقال : لمن هذه ؟ قالوا : نِخالَة جَسَّاس ،
قال : أَوَقَدْ بَلَغَ من أمر ابن السَّعْدِيَّةِ أن يُحِيرَ على بَنيرٍ لِإِذَى الرِّمِّ ضَرَعُها يا غُلَامُ ،
فأَخَذَ القوسَ فرمى ضَرَعَ الناقة ، فأَخْطَطَ دَمُها بِلَبِئِها .

وراحت الرُّعَاة على جَسَّاس فأخبروه بالأمر ، فقال : احلبوا لها مِكيَّاتِي لبن ،
ولا تَذْكُرُوا لها من هذا شيئاً .

* الأغانى : ٥ - ٣٤ ، الأمثال : ١ - ٣٤١ ، المقد الفريد ٣ - ٣٤٨ ، نهاية الأرب :

٥ - ٢١٤ ، الكامل لابن الأثير : ١ - ٣١٢

(١) كليب بن ربيعة ، سيد الميِّين : بكر وتغلب في الجاهلية ، ومن الشجعان الأبطال وقتل نحو
سنة ١٣٥ ق. هـ . (٢) جَسَّاس بن مرة من بني بكر بن وائل ، شجاع شاعر من أمراء العرب
في الجاهلية ، وقتل في وَاخِرِ الحرب نحو ٨٥ ق. هـ . (٣) ناقة خَوَّارة : رفيقة حسنة .

وسكت جَسَّاسٌ ثم مرَّتْ بِكَرْبُ عَلَى نَهْيٍ^(١) يقال له: شَيْئٌ، فنفاهم كليب عنه ، وقال : لا يذوقون منه قطرة . ثم مروا على نَهْيٍ آخر يقال له : الأَحْصَى ، فنفاهم عنه ، ثم مروا على بَطْنِ الْجُرَيْبِ^(٢) فمنهم إِيَّاهُ ، حتى نزلوا الدَّانِئِب^(٣) ، وتبعهم كليبٌ وحيُّه حتى نزلوا عليه .

ثم مرَّ عليه جَسَّاسٌ وهو واقفٌ على غدير الدَّانِئِب ، فقال : طردتَ أهلنا عن المياه حتى كِدْتَ تَقْتُلُهُمْ عَطْشًا ! فقال كليب : ما منعناهم من ماءٍ إلَّا ونَحْنُ له شاغلون . فقال له جَسَّاسٌ : هذا كفعلك بناقَةٍ خَالَتْ ! فقال له : أَوْ قَدْ ذَكَرْتَهَا ! أما إِنِّي لو وَجَدْتُهَا في غيرِ إِبِلٍ مُرَّةٍ لاسْتَحْلَلْتُ تلكَ الإِبِلَ بها !

فعطف عليه جَسَّاسٌ فرسه ، فطمعته بِرُمُحٍ فَأَنْفَذَ حِصْنِيهِ^(٤) ، فلما نَدَاكُمْ^(٥) للوْتُ قال : يا جَسَّاسُ ؛ اسْقِنِي مِنَ الْمَاءِ ، قال : مَا عَقَلْتَ اسْقِئَكَ الْمَاءَ مِنْذُ وَلَدْتِكَ أُمُّكَ إِلَّا سَاعَتَكَ هَذِهِ ! ثم أمالَ يَدَهُ بِالْفَرَسِ حَتَّى اتَّهَى إِلَى أَهْلِهِ .

فَقَالَتْ أَحْتُهُ - حِينَ رَأَتْهُ - لِأَيِّهَا : إِنْ ذَا جَسَّاسٌ ؛ أَنَّى خَارِجَهُ رُكْبَتَاهُ ، قال : وَاللَّهِ مَا خَرَجَتْ رُكْبَتَاهُ إِلَّا لِأَمْرِ عَظِيمٍ .

فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ أَبُوهُ : مَا وَرَاءُكَ يَا بَنِي ؟ قال : وَرَأَيْتُ أَيْ قَدْ طَمَعْتَ طُغْنَةً لَتُسْمَلَنَّ بِهَاشِيُوخٍ وَائِلَ زَمَانًا قال : أَقَتَلْتَ كَلْبِيًّا ؟ قال : نَعَمْ ! قال : وَدِدْتُ أَنَّكَ وَإِخْوَتُكَ

كُنْتُمْ مَعَهُ قَبْلَ هَذَا ، مَا بِي إِلَّا أَنْ تَنْشَأَكُمْ بِي أَبْنَاءَ وَائِلَ ، قال جَسَّاسٌ :

تَأَهَّبْ عَنْكَ أَهْبَئَةَ ذِي امْتِنَاعٍ فَإِنَّ الْأَمْرَ جَلٌّ عَنِ التَّلَاحِي^(٦)

(١) النَهْيُ : الغدير . (٢) الجربب : واد عظيم . (٣) الدانئب : موضع بنجد . (٤) الحُصْنُ : مادون الإبل إلى الكشح . (٥) تَدَاوَمَ الْأَمْرُ : تَرَاوَمَ عَلَيْهِ . (٦) التَّلَاحِي : للنازعة .

فإني قد جنيتُ عليك حرباً تُفصّ الشيخ بالماء القراح
فأجابه أبوه :

فإنّك قد جنيتَ عليّ حرباً فلا وإن رثّ السلاح
سألّيسُ ثوبها وأدبُ عني بها يوم اللذّة والفصاح^(١)

وكان ههنا^(٢) بن مرة أخى مهلهل^(٣) وعافده ألا يسكتمه شيئاً ، فجاءت أمة له فأسرّت إليه قتلَ جساس كليبا ، فقال له مهلهل : ما قالت ؟ فلم يخبره ، فذكره العهد بينهما ، فقال : أخبرني أن جساساً قتلَ كليبا ، فلم يصدق مهلهل الخبر . واجتمع نساء الحى للأنثى ، فقلن لأخت كليب : رحلى جلييلة - زوج كليب وأخت جساس - عن مأمك ؟ فإن قيامها فيه شمانةٌ وعارٌ علينا عند العرب ، فقالت لها : يا هذه ؛ اخرجى عن مأمنا ؛ فأنتِ أختُ واثنا وشقيقةُ قاتلنا . فخرجت وهى تجرُّ أعطافها ، فلقبها أبوها مرة فقال : ما وراءك يا جلييلة ؟ فقالت تُسكّلُ العدد وحزنُ الأبد ، وقد خليل ، وقتل أخير عن قليل ، وبين ذين غرسُ الأحقاد ، وتفتّت الأكباد . فقال لها : أو يكفُ ذلك كرمُ الصفع وإغلاء الدّيات ؟ فقالت جلييلة : أمنيّة مخدوعٍ ورب السكبة أبا بالبدن^(٤) تدعُ لك ثغلبُ دمَ ربهما .

ولما رحلت بجلييلة قالت أخت كليب : رحلة المتدى ، وفراق الشامت ! ويلٌ غدأ لآل مرة ، من الكربة بعد الكربة . فبلغ قولها جلييلة ، فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سيرها وترقب وثرها ! أسعد الله جدّ أختي ، أفلا قالت : نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء ! ثم أنشأت تقول :

(١) فضحه : كشف مساوئه ، والاسم الفصاح ، وفي الأغانى : إن هذا الشعر لأخيه فضله

(٢) هام : أخو جساس . (٣) مهلهل : أخو كليب . (٤) المراد الإبل .

يا ابنة الأقبام إن شئتِ فلا تَجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِ
فإذا أنتِ تَبَيَّنْتَ الذى يُوجِبُ اللَّوْمَ فَلَوِّىِ وَاعْذُلِ
إن تكن أختُ امرئٍ لِمِتْ عَلَى شَفَقٍ مِنْهَا عَلَيْهِ فَافْعَلِ
جَلٌّ عِنْدِي فُلُجَسَّاسٍ فِيَا حَمَرَتْنِي عَمَّا انْجَلَّتْ أَوْ تَنْجَلِ
فَلُجَسَّاسٍ عَلَى وَجْدِي بِهِ قَاطِعٌ ظَهْرِي وَمُذْنِ أَجَلِ
لو بَيْنَ قُفَّتْ عَيْنِي سَوَى أَحْبَهَا فَانْفَقَاتْ لَمْ أَخْفَلِ
تَحْمِلُ الْمَيْنُ قَذَى الْمَيْنِ كَمَا تَحْمِلُ الْأُمُّ أَذَى مَا تَفْعَلِ^(١)
بَاقِيًا قَوْضَ الدَّهْرِ بِهِ سَقَفَ يَبْقَى جَمِيعًا عَنْ عَالِ
مَدَمَ الْبَيْتِ الَّذِي اسْتَحْدَثْتُهُ وَاشْتَى فِي مَدَمٍ يَبْقَى الْأَوَّلِ
وَرَمَانِي قَتْلُهُ مِنْ كَثِيرٍ^(٢) رَمِيَّةَ اللَّصْنِ^(٣) بِهِ الْمُتَاوَلِ
يَا نَسَائِي دُونَكَ الْيَوْمَ قَدْ خَصَّنِي الدَّهْرُ بِرُزْدٍ مُضْغَلِ
خَصَّنِي قَتْلُ كَلِيبٍ بِالْقَتْلِ مِنْ وَرَائِي وَلَقَى مُسْتَقْبَلِي
لَيْسَ مَنْ يَبْكِي لِيَوْمِي كَمَنْ لِمَا يَبْكِي لِيَوْمٍ يَنْجَلِي
بَشْتَنِي لِلدَّرِكِ بِالنَّارِ وَفِي دَرَكِي تَأْرَى نُكْلُ الشُّكْلِ^(٤)
لَيْتَهُ كَانَ دَيْي فَاحْطَبُوا بَدَلًا مِنْهُ دِمَامِي أَسْكَلِي^(٥)
إِنْسِي قَاتِلَةٌ مَقْتُولَةٌ وَلَمَلِ اللَّهُ أَنْ يَرْتَاخَ لِي أ

(١) تَفْعَلُ : تَرَبِّي . (٢) كَثِيرٌ : قَرَبٌ . (٣) أَسْأَلُ : قَتْلُهُ فِي مَكَانِهِ . (٤) الشُّكْلُ :
الَّتِي لَازِمُهَا الْحَزَنُ . (٥) الْأَكْلُ : عَرَقٌ فِي الدَّرَاخِ يَفْصَدُ .

ثم قال بنو تَغْلِبَ بعضهم لبعض : لا تَمَجِّلُوا على إخوانكم حتى تُعَذِّروا^(١)
بَيْنَكُمْ وبينهم ، فانطلق رَهْطٌ من أشرفهم وذوى أَسْنَانِهِمْ حتى أتوا مُرَّةَ بن
ذُهْل ، فمظَّموا ما بينهم وبينه وقالوا : اخْتَرْنَا مَثَا خِصَالًا : إما أَنْ تَدْفَعَ إلينا
جَسَاسًا فنقتله بصاحبنا ؛ فلم يَظْلِمْ من قتل قاتله ، وإما أَنْ تَدْفَعَ إلينا هَمَامًا ، وإما
أَنْ تُقَيِّدَنَا من نَفْسِكَ .

فسكت وقد حضرته وجوهُ بنى بكر بن وائل ، فقالوا : تسكلم غيرَ مُخَذَّلٍ ،
فقال : أما جَسَاسٌ فغلامٌ حديثُ السن ركب رأسه ، فهرب حين خاف ، فلا عِلْمَ
لِي به ؛ وأما هَمَامٌ فأبو عشرة ، وأخو عشرة ، ولو دفعته إليكم نصيح^(٢) بنوه
في وجهي ، وقالوا : دفعت أبا نالٍ للقتل بحريرةٍ غيره ؛ وأما أنا فلا تَمَجِّلُ الموت ،
وهل تَرِيدُ الخليل على أَنْ يَجُولَ جَوَالَةً فَأَكُونَ أَوَّلَ قَتِيلٍ .

ولكن هل لكم في غير ذلك ؟ هؤلاء بَنِيّ ، فدوأنكم أحدهم فاقتلوه به ،
ولأن شتم فلنكم ألف ناقة نضمنها لكم بكر بن وائل ، فغضبوا وقالوا : إننا لم نَأْتِكَ
لِنُرْزِلَ^(٣) لنا بنيك ، ولا لنسومنا اللابن ؛ ففترقوا ووقت الحرب .

(١) تعذروا : أى تمسكوا على ألا يكون بينكم وبينهم ما يوجب الاعتذار . (٢) صيح : صاح .

(٣) لنرذل أنا بنيك : أى تمطينا وذال بنيك .

١٤٩ - الهِجْرَس بن كليب يثار لآبيه*

ولدت جليلة زوج كليب غلاماً فسمته الهِجْرَس ، ورباه خاله جَسَّاس ، فكان لا يعرف أباه غيره ، وزوجه ابنته . فوقع بين الهِجْرَس وبين رجل من بني بكر بن وائل كلام ؛ فقال له البكرى : ما أنت بمنقح حتى نُلْحِقَكَ بأبيك فأمسك عنه ودخل على أمه كثيراً ، فسألته عما به ، فأخبرها الخبر .

فلما أوى إلى فراشه ، ونام إلى جنب امرأته وضع أنفه بين ثديها ، فتنفسَ تنفَسَةً تَنْفَطَ^(١) ما بين ثديها من حرارتها ، فقامت الجارية فَرَعَةً ، قد أَلْقَتْهَا رَعْدَةٌ حتى دخلت على أبيها ، فقصت عليه قصة الهِجْرَس ، فقال جَسَّاس : ناثرت ورب السَّكَمَةِ !

وبات جَسَّاس على مثل الرَضْف^(٢) حتى أصبح ، فأرسل إلى الهِجْرَس فأنابه فقال له : إنما أنت ولدئ ومثى بالسكان الذى قد علمت ، وقد زوجتك ابنتى ، وأنت معى ، وقد كانت الحرب فى أهلك زماناً طويلاً حتى كدنا نتناو ، وقد اصطللحنا وتحاجزنا ، وقد رأيت أن تدخل فيما دخل الناس فيه من الصالح ، وأن تنطلق حتى نأخذ عليك مثل ما أخذ علينا وعلى قومنا .

فقال الهِجْرَس : أنا فاعل ؛ ولكن منلى لا يأتى قومه إلا بلامته وفرسه ، حملة جَسَّاس على فرسه وأعطاه لَأَمَةً^(٣) ودرعاً ، فخرجا حتى أتيا جماعة من

* الأنا ٥١ - ٦١

(١) تنفط : قرح . (٢) الرضف : المجارة التى سميت بالشمس أو النار يسخن بها الإبن ، واحدتها رصفة . (٣) اللأمة : السلاح .

قومهما . فقصّ عليهم جسّاس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا إليه من المافية ،
ثم قال : وهذا الفتى ابن أختي قد جاء ليدخلَ فيما دخلتم فيه ويَقْدِمَ ما عقدتم . فلما
قَرَّبوا^(١) الدم ، وقاموا إلى المَقْد أخذ المهاجسُ بوسط رُمحِه ، ثم قال : وفَرَسِي
وأذُنِي ، ورُحْي ونَصْلِي ، وسيفي وغَرَبِي^(٢) ، لا يتركُ الرجل قاتل أبيه وهو
ينظر إليه ، ثم طعنَ جسّاساً فقتله ، ولحقَ بقومه ، فسكان آخر قتيل في
بكرين وائل .

(١) كان من عادة العرب أن يحضروا في جفنة طيباً أو دماً أو رماداً فيدخلوا فيه أيديهم عند
التعالم لبتم عقدهم باشتراكهم في شيء واحد . (٢) غر السيف : حده ، وكذلك غراره .

١٥٠ — قرياً مربوط النعمة منى *

لما قَتَلَ جِسانُ البكرى كليباً التفلجى ، وهاجت الحرب بين بكر وتغلب
ابن وائل - وهى حربُ البسوس - اعتزلها الحارث بن عباد^(١) وقال : هذا أمر
لاناقة لى فيه ولا جل ؛ فقال سعد بن مالك معرضاً به :

يا بؤسَ للعربِ التى وَصَّتْ^(٢) أراهمَ فاستراحوا
والحربُ لا يبقى بَلًا جِهم^(٣) التَّخِيلُ والمِرَاحُ
إلا الفتى الصَّبَّارُ فى النَّجْدَاتِ والفرسُ الوِلاحُ^(٤)
بِئْسَ الخِلائِفُ بَمَدَنًا أولادُ يَشْكُرَ واللِّقَاحُ^(٥)
مَنْ صَدَّ عن نيرانها فأنا ابن قيسٍ لا بَرَّاحُ^(٦)
لِلوْتِ غايِقنا فلا قَصْرُ^(٧) ولا عنه جِجَاحُ^(٨)
وكأَمَّا وَرُدُّ المنيَّةِ هَنَدنا ما وَرَاحُ

* الأمثال : ١ - ٣٤١ القد : ٣ - ٣٤٨ ، خزائن الأدب : ١ - ٤٢٣ ، الكامل لابن الأثير : ١ - ٣٢٣

(١) الحارث بن عباد : من بكر ، حكيم جاهل ، كان شجاعاً من السادات ، شاعراً ، وانتهت إليه إمرة بني ضبيعة ، وهو شاب مات نحو سنة ٥٠ ق . هـ . (٢) وصت : حطت وأسقطت ، وأراهم : جمع أراهم التى هو جمع رهط ، والرهط : عدد يجتمع من ثلاثة إلى عشرة . (٣) جهم : متيرها وموقدها ، والتخيل : التكبر ، من الخلاء ، والمراح : النشاط والبهر ، أى أن الحرب تكف حدة البهر النشيط ، وهو تمرين بالحارث . (٤) الصبار : مبالغة صابر ، والتجدة : الشدة ، والوفاح : الفرس الذى حافره صلب شديد . (٥) أى إذا ذهبنا وبقيت يشكر وحيفة فبئس الخلائف هم منا ، لا يحمون حرياً ، ولا يابون ضياء ، وكانت بنوحيفة تلقب : اللقاح لأنهم لم يدنوا ملك ، وهو يذم الميئ لتقودها عن بكر فى حروبهم . (٦) لا براح : لا ريب . (٧) القصر : الحبس . (٨) الجحاح : الهروب .

ولكن الحارث لم يحفل بذلك ، وتجنّى بأهله وولده وولد إخوته وأقاربه ، ولم يزل مُعْتَزَّلاً ، حتى إذا كان في آخر وقائعهم خرج ابنُ أخيه بُجَيْرٌ ^(١) بن عمرو ابن عباد في إثر إبلٍ له نَذَتْ بِطَلْبِهَا ، فمرض له مهملٌ في جماعة يطلبون غِرَّةَ بكر بن وائل . فقال لمهمل امرؤ القيس بن أبان - وكان من أشراف بني تغلب ، وكان على مُقَدِّمَتِهِمَ زماناً طويلاً : لا نفعل ؛ فوالله لئن قتلتَهُ لِيُقْتَلََنَّ به منكُمُ كُذْبٌ لا يُسألُ عن خاله : من هو ! وإياك أن تحرقَ البني ؛ فإنَّ عاقبتَهُ وخيمته ، وقد اعتزلناهُ وأبوه وأهلُ بيته وقومه . فأبى مهملٌ إلا قَتَلَهُ ، فطمنه بالرمح فقتله وقال : « بُوَيْشِشْع نَمَلْ كَلِيب ^(٢) » .

فبلغ فعلُ مهملٍ عمَّ بُجَيْرٍ - وكان من أحلم أهل زمانه ، وأشدَّهم بأساً - فقال الحارث : نعم القَتِيلُ قَتِيلُ أَصْلَحَ بين ابني وائل ! فقيل له : إنما قتله بِشِشْع نَمَلْ كَلِيب ، فلم يقبل ذلك ، وأرسل إلى مهمل : إن كنت قتلتَ بُجَيْراً بِكَلِيب ، وانقطعت الحربُ بينكم وبين إخوانكم فقد طابت نفسى بذلك . فأرسل إليه مهمل : إنما قتلتَهُ بِشِشْع نَمَلْ كَلِيب ، ففضب الحارث ، ودعا بفرسه - وكانت تسمى النعمامة - فجزَّ ناصيتها . وهَلَبَ ^(٣) ذَنَبَهَا ، وقال :

قَرَّباً مِرْبَط ^(٤) النعمامة منى لِقِيعَت ^(٥) حربٍ وائلٍ عن حِيَالٍ

(١) قيل هو ابن الحارث . (٢) يقال : أبأت فلاناً بفلان فباء به : إذا قتله به ، ولا يكاد يستعمل هذا إلا الثاني كفه له ، والشيع : السير الذي يدخل بين الإصبعين . (٣) حلب الذئب : تنفِ شمرة ، ويقولون : إن الحارث هو أول من فعل ذلك . (٤) المرط : ما ربطت به الدابة ، والنمامة : اسم فرس كانت للحارث بن عباد . (٥) لقيعت : حملت ، وعن جيمي بعد : والحِيَال : أن يضرب الفضل الناقة فلا تحمل ، وهذا مثل ضربه ، وإنما أمر بقطع الحرب لما تولد عنها من الأمور التي لم تكن تحقّب ، والمراد أن حرب وائل حاجت بعد سكون .

لا يَجِيرُ أَغْنَى قَتِيلًا وَلَا رَهْطُ كَلِيبَ تَزَاجَرُوا عَنْ ضَلَالِ
لِمَ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمُ اللَّهِ وَإِنِّي بِمَحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي
قَرَّبًا مَرَبِطَ النِّعَامَةِ مَيِّئِي لِمَنْ قَتَلَ الْفُلَّامَ بِالشَّعْغِ غَالِي

ثم ارتحل الحارث مع قومه حتى نزل مع جماعة بكر بن وائل ، وعليهم يومئذ
الحارث بن همام بن مرة ، فقال الحارث بن عباد له : إِنَّ الْقَوْمَ مُسْتَقِلُّونَ قَوْمَكَ ،
وذلك زادهم جراءة عليكم ، فقاتلهم بالنساء ، قال له الحارث بن همام : وكيف قتالُ
النساء ! قال : قُلْتُ كُلَّ امْرَأَةٍ إِذَا وَءَةً مِنْ مَاءٍ ؛ وَأَعْطَيْتُهَا هِرْوَاءَ ؛ وَاجْمَلُ جَمْعُهُنَّ مِنْ
وَرَائِكُمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُكُمْ اجْتِهَادًا ؛ وَعَلَّمُوا أَنْفُسَكُمْ بِعَلَامَاتٍ يَعْرِفُهَا ؛ إِذَا مَرَّتْ
امْرَأَةٌ عَلَى صَرِيحٍ مِنْكُمْ عَرَفَتْهُ بِعَلَامَتِهِ ، فَسَقَتْهُ مِنَ الْمَاءِ وَنَمَشَتْهُ ، وَإِذَا مَرَّتْ عَلَى
رَجُلٍ مِنْ غَيْرِكُمْ ضَرَبَتْهُ بِالْهِرْوَاءِ فَتَقْتَلُهُ ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ .

فأطاعوه ، وحلفت بنو بكر يومئذ رؤسها استيسبالاً للذوت ، وجعلوا ذلك
علامةً بينهم وبين نساءهم ، واقتتل الفرسان قتالاً شديداً ، واهزمت بنو تغلب ،
وحلفت بالظلمن بقية يومها وليلتها ، وأتبعهم سرعان^(١) بكر بن وائل ، وتغلب
الحارث بن عباد ، فقال لسد بن مالك : أتراني ممن وَضَعْتَهُ^(٢) ؟ قال : لا ، ولكن
لا نَحْبُا لِيَطِيرَ بَعْدَ عَرُوسٍ^(٣) .

ثم إن الحارث بن عباد أسر مهلهلاً ، وهو لا يعرفه ، فقال له : دُلَّنِي عَلَى

(١) سرعان الناس : أوائلهم السبقون إلى الأمر . (٢) يشير إلى قوله :

يَا يَوْسَ لِلْحَرْبِ الْقِي وَضَعْتُ أَرَاهُطَ فَاسْتَرَحُوا

(٣) يريد : إن لم تنصر قومك الآن فلن تفسد نصرك ؟ .

المهمل ؛ قال : ولى دمي ؟ قال : و لك دمك ؛ قال : ولى ذمتك وذمة أهلك ؟ قال :
نم ذلك لك . قال : فأنا مهمل . قال : دُلّني على كفء لبيير ، قال : لا أعلمه إلا
امراً القيس بن أبان ، هذاك علمه ؛ خبز ناصيته ، وقصد قصداً امرئ القيس فشدّ
عليه فقتله ، وقال الحارث في ذلك :

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْرِفْ عَدِيًّا إِذْ أَمَكَنْتَنِي الْيَدَانِ
حُلًّا^(١) مِنْ طُلٍّ فِي الْحَوْلِ أَوْ تَرٍّ بِحَيْرٍ أَبَاهُ^(٢) ابْنَ أَبَانَ
فَارِسٍ يَضْرِبُ الْكِتَابَةَ بِالسَّيْفِ وَتَسْمُو أُمَامَةَ الْعَيْنَانِ

(١) طل دمه : ذهب هدرأ . (٢) أباه القتل بالقتيل : قتله به .

١٥١ - ضَيْعَنِي صَغِيرًا ، وَحَمَلَنِي دُمُهُ كَبِيرًا *

كَانَ حُجْرٌ فِي بَنِي أَسَدَ ، وَكَانَتْ لَهُ عَلَيْهِمُ إِتَاوَةٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ مُؤَقَّتَةً ، فَفَعَّرَ^(١)
ذَلِكَ دَهْرًا ، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ جَائِيَةً الَّتِي كَانَتْ يَحْتَجِبُ بِهِمْ ، فَنَعَمُوهُ ذَلِكَ - وَحُجْرٌ
يَوْمَئِذٍ بِتِهَامَةٍ - وَضَرَبُوا رُسُلَهُ ، وَضَرَجُوا^(٢) ضَرْجًا شَدِيدًا قَبِيحًا .

فَبَلَغَ ذَلِكَ حُجْرًا فَسَارَ إِلَيْهِمْ بِمَعْدَمٍ مِنْ رِبْعَةٍ وَقَيْسٍ وَكُثَاثَةٍ ، فَأَتَاهُمْ وَأَخَذَ
سَرَائِهِمْ ، فَجَعَلَ يَقْتُلُهُمْ^(٣) بِالْعَصَا ، وَأَبَاحَ الْأَمْوَالَ ، وَصَيَّرَهُمْ إِلَى تِهَامَةٍ ، وَآلَى
بِاللَّهِ إِلَّا يُسَاكِنُوهُمْ فِي بَلَدٍ أَبَدًا ، وَحَبَسَ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَ الْأَسَدِيَّ ، وَكَانَ
سَيِّدًا وَهَيْبِدَ بْنَ الْأَبْرَصِ الشَّاعِرَ ، فَسَارَتْ بَنُو أَسَدٍ ثَلَاثًا .

ثم إن عبيد بن الأبرص قام فقال : أيها الملك ؛ اسمع مقالتي :

يَا عَيْنُ فَايَسِكِي مَا بَنِي أَسَدٍ فَمَنْ أَهْلُ النَّدَامَةِ
أَهْلُ الْقِيَابِ الْحَرِّ وَالْذِّمَّةِ هَمٌّ لِلزُّبُلِ^(٤) وَلِلدَّامَةِ
وَذُو الْجِيَادِ الْخُرُودِ وَالْأَسْلِ لِلْمُتَّقَةِ الْقِيَامَةِ
حَلَا^(٥) أَيَّتَ الْأَمْنِ حَلَا إِنْ فِيمَا قُلْتَ آمَنَ^(٦)
فِي كُلِّ وَادٍ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ فَالْقُصُورِ إِلَى الْعِيَامَةِ
تَطَرَّبُ عَيْنٍ أَوْ صِيَا حِمْيَرٍ أَوْ صَوْتُ هَامَةِ

* الْأَغَانِي : ٩ - ٨٧

(١) فَعَّرَ : لَبِثَ وَبَقِيَ . (٢) ضَرَجَهُ : أَدْمَاهُ . (٣) سَمَرُوا ذَلِكَ عَبِيدَ الْعَصَا . (٤) لِلزُّبُلِ :

الْمَقْتَنَى . (٥) حَلَا : أَيْ تَطَلَّى مِنْ يَمِينِكَ . (٦) الْآمَنَةُ ، الْعَيْبُ .

وَمَنْتَمَّ نَجْدًا قَدْ حَلُّوا عَلَى وَجَلٍ تَهَامَهُ
بَرَمَتْ بَنُو أُسْدٍ كَا بَرَمَتْ بَيِّضَتِهَا الْحَمَامَةُ
جَعَلَتْ لَهَا عُودِينَ مِنْ نَشِيرٍ وَآخِرٍ مِنْ نَمَامَةٍ^(١)
إِمَّا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفًى وَأَوْ قَتَلْتَ فَلَا مَلَامَةَ
أَنْتَ لِللَّيْلِكَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامَةِ
ذَلُّوا لِسَوِّطِكَ مِثْلَ مَا ذَلَّ الْأَشْيَقِرُ^(٢) ذَوَا الْخِزَامَةِ

فوق لهم حُجْرٌ حين سمع قوله : فبعث في أثرهم فأقبِلوا ، حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تسكن كاهنهم^(٣) فقال لبي أسد : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المُلقب ، في الإبل كاهن الرب^(٤) ، لا يملق رأسه الصَّخَبُ ! هذا دمه ينشب^(٥) ، وهذا غداً أول من يُسلب .
قالوا : من هو ؟ قال : لولا أن نبحث نفس جاشية ، لأحبرتكم أنه حَجْرٌ ضاحية .

فركبوا كل صَعب وذلول ، فمأشوق لهم المهار حتى أتوا على عسكر حُجْرٍ فحموا على قُبَيْتِهِ ، وهزموا أصحابه وأسروه فحبسوه ، وتشاور القوم في قتله ، فقال لهم كاهن من كهنتهم بعد أن حبسوه ليروا رأيهم فيه : أي قوم ! لا تدجلوا بقتل الرجل حتى أُرْجِرَ لكم .

فانصرف عن القوم لينظر لهم في قتله ؛ فلما رأى ذلك عِلباء بن الحارث

- -

(١) النشم : شجر جبلٍ تتخذ منه القسي ، والتهامة : نيب بالبادية . (٢) الأشيقِر : تصغير الأشقر : الآخر من الدواب ، والخزامة : حلقة من شعر تحمل في وتره أنف البعير يشد بها الرمام . (٣) هو عوف بن ربيعة . (٤) الرب : القطيع من بقر الوحش . (٥) ينشب : يجرى .

السكاهلي خشى أن يتوأكلا في قتله ، فدعا غلاماً من بني كاهل - وكان ابن أخته^(١) - فقال : يا بني ؛ أ عندك خير فتاة بأبيك ، وتنال شرف الدهر ، وإن قومك لن يقتلوك !

فلم يزل بالغلام حتى حرب^(٢) ، ودفع إليه حديدة قد شحذها ، وقال : ادخل عليه مع قومك ، ثم اطعنه في مقتله .

فعمد الغلام إلى الحديدة فخبأها ، ثم دخل على حجر في قبته التي حيس فيها . فلما رأى الغلام غنلة وثب عليه فقتله ، فوثب القوم على الغلام فقاتل بفر كاهل : ثأرنا وفي أيدينا !

فقال الغلام : إنما ثأرتُ يأبي ، فخلوا عنه .

وأقبل كاهنهم للزديجر فقال : أي قوم ، تقتلوه ! ملك شهر ، وذئ دهر ، أما والله لا تحظون عند الملوك بعده أبداً .

ولما طعن الغلام حجراً ولم يجهز عليه أوصى ودفع كتابه إلى رجل وقال له : انطلق إلى ابني نافع - وكان أكبر ولده - فإن بكى وجزع فآله عنه ، واستقرهم واحداً واحداً ، حتى تأتي امرأ القيس^(٣) - وكان أصغرهم - فأبهم لم يجرع ، فادفع إليه سلاحي وخيلى وقُدُورى ووصيتي ، وبين في وصيته من قتله ، وكيف كان خبره .

فانطلق الرجل بوصيته إلى نافع ابنه ، فأخذ التراب فوضه على رأسه ،

(١) كان حجر قد قتل أبا زوج أخت علياء ، وفيه بل كان حجر قتل أبا علياء نفسه .

(٢) حرب : حرشه . (٣) أشهر شعراء العرب ، وكان أبوه ملك أسد وغطفان ، وقال الشعر وهو غلام ، وجعل يشيب ويظهر ويباشر معاليك العرب ، ومات سنة ٨٠ ق . هـ .

ثم استقرأهم واحداً واحداً ، فكلهم فعل ذلك ، حتى أتى امرأ القيس فوجده مع نديم له يشرب الخمر ويلاعبه بالنزد ؛ فقال له : قُتِلَ حُجْرٌ ؛ فلم يلتفت إلى قوله ، وأمسك نديمه . فقال له امرؤ القيس : اضرب فضرب ، حتى إذا فرغ قال : ما كنت لأفقد عليك دسنتك .

ثم سأل الرسول عن أمر أبيه كله ، فأخبره ، فقال : الخمر على النساء حرام ، حتى أقتل من بى أسير مائة^(١) وأجز^(٢) نواصى مائة .

وكان امرؤ القيس قد طرده أبوه حُجْرٌ ، وآلى ألا يقيم معه أنفة من قوله الشمر - وكانت الملوك تأنف من ذلك - فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ^(٣) العرب ، من طيى وكلب وبكر بن وائل ؛ فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فصيد فأكل وأكلوا معه ، وباب الخمر وسقام وغنته قياته .

ولا يزال كذلك حتى ينفد ما له ذلك الغدير ، ثم ينقل عنه إلى غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدسون من أرض اليمن ، فقال :

تطاول الليل على دسون^١ دسون^٢ إنا معشر يمانون^٣

* وإنا لأهلنا محبوبون *

ثم قال : ضيى صغيراً ، وحللى دمه كبيراً . لا صحو اليوم ، ولا سُكْر غداً ، اليوم خمر ، وغدا^(٤) أمر . ثم قال :

خليل لا فى اليوم مصحى لشارب ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يشرب

(١) يريد حتى أقتل منهم مائة وأسر مائة . (٢) شذاذ العرب : الذين لم يكونوا في حيم ومنازلهم . (٣) ذهب مثلاً .

نم شرب سيمًا ، فلما صحّا آلى ألا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمرًا ، ولا
يدّهن بدهن ، ولا يصيب امرأة حتى يدرك بثّاره ؛ فلما جنه الليل رأى
برّقا ، فقال :

أرقت لبرقي بليلى أهل
أتانى حديث فكذبته
يقى سناء بأعلى الجبل
بأمر تززع^(١) منه القتل
بقتل بنى أسد ربهم
ألا كل شيء سواه جلل^(٢)
فأين ربيعة عن ربها
وأين تميم وأبن الخول^(٣)
ألا يحضرون لدى باب
كما يحضرون إذا ما أكل

وارتحل امرؤ القيس حتى نزل بكرًا وتغلب ، فسألم النصر ، وبعث البيون
على بنى أسد ، فلما كان الليل قال لهم عليّابه : يا معشر بنى أسد ، تعلمون والله أن
عيون امرئ القيس قد انتكم ، ورجعت إليه بخبركم ، فارتحلوا بابل ولا تعلموا
بى كنفانة . ففعلوا .

وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب ، حتى انتهى إلى بنى كنفانة ، وهو
يحسبهم بنى أسد ، فوضع السلاح فيهم ، وقال : يا ثارات لئلك يا ثارات الهمام !
نفرت إلي مجوز من بنى كنفانة فقالت : أيت اللعن السنا لك بثّار ، نحن من
كنفانة ، فدونك ثأرك فاطلبهم ، فإن القوم ساروا بالأمس .

فضيع بنى أسد ، فقاووه ليلتهم تلك ، فقال :

(١) أصله : تززع . (٢) جلل : هين . (٣) الخول : جم خوفى . وهو الراعى الحسن
القيام على المال .

أَلَا بِالْهَفِّ هِنْدٌ إِثْرَ قَوْمٍ هُمْ كَانُوا الشِّفَاءَ فَلَمْ يُصَابُوا
وَقَامَ جَدُّهُمْ بَيْنَ أَبِيهِمْ وَالْأَشْقَيْنِ ^(١) مَا كَانَ الْعِقَابُ
وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءَ جَرِيصًا ^(٢) وَلَوْ أَدْرَكَهُ صَفِيرُ الْوِطَابِ ^(٣)

وأدركهم ظهراً ، وقد تقطعت خيوله ، وقطع أعناقهم العطش ، وبنو أسدٍ
جامون ^(١) على الماء ، فهد إليهم فقاتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ،
وحجّر الليل بينهم ، وهربت بنو أسد .

فلما أصبحت بكر وتغلب أبواً أن يتبموم ، وقالوا له : قد أصبت ثأرك . قال :
والله ما فلت ولا أصبت من بنى كاهل ولا من غيرهم من بنى أسداً أحداً . قالوا :
بلى ، ولسكنك رجلٌ مشثوم وكرهوا قتالهم ، وانصرفوا عنه ، فمضى هارباً لوجهه
حتى لحق بحجير .

فاستأجر من قبائل العرب رجلاً ، فسار بهم إلى بنى أسد ، ومرّ بقبالة ^(٤) ،
وبها صم للعرب نعطمة ، فاستقسم ^(٥) عنده بقداحه ، وهي ثلاثة : الأمر ، والنهي
والمتربص . فأجالها فخرج الناهي ، ثم أجالها فخرج الناهي ، فجمعها فأكسرها وضرب
بها وجه الصم ، وقال : لو أبوك قُتل ما عفتني ، ثم خرج فظفر بيني أسد .

وألح للنذر ^(٦) في طلب امرئ القيس ، وجه الجيوش في طلبه من إباد

(١) الجد : الخط ، والأشقين : جمع أشقى ، ويقصد بهم بنى كنانة . (٢) أى بعد جهد ومشقة
والصمير «أفلاتهن» و «أدركته» للخيال التي كروا بها عليهم . (٣) صفر الوطاب ، أى لو أدركوه
قتلوه وساقوا إليه فصغرت وطابه من اللبن . (٤) أى مجتمعون مستريحون . (٥) موضع بين مكة
واليمن على مسيرة سبع ليالٍ من مكة . (٦) الاستقسام : طلب معرفة ما قسم للمرء بما لم يقسم
(٧) كانت في نفس النذر موجدة على آل امرئ القيس ؛ لأن الحارث جد امرئ القيس زاعم
للتأخرة ملوك الحيرة عند كسرى في الثيابة هته على ملك الحيرة ، وقت أن هجر الخلاف بين للتأخرة
وكسرى قبادة .

وبَهْرَاءُ وَتَنُوحُ ، وَأَمَدَهُ أَنْوَشَرَوَانُ بِجَيْشٍ مِنَ الْأَسَاوِرَةِ فَمَسَرَحَهُمْ فِي طَلْبِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَامَرِيٍّ الْقَيْسُ بِهِمْ طَائِقَةً ، وَتَفَرَّقَتْ حَدِيرٌ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ عَنْهُ ، فَفَجَّأَ فِي عُصْبَةٍ مِنْ بَنِي آكَلِ الْمَرَارِ ، وَنَزَلَ بِيَمَضِ رُؤَسَاءِ الْقَبَائِلِ يَسْتَجِيرُ بِهِمْ ، وَصَارَ يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ ، حَتَّى نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ ، يُقَالُ لَهُ : عَمْرُو بْنُ جَابِرِ ابْنِ مَازِنٍ ، فَطَلَبَ مِنْهُ الْجَوَارِ ، حَتَّى يَرَى ذَاتَ عَيْبِهِ ^(١) .

فَقَالَ لَهُ الْفَزَارِيُّ : يَا بَنَ حُجْرٍ ، إِنِّي أَرَاكَ فِي خَلٍّ مِنْ قَوْمِكَ ، وَأَنَا أَنْفَسُ ^(٢) بِمَثْلِكَ مِنْ أَهْلِ الشَّرَفِ ، وَقَدْ كِدْتُ بِالْأَمْسِ تَوَكَّلُ فِي دَارِ طَيْفٍ ، وَأَهْلُ الْبَادِيَةِ أَهْلُ وَبَرٍ ، لَا أَهْلَ حَصُونٍ تَمْنَعُهُمْ ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ ذُؤَابَانٌ مِنْ قَيْسٍ ، أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَلَدٍ لَقَدْ جِئْتُ قَيْصَرَ ، وَجِئْتُ النَّمَانَ ؛ فَلَمْ أَرْ لَضَيْفٍ نَازِلٍ وَلَا لِحُجْدٍ ^(٣) مِثْلَهُ وَلَا مِثْلَ صَاحِبِهِ .

قَالَ : مَنْ هُوَ أَيْنَ مَنْزِلُهُ ؟ قَالَ : السُّمُوَلُ يَبْقِيَاءُ ، وَهُوَ يَمْنَعُ ضَمْنَكَ حَتَّى تَرَى ذَاتَ عَيْبِكَ ، وَهُوَ فِي حَصْنِ حَصِينٍ وَحَسْبُ كَبِيرٍ .

فَقَالَ لَهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ : وَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَ : أَوْصَلْتُكَ إِلَى مَنْ يَوْمُكَ إِلَيْهِ . فَصَحَّيْتُهُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ يُقَالُ لَهُ : الرَّبِيعُ بْنُ صَنْعِ الْفَزَارِيِّ ، مِنْ يَأْتِي السُّمُوَلُ فَيَحْمِلُهُ وَيُعْطِيهِ .

فَلَمَّا صَارَ إِلَيْهِ قَالَ لَهُ الْفَزَارِيُّ : إِنْ السُّمُوَلُ يُعْجِبُ الشَّمْرَ ، فَتَعَالَ تَقْنَشِدْ لَهُ أَشْعَارًا ؛ فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : قُلْ حَقِّي أَقُولُ . فَقَالَ الرَّبِيعُ :

(١) أَيْ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِ ، وَيُصْلَحُ مِنْ شَأْنِهِ . (٢) أَهْضُ بِكَ : أَخْضَنَ بِكَ . (٣) طَالِبٌ عَطَاءٍ .

قل للنميمة أي حين نلتقي بفناء بيتك في الحضيض الزلقي^(١)
ولقد أتيتُ بني الصّاصِ مفخيراً وإلى السموءل زُرته بالأبلي^(٢)
فأتيتُ أفضلَ منَ تحملِ حاجةٍ إن جثته في غريمٍ أو مرهق
عرفتُ له الأقوامُ كلَّ فضيلةٍ وحوى المكارمِ سابقاً لم يسبق
فقال امرؤ القيس :

طَرَقْتُكَ هَندُ بعدَ طولِ نجيبٍ وَهنا ولم تَكُ قبلَ ذلكَ تَطْرُقُ
ثم مضى القومُ حتى قدموا على السموءل ، فأنشده الشعر ، وعرف لهم حقهم ،
ثم إنه طلب إليه أن يكتب له إلى الحارث بن أبي شمر النسائي ليوصله
إلى فيصر .

ومضى حتى انتهى إلى فيصر ، فقيلَ وأكرمه ، وكانت له عنده منزلة .
ثم إن فيصر ضمَّ إليه جيشاً كثيفاً ، فيه جماعةٌ من أبناء الملوك ، فلما فصل^(٣)
قال لفيصر قوم من أصحابه : إن العرب قومٌ غدر ، ولا تأمن أن يظفروا بما يريد ،
ثم يفرّونك بمن بشت معه .

فبعث إليه حينئذ بحمالةٍ وشيٍّ مسمومٍ منسوجةٍ بالذهب ، وقال له : إني
أرسلتُ إليك بمخلّتي التي كنت ألبسها تكريماً لك ؛ فإذا وصلت إليك فآلبسها
باليمن والبركة ، واكتب إلى بخبرك من منزلٍ منزل .
فلما وصلت إليه لبسها ، واشتدَّ سروره بها ؛ فأسرع فيه الشئ وسقط جلدُه
فقال :

(١) الزلقي : الموضع الذي لا تثبت عليه قدم . (٢) الأبلي : حصن السموءل . (٣) يقول
صاحب الأغاني : أظن أن هذه القصيدة منجولة . (٤) فصل : رحل .

لقد طمَحَ العَلَمَاحُ من بُعدِ أرضه لِيُدْهِسَنِي مِمَّا يَلْبَسُ أَبُوْسَا
فلو أنها نفسٌ تموتُ سَوِيَّةً ولكنها نفسٌ نساَقَطُ أنفُسَا
فلما صار إلى بلدةٍ من بلاد الروم ندعى أنْقِرَةَ احتَضِرَ بها فقال :
رب جَنَّةٍ مُشْتَجِرَةٍ^(١) وطَمَنَةٍ مُسَحْفِرَةٍ^(٢)
* تَبْقَى عَدَا بَأَقْرَةٍ *

ورأى قَبْرَ امرأةٍ من أبناء الملوك ماتت هناك ، فدَفِنَتْ في سفح جبلٍ يقال له :
عَسِيبٌ ، فسأل عنها ، فأخْبَرَ بقصتها ، فقال :
أجارتَنَا إِنَّ لِلزَّارِ قَرِيبُ وإلى مقيمٍ ما أقام عَسِيبُ
أجارتَنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هاهنا وكلُّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ
ثم مات فدُفِنَ هناك .

(١) الشجرة من الحفان : التي يفيض ودكها . (٢) مسحفرة : متسعة .

١٥٢ — ما كان لولا غيرة الليل يُملَب*

ورد شأس بن زهير من عند النعمان بن المنذر ، وقد حَبَاهُ أَفْضَلُ الْحَيَوةِ :
مِسْكَاً وَكُفّاً وَقُطُفًا^(١) وَمُنَافَسَ ؛ فَأَنَاحَ نَاقَتَهُ فِي يَوْمِ تَمَالٍ^(٢) وَقُرَى^(٣) عَلَى
رَدْهَةٍ^(٤) فِي جَبَلِ دِيَاحِ بْنِ الْأَسْكَ الْفَنَوَى وَلَيْسَ عَلَى الرَّدْهَةِ غَيْرُ بَيْتِهِ بِالْجَبَلِ ،
فَأَلْقَى ثِيَابَهُ بَفَنَائِهِ ، ثُمَّ قَعَدَ يُهَرِّيقُ^(٥) عَلَيْهِ الْمَاءَ ، وَامْرَأَةٌ رِيَّاحٌ قَرِيبَةٌ مِنْهُ ، وَإِذَا هُوَ
مِثْلُ النَّوْزِ الْأَبْيَضِ ، فَقَالَ دِيَاحٌ لَامْرَأَتِهِ : أَعْطَيْتِي قَوْمِي ، فَذُتْ إِلَيْهِ قَوْمِي
وَسَهْمًا ، وَانْتَزَعْتَ الْمَرْأَةَ نَصْلَهُ لثَلَا يَقْتُلَهُ ، فَأَهْوَى بِجِلَانٍ إِلَيْهِ ، وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي
مُسْتَدَقِّ الصَّلْبِ ، بَيْنَ قَفَّارَتَيْنِ^(٦) فَفَصَلَمَهَا ، وَخَرَّ سَاقِطًا ، وَحَفَرَهُ حَفْرًا ، فَهَدَمَهُ
عَلَيْهِ ، وَنَحَرَ جِلْدَهُ وَأَكَلَهُ ، وَأَدْخَلَ مَقَاعَهُ فِي بَيْتِهِ .

وَقَعِدَ شَاسٌ ، وَقَصَّ أَثَرَهُ وَنُشِدَ ؛ وَرَكِبُوا إِلَى الْمَلِكِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ :
حَيَاتُهُ وَسَرَّحْتُهُ . فَقَالُوا : وَمَا مَتَّعَتْ^(٧) بِهِ ؟ قَالَ : مِسْكًَ وَنُطُوعَ وَقُطُفٍ ،
فَأَقْبَلُوا بِقَصَونِ أَثَرِهِ ، فَلَمْ تَنْصَحْ لَهُمْ سَبِيلُهُ ، فَكَثُرُوا كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، حَتَّى
اقْطَعَ ذَكَرَهُ .

* الأغانى : ٨ - ١٠ ، ابن الأثير : ١ - ٣٣٧ ، مهذب الأغانى : ٢ - ٨

(١) القطيفة : دثار غزل ، جمه فطف (بضمين) . (٢) التمال : الرخ التي تهب بين مطلع الشمس وبنات نعل ، ويكون اما وصفة . (٣) القر : البرد . (٤) الردة : النقرة يجتمع فيها ماء النساء . (٥) هراق الماء : أراقه . (٦) النقرة والفقارة : ما انتضد من عظام الصلب . (٧) متع الرجل : جاد .

قال الراوى : ثم إن الناس أصابهم جائحةٌ وجوعٌ ، فنخر زهير^(١) بن جذيمة - أبو شاس - نافته ، فأعطى امرأةً من شحمها وسنامها ، وقال : اشترى لى الهدب والطيب ، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبيعه حتى دفعت إلى امرأة رباح ، فقالت : إن مى شحمًا أبيعهُ فى الهدب والطيب ، فاشتريت المرأة منها ، ثم أتت المرأة زهيراً بذلك ، فصرف الهدب ، وذهب إلى غنى ، فقالوا : نعم ، قتله رباح بن الأسك ونحن برآء منه ، وقد لحق بخاله من بنى الطمّاح .

ولما تبين لزُهير أن رباحاً ثارهُ قال يرئى شاساً :

بكيتُ لِشاسٍ حين خُبرتُ أنه بماء غنى آخرَ الليل يُسَلِّبُ
لقد كان مأتاه الرِّدَاةَ^(٢) تحفِّفه وما كان لولا غِرَّةُ الليل يُنْفُبُ
فقبل غنى ليس شكلٌ كشكله كذلك لعمري الحين^(٣) للردِّ يُجَلِّبُ
سأبكي عليه إن بكيت بغيره وحقَّ لِشاسٍ عِبرةٌ حين تسكُبُ
وحزنٌ عليه ما حيتُ وعوَّلةٌ على مثل ضوءِ البدر أو هو أعجبُ
إذا سيمَ ضيماً كان للضمِّ مُنْكِراً وكان لَدَى الهيجا^(٤) يُخشى ويُرهبُ
وإن صوتَ الداعى إلى الغير مرةً أجاب لما يدعُو له حين يكرَّبُ
ففرَّجَ عنه ثم كان وليه قلى عليه لو بدا القاب مُهَبُّ
ثم انصرف إلى قومِهِ من بنى عَبَسَ ، فكان لا يقدر على غنوىٍ إلا قتله .

(١) هو زهير بن جذيمة بن رواحة البسلى ، أمير عبس ، وأحد سادات العرب المدودين فى الجاهلية ، قتله خالد بن جعفر التامرى نحو سنة ٥٠ ق . هـ (٢) الرداة : الصخرة . (٣) الحين : الملائكة . (٤) الهيجا : الحرب .

وتجهز بنو عبس لغزو غنى قبل أن يطلبوا قوداً أو ديةً، وتولى رياستهم الحصين ابن زهير، أخو شأس، والحصين بن أسيد بن حذيمة، ابن أخى زهير، فقبل ذلك لغنى، قالت لرياح: انجُ لعلنا نصلح على شيء أو نرضيهم بدية وفداء.

فخرج رياح رديماً^(١) لرجل من بني كلاب، فبينما هما سائران إذاهما بالقوم أدنى ظلام^(٢)، وقد كانا يظنان أنهما خالفاً وجهة القوم، قال صاحب رياح: اذهب فإنى آتى القوم أشاعلهم عنك، وأحدثهم حتى تُعجزهم، ثم أنا ماضٍ إن تركوني. فانتحدر رياح عن عجز الجبل فأخذ أذراجه، وعدا لئلا تراه الرحلة حتى أتى صفةً، فاحتفر تحتها مثل مكان الأرنب، فوَلَج فيه، ثم أخذ نعليه، فجعل إحداها على سرته، والأخرى على صفته^(٣)، ثم شدَّ عليهما العمامة، ومضى صاحبه حتى لنى القوم، فألوه، فحدثهم، وقال: هذه غنى كاملة، وقد دنوتُ منهم، فصدقوه واخلوا سرته^(٤).

فلما ولَّى رأوا مركب الرجل خلفه، فقالوا: من هذا الذى كان خلفك؟ قال: لامسكذبة! ذلك رياح فى الأول من السمرات، فقال الحصينان لمن معهما: قفوا علينا حتى نعلم علمه، فقد أمكننا الله من تأرنا ولم يريد أن يشركهما فيه أحد، فضيا ووقف القوم عنهما، فلما رآهما رياح رمى الأول منهما فبترَ صلبه، وطمته الآخر قبل أن يرميه، وأراد الشرة فأصاب الريلة^(٥)، ومروا الفرس يهوى به، فاستدبره رياح بسهم رشق به صلبه فافتقر منحى الأوصال، وندت فرسانها فلحقنا بالقوم، وانطلق رياح حتى ورد دَرْدَهة، عليها بيت أثمار بن بغيض، وفيه امرأة، ولها ابنان

(١) الرديف: الذى تحمله خلفك على ظهر الدابة. (٢) أدنى ظلام: أدنى شيء. (٣) الصفن: وعاء الحصى. (٤) خلوا سرته: أى طريقه. (٥) الريلة: أصل الفخذ.

قريبان منها ، وجلُّ لها رافعٌ في الجبل ، وقد مات رِيّاح عطشاً ، فلما رأته يستدري^(١)
طِيعَتَ فيه ، ورجت أن يأتيها ابناها ، فقالت له : استأير ، فقال لها : دعيني
— ويحك — أشرب ! فأبت ، فأخذ حديدة فجذّم بها رواهشها^(٢) ، وعَبَّ في
الماء حتى نهل ، ثم قال فيها وفي الحَصَيْنَيْنِ :

قالت لي استأيرُ لتكُنْفِي^(٣) حيناً ويملّو قولها قولي
لأنّ أجراً من أسامة أو مني غداة وفقت للخيل
إذ الحصين لدى الحصين كما عدل الرّجّازة^(٤) جانب الليل

(١) استدى الرجل : ماطأ رأسه بقطر منه الدم . (٢) جذم : قطع . الرواهش : عروق ظاهر
السكف . (٣) كنفه : أحاط به وآواه . (٤) الرّجّازة : شيء يكون مع المرأة في هودجها فإذا
مال أحد الجانبين وضعت في الناحية الأخرى ليندمل .

١٥٣ — لَا قُتِلَتْهُ وَلَوْ كَانَ فِي حِجْرِ النِّمَانِ *

لما قتل خالدُ بن جعفر بن كلاب زهيرَ بن جذيمة العبدى ضاقت به الأرضُ ،
وعلم أن غطفانَ غيرُ تاركه ؛ ففرج حتى أتى النِّمانَ فاستجار به فأجاره ، ومعه
أخوه عُتْبَةُ بْنُ جَعْفَرٍ .

ونهض قيس بن زهير قَتِيئاً للحاربة بنى عامر ، وهجَمَ الشتاء ؛ فقال الحارثُ
ابن ظالم : يا قيسُ ؛ أنتم أعلمُ وحربكم ، وأنا راحلٌ إلى خالدٍ حتى أقتله ، قال قيسُ :
قد أجاره النِّمان ، قال الحارثُ : لَا قُتِلَتْهُ وَلَوْ كَانَ فِي حِجْرِه !

وكان النِّمان قد ضرب على خالد وأخيه قُبَّةً ، وأمرهما بحضور طَعامِهِ
وَمُدَامِهِ ^(١) .

فأقبل الحارثُ ومعه تابعٌ له من بنى محارب فأتى بابَ النِّمان ، فاستأذَنَ فأذِنَ له
النِّمان وفرح به . فدخل الحارثُ ، وكان من أحسن الناس وجهًا وحديثًا ، وأعلم
الناس بأيام العرب ؛ فأقبل النِّمانُ عليه بوجهه يحدُّهُ ، وبين أيديهم تمرًا ياكلونه
فلما رأى خالدٌ إقبالَ النِّمان على الحارث غاظه ذلك ، فقال : يا أبا ليلى ؛ ألا
تشكرنى ! قال : عَلَامَ ؟ قال : قتلتُ زهيرًا قصرتَ بعده سيّدَ غطفان — وفى يد
الحارث تمراتٌ فاضطرَّبتَ يده ، وجعل يُرْعِدُ ويقول : أنت قتلتَهُ ! والتمرُ يسقط
من يده .

* الآمال : ٢ - ٢٣٤ ، عيون الأخبار : ١ - ١٨٣
(٢) الدام : الحمر .

ونظر النعمان إلى ما به من الزمّع^(١) ، فنخس خالدًا بهصاه ، وقال : هذا يقتلك !
فقال : أبئت اللعن ! فوالله لو كنت نائمًا ما أيقظني ؛ وافترق القوم ، وبقي الحارثُ
عند النعمان ، وأُشْرَجَ^(٢) خالدٌ قُبَيْته عليه وعلى أخيه ونأما .

وانصرف الحارثُ إلى رَحْلِهِ ، فلما هُدأتِ الميون خرج بسيفه حتى أتى قُبَةَ
خالدٍ فَمَتَكَ شَرَجَهَا^(٣) بسيفه ، فدخل قرأى خالدًا نائمًا وأخوه إلى جنبه ،
فأيقظ خالدًا فاستوى قائمًا ، فقال له الحارث : يا خالد ؛ أظننت أن دم زهير كان
سائمًا لك ! وعَلَاهُ بسيفه حتى قتله . وانْتَبَهَ عُتْبَةُ ، فقال له الحارث : لئن نَبَسْتَ^(٤)
لَأُحَقِّقَنَّكَ بِهِ !

وانصرف الحارثُ ، وركب فرسه ومضى على وجهه ، وخرج عُتْبَةُ صارخًا حتى
أتى باب النعمان ، فنادى : ياسوء جواراه ! فأجيب : لارَوْع عليك ! فقال : دخل
الحارثُ على خالدٍ فقتله ، وأخْفَرَ^(٥) الملك .

فوجه النعمانُ فوارسَ في طلبه فلحقوه سَحَرًا ، فَمَصَفَ^(٦) عليهم ، فقتل جماعةً
مهمهم وكثُرُوا عليه ، فجعل لا يقصد جماعة إلا فرقها ، ولا لفارس إلا قتله .
فارتدع القوم عنه ، وانصرفوا إلى النعمان .

فقال مَهْرُو بن الإطنابة :

عَلَّلَانِي وَعَلَّلَا صَاحِبِي وَاسْقِيَانِي مِنَ الْمَرْوَقِ رَبِّي
إِنَّ فِينَا الْقِيَانَ يَمُزُّنُ بِالضَّرِّ بَ لِقِيَانِنَا وَعَيْشًا رَضِيًّا
يَتَنَاهَيْنَ فِي النِّعَمِ وَبِضَرِّ نَ خِلَالَ الْقُرُونِ مِسْكَ ذَكِيًّا

(١) الزمّع : شبه برعدة تأخذ الإنسان . (٢) أشرج الخيمة أدخل بعض عراها في بعض بين
أشراجها . (٣) المَتَكَ : عرا الخيمة . (٤) نَبَسَ : أفل الكلام . (٥) أخفر الملك : نفّس
عهده وغدّره . (٦) مَصَفَ : مَلَأ .

أُبْلِغًا الْحَارِثَ بْنِ ظَالِمٍ الرَّءِىَ^(١) دَيْدَ وَالنَّاذِرَ النَّذُورَ عَلَيَّ :
 إِنَّمَا تَقْتُلُ النَّبِيَّامَ وَلَا تَقْتُلُ قِطْعَانَ ذَا سِلَاحٍ كَيْمًا^(٢)
 وَكَانَ عَمْرُو قَدْ آلَى^(٣) أَلَا يَدْعُوهُ رَجُلٌ بَلِيلٌ إِلَّا أَجَابَهُ ، وَلَا يَسْأَلُهُ عَنْ اسْمِهِ .
 فَأَتَاهُ الْحَارِثُ لَيْلًا فَهَتَفَ بِهِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا تَرِيدُ ؟ قَالَ : أَعِنِّي عَلَى إِبْلِ
 لِبْنِي فُلَانٍ ، رَهَى مِنْكَ غَيْرُ بَعِيدٍ ، فَإِنَّهَا غَنِيمَةٌ بَارِدَةٌ أ

فَذَعَا عَمْرُو بِفَرَسِهِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَرْكَبَ حَامِيرًا ، فَقَالَ لَهُ : الْبَسْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ ،
 فَإِنِّى لَا أَمِنُ امْتِنَاعَ الْقَوْمِ ، فَاسْتَلَامَ^(٤) وَخَرَجَ مَعَهُ ، حَتَّى إِذَا بَرَزَا قَالَ لَهُ الْحَارِثُ :
 أَنَا أَبُو لَيْلى فَخُذْ حِذْرَكَ يَا عَمْرُو ، فَقَالَ لَهُ : أَمِنْتُ عَلَى . فَخَزَّ نَاصِيَّتَهُ ، وَقَالَ :

عَلَّانِى بِلَذَى قَيْلَتِيَا قَبْلَ أَنْ تَبْكِيَ الْعَيُونُ عَلَيَّ
 قَبْلَ أَنْ تَذْكُرَ الْمَوَازِلُ أُنَى كُنْتُ قِدَمًا لِأَمْرِهِنَّ عَصِيَا
 مَا أَبَالِ إِذَا اصْطَبَحْتُ ثَلَاثًا أُرْشِدًا دَعَوْنِى أَمْ غُوبًا
 غَيْرَ أَلَا أَسِيرٌ فَهَ إِعْمَا فِى حَيَاتِى وَلَا أُخَوِّنَ صَفِيَا
 بَلَقْتَنِى مَقْبَلَةَ الْمَرْءِ عَمْرُو بَلَقْتَنِى وَكَانَ ذَاكَ بَدِيَا
 فَخَرَجْنَا الْمَوْعِدِ فَالتَقَيْنَا فَوَجَدْنَاهُ ذَا سِلَاحٍ كَيْمًا
 غَيْرَ مَا نَاتَمِرُ يَرْوَعُ بِاللَّيْلِ مُعِدًّا بِكُفِّهِ مَشْرِفِيَا
 فَرَجَعْنَا بِاللَّيْلِ مِنَّا عَلَيْهِ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْهُ مِنَّا بَدِيَا

(١) الرعيد : الجبان . (٢) السكى : الشجاع . (٣) آلى : حلف . (٤) استلام : بىس
 اللامة : الدرع .

١٥٤ — وفاء وغدر *

سار المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة في مَعْدَرِ كُلِّهَا حتى نزل بَيْنَ أَبَاغٍ ،
وأرسل إلى الحارث^(١) بن أبي شمر ملك العرب بالشام ، وقال له : إما أَنْ تُعْطِيَنِي
الْفِدْيَةَ فَأَنْصَرَفَ عَنْكَ بِمَجْنُودِي ، وإما أَنْ تَأْذَنَ بِمُحْرَبِ .

فأرسل إليه الحارث : أَنْظِرْنَا نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا . وجمع عَسَاكِرَهُ ١٥٠ وسار نحو
المنذر ، وأرسل إليه يقول له : إنا شِخْوانٌ فَلَا تُهْلِكْ جُنُودِي وجنودَكَ ، ولَسْكَنَ
يُخْرِجُ وَلَدًا مِنْ وَلَدِي وَرَجُلًا مِنْ وَلَدِكَ فَمَنْ قُتِلَ خَرَجَ عِوَضَهُ آخِرُ ، وإذا فِي
أَوْلَادِنَا خَرَجْتَ أَنَا إِلَيْكَ ، فَمَنْ قُتِلَ صَاحِبَهُ ذَهَبَ بِالْمَلِكِ ، ففما هذا على ذلك .

فعمد المنذر إلى رجل من شُجْعَانِ أَصْحَابِهِ ، فأمره أَنْ يُخْرِجَ فَيَقِفَ بَيْنَ
الصَّفَيْنِ ، ويُظْهِرَ أَنَّهُ ابْنُ المنذر . فلما خرج أَخْرَجَ إليه الحارث ابنه أَبَا كَرْبٍ ،
فلما رآه رجع إلى أبيه ، وقال : إن هذا ليس بابن المنذر ، إنما هو عَبْدُهُ أو بَعْضُ
شُجْعَانِ أَصْحَابِهِ ، فقال : يَا بَنِي ، أَجْزَيْتَ مِنَ الْمَوْتِ ! مَا كَانَ الشَّيْخَ لِيُغْدِرَ^(٢) !
فعاد إليه وَقَاتَلَهُ فَقَتَلَهُ الْفَارِسُ ، وَأَلْقَى رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيِ المنذر وعاد .

* السكامل لابن الأثير : ١ - ٣٢٦

(١) في كتاب الأعلام لأزركلي أَنَّ الحارث لقب عام للملوك لصفانين ، كقبصر عند الروم ، وكسرى
عند الفرس ؛ وهو أشهر ملوك غسان ذكرناه وكان جواداً كثير المبات دام ملكه نحو ٣٠ عاماً ،
ومات نحو سنة ٤٠ ق . هـ (٢) يغدر : ينقض العهد .

فأمر الحارث ابناً له آخر بقتاله والطلبِ بثأر أخيه ، فخرج إليه ، فلما وافقهُ^(١) رجع إلى أبيه ؛ وقال : يا أبت ؛ هذا والله عبدُ المنذر ، فقال : يا بني ؛ ما كان الشيخ ليخبرنا فماد إليه ، فشَدَّ عليه فقتله .

فلما رأى ذلك شمر بن عمرو ، وكانت أمه غسانية وهو مع المنذر ، قال : أيُّها الملك ؛ إنَّ النَّدَرَ ليس من شيمِ الملوك ولا الكرام ، وقد غدرتَ بآبِ عَمِكَ دفعتين ، ففضَّبَ المنذر ، وأمر بإخراجه ، فلحق بمكر الحارث فأخبره ، فقال له : سَلْ حاجتك ، فقال له : حُلَّتْكَ وَخُلَّتْكَ .

فلما كان الغد عَيَّى الحارث أصحابه وحرَّصهم ، وكانوا في أربعين ألفاً واصطفوا للقتل ، فقتلوا قتالاً شديداً ؛ فُقُتِلَ المنذر وهُزِمَت جيوشه ، فأمر الحارث بابنيه القتيلين فحملا على بعير بمنزلة العِدْلَيْنِ ، وجُعِلَ المنذر فوقهما فردا ، وقال : « يَا مَلَاوَةَ^(٢) دُونَ الْعِدْلَيْنِ ! » وسار إلى الحيرة فَأَنْهَبَهَا^(٣) وأحرقها ، ودفن ابنيه بها ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كَمْ تَرَكْنَا بِالْعَيْنِ عَيْنَ أَبَاغٍ مِنْ مُلُوكٍ وَسُوقَةٍ أَكْفَاءِ
أَمْطَرَتْهُمْ سَعَابُ الْمَوْتِ تَتَرَى إِنَّ فِي الْمَوْتِ رَاحَةَ الْأَشْقِيَاءِ
لَيْسَ مِنْ مَاتَ فَاسْتَرَحَ بِمَيِّتٍ إِلَّا مِمَّا لَيْتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

(١) الموافقة : أن تقف معه ويقف معك في حرب أو خصومة . (٢) الملاوة : ما يحمل على البعير وغيره : وهو ما وضع بين العدلين . (٣) أنهبها : أباحها لمن شاء .

١٥٥ — يثَارُ لِأَبِيهِ وَجَدَهُ *

كان من حديث قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ^(١) أَنَّ جَدَّهُ عَدِيَّ بْنَ عَمْرِو قَتَلَ رَجُلًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ يُقَالُ لَهُ : مَالِكٌ ، وَقَتَلَ أَبَاهُ الْخَطِيمَ بْنَ عَدِيَّ رَجُلًا مِنْ عَبْدِ قَيْسٍ مِمَّنْ يَسْكُنُ هَجَرَ ، وَكَانَ قَيْسٌ يَوْمَ قُتِلَ أَبُوهُ صَبِيًّا صَغِيرًا ، وَقُتِلَ الْخَطِيمُ قَبْلَ أَنْ يَثَارَ بِأَبِيهِ عَدِيَّ ، فَخَشِيتُ أُمُّ قَيْسٍ عَلَى ابْنِهَا أَنْ يَخْرُجَ فَيَطْلُبَ يَثَارَ أَبِيهِ وَجَدَهُ قَيْمًا لِكَ .

فَمَدَّتْ إِلَى كُرْمَةٍ مِنْ تَرَابٍ عِنْدَ بَابِ الدَّارِ ، فَوَضَعَتْ عَلَيْهَا أَحْجَارًا وَجَعَلَتْ تَقُولُ لِقَيْسٍ : هَذَا قَبْرُ أَبِيكَ وَجَدُّكَ ، فَكَانَ قَيْسٌ لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ .
وَنَشَأَ أَيَّدًا^(٢) شَدِيدَ السَّاعِدِينَ ؛ فَتَزَاوَعَ يَوْمًا قَتَّى مِنْ فِتْيَانِ بَنِي ظَفَرٍ ؛ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الْفَتَى : وَاللَّهِ لَوْ جَعَلْتَ شِدَّةَ سَاعِدَيْكَ عَلَى قَاتِلِ أَبِيكَ وَجَدُّكَ لَكَانَ خَيْرًا لَكَ مِنْ أَنْ تُخْرِجَهَا عَلَيَّ ؛ فَقَالَ : وَمَنْ قَاتِلُ أَبِي وَجَدِّي ؟ قَالَ : سَلْ أُمَّكَ تُخْبِرُكَ .
فَأَخَذَ السَّيْفَ وَوَضَعَ قَائِمَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَذُبَابَهُ^(٣) بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَقَالَ لِأُمِّهِ :
أَخْبِرِيْنِي مَنْ قَتَلَ أَبِي وَجَدِّي ؟ قَالَتْ : مَا نَا كَا يَمُوتُ النَّاسُ ، وَهَذَا نَا قَبْرَاهَا بِالْفَنَاءِ .
فَقَالَ : وَاللَّهِ لَتُخْبِرِيْنِي مَنْ قَتَلَهُمَا ، أَوْ لِأَتَحَامَمَنَّ عَلَى هَذَا السَّيْفِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِي ، فَقَالَتْ : أَمَّا جَدُّكَ فَقَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ مِنْ رِبِيعَةٍ يُقَالُ لَهُ : مَالِكٌ ، وَأَمَّا أَبُوكَ فَقَتَلَهُ رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ قَيْسٍ مِمَّنْ يَسْكُنُ هَجَرَ .

* الأمانى : ٣ - ٣

(١) قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ : شَاعِرُ الْأَوْسِ ، وَاحِدٌ صَنَادِيدُهُمَا فِي الْمَجَاهِلَةِ ، أَهْرَكَ الْإِسْلَامَ وَتَرَبَّتْ فِي قَبُولِهِ ، ثُمَّ قَتَلَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ، نَحْوَ سَنَةِ ٢ ق . هـ (٢٣) أَيَّدًا : شَدِيدًا قَوِيًّا . (٣) ذُبَابُ السَّيْفِ : طَرَفُهُ الَّذِي يُضْرَبُ بِهِ .

فقال : والله لا أنتهى حتى أقتلَ قاتلَ أبي وجدتي ؛ فقالت : يا بني ؛ إن مالِكَ قاتِلَ جَدِّكَ من قوم خِداش بن زُهَيْر ، ولأبيكَ عند خِداش نعمة هو لها شاكر ، فَأَتِهِ فاسْتَقِمْ فِي أَمْرِكَ واسْتَعِمْهُ يُعِينَكَ .

فخرج قيسٌ من ساعته حتى أتى ناصِحه^(١) وهو يَسْقِي نَحْلَهُ ، فضربَ الجربِر^(٢) بالسيف قطعه ، فسقط الدلوُّ في البئر ، وأخذ برأسَ الجبلِ لَحَلَ عليه غِرَارَتَيْنِ^(٣) من تمر ، وقال : من يكفيني أمرَ هذه المجوز ؟ يعني أُمّه - فإن متَّ أَفْنَقَ عليها من هذا الحائط^(٤) حتى تموتَ ثم هَوَلُ ، وإن عشتُ فَأَلِي عائدٌ إلىَّ وله منه ما شاء أن يأكل من ثمره ، فقال رجلٌ من قومه : إناله ، فأعطاه الحائط .

ثم خرج يسأل عن خِداش بن زُهَيْر حتى دُلَّ عليه بِمَرِّ الظُّهْرَانِ^(٥) ، فسار إلى خِباثه فلم يجدّه ، فنزل تحت شجرة يكون تحتها أضيافُه ، ثم نادى امرأة خِداش : هل من طعام ؟ فأُطْلِمَتْ إليه ، فأعجبها جماله ، وكانت من أحسن الناس وجهاً ؛ فقالت : والله ما عندنا من زُلٍّ^(٦) نرضاه لك إلا تمرأ ؛ فقال : لا أبالي ، فأخْرِجِي ما عندكِ ؛ فأرسلتُ إليه ، بِقُبَاعٍ^(٧) فيه تمر ، فأخذ منه تمره فأكل شِقْمًا وردَّ شِقْمًا الباقي في القُبَاع ، ثم أمر بالقُبَاع فأدخل على امرأة خِداش بن زُهَيْر ، ثم ذهب لِبعض حاجاته .

ورجع خِداش فأخبرته امرأته خبرَ قَيْسٍ ، فقال : هذا رجلٌ مُتَحَرِّمٌ^(٨)

(١) الناصح : البعير يسقى عليه الماء . (٢) الجربِر : الحبل . (٣) الغرارة : الكيس .
(٤) الحائط : البستان . (٥) الظهران : واد قرب مكة عند قرية يقال لها : مره تصاف إليه فيقال مر الظهران . (٦) الزل : ما يهبُّ للضيف من قري . (٧) القُبَاع : للكيال الضخم .
(٨) متحرّم : له عندنا حرمة وذمة .

وأقبل قيس راجعاً . فلما رأى خِداش رجُلَهُ وهو على بعيره قال لامرأته : هذا ضيفُك ؟ قالت : نعم ؛ قال : كأن قدمه قدم الخطيم صديق النيثري ؛ فلما دنا منه فرع طُنب^(١) البيت بينان رحمه ، واستأذن ، فأذن له خِداش ، فدخل إليه ، فنسبه^(٢) فانسب ، وأخبره بالذي جاء له ، وسأله أن يُعينه ، وأن يُشيرَ عليه في أمره ، فرحب به خِداش ، وذكر نعمة أبيه عنده ، وقال : إن هذا الأمر مازلتُ أتوقَّعه منذ حين . فأما قاتلُ جدِّك فهو ابن عم لي وأنا أعينك عليه ، فإذا اجتمعنا في نادبنا جلتُ إلى جانبهِ وتحدثتُ معه ، فإذا ضربتُ نَحْدَهُ فُتِبْ إليه فاقتله .

قال قيس : فأقبلتُ معه نحوه حتى قُتُ على رأسه لما جالسه خِداش ، فحين ضرب نَحْدَهُ ضربتُ رأسه بسيف يقال له : ذو الخِرْصَيْنِ ؛ فثار إلى القوم ليقتلوني ، فعال خِداش بينهم وبينى ، وقال : دَعُوهُ فَإِنَّهُ والله ما قتلَ إلا قاتلَ جدِّه .

ثم دعا خِداش بجملٍ من إبله فركبه ، وانطلق مع قيس إلى القَبْدِيِّ الذي قتل أباه ، حتى إذا كانا قريباً من هَجَرَ ، أشار عليه خِداش أن ينطلق حتى يسأل عن قاتل أبيه ، فإذا دلَّ عليه قال له : إن لصاً من لصوص قومك عارضني فأخذمني متاعاً . فسألت : مَنْ سيِّدُ قومه ؟ فدلَّلتُ عليك ؛ فانطلق حتى تأخذمته مني ، فإن اتَّبعتُ وحده فسقتال ما تريد منه ، وإن أخرج معك غيره فاضحك ، فإن سألكَ مِنْ ضَحْكَتَ ؟ قتل : إن الشريف عندنا لا يصنع كما صنعتَ إذا دُعِيَ إلى اللص من قومه ، إنما يخرج وحده يسوِّطه دون سيفه ، فإذا رآه اللص أعطى كل شيء أخذته ، هيبةً له ، فإن أمر أصحابه بالرجوع فذلك خير لك ؛ وإن أبى إلا أن يعضوا معي فائتني به ، فإنِّي أرجو أن تقتله وتقتل أصحابه .

(١) الطنب، يضمّتين وسكون النّاء لغة : الحبل تشد به الخيصة ونحوها ، والجع أطاب .

(٢) نسبه : طلب إليه أن ينتسب .

ونزل خِدَاشَ تحت ظل شجرة ، وخرج قيس حتى أتى المَبْدِيَّ ، فقال : ما أمره خدّاش فأحفظه^(١) ؛ فأمر أصحابه فرجموا ومضى مع قيس ؛ فلما طلع على خِدَاش ، قال له : احترق يا قيس ؛ إما أن أعينك وإما أن أكفيك ؛ قل : لا أريدُ واحدةً منهما ، ولكن إن قتلتني فلا يُفْلِتَنَّكَ ؛ ثم نار إليه فطَمَنه قيس بالحربة في خاصرته فأخذها من الجانب لآخر ؛ هات مكانه .

فلما فرغ منه قال له خِدَاش : إنا إن فرَرْنَا الآنَ طلبنا قومهُ ، ولكن ادخل بنا مكاناً قريباً من مَقْتَلِهِ ، فإنَّ قومهُ لا يظنون أنك قَتَلْتَهُ ، وأقمتَ قريباً منه ؛ ولكمهم إذا اتفقوه^(٢) اقتفوا أثره ، فإذا وجدوه قتيلاً خرجوا في طلبنا في كل وجه ، فإذا بئسوا رجعوا .

قال : فدخلا في دَارَاتٍ من رمالٍ هناك ؛ وفقدَ المَبْدِيُّ قومهُ فاقْتَفَوْا أثره فوجدوه قتيلاً ، فخرجوا يطلبونهما في كل وجه ثم رجعوا فسكن من أمرهم ما قال خِدَاش ، وأقاما مكانهما أياماً ثم خرجا ، حتى أتيا منزلَ خِدَاش ، ففارقه عنده قيس بن الخطيم ورجع إلى أهله ، ففي ذلك يقول قيس :

تذَكَّرَ لِيَبْلَى حَسَنُهَا وَصَفَاءُهَا وَبَانَتْ فَا إِن بَسْطِيعَ لِقَاءِهَا
وَمَثَلِي قَدْ أَصْبَيْتُ لَيْسَتْ بِكَنْهٍ^(٣) وَلَا جَارَةٍ أَفْضَتْ إِلَيَّ خِيَاءُهَا
إِذَا مَا صَطَبْتُ أَرْبَاعًا خَطْمِي نَزَرِي^(٤) وَأُتْبِيتُ دَلَوِي فِي السَّاحِ رِشَاءُهَا^(٥)
ثَارَتْ عَذْبًا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أَضِعْ وَصِيَّةَ أَشْيَاحٍ جُعِلَتْ لِإِرَاءِهَا

(١) أحفظه : أغضبه . (٢) اتفقوه : طلبوه عند غيبته . (٣) الكنه : امرأة الابن أو الأخ

(٤) يريد أنه إذا شرب أربعا اختال حتى جر ثوبه من الخيلاء . (٥) يريد أنه بلغ في السباح متناه ، يقال : أتبع الدلو رشاءها ، وأتبع القرس لجأها ، إذا بفل آخر مجهوده .

١٥٦ — بعد طعن عمر بن الخطاب *

خرج عمر^(١) بن الخطاب يوماً يطوفُ في السوق ، فلقه أبو لؤلؤة غلامُ
الغيرة بن شعبة - وكان نصرانياً - فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أعدني^(٢) على الغيرة
ابن شعبة ، فإنَّ عليَّ خراجاً كثيراً . قال : وكم خراجك ؟ قال : درهمان في كل
يوم . قال : ما صناعتك ؛ قال : نجار ، نقاش ، حداد ، قال : فما أرى خراجك
بكثير على ما تصنع من الأعمال ، قد بلغني أنك تقول : لو أردتُ أن أعمل رحاً
تطحن بالريح فعلت ، قال : نعم ، قال : فاعمل لي رحاً . قال : لئن سلمتُ
لأعملنَّ لك رحاً يتحدث بها من بالشرق والغرب ، ثم انصرف عنه .

فقال عمر : لقد تَوَعَّدَنِي العبد آتفاً ، ثم انصرف عمر إلى منزله ، فلما كان
من الغد جاءه كعبُ الأخبار فقال له : يا أمير المؤمنين ؛ اعهَدْ ، فإنك ميتٌ في
ثلاثة أيام ، قال : وما يدريك ؟ قال : أجدهُ في كتاب الله عز وجل ، التوراة .
قال عمر : الله ! إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! قال : اللهم لا ؛ ولكني
أجد صِفَتَكَ وَحِلْيَتَكَ ، وأنه قد قَنِيَ أَجْلُكَ - وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً .

فلما كان من الغد جاء كعب ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ ذهبَ يوم ، وبقى
يومان ، ثم جاءه من غد ، فقال : ذهب يومان ؛ وبقى يوم وليلة ، وهى لك
إلى صبيحتها .

* تاريخ الطبري : ٥ - ١٢ ، المقدم الفريد : ٢ - ٢٥٦

(١) عمر بن الخطاب : ثاني الخلفاء الراشدين ، الضروب بده النمل ، أسلم قبل الهجرة بخمس
سنين ، وبيع بالخلافة يوم وفاة أبي بكرؓ ، وقتل سنة ٢٣ هـ . (٢) أعداء : أغانه .

فلما كان الصبحُ خرج عمر إلى الصلاة ، وكان يوكل بالصفوف رجالا ، فإذا استوت جاء هو فكبّر ، ودخل أبو لؤلؤة في الناس ، في يده خنجر له رأسان ، نصّابه^(١) في وسطه ، فصر عرسَ ضربات ؛ إحداهن تحت سُرته ، وهي التي قتلته .

فلما وجدَ عمر حرَّ السلاح سعط وقال : أفي الناس عبدُ الرحمن بن عوف قالوا : نعم يا أمير المؤمنين ؛ هو ذا . قال : تقدّم فصل بالناس . فصلَّ عبدُ الرحمن ابن عوف ، وعمر طريح ، ثم احتمل فأدخِلَ داره .

سأ أحسنَّ الناسُ قربَ موته فلوأله : يا أمير المؤمنين ؛ لو استخلفت ! قال : إن تركتكم فقد ترككم من هو خير مني ، وإن استخلفتُ فقد استخلفتُ عليكم من هو خير مني ، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا لا استخلفتُهُ ، فإن سألتني ربي ، قلت : سمعتُ نبيك يقول : « إنه أمينُ هذه الأمة » . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لا استخلفتُهُ ، فإن سألتني ربي قلت : سمعتُ نبيك يقول : « إن سالمًا يحب الله حبًّا ، لو لم تحفَّ ما عصاه »^(٢) .

قليل له : فلو أنك عهدتَ إلى عبد الله بن عمر ؛ فإنه لذلك أهل ؛ لدينه وفضله وقديم إسلامه ، فقال : بحسبِ آل الخطاب أن يحاسبَ منهم رجلٌ واحد عن أمةٍ محمد ، ولوددتُ أني بموتُ من هذا الأمر كغفًا^(٣) ، لا لي ولا على .

(١) نصاب الكين : ما يقبض عليه . (٢) هذه الجملة تدل على تقدير عدم العصيان على كل حال ، وعلى أن انتفاء المصية مع ثبوت الخوف أول (الثاني ص ٢٠٢ ج ١) . (٣) الكفاف : الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه ، وهو نصب على الحال ، وقيل : أراد مكفونا عن شرها .

ثم رَأَوْا قَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لَوْ عَمِدْتُ ! قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَتَجَمَعْتُ^(١) بِعَدِّ مَقَاتِلِي لَكُمْ أَنْ أَوَّلِي رَجُلًا أَمْرَكُمْ أَرْجُو أَنْ يَحْمِلَكُمْ عَلَى الْحَقِّ - وَأَشَارَ إِلَى عَلِيٍّ -
ثُمَّ رَأَيْتُ إِلَّا أَنْحَمَهَا حَيًّا وَمَيِّتًا . فَعَلَيْكُمْ بِهِؤُلَاءِ الرَّهْطِ الَّذِينَ تُوَفِّي سَوَّلَ اللَّهِ
وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ : سَمْعُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ ، وَعَبِيدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي
طَالِبٍ ، وَعُمَانُ بْنُ عَفَانَ ، وَالزَّيْبِرُ بْنُ الْمَوَّامِ ؛ وَطَلْحَةُ الْخَلِيفِ .

وَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ : ادْعُ عَلِيًّا وَعُمَانُ وَالزَّيْبِرَ وَسَمْعًا ، وَقَالَ : انْتَظَرُوا أَيْخَانَكُمْ طَلْحَةَ
ثَلَاثًا - وَكَانَ غَائِبًا - فَإِنْ جَاءَ وَإِلَّا فَاقْضُوا أَمْرَكُمْ . أَنْشَدُكَ اللَّهُ يَا عَلِيُّ إِنْ وَلَيْتَ
مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا أَنْ تَحْمَلَ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِجَابِ النَّاسِ ! أَنْشَدُكَ اللَّهُ يَا عُمَانُ
إِنْ وَلَيْتَ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا أَنْ تَحْمَلَ بَنِي أَبِي مُعِيْطٍ عَلَى رِجَابِ النَّاسِ ! أَنْشَدُكَ
اللَّهُ يَا سَمْعُ إِنْ وَلَيْتَ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ شَيْئًا أَنْ تَحْمَلَ أَقَارِبَكَ عَلَى رِجَابِ النَّاسِ
فَوُومُوا فَتَشَاوَرُوا ، ثُمَّ اقْضُوا أَمْرَكُمْ ، وَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ صَهِيْبٌ .

ثُمَّ دَعَا أَبَا طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيَّ ، فَقَالَ : قُمْ عَلَيَّ بِأَهْلِهِمْ فَلَا تَدَعْ أَحَدًا يَدْخُلُ
إِلَيْهِمْ ، وَأَوْصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْأَنْصَارِ الَّذِينَ تَبَوَّعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ : أَنْ
يَحْسِنَ إِلَى مُخْسَنِهِمْ ، وَأَنْ يَمْفَوْ عَنْ مُسِيئِهِمْ ، وَأَوْصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْعَرَبِ ؛
فِيهِمْ مَادَّةُ الْإِسْلَامِ ؛ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ صِدْقَاتِهِمْ حَقًّا فَتَوْضِعَ فِي قَرَاهِمِهِمْ ، وَأَوْصِي
الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِذِمَّةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ؛ أَنْ يُؤْفَى لَهُمْ بِمَهْدِهِمْ ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتَ !
تَرَكْتُ الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي عَلَى أَنْتَقَى مِنَ الرَّاحَةِ .

يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍ ؛ أَخْرِجْ فَانْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَتَلَكَ
أَبُو لَوْثُؤَةَ غُلَامٌ لِلْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ مَنِيَّتِي بِيَدِ رَجُلٍ

سَجَدَ لَهِ سَجْدَةً وَاحِدَةً ، يَاعْبُدُ اللَّهَ بِنِ عَمْرٍ ؛ اذْهَبْ إِلَى عَائِشَةَ ، فَسَلِّهَا أَنْ تَأْذَنَ لِي
أَنْ أُدْفِنَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَأَبِي بَكْرٍ ، يَاعْبُدُ اللَّهَ بِنِ عَمْرٍ ؛ إِنْ اخْتَلَفَ الْقَوْمُ فَكُنْ مَعَ
الْأَكْثَرِ ، وَإِنْ كَانُوا ثَلَاثَةً وَثَلَاثَةً فَاتَّبِعِ الْحِزْبَ الَّذِي فِيهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، يَاعْبُدُ اللَّهَ ؛
أُذِنَ لِلنَّاسِ .

فَجَعَلَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَيَسْأَلُونَهُ عَلَيْهِ وَيَقُولُ : أَعَنْ مِلًّا^(١)
مِنْكُمْ كَانَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : مَعَاذَ اللَّهِ ! وَدَخَلَ فِي النَّاسِ كُفْبٌ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ
عَمْرٌ قَالَ :

فَأَوْعَدَنِي كُفْبٌ ثَلَاثًا أَعْدَهَا وَلَا شَكَّ أَنْ الْقَوْلَ مَا قَالُوا لِي كُفْبٌ
وَمَا بِي حَذَارُ الْمَوْتِ إِيَّيْ لَمِيتُ وَلَكِنْ حَذَارُ الذَّنْبِ يَتَّبِعُهُ الذَّنْبُ
فَنَمَّ فَاضَتْ رَوْحُهُ ، رَحِمَهُ اللَّهُ .

(١) أي مشاورة من أشرافكم وجماعتكم .

١٥٧ — المؤتمرون بعلی و معاوية وعمر*

لما قتل على أهل الهرّوان ، وكان بالكوفة زهاء ألفين من الخوارج ممن لم يخرج مع عبد الله بن وهب ، وقوم ممن استأمن^(١) إلى أبي أيوب الأنصاري ؛ فتجمّعوا وأمروا عليهم رجلا من بني فوجهم إليهم على رجلاهم بالنخيلة^(٢) فدعاهم ورفق بهم فأبوا ، فسادهم فأبوا ، فاقتتلوا جميعاً .

فخرجت طائفة منهم نحو مكة ؛ فوجّه معاوية من يقيم للناس حجّهم ؛ فناوشتهم هؤلاء الخوارج ؛ فبلغ ذلك معاوية ؛ فوجّه بسرّ بن أرطاة أحد بني عامر ابن لؤي فتوقّفوا وراضوا بعد الحرب بأن يصلّي بالناس رجل من بني شعبة ؛ لئلا يفوت الناس الحجّ .

فلما انقضى نظرت الخوارج في أمرها فقالوا : إن علينا معاوية قد أفسدنا أمر هذه الأمة ، فلو قتلناها لماد الأمر إلى حقه .

وقال رجل من أشجع : والله ما عمرو دونها ؛ وإنه لأصل هذا الفساد ؛ فقال عبد الرحمن بن ملج : أنا أقتل عليّاً ؛ فقالوا : وكيف لك به ؟ قال : أغتاله ؛ فقال الحجاج بن عبد الله الصريمي : وأنا أقتل معاوية ؛ وقال راذونة مولى بني التميمي : وأنا أقتل عمرّاً .

* المسعودي : ٢ - ٤٠ ، ابن أبي الحديد : ٢ - ٤٢ ، ٢ - ٤٤ ، السكّال : ٢ - ١٢٥

رغبة الآمل : ٧ - ١١٨

(١) وقع على راية الأمان مع أبي أيوب ، فنادى : من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل وم يسترض فهو آمن ، ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى اللدائن فهو آمن . (٢) النخيلة : موضع قرب الكوفة .

فَاتَّجَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَكُونَ قَتْلُهُمْ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَجَعَلُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .

فَخَرَجَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى نَاحِيَةٍ : فَاتَى ابْنُ مُلْجَمٍ الْكَوْفَةَ ، فَأَخْفَى نَفْسَهُ ، وَأَرَادَ أَنْ يَنْزَوِّجَ مِنْ امْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا قَطَامٌ بِنْتُ عُلْقَمَةَ ؛ وَكَانَتْ تَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ ^(١) ؛ فَقَالَتْ لَهُ : لَا أَفْنَعُ مِنْكَ إِلَّا بِصَدَاقٍ أُسَمِّيهِ لَكَ وَهُوَ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَعَبْدٌ وَأَمَةٌ ، وَأَنْ تَقْتَلَ عَلِيًّا ! فَقَالَ لَهَا : لَكَ مَا سَأَلْتِ ، فَكَيْفَ لِي بِهِ ؟ قَالَتْ : تَرَوْمُ ذَلِكَ غِيْلَةً ؛ فَإِنْ سَلِمْتَ أُرَحَّتِ النَّاسُ مِنْ شَرِّ وَأَقْتٍ مَعَ أَهْلِكَ ، وَإِنْ أُصِيبَتْ صِرْتُ إِلَى الْجَنَّةِ وَنَعِيمٍ لَا يَزُولُ ، فَأَنْتُمْ ^(٢) لَهَا ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا وَهُوَ يَقُولُ :

وَلَمْ أَرْ مَهْرًا سَاقَهُ ذُو سَمَاحَةٍ كَيْمَهْرٍ قَطَامٍ مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْجَمٍ
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدٌ وَقَيْنَةٌ وَضَرْبُ عَلَى بِالْحُسَامِ الْمَصْمِ ^(٣)
فَلَا مَهْرَ أَعْلَى مِنْ عَلَى وَإِنْ غَلَا وَلَا قَتْلَكَ إِلَّا دُونَ قَتْلِكَ ابْنَ مُلْجَمٍ
ثُمَّ أَقَامَ ابْنُ مُلْجَمٍ ؛ فَلَامَتَهُ امْرَأَتُهُ ، وَقَالَتْ : أَلَا تَمْنَى مَا قَصَدْتَ ! لَشَدَّةِ
مَا أُحْبِبْتَ أَهْلَكَ ! قَالَ : إِنِّي قَدْ وَعَدْتُ صَاحِبِي وَقَتًا بَعِينَهُ .
ثُمَّ وَاطَّأَ رَجُلًا مِنْ أَشْجَعٍ يُقَالُ لَهُ شَيْبِ بْنِ بَحِيرَةَ عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعَشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ خَرَجَ ابْنُ مُلْجَمٍ وَشَيْبَةُ الْأَشْجَعِيِّ فَاعْتَوَرَا ^(٤) الْبَابَ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَغْلَسًا ^(٥) وَبِوَقْفِ

(١) كَانَ عَلَى قَتْلِ أَبِيهَا وَأَخَاهَا يَوْمَ التَّهْرَوَانِ ، وَكَانَتْ أَجَلَ أَهْلِ زَمَانِهَا . (٢) أَنْتُمْ لَهَا : قَالَ لَهَا : نَعَمْ . (٣) لِلْمَصْمِ مِنَ السُّيُوفِ : الَّذِي يَمْرُقُ فِي الطَّامِ . (٤) اعْتَوَرَا الشَّيْءَ : تَدَاوَلُوهُ فِيهَا بَيْنَهُمْ . (٥) التَّغَالِيْسُ : السِّجَرُ بِنَفْسٍ ، وَالنَّفْلُ : ظِلَّةُ آخِرِ الْبَيْلِ .

الناس للصلاة ؛ فخرج كما كان يفعل ، فضربه شبيب فأخطأه ، وأصاب سيفه الباب ، وضربه ابن ملجم على صلبه وهو يقول : الله الحكم لالك يا علي . فقال علي : قرئت^(١) رب الكعبة ! شأنكم بالرجل !

وحمل ابن ملجم على الناس بسيفه ، فأفوجوا له ، وتلقاه المفيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بقطفة ، فرمى بها عليه ، واحتمله فضربه الأرض - وكان المفيرة أَيْدًا^(٢) - فمعد على صدره .

وأما شبيب فانتزع السيف منه رجل من حَفَرَمَوْت ، وصرعه ، وقعد على صدره ، وكثر الناس ، فجاءوا بصيحوون : عليكم صاحب السيف ؛ فخاف الحضرمي أن يُكَبِّوا عليه ، ولا يسموا عذره ؛ فرمى بالسيف ، وأنسل شبيب بين الناس . فدُخِلَ عليّ عليّ رضي الله عنه ، فأمر فيه فاختلف الناس في جوابه ، فقال : عليّ : إن أعيش فالأمر إلى ، وإن أصب فالأمر لكم ، فإن أمرتم أن تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تمفوا أقرب للقتوى .

وأقام عليّ يومين ؛ فسمع ابن ملجم الرّنة من الدار ، فقال له من حضره : أي عدو الله ، إنه لا بأس على أمير المؤمنين ، قال : أما والله لقد اشتريت سبني بألف درهم ، ومازات أعرضه فما يبيعه أحد إلا أصلحت ذلك الميب ، ولقد سقيته السم حتى لفظه ، ولقد ضربته ضربة لو قُسمت على من بالشرق لأنت عليهم .

ومات عليّ رضي الله عنه ، في اليوم الثالث .

(١) قال النسي : قطعه من وسطه خرقا مستديراً . (٢) الأيد : الغوى .

فدعا به الحسن^(١) رضي الله عنه، فقال ابن ملجم: إن لي عندك سرًّا، فقال الحسن: أتدرون ما يريد مني؟ يريد أن يقرب من وجهي فيعض أذني فيقطعها!
فقال: أما والله لو أمكنتني منها لا قتلتموها من أصلها، فقال الحسن: كلا والله لأضربنك ضربة تؤدي بك إلى النار، فقال: لو علمت أن هذا في يدك ما اتخذت إلهاً غيرك، فقال عبد الله بن جعفر: يا أبا محمد؛ ادفعه إلى أشف نفسي منه؛ فأخفى له ميلين وكحله بهما، فجعل يقول: إنك يا بن أخي انتكحيل علك بمؤولين^(٢) مضاضين^(٣) ثم قتله.

وأما الحجاج بن عبد الله الصريحي فإنه ضرب معاوية مصليةً، فأصاب ما كتمته^(٤). وكان معاوية عظيم الأوزار فكقطع منه عروقاً، فحاء الطبيب إليه فنظر إلى الضربة، فقال: إن السيف مسموم، فاحترأ إما أن أحمي لك حديدة فأجماها في الضربة، وإما أن أسقيك دواء فتبرأ وينقطع نسلك، فقال: أما النار فلا أطيقها وأما النسل ففي يزيد وعبد الله ما تقرُّ به عيني، وحسي بهما. فسقاه الدواء، فمؤ في وعالج جرحه حتى التأم، فلم يولد لمعاوية بعد ذلك ولد.

فلما أخذ قال: الأمان والبشارة؛ قُتِلَ عليٌّ في هذه الصبيحة، فاستوثق^(٥) به حتى جاء الخبر، فقطع معاوية يده ورجله؛ فأقام بالبصرة؛ فبلغ زياداً أنه قد ولد له، فقال: أئولده وأمير المؤمنين لا يولده! فقتله.

وأما زاذويه فإنه أرضد له مرو، واشتكى عمرو بطنه فلم يخرج للصلاة وخرج خارجه^(٦)، فضر به زاذويه فقتله.

(١) للول: المكحال. (٢) مض الكحل العين: أكلها. (٣) المأكدة: لجة على رأس الورث. (٤) استأق: تأق وتبث. (٥) هو خارجه بن حذافة أحد بني عامر ابن لؤي.

فلما دُخِلَ به على عمرو فرآهم يخاطبونه بالإمرة ، وقال : أو ما قُتِلْتُ عمرًا !
قيل : لا ؛ إنما قُتِلْتَ خارجة . قال : أردتُ عمرًا ، وأراد الله خارجة !
وأوقفَ الرجل بين يدي عمرو فسأله عن خبره ، فقصَّ عليه القصة ، وأخبره أن
عليًا ومعاوية قُتِلَا في هذه الليلة ، فقال : لا بدَّ من قتلك ؛ فسكى ، فقيل له أجزعًا
من الموت مع هذا الإقدام ! فقال : لا والله ؛ ولكن عَمَّا أن يفوز صاحبي بقتل علي
ومعاوية ، ولا أفوز أنا بقتل عمرو ! فضرب عنقه وصُلب .

١٥٨ — بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد*

لما أراد عبدُ الملك بن مروان الخروجَ إلى العراق لقتال مُصعب^(١) بن الزبير ،
وأخذ في جهّازه أقبلت عاتكة ابنة يزيد بن معاوية ، امرأته ، في جواربها ، وقد
تزينت بالحليّ ، قالت : يا أمير المؤمنين ؛ لو قعدت في ظلال مُلكك ، ووجهت
إليه كلباً من كلابك لكفأك أمره ، فقال : هيهات ! أما سمعت قول الأول :
قومٌ إذا ما غزَوْا شدُّوا مآزِرهم دونَ النساء ولو بآنت بأطهارٍ

فلما أبى عليها وعزم ، بكّت وبكى معها جواربها ، فقال عبد الملك : قاتل الله
ابن أبي ربيعة أكانه ينظر إلينا حيث يقول :

إذا ما أراد النـزـو لم يثنِ مـهـ حـصانٌ عليها نـظـمُ دُرّ يـزِينـها
نـهـتـه فلما لم تـرَ النـهـى عاقـه بكت فبكى مما دهاها قـطـينـها^(٢)

ثم خرج يزيد مُصعب ، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق
عمرو بن سعيد دمشق ، وخالف عليه ، فقيل له ما تصنع ؟ أتريدُ العراق وتَدْعُ
دمشق أهل الشام أشدُّ عليك من أهل العراق . فرجع مكانه ، وحاصر أهل
دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده ، وأن له مع كل عامل عاملاً
فتفتح له دمشق ، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد ، فأرسل إليه عبد الملك :

* المقدم القريد : ٣ - ١٥٣ ، الأمل : ١ - ١٤

(١) انظر صفحة ١٦٨ من هذا الجزء (٢) الجهاز - بالفتح والكسر - للسافر : ما يحتاج إليه
(٣) القطين : الخدم .

أن أخرج للحرس أرزاقهم . قال : إذا كان لك حرم فإن لنا حرساً أيضاً ، فقال عبد الملك : أخرج للحرس أرزاقهم .

فلما كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار . أن انثنى أبا أمية حتى أذرب موك أموراً ، فقالت امرأته . يا أبا أمية ؛ لا تذهب إليه ، فإنني أتحوف عليك منه ، فقال : والله لو كنت نائماً ما أيقظني ! قالت : والله ما آمنه عليك ، وإني لأجد ريح دم مسفوح ؛ فزال به حتى ضربها بقائم سيفه فشقها .

فخرج وخرج معه أربعة آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يقدر على مثلهم ، مسلحين ، فأخذوا بخضراء دمشق ، وفيها عبد الملك ، فقالوا : يا أبا أمية ؛ إن ربك رب فاعممنا صوتك ، ثم دخل ، فجعلوا يصيحون : يا أبا أمية ؛ أسمعنا صوتك . وكان معه غلام أسحم^(١) شجاع . فقال له : اذهب إلى الناس قل لهم : ليس عليه بأس ؛ فقال له عبد الملك : أمكراً عند الموت أبا أمية ! اخذوه ، فأخذوه ثم قال له عبد الملك : إني أقسمتُ إن أمكنتني منك يد أن أجعل في عنقك جامعة^(٢) ، وهذه جامعة من فضة ، أريد أن أبرها قسي ، وطرح رقبتك في الجامعة ، ثم نثره^(٣) إلى الأرض بيده ، فانكسرت رقبته^(٤) ، فجعل عبد الملك ينظر إليه ، فقال عمرو : ولا عليك يا أمير المؤمنين ، عظم انكسر .

وجاء المؤذنون فقالوا : الصلاة يا أمير المؤمنين . لصلاة الظهر . فقال لعبد العزيز ابن مروان : اقتله حتى أرجع إليك من الصلاة ، فلما أراد عبد العزيز أن يضرب

(١) الأسحم : الأسود . (٢) الجامعة : القلعة . (٣) النثر : الجذب بجفاء . (٤) التنية من الأرمع التي في مقدم القم ، تتنان من فوق ، وتنان من أسفل .

عنه ، قال له عمرو : نَشْدُكَ^(١) الرَّحِمَ يا عبد العزيز ألا تقتلني من بينهم ، فجاء عبد الملك ، فرآه جالساً . فقال : مالك لم تقتله ؟ لعنك الله ، ولعن أمّاً ولدتك ! ثم قال : قدّموه إليّ ، فأخذ الحربة بيده فقال : فعلتها يا بن الزرقاء ، فقال له عبد الملك : إنني لو علمت أنك تبقى ويصلح لي ملكي لفديتُك بدم الناظر ، ولكن قلماً اجتمع خلان في ذؤود^(٢) إلا عدداً أحدهما على الآخر ، ثم رفع إليه الحربة فقتله وقعدَ يرعد ، ثم أمر به فأُدرج في بساط وأدخل تحت السرير

وأُرسل إلى قبيصة^(٣) بن ذؤيب الخُزاعيّ فدخل عليه ، فقال : كيف رأيتُك في عمرو بن سميد الأشدق ، فقال .. وقد أبصر قبيصة رجلاً عمرو تحت السرير : اضرب . عنه يا أمير المؤمنين ، واطرح رأسه ، وانثر على الناس الدنانير يمشاغلون بها . ففعل ، وافترق الناس .

(١) نَشْدُكَ : سألتك . (٢) الذؤود من الإبل : ما بين الثلاث إلى العشر . (٣) صحابي من لقباء الوجوه ، كان على خانم عبد الملك بن مروان بالعام ، وتوفي بدم في سنة ٨٦ هـ .

١٥٩ — الأخطل يفرق من الجحاف*

كان الجحافُ بن حكيم السلمي^(١) من فُتاك العرب ، وكان من خبر ابن عمه عمير بن الحباب السلمي أنه نهض في الفتنة التي كانت بالشام بين قيس وكلب بسبب الزيرية والروانية ، فأتى في بعض تلك المفاورات^(٢) خيلاً لبني ثعلب ؛ فقتلوه ؛ فلما اجتمع الناس على عبد الملك بن مروان ، ووضعت تلك الحرب أوزارها دخل الجحاف على عبد الملك والأخطل عنده ، فالتفت إليه الأخطل فقال :
ألا سألني الجحاف هل هو نائرٌ لِقَتَلِي أُصِيبْتُ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ !
فقال الجحاف مجيباً له :

بلى ، سوف أبكيهم بكل مهندٍ وأبكي عميراً بالرماح الخواطر^(٣)
ثم قال : يا بن النصرانية ؛ ما ظننتك تجترئ على بمثل هذا ولو كنت مأسوراً ، فحم الأخطل فرقاً^(٤) من الجحاف ، فقال عبد الملك : لا ترع ، فإني جارك منه . فقال الأخطل : يا أمير المؤمنين ؛ هَبِكَ تجيرني منه في اليقظة ، فكيف تجيرني في النوم .

ثم نهض الجحاف من عند عبد الملك بحسب كسأه ، فقال عبد الملك : إن فقهه لتندرة ، ورم الجحاف لطيته^(٥) ، وجمع قومه وأتى الرصافة ، ثم سار إلى

* مجمع الأمثال : ٢ - ٢٤ ، معجم البلدان : ٢ - ١٨٦

(١) فاك ، نائر ، شاعر كان معاصراً لعبد الملك بن مروان ، توفي نحو سنة ٩٠ هـ (٢) غاورم : أغار عليهم وأغاروا عليه ، والمفاورة مفاعلة . (٣) المهند : السيف . خطر الرمح : امتر . (٤) فرقا : خوفاً . (٥) يقال : مضى لطيته ، أي لوجهه الذي يريده ، ولنيته التي اتواها .

بني تَغْلِب فصادف في طريقه أربعمائة منهم قتلهم ، ومضى إلى البشر^(١) فصادف عليه جمعا من تغلب ، فقتل منهم خمسمائة رجل ، وتعدى الرجال إلى قتل النساء والولدان^(٢) ، فنادته مجوز منهم ، وقالت : يا جَعْف ! أنتقل النساء ! فأنخل ورجع .

فبلغ الخبرُ الأخطل ، فدخل على عبد الملك ، وقال .
لقد أوقع الجَعْف بالبشر وقعةً إلى الله منها المشتكى والمعولُ
فأهدر^(٣) عبد الملك دَم الجَعْف . فهرب إلى الروم ، فسكن بها سبع سنين ،
ومات عبد الملك ، وقام الوليد بن عبد الملك ، فاستؤمن للجَعْف ، فأمنه ،
فرجع .

(١) البشر . ماء لبى تغلب . (٢) الوليد : للولود ، والصبي والعبد : جمه الولائد والولدان
(٣) أهدر دمه : أبطله : أى أباح قتله .

١٦٠ — قد أخرتُ الإذن عليه لتقتلوه فلم تفعلوا*

قال عبيد الله بن قيس الرقييات^(١) : خرجتُ مع مُصعب بن الزبير حين بلغه شُخُوص عبد الملك بن مروان إليه . فلما نزل مُصعب بمَسِيْن^(٢) ، ورأى معالاً القديرِ ممن معه ، دعاني ودعا بمالٍ وَمَنَاطِقَ^(٣) ، فلأُناطِقَ من ذلك المالِ وألبسني منها ، وقال لي : انطلق حيث شئتُ فأني مقتول ؛ فقلت له : والله لا أُبرِم^(٤) حتى أرى سبيلَكَ ، فأقمتُ معه حتى قُتِلَ .

ثم مضيتُ إلى السكوفة ، فأول بيت صرْتُ إليه دخلته ، فإذا فيه امرأةٌ لها غَلَبَتَانِ ، فَرَقَيْتُ في درجةٍ لها إلى مَشْرَبَةٍ^(٥) ، فقدمتُ فيها ، فأمرتُ لي المرأةُ بما أحتاجُ إليه من الطعام والشراب والفرش والماء الموضوء ، فأقمتُ كذلك عندها أكثرَ من حَوْلٍ ، تُقيمُ لي ما يصلحني ، وتندو عليّ في كل صباح فيبأني بالصباح والحاجة^(٦) ، ولا تسألني من أنا ، ولا أسألها من هي ! وأنا في ذلك أسمعُ الصباح في والجمل .

فلما طال بي المقام ، وقدتُ الصَّباحَ في ، وغَرَضْتُ^(٧) بمكانٍ غَدَتُ عليّ

* الأغاني : ٥ — ٧٦

- (١) عبيد الله بن قيس الرقييات : شاعر قرشي في الإسلام ، ونقب الرقييات لأنه شهب بثلاث نوبة سمين جيماً رقية .
 (٢) مَسِيْن : موضع على نهر دجيل (شهب من دجلة) بالسكوفة ، به كانت الوقفة بين عبد الملك بن مروان ، ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢ هـ . وبه قتل مصعب .
 (٣) المنطقة : ما يهد على الوسط . (٥) لا أبرح . (٥) للمشربة : الفرفة والعلية .
 (٦) أي تقول : كيف أصبحت ؟ (٧) غرَضْتُ : مللت .

تسألني بالصبح والحاجة ، فمرّتها أنى قد غرّيت وأحببت الشخصَ إلى أهلى ؛
قالت لى : نأتيك بما تحتاجُ إليه إن شاء الله تعالى .

فلما أُمِيتُ ، وضرب الليل برواقه رَقِيتُ إلى وقالت : إذا شئت : فنزلت
وقد أعددتُ راحلتين عليهما ما احتاجُ إليه ، ومعهما عبد ، وأعطت العبد نفقة الطريق ،
وقالت : العبدُ والراحتان لك .

فركبت وركب العبد معى حتى طرقتُ أهل مكة ، فدقت منزلى ؛ فقالوا لى :
من هذا ؟ قلت : عبيد الله بن قيس الرقيات ، فولّوا وبكوا ، وقالوا : ما فارقتنا
طلبك إلا فى هذا الوقت ؛ فأقت عندهم حتى أسحرت^(١) .

ثم نهضتُ ومعى العبد حتى قدّمتُ المدينة ، فجنّتُ عبد الله بن حمفر بن
أبى طالب عند المساء ، وهو يُسمّى أصحابه ، وجلستُ معهم ، وجملتُ أناهم وأقول :
باربار^(٢) ابن طيار^(٣) ! فلما خرج أصحابه كشفتُ له عن وجهى ، فقال :
ابن قيس ؟ قلت : ابن قيس ، جئتُك عائداً بك ؛ قال : ويحك ؟ ما أجدهم فى
طلبك ! وأحرصهم على الظفر بك ! ولكنى سأكتبُ إلى أم البنين بنتِ
عبد العزيز بن مروان فى زوجة الوليد بن عبد الملك ، وعبد الملك أرقُ شئ
عليها . فكتبَ إليها يسألها أن تشفعَ له إلى عمها ، وكتبَ إلى أبيها يسألها أن يكتبَ
إليها كتاباً يسألها الشفاعة .

فدخل عليها عبد الملك كما كان يفعلُ وسألها : هل من حاجة ؟ فقالت : نعم

(١) أسحر : دخل لى وقت البحر . (٢) وبار : كلمة فارسية ، ومعناها : الصاحب والشفيع
والبنين . (٣) الطيار : لقب جعفر بن أبى طالب ، والد عبد الله هذا .

لى حاجة ؛ قال : قد قضيتُ كلَّ حاجة لك إلا ابن قيس الرقيات ؛ قالت : لا تَسْتَنْ عَلَى شَيْئًا أَفْتَحَ^(١) يده ، فأصاب خدَّها ، فوضعتُ يدها على خدَّها ؛ فقال لها : يَا بَنَّتِي ، ارفعى يدك ، قد قضيتُ كلَّ حاجة لك ، وإن كانت ابن قيس الرقيات ؛ قالت : إن حاجتي ابن قيس الرقيات تؤمِّنه ، فقد كتب إلى أبي يسألني أن أسألك ذلك ؛ قال : فهو آمِن فمر به يحضر مجلسي العشية .

فحضر ابن قيس وحضر الناس حين بلغهم مجلسُ عبد الملك ، فأخَّرَ الإِذْنَ ، ثم أذن للناس ، وأخَّرَ إِذْنَ ابن قيس الرقيات حتى أخذوا بحالهم ، ثم أذن له ؛ فلما دخل عليه قال عبد الملك : يَا أَهْلَ الشَّامِ ؛ أتمرِّفون هذا ؟ قالوا : لا ؛ قال : هذا عبيد الله بن قيس الرقيات الذي يقول :

كيف نومي على الفراش ولما نعمل الشامَ غارَةً شَعَوَاهُ
تَذْهِلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي عَنْ خِدَامِ الْعَقِيلَةِ الْعَذْرَاهُ^(٢)

فقالوا : أمير المؤمنين ، اسْقِنَا دَمَ هَذَا الْمُنَافِقِ ! قال : الْآنَ وَقَدْ أَمْنَتْهُ وَصَارَ فِي مَنْزِلِي وَعَلَى بَسَاطِي ، قد أَخَرْتُ الإِذْنَ لَهُ لَتَقْتُلُوهُ فَلَمْ تَفْعَلُوا . فاستأذنه ابن قيس أن ينشده مديحه فأذن له ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

عَادَلَهُ مِنْ كَثِيرَةٍ^(٣) الطَّرَبُ^(٤) فَمِنْهُ بِالْدموعِ تَنْسِكِبُ
كَوْفِيَّةٌ نَازِحٌ مَحْتَلَّمَا^(٥) لَا أُمَمَ دَارَهَا وَلَا صَقَبَ^(٦)

(١) نفع يده : ضربها ضربة خفيفة . (٢) الخدام : جمع خدمة (بالتحريك) وهي الخلخال : قال في اللسان : أراد وتبدى عن خدام العقيلة ، وخدام هنا في نية عن خدامها ، وعدى تبدى بمن لأن فيه معنى تكشف . (٣) كثيرة هي التي نزل بدارها عبد الله بن قيس فأوته وأصبح بعد ذلك يذكرها كثيراً في شعره . (٤) الطرب هنا : الحزن . (٥) لا أمم دارها : ليست قرية . (٦) الصقب : الملاصقة .

والله ما إن صَبَتْ إِلَى ولا يُعْرَفُ يَفْنَى وَيَنْهَى سَبَبُ
إِلَّا الَّذِي أَوْزَعَتْ كَثِيرُهُ فِي الْقَلْبِ ، وَلِلْحَبِّ سَوْرَةٌ ^(١) عَجَبُ
حَتَّى قَالَ فِيهَا :

إِنْ الْأَعْرَى الَّذِي أَبُوهُ أَبُو الْعَامِى عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ
بِمَقْدِلِ النَّجْجِ فَوْقَ مَقْرِيقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ ^(٢)
فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : يَا بَنِي قَيْسٍ ؛ تَمْدَحُنِي بِالنَّجْجِ كَأَنِّي مِنَ الْعَجَمِ ، وَقَوْلُ
فِي مُصَنَّبٍ :

إِنَّمَا مُصَنَّبٌ شِهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّى عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ عِزَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبَرِيَاءُ
أَمَّا الْأَمَانُ فَقَدْ سَبَقَ لَكَ ؛ وَلَكِنْ لَا نَأْخُذُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَطَاءً أَبَدًا .

فَذَهَبَ ابْنُ قَيْسٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَقَالَ لَهُ : مَا نَفَعَنِي أَمَانِي ، تَرِكَتُ
حَيًّا كَيْتٌ ، لَا أَخْذُ مَعَ النَّاسِ عَطَاءً أَبَدًا .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : كَمْ بَلَفْتَ مِنَ السَّنِّ ؟ قَالَ : سَتَيْنِ سَنَةٍ . قَالَ : فَعَمَّرَ ^(٣)
نَفْسَكَ ، قَالَ : عَشْرِينَ سَنَةً مِنْ ذِي قَبْلٍ ^(٤) ، فَذَلِكَ ثَمَانُونَ سَنَةً ، قَالَ : كَمْ عَطَاؤُكَ ؟
قَالَ : أَلْفَا دِرْهَمٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَقَالَ : ذَلِكَ عَلَىَّ إِلَى أَنْ تَمُوتَ
عَلَى تَصِيرِكَ نَفْسِكَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ الرَّقِيَّاتِ يَمْدَحُ عَبْدَ اللَّهِ
ابْنَ جَعْفَرٍ :

(١) السورة : شدة الأمر . (٢) وفي هذه القصيدة :

مَا عَمَّرُوا مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ لَنَا غَضَبَهَا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ الْمُلُوكِ فَاصْطَلَحُوا إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

(٣) عمر نفسه : قدر لها قدرًا محدودًا . (٤) يقال : أَفْضَلَ ذَلِكَ مِنْ ذِي قَبْلٍ : أَيِ أَمْلَهُ فِي
الْمُتَقَبَّلِ .

تَقَدَّتْ فِي الشَّهَاءِ نَحْوَ ابْنِ جَعْفَرٍ^(١) سَوَاءٌ عَلَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا
تَزُورُ امْرَأً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ تَجُودُ لَهُ كَفٌّ قَلِيلٌ غَرَارُهَا
أَتَيْنَاكَ نُثْنِي بِالَّذِي أَنْتَ أَمَلُهُ عَلَيْكَ كَأَيْثُنِي عَلَى الرَّوْضِ جَارُهَا
فَوَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَزُورَ ابْنَ جَعْفَرٍ لَكَانَ قَلِيلًا فِي دِمَشَقَ قَرَارُهَا
إِذَا مَتَّ لَمْ يَوْصَلْ صَدِيقٌ وَلَمْ تَقُمْ طَرِيقٌ مِنَ الْمَرْوِفِ أَنْتَ مَنَارُهَا
ذَكَرْتُكَ إِنْ قَاضَى الْفَرَاتُ بَأَصْنَا وَقَاضَى بِأَعْلَى الرَّقَّتَيْنِ^(٢) بِحَارُهَا

(١) تقدت : أي سارت سيراً ليس يجال ولا يبطل^٣، ولزمت سنن الطريق . (٢) قليل غرارها : أي أن منها المروف قليل ، وأصل الفرار أن تمنع الناقة دوتها ، ثم يستمر في كل ما أشبه ذلك ، أو الفرار : المثال . (٣) الرقتان : يراد بهما الرقة والرافقة ، وهما مدينتان ، والثنية من باب التثنية .

١٦١ — أبي الضمير *

قال الفضل الضبي:

كان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن^(١) متوارياً عندى بالبصرة ، وكنت أخرج وأتركه ، قال لى : إذا خرجت ضاق صدري ، فأخرج إلى شيئاً من كتبك أفرج به ، فأخرجت له كتباً من الشعر فاختر منها القصائد التى صدرت بها كتاب للفضليات ، ثم أتممت عليها باقى الكتاب .

فما خرج خرجت معه ، فلما صار بالمرج ، فزبد سليمان بن على ، وقف عليهم ، واستسقى ماء ، فأتى به فشرب ، فأخرج إليه صبيان من صبيانهم ، فقصهم إليه ، وقال: هؤلاء والله منا ونحن منهم لحنا ودمنا ، ولكن آباءهم انتزوا على أمرنا ، وابتزوا حقوقنا ، وسفكوا دماءنا ، ثم تمثل :

مهلاً بفى غمنا ظلامتنا إن بنا سورة^(٣) من الفلق^(١)
لثلكم^(٥) تحمل السيوف ولا نغمز أحسابنا من الرقيق^(٢)
إلى لأئمتى^(٧) إذا اتهمت إلى عزيز عزيز ومعشر صدق
بيض سباط^(٨) كان أعينهم تكحل يوم الهياج بالعلق^(٩)

* ابن أبي الحديد : ١ - ٣٢٤ هـ ثانياً : ١٠ - ٥

- (١) أحد الأشراف الشجاعة ، خرج بالبصرة على المنصور العباسى ، وكانت بينه وبين جيوش المنصور وقائع هائلة إلى أن قتل سنة ١٤٥ هـ . (٢) انتزى إلى الشر : توب . (٣) السورة : التوب . (٤) الفلق : الضجر . (٥) المراد : أننا نعلم لكم السيوف ، لأنكم أكفأؤنا . (٦) الرقيق : الضعف . (٧) ألب . (٨) السباط : جمع سبط ، وهو حسن القد والاستواء . (٩) العلق : الدم ، يريد أن عيونهم حمر لشدة النيفظ والغضب ، فكأنها كحلت بالدم .

قلت له : ما أجود هذه الأبيات وأفضلها ! فلن هي ؟ فقال : هذه يقولها
ضرار بن الخطاب النهري يوم عُبِّرَ الخندق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ،
وتمثل بها علي بن أبي طالب يوم صُنِّين ، والحسين يوم الطف^(١) ، وزيد بن علي
يوم السَّبْحَةِ^(٢) ، ويحيى بن زيد يوم الجوزجان^(٣) ، فتطيرت له من تمثله بأبيات
لم يتمثل بها أحدٌ إلا قُتِلَ .

ثم سرنا إلى بائجر^(٤) ، فلما قرب منها أناه نَعَى أخيه محمد ، فتغير لونه ،
وجرّس^(٥) بريقه ، ثم أجهش باكياً ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن محمداً خرج
يطلب مرضاتك ، ويؤبر أن تكون كلمتك العليا ، وأمرُك التبع المطاع ، فاعفُ عنه ،
وارحه وارض عنه ، واجعل ما نقلته إليه من الآخرة خيراً مما نقلته عنه من الدنيا ،
ثم انفجر باكياً ، ثم تمثل :

أنا المُنْزَلُ يا خبيرَ الفوارسِ مَنْ يُفَجِّعُ بمثلك في الدنيا فقد فُجِّعا
الله يعلمُ أني لو خشيتهمُ أو آنسَ القلبُ من خوفٍ لم فَرَعَا
لم يقتلوك ولم أُسَلِّمْ أخِي لهمُ حتى نعيشَ جميعاً أو نموتَ معاً
قال المفضل : فجعلت أعزِّيهِ وأعانبُهُ على ما ظهر من جَزَعِهِ ، فقال : إني والله
في هذا كما قال دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ :

تقول : ألا تبكي أخاك وقد أرى مكان البُسْكا ، لكن بُنيت^(٦) على الصبرِ
لمقتل عبيد الله والمالك الذي على الشرف الأهلِي قَتِيلِ^(٧) أبي بكر

(١) الطف : ضاحية الكوفة ، وبها قتل الحسن . (٢) السبحة : موضع بالبصرة . (٣) جوزجان :
كورة واسعة من كور بلخ بخراسان ، وبها قتل يحيى بن زيد . (٤) بائجر : موضع بين الكوفة
وواسط . (٥) جرّس بريقه : ابتله بالجهد على مضى . (٦) بنيت : خلقت . (٧) قتل أبي بكر :
هو أخوه فيس ، قتله بنو أبي بكر بن كلاب برأسهم عمرو بن سفيان الكلابي .

وعبدِ بنو^(١) أو خللي خالد^(٢) وجل مصاباً حنو قسراً على قبر ا
فلما تربناً لا تزال دماؤنا لدى وائر يشقى بها آخر الدهر
فإننا للحم السيف غير نكير^(٣) ونلحمه^(٤) طوراً وليس بذى نكير
بقار علينا وائر فيشتفى بنا إن أصينا ، أو نغير على وتر
بذاك قسماً الدهر شطرين قسمة فسا ينقضى إلا ونحن على شطر

قال الفضل : ثم ظهرت لنا جيوش أبي جعفر مثل الجراد ، فتمثل إبراهيم :
إن يقتلوني^(٥) لا نصب أرماحهم ثأرى ويسى القوم سعيًا جاهدا
نبتت أن بنى جديمة أجمعت أمرا تدبره لتقتل خالد
أرمي^(٦) الطريق وإن رصدت بصيقه وأنزل البطل الكمي الحاردا^(٧)

قلت له : من يقول هذا الشعر يا بن رسول الله ؟ فقال : يقول خالد بن جعفر
ابن كلاب يوم شعب جيلة :

ثم أقبلت عساكر أبي جعفر للنصور ، فظعن رجالاً وطنه آخر ، قلت له :
أتبائر القتال بنفسك ! وإنما العسكر منوط بك ، فقال : إليك يا أخا بنى ضبة ،
فإني لكما قال بجوف القوافي :

ألمت سعاد ، وللمهنا أحاديث نفس وأحلامها
محبة من بنى مالك تطاول في المجد أعلامها

(١) أخوه أيضاً قتله بنو مرة . (٢) خالد أخوه أيضاً قتله بنو الحارث بن كعب . (٣) التسكر :
التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها ، والاسم التكرية . (٤) ألحمته سقى : قتله ، وأمل ألحمه :
أطعمه اللحم . (٥) اللبي : أنهم إن قتلوني ، ثم حاولوا أن يصيبوا رجلاً آخر مثل صلح أن يكون
لي نظيراً وسعداني ذلك سعيًا جاهداً ، فإياهم لن يجدوا . (٦) يقول : أسلك الطريق الضيق ،
ولو جعل لي فيه الرصد لقتل . (٧) الحاردا : للتفرد في شجاعته ، التي لا مثل له .

وإِنَّ لَنَا أَصْلَ جُرْثُومَةٍ تَرَدُّ الْحَوَادِثَ أَيَّامُهَا

تَرَدُّ الْكِتَابَةِ مَقُولَةٌ بِهَا أَفْنُهَا وَبِهَا ذَامُهَا^(١)

والتحمت الحرب واشتدت ، قال : يا مفضل : احكيني بشئ ، فذكرت أبياتاً
لُمَوَيْفَ القَوَائِي لما كَانَ ذَكَرَهُ هُوَ مِنْ شَعْرِهِ فَأَنشَدْتَهُ :

أَلَا أَيُّهَا النَّاهِي قَزَاةً بَعْدَمَا أَجَدْتَ لَسِيرٍ ، لَأَتَمَّ أَنْتَ ظَالِمٌ

أَبَى كُلُّ حِرٍّ أَنْ يَبِيتَ بِوِثْرِهِ وَتَمْنَعُ مِنْهُ النَّوْمَ إِذْ أَنْتَ نَائِمٌ

أَقُولُ لِفَتَيَانِ كِرَامٍ تَرْتَوْحَا عَلَى الْجُرْدِ فِي أَفْوَاهِهِنَّ الشَّكَاثِمُ :

قَفُوا وَقْفَةً ، مَنْ يَحْيَى لَا يُخْزَى بَعْدَهَا وَمَنْ يُخْزَمُ لَا تَقْبَلُهُ اللَّوَاهِمُ

وَهَلْ أَنْتَ إِنْ بَاعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْهُمْ لَتَسْلَمَ فِيهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، سَالِمٌ !

قال : أَعَدَّ وَتَبَيَّنَتْ مِنْ وَجْهِهِ أَنَّهُ يَسْتَقِيلُ ، فَانْتَبَهَتْ وَقُلْتُ : أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ !

فقال : لَا ، بَلْ أَعِدُّ الْأَيَّاتِ ، فَأَعْدَتْهَا ، فَتَمَعَلَى فِي رَكَابِيْنَةٍ قَطَعْنَاهَا ، وَحَلَّ فَنَابَ

عَنِي ، وَأَنَا هُ سَهْمٌ عَائِرٌ^(٢) قَتَلَهُ ، وَكَانَ آخِرُ عَهْدِي بِهِ .

(١) الْأَفْنُ : النَّقْصُ ، وَالذَّامُ : الْعَيْبُ . (٢) الْعَائِرُ مِنَ السَّهْمِ : مَا لَا يَمُورُ رَامِيَهُ .

١٦٢ - مصرع الوليد طريف*

كان الوليد بن طريف الشيباني^(١) رأس الخوارج وأشدّهم بأساً وصولة ، واشتدّت شوكتُهُ ، وطالت أيامُهُ ، فوجّه إليه الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني^(٢) ، فجعل يخاصمه ويمسكه - وكانت البرامكة منحرفة عن يزيد - فأغروا به أمير المؤمنين ، وقالوا : إنما يتجافى عنه للرحم ، وإلا فشوكة الوليد بسيرة .

فوجّه إليه الرشيد كتاباً مفضّب يقول فيه : ولو وجهت بأحد الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ؛ وأمير المؤمنين يُقسم بالله لأن آخرت مناجزة الوليد ليوجّهن من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين ...

فلقى الوليد عشية خميس في شهر رمضان وقال لأصحابه : فذاك أمي وأمي ! إنما هي الخوارج ولم تحلّة ، فاحلوا فإنهم إذا نهزموا لم يرجعوا ، فكان كما قال : حملوا حلّة وثبت يزيد ومن معه عشيرته وأصحابه ؛ ثم حل عليهم فأنكشفوا وتابع يزيد الوليد بن طريف فلحقه بعد مسافة وألقاه يقول :

أنا الوليد بن طريف الشاري^(٣) قسورة^(٤) لا يصطلي بناري

* جَوْزُكُمْ أَخْرَجَنِي مِنْ دَارِي *

* الأغانى ١١ - ٩ ، معاهد التنصيص : ٥١ : ٢

(١) تأثر من الأبطال ، خرج في خلافة الرشيد ، فأرسل إليه الرشيد جيشاً قائده يزيد بن مزيد الشيباني أفضله بعد حرب شديدة سنة ١٧٩ هـ . (٢) أمير من القادة الشجعان ، توفي سنة ١٨٥ هـ . (٣) الشاري : المارحى ، وهم الضراة . (٤) القسورة : العزيز يقنسر غيره ، أى يقهره .

فأخذ يزيد رأسه . ولما سمعت بهذا أخته ليلى بنت طريف صَبَّحَتْهُمْ مستعدة عليها الدَّرْع والجَوْشَن^(١) ، فجعلت تحمل على الناس فَعُرْتُ ، فقال يزيد : دَعُوها ، ثم خرج إليها فضرب بالرمح قِطَاعَ^(٢) فرسها ، ثم قال : اغْرُبِي^(٣) اغْرُبِ الله عينيك ، فقد فَضَعْتَ العِشِيرَةَ ، فاستَحَيَّتْ وانصرفت وهى تقول :

يَتَلَّ نُبَاتِي^(٤) رَسْمُ قَبْرِ كَأَنَّهُ عَلَى عِلْمٍ فَوْقَ الْجِبَالِ مُنِيفٍ
تَضْمَنُ جَوْدًا حَامِيًا وَنَائِلًا وَسُورَةَ مِقْدَامٍ وَقَلْبَ حَصِيفٍ
فَإِنَّ يَكُ أَرْدَاهُ يَزِيدُ بْنُ مَزِيدٍ فَيَارِبُ خَيْلٍ فَضًّا وَصُفُوفٍ أ
أَلَا يَا لِقَوْمِي لِلنَّوَابِ وَالرَّدى وَدَهْرٍ مُلِحٍ بِالْكَرَامِ عَنِيفٍ أ
وَالْبِدْرِ مِنْ بَيْنِ السَّكَاكِبِ إِذْ هَوَى وَلِلشَّمْسِ هَمَّتْ بَعْدَهُ بِكَسُوفٍ
وَلِلَّيْلِ كُلِّ اللَّيْلِ إِذْ يَحْمِلُونَهُ إِلَى حُفْرَةِ مَلْحُودَةٍ وَسَقِيفٍ^(٥)
أَبَاشِجَرَ الْخَلَابُورِ^(٦) مَالِكَ مُورِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ أ
فَتَى لَا يَحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ التُّقَى وَلَا لِلَالِ إِلَّا مِنْ قَنَّا وَسَيُوفٍ
فَلَا تَجْزَعَا يَا بَنَى طَرِيفٍ فَإِنِّى أَرَى لِلْوَتِّ نَزَالًا بِكُلِّ شَرِيفٍ
قَدَدَانِ قَدَدَانِ الرَّبِيعِ وَلَيْفَنَّا قَدَيْنَاكَ مِنْ دَهْمَانِنَا بِالْوَفِّ

ولما انصرف يزيد بالظَّفر حُجِبَ برأى البرامكة، وأظهر الرشيد السَّخَطَ عليه؟ فقال : وحقَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَصِيَّينَ وَأَشْتَوْنَ عَلَى فَرْسَى أَوْ أَدْخَلَ.

(١) الجَوْشَن : الحديد الذى يلبس من السلاح، وقيل : زرد يليه الصدر . (٢) القِطَاعَة : المعز

(٣) يقال : اغْرُبْ عَنِ أَى تَبَاعَد ، ويقال غربت العين إذا ودم ما فيها . (٤) نُبَاتَى كسكارى :

موضع بالبصرة . (٥) السَّقِيف : القف . (٦) نبت ، ونهر ، وواد .

فارتفع الخبر بذلك إلى الرشيد ، فأذن له ، فدخل ؛ فلما رآه أمير المؤمنين ضحك وسرّاً ، وأخذ يضحك : مرّحّباً بالأعرابي حتى دخل وأجلسه وأكرمه ، وعرف بلاءه ونقاء صدره ^(١) .

(١) ولما عفا عنه الرشيد مدحه الشراء ، فكان من مدحه مسلم بن الوليد ، ومن أحسن ما ورد في شعره قوله :

يفتر عند الخزار الحرب مبتعاً	إذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج ، في يوم ذي رهج	كأنه أجبل يمي إلى أمل
يناله بالرفق ما يبيا الرجال به	كالوت مستجلاً يأتي على مهل
يقرى النية أرواح الصدا كما	يرى الضيوف شعوم الكوم والزل
يكسو السيوف رهوس الناكثين به	ويجمل الهام تيجان القنا قبل
إذا انتفى سيفه كانت مسالكه	مسالك الموت في الأبدان والقل

البَابُ الْخَامِسُ

في القصص التي تحكى ما كان للجند من أحداث
وأحاديث ، في الفارات والفرّوات والفتوح ، مصوِّرة
نفسياتهم وأحوالهم ، واصفة تطوراتهم العقلية والخلقية
بنشأة الدولة المربية وانفساح رُقعها ، مفصلة عُددهم
وآلاتهم وأسلحتهم في حياتهم الجديدة .

١٦٣ - كِلَابُ بنِ أُمِيَّةَ وَأَبَوَاهُ*

حَدَّثَ عُرْوَةُ بنُ الزَّيْبِرِ قَالَ : هَاجَرَ كِلَابُ بنُ أُمِيَّةَ بنِ الْأَسْكَرِ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ ، فَأَقَامَ بِهَا مَدَّةً ، ثُمَّ لَقِيَ ذَاتَ يَوْمٍ طَلْحَةَ بنَ عَبْدِ اللَّهِ وَ الزَّيْبِرَ ابْنَ الْعَوَّامِ ، فَسَأَلَهُمَا : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَقَالَا : الْجِهَادُ . فَسَأَلَ عُمَرَ فَأَغْرَاهُ فِي جَيْشٍ ، وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ كَبِرَ وَضَعِفَ ، وَخَرَجَ مَعَهُ أَخُو لَهُ آخَرُ ؟ فَأَنْبَغَتْ أُمِيَّةُ يَقُولُ :

يَا أُمَّ هَيْمَ ؛ مَاذَا قُلْتَ أَسْلَانِي	رَبِّبُ الْمَنُونِ وَهَذَانِ الْجَدِيدَانِ ^(١)
إِمَّا تَرَى حَجَرِي قَدْ رَكَ ^(٢) جَانِبُهُ	قَدْ يَسْرُكُ صُلْبًا غَيْرَ كَذَّانِ ^(٣)
إِمَّا تَرِينِي لَا أَمُضِي إِلَى سَفَرٍ	إِلَّا مَعِي وَاحِدٌ مِنْكُمْ أَوْ اثْنَانِ
يَا بَنِي أُمِيَّةَ ، إِنِّي عَنكَ غَائِي	وَمَا الْغَيِّ غَيْرَ أَتَى مُرْعَشٌ فَائِي
يَا بَنِي أُمِيَّةَ ، إِنْ لَا تَشْهَدَا كِبَرِي	فَإِنْ تَأْبَيْكُمَا وَالشَّكْلُ مِثْلَانِ
إِذْ تَحْمِلُ الْفَرَسَ الْأَحْوَى ^(٤) ثَلَاثَتَنَا	وَإِذْ فِرَاقُكُمَا وَاللَّوْتُ سَيِّئَانِ
أَصْبَحْتُ هُزْءًا لِرَأْيِ الْقَضَائِ أَعْجِبُهُ	مَاذَا يَرِيْبُكَ مَعِي رَأْيِي الضَّانِ
أَتَقَى بِضَانِكَ فِي نَجْمٍ ^(٥) مُحْمَرُهُ	مِنْ الْأَبَاطِحِ وَاحِشِنَهَا يَحْمَدَانِ ^(٦)
إِنْ تَرَوْنِي ضَانًا فَإِنِّي قَدْ رَعَيْتُهُمْ	بَيْضَ الْوُجُوهِ بَنِي عَتَى دِلْحَوَانِي

* الحاسن والساوي: ٥٨٨ ، (طبع ليزج) ، ذيل الأمل: ١٠٨ .

(١) الجدبدان : الليل والنهار . (٢) رك : ضعف . (٣) السكدان : الرخو .

(٤) الأحوي : الأسود . (٥) النجم : مانجم من النبات على غير سابق . (٦) حمدان : جبل

ب طريق مكة ، وواد .

فلما طالت غيبة كلاب عنه قال :

لَمِنْ شَيْخَانٍ قَدْ نَشَدَا كِلَابًا^(١) كِتَابَ اللَّهِ إِنْ رَقَبَ الْكِتَابَا
تَنْفَضُ مَهْدَهُ شَفَقًا عَلَيْهِ وَتَجْنِبُهُ أَبَاعِرُنَا^(٢) الصَّابَا
إِذَا هَتَفَتْ حَامَةُ بَطْنٍ وَإِذَا عَلَى بَيْضَاتِهَا دَعَوْا كِلَابَا
تَرَكْتُ أَبَاكَ مَرْعَشَةً بِدَاهِ وَأَمْسَكَ مَا تُبَيِّغُ لَهَا شَرَابَا
أُنَادِيهِ وَوَلَانِي قَفَاهُ فَلَا وَابِي كِلَابٌ مَا أَصَابَا
فَإِنْ مُهَاجِرَيْنِ تَكْنَفَاهُ لِيَتْرَكَ شَيْخَهُ ؛ خَطَا وَخَابَا
وَلِنْ أَبَاكَ حِينَ تَرَكْتَ شَيْخُ يُطَارِدُ أَيْفًا شُسْبَا^(٣) طَرَابَا
إِذَا بَلَغَ الرَّسِيمَ^(٤) فَكَانَ شَدًّا^(٥) يَحْرِقُ ؛ نَفَالِطُ الدَّقْنُ التَّرَابَا
فَبِلْتَ أَيْبَاتِهِ عَمْرَ ، وَلَمْ يَرُدَّ كِلَابَا ، فَاهْتَزَّ أُمِيَّةٌ وَاخْتَلَطَ^(٦) جَزَعًا عَلَيْهِ ،
وَنَفَتَتْ الرُّكْبَانُ بِشَعْرِ أَيْبِهِ فَبِلَغَهُ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

لَمَسْرَكَ مَا تَرَكْتُ أَبَا كِلَابٍ كَبِيرَ السِّنِّ مُكْتَنِيًا مُصَابَا
وَأَمَّا لَا يَزَالُ لَهَا حَنِينٌ تَنَادَى بِسَدِّ رَقَدَتِهَا كِلَابَا
لِكَسْبِ الْمَالِ أَوْ طَلَبِ الْمَعَالِي وَلِكُنِّي رَجُوتُ بِهِ الثَّوَابَا
ثُمَّ أَنَاهُ يَوْمًا وَهُوَ فِي مَسْجِدِ الرَّسُولِ ، وَحَوْلَهُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ فَوَقَفَ
عَلَيْهِ ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

أَعَاذُلُ قَدْ عَذَلْتِ بِمُسِيرِ عِلْمٍ وَلَا تَدْرِيْنَ عَاذِلُ مَا أَلَاقِي

(١) نشدا : طلبا . (٢) الأباغر : جمع بعر : (٣) الشب : جمع شاسب وهو النجف
اليابس . (٤) الرسم : سير للاهل . (٥) الشد هنا : المدو .
(٦) اختلط : فسد عقله .

فَلَمَّا كُنْتُ عَازِلِي فِرْدَى كَلَابًا إِذْ نَوَّجَهُ لِلْعِرَاقِ
وَلَمْ أَقْضِ اللَّيْلَانَةَ مِنْ كَلَابٍ غَدَاةٍ غَدٍ وَأَذْنٍ بِالْفِرَاقِ
فَتَى الْفَتَيَانِ فِي عُسْرِ وَبُسْرِ شَدِيدِ الرُّكْنِ فِي يَوْمِ التَّلَاقِ
فَلَا وَاللَّهِ مَا بَالِيَتْ وَجْدِي وَلَا شَفَقِي عَلَيْكَ وَلَا اسْتِغْنَايَ
سَأَسْتَمْدِي عَلَى الْفَارُوقِ رَبًّا لَهُ حَجٌّ الْحَجِيجِ عَلَى اتِّسَاقِ
وَأَدْعُو اللَّهَ بِمَجْدِهِ عَلَيْهِ بِيَطْنِ الْأَخْشَبِينَ^(١) إِلَى ذِقَاقِ^(٢)

فلما أنشدها عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص : أن رحّل كلابًا ، فرحّله .

فلما قدم دخل إليه فقال : ما بلغ من برك بأبيك ؟ قال : كنت أبرّه أكفيه أمره ، وكنت أعتد - إذا أردت أن أحلب لبنًا - أغزّر ناقة في إبله وأستحمّها فأسقيه لبنها .

فبعث عمر إلى أميّة من جاء به إليه . فأدخله يتهادى ، وقد ضُفّ بصره واعشى . فقال له : كيف أنت يا أبا كلاب ؟ قال : كما يرانى يا أمير المؤمنين ؛ قال : فهل لك من حاجة ؟ قال : نعم ، أشتهى أن أرى كلابًا ، فأشمه شمةً ، وأضمه ضمةً قبل أن أموت . فبكى عمر ثم قال : ستبلغ من هذا ما تحبّ إن شاء الله تعالى .

ثم أمر كلابًا أن يحتلب لأبيه ناقة كما كان يفعل ، ويبعث إليه بلبنها . ففعل ، فناوله عمر وقال : دونك هذا يا أبا كلاب . فلما أخذه وأدناه إلى فيه ، قال : نعم والله يا أمير المؤمنين ، إني لأشتمّ رائحة كلاب من هذا الإناء . فبكى عمر وقال : هذا كلابٌ عندك حاضرًا قد جئتُك به . فوثب إلى ابنه وضّمّه إليه وقبله .

(١) الأخشبان : جبلا مكة : أبو قيس والأحر ، وجبلا منى . (٢) ذقاق : موضع أو واد .

وجعل عمر يكي ومن حضره ، وقال لكلاب : الزم أبويك فجاهد فيهما
ما بقيا ، ثم شأنك بنفسك بعدهما ؛ وأمر له ببطائه وصرفه مع أبيه .

ثم قتل كلاب مع علي بن أبي طالب بصيفين ، وعاش أبوه أمية دهرأ طويلا ،
حتى خرف ، فتر به غلام له كان يرعى غنمه ، وأمية جالس يمشو على رأسه التراب ؛
فوقف ينظر إليه ، فلما أفاق بصر بالغلام ، قال :

أصبحتُ لهوا راعي الضأن أعجبه ماذا يري بك مني راعي الضأن !
انقُ بضأنك إني قد قلدتهم بيض الوجوه بني عمي وإخواني

١٦٤ - في يوم اليرموك*

شهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله فيهم نحو مائة من أهل بدر، وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكرّاديس^(١) فيقول: الله الله؛ إنكم ذادة^(٢) العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك.

وأمر خالد عكرمة^(٣) والقمّاع^(٤)، فأُتِيبَ القتال، وارتجز القمّاع وقال:
باليثني ألقــاك في الطرّاد قبل اغترام^(٥) الجحفل الوراد
* وأنت في حليّتك الوراد^(٦) *

وقال عكرمة:

قد علمت بهسكنة^(٧) الجوارى أني على مكرمة أحامي

فَنَشِبُ القتال، والْتَحَمَ الناس، وتطارد الفرسان؛ فإنهم على ذلك إذ قدم
البريد من المدينة فأخذته الخيول، وسألوه الخبر، فلم يخبرهم إلا بسلامة، وأخبرهم
عن إمداد؛ وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله، وتأمير أبي عبيدة.

* الطبري . ٤ - ٣٤

(١) الكرّادوس: القطعة المطيبة من الخيل . (٢) ذادة: جمع ذائد، وهـ الدائم
(٣) من صناديد قریش في الإسلام، كان هو وأبوه من أشد الناس على النبي، رأسلم في يوم
الفتح فشهد الوقائع، وولى الأعمال لأبي بكر واستشهد سنة ١٥ هـ . (٤) أحد فرسان العرب
وأبطالهم شهد اليرموك، وكان شاعراً فعلامات نحو ٤٠ هـ . (٥) الاغترام: الاشتداد وفي
حديث علي « على حين فترة من الرسل واعتزام من الفتن » . (٦) الحليّة: جماعة الخيل،
والوراد جمع ورد، وهو الفرس بين السكيت والأشقر . (٧) البهكنة: الفتاة النضة .

فأبلغوه خالداً فأخبره خبر أبي بكر أسره إليه ، وأخبره بالذي أخبر به الجند؟
 فقال : أحسنت قتيبٌ ؛ وأخذ الكتاب ، وجعله في كِنَانَتِهِ ؛ وخاف إن هو أظهر
 ذلك أن ينتشر له أمر الجند ؛ فوقف تحميّة بن زُنَيْمٍ - وهو الرسول - مع خالد
 وخرج جرّجَة^(١) حتى كان بين الصّفين ، ونادى : ليُخْرَجْ إلى خالد .

فخرج إليه خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقفه بين الصّفين حتى اختلفت
 أعتاق دابّتهما ، وقد أمّن أحدهما صاحبه ؛ فقال جرّجَة : يا خالد ؛ اصدقني ولا تكذبني
 فإن الحُرَّ لا يكذب ، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع ، هل أنزل الله على
 نبيّكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزّمتهم ؟ قال : لا ، قال :
 فمِمّ سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عزّ وجلّ بعث قينا نبيّه ، فدعانا فنقرّنا عنه ؛
 ونأينا جميعاً ؛ ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذّبه ، فسمكتُ فيمن
 كذّبه وباعده وقاتله ؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتأبناؤه ، فقال :
 أنت سيفٌ من سيوف الله سلّه الله على المشركين ، ودعالي بالنصر ، فسميتُ سيف
 الله بذلك ؛ فأنما من أشدّ المسلمين على المشركين ، قال : صدّقني .

ثم أعاد عليه جرّجَة : يا خالد ؛ أخبرني إلّا ما تدعوني ؟ قال : إلى شهادة أن
 لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء من عند الله ؛ قال :
 فن لم يحبكم ؟ قال : فالحزبيةُ ونعمته ، قال : فإن لم يُعطها ؛ قال : نوذّره بحرب ثم
 قتاله ، قال : فامنزله من يدخل فيكم ويحييكم إلى هذا الأمر اليوم ؟ قال : منزلتنا
 واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفتنا ووضيعتنا وأولنا وآخرنا .

ثم أعاد عليه جرّجَة : هل لمن دَخَلَ فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من

(١) جرّجَة : مقدم عسكر الروم يوم اليرموك .

الأجر والذَّخْرُ؟ قال : نعم ، وأفضل ، قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه !
قال : إنا دخلنا في هذا الأمر ، وبايعنا نبينا وهو حيّ بين أظهرنا تأتيه أخبارُ
السماء ، ويخبرنا بالكتب ، ويرينا الآيات ، وحُقّ لِن رَأْيِ ما رأينا وسمع ما سمعنا
أَن يُسَلِّمَ وَيُبَايِعَ ، وإنكم أنتم لم تَرَوْا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب
والحجج ، فن دخل في هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تآلفني . قال : بالله لقد
صدقتك وما بي إليك ولا إلى أحدٍ منكم وَحْشَةٌ ، وإن الله لولئ ما سألت عنه .
فقال : صدقتني ، وقلِّبَ التُّرْسَ ومال مع خالد ، وقال : علّني الإسلام ؛ فقال به
خالد : إلى فُسْطَاطِهِ ^(١) فشنّ عليه قِرْبَةً من ماء وصلى ركعتين .

(١) الفسطاط : الخيمة .

١٦٥ — في يوم القادسية*

كان أبو محجن النخعي^(١) من المقاترين للخمر ، المحدثين في شربها ، أقام عليه عمر بن الخطاب الحد مراراً ، وهو لا ينتهي ؛ فنفاه إلى جزيرة في البحر ، وبعث معه حرسياً^(٢) ، فهرب منه ولحق بسعد بن أبي وقاص ، وهو في حربه مع الفرس وكانت حرب القادسية .

ولما بلغ ذلك عمر كتب إلى سعد بحبسِه ، فحبسه في القصر ، وتطلع أبو محجن إلى الحرب ، فرأها مشتتلة ، فذهب إلى سَلَى بنت أبي حفص — زوج سعد ، فقال لها : هل لك في خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تُحَلِّين عني وتُعيريني البلقاء^(٣) ؛ فَلِلَّهِ عَلَى إِنْ سَلَى الله أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ حَتَّى تَضَعِي رِجْلِي فِي قَيْدِي ؛ قالت : وما أنا وذلك ؟ فرجع يرسف في قيوده ، ويقول :

كُنِي حَزَنًا أَنْ تَرُدِّي الْغِيلَ بِالْقَنَاءِ وَأَنْتِ كَاشِدُودًا عَلَيَّ وَنَاقِيَا
إِذَا قُتُّ عَنَانِي الْحَدِيدُ وَغُلِقَتْ مَصَارِيعُ مِثْنِ دُونِي نَعِيمُ الْمُنَادِيَا
وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَإِخْوَةٍ قَدْ تَرَكُونِي وَاحِدًا لَا أَخَا لِيَا

* مذهب الأغانى : ٢ - ٤٨ الخزانة : ٣ - ٥٥٣ ، الأغانى : ٢٠ - ١٣٨ ، الكامل لابن الأثير : ٢ - ٢٣٢ ، السعدي : ١ - ٤٢٣

(١) أبو محجن اسمه وكنته على المشهور ، أسلم سنة ٩ هـ ، وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وكان جواداً كريماً من الفرسان المشهورين في الجاهلية والإسلام مات سنة ٣٠ هـ .
(٢) الحرسى : واحد حرس السلطان . (٣) البلقاء : فرس سعد بن أبي وقاص .

وقد شفت جسمى أننى كل شارقي^(١) أعالج كنبلاً^(٢) مُصنّعا قد برّانيا
فله درى يوم أنرك مؤقّماً وتذهل عنى أسرّتى ورجاليا !
حيبساً عن الحرب الموان وقد بدت وإعمال غيرى يوم ذاك العواليأ
ولله عهد لا أخيس^(٣) بهديه لئن فرجت ألا أزور الحوانيا^(٤)
فقلت له سلمى : إني استخرت الله ورضيتُ بهدك . وأطلقته .

فاقتاد أبو محجنّ الفرس ، وأخرجها ثم ركبها ، ودبّ عليها ، وفى ذلك اليوم
أظهر من شجاعته عجباً . ولما تجاوز أهلُ العسكرين أقبل أبو محجنّ حتى دخل
القصر ، ووضع نفسه عن الدابة ، وأعاد رجله في القيد وقال :

فقد علّت قيف غير فعير بآنا نحن أكرمهم سيوفاً
وأكثرهم دروعاً سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوا
فإن أحتس قد عرفوا بلائى وإن أطلق أجزعهم حقوا

فقلت له سلمى : يا أبا محجنّ ؛ فى أى شىء حبسك هذا الرجل ؟ فقال :
أما والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته ، ولكفى كنتُ صاحب شراب فى
الجاهلية ؛ وأنا امرؤ شاعر ، يدب الشعر على لسانى ، فينفثه أحياناً ، فحبسنى
لأنى قلت :

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمية تروى عظامى بعد موتى عروفا
ولا تدفنى بالفسلة^(٥) فإنى أخاف إذا ما مت ألا أدوقها

فذهبت إلى سعد وأخبرته خبر أبى محجنّ ، فدعا به وأطلقه ، وقال : اذهب
فإنّا أنا مؤاخذك بشىء قوله حتى تفعله ؛ فقال : والله لا أجبت لسانى إلى قبيح أبدأ .

(١) أصل الثارق : اليوم الذى فيه الشمس ، والمراد كل يوم . (٢) الكيل : القيد .

(٣) ناس بالمهد : غدر ونكت . (٤) الحانية : الدكان ، وهو يريد أمكنة بيع الخمر

(٥) الفسلة : الأرض المهلكة .

١٦٦ - في فتح نهاوند*

بعث عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه السائب بن الأقرع مولى قُتَيْبٍ ، وكان رجلاً كاتباً حاسباً ، فقال : الحق بهذا الجيش - جيش المسلمين بنهاوند - فكُن فيهم ، فإن فتح الله عليهم فاقسم على المسلمين فيهم ، وخذ خسر الله وخسر رسوله ، وإن هذا الجيش أُصيب ، فاذهب في سواد الأرض فبطن الأرض خير من ظهرها .

قال السائب : فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائم عظيمة ، فوالله إنى لأقسم بين الناس إذ جاءنى عِلْجٌ من أهلها ، قال : أتؤمننى على نفسى وأهلى وأهل بيتى على أن أدلك على كنوز آل كسرى تسكون لك ولصاحبك ولا يشرُكك فيها أحد ؟ قلت : نعم ! قال : فابعث معى من أدله عليها ، فبعثت معه ، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت .

فلما فرغت من قسمى بين الناس احتملتهما معى ، ثم قدمت على عمر بن الخطاب فقال : ما وراءك يا سائب ؟ قلت : خيراً يا أمير المؤمنين ؛ فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان^(١) بن مقرن رحمه الله ، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم بكى فَنَشَجَ^(٢) .

* العبرى : ٤ - ٢٣٢

(١) صحابى فاض من الأمراء القادة الشجعان ، فتح القادسية ، وولاه عمر إمرة الجيش ففزا أصهبان ففتحها ، وهاجم نهاوند فاستشهد فيها سنة ٢١ هـ . (٢) نَشَجَ الباكي : غص بالبكاء في حلقه من غير اتعاب .

فلما رأيت ذلك قلت : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بمسده من رجل
يُعرف وجهه .

ثم قام ليدخل ، فقلت : إن معي مالا عظيما قد جئتُ به ، ثم أخبرتُه خبر
السَّعْطَيْنِ ، فقال : أدخلهما بيت المال حتى ننظر في شأنهما ، والحق بمجندك ،
فأدخلهما بيت المال ، وخرجت سريعا إلى الكوفة .

وبات تلك الليلة التي خرجتُ فيها ، فلما أصبح بشتَ في أثرِ رسولنا ،
فوالله ما أدركني حتى دخلتُ الكوفة ، فأثخنتُ بعيري وأناخ بعيره على عُرْقُونِي
بعيري ، فقال : الحق بأمر المؤمنين ؛ فقد بشتني في طلبك ، فلم أقدر عليك إلا الآن .
قلت : ويلك ! ماذا ؟ قال : لا أدري والله .

فركبتُ معه حتى قدمتُ عليه ؛ فلما رآني قال : مالي ولا بن أم السائب !
بل ما لابن أم السائب ومالي ؟ قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويحك !
والله ما هو إلا نمتُ في الليلة التي خرجتُ فيها فبانت ملائكة ربي تسحبني إلى
ذبتك السَّعْطَيْنِ يشتملان ناراً ، يقولون : لنكويَنَّك بهما ، فأقول : إني سأقسمهما
بين المسلمين ؛ فخذهما عني لا أبالك ، والحق بهما فيعصمهما في أعطيات المسلمين وأرزاقهم !
فخرجتُ بهما حتى وضعتُهما في مسجد الكوفة ، فابتاعهما مني عمرو بن
حُرَيْث الخُزُومِيُّ بالنسيئة درهم ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة
آلاف ألف

١٦٧ — عمرو بن العاص وأحد كفار العجم*

لما فتح عمرو بن العاص قيسارية^(١) سار حتى نزل غزوة؛ فبعث إليه عليهما^(٢) :
أن ابعث إلي رجلاً من أصحابك أكلّمه ؛ ففكر عمرو وقال : ما لهذا
أحد غيري .

فخرج حتى دخل على الملح فكلّمه ؛ فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله ، فقال
الملح : حدثني ؛ هل في أصحابك أحد مثلك ؟ قال : لا تسأل عن هذا ، إني
هين عليهم ؛ إذ بعثوا بي إليك ، وعرضوني لما عرضوني له ، ولا يدرون
ما تصنع بي .

فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث إلى البواب : إذا مرّ بك فاضرب عنقه ،
ونخذ ما معه .

فخرج من عنده ؛ فمر برجل من نصارى غسان ، فعرفه ، فقال : يا عمرو :
قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج ؛ ففطن عمرو لما أراده ، فرجع ، فقال له الملك :
ما ردك إلينا ؟ قال : نظرتُ فيما أعطيتني ، فلم أجِدْ ذلك يَسَعُ بني عى ، فأردت
أن آتيك بشرة منهم ، تعطيمهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيراً

* المقد الفريد : ١ - ١٤٦

(١) بلدة ببلطين .

(٢) الملح : الرجل من كفار العجم .

من أن يكونَ عند واحدٍ ! فقال : صدقتَ ، أعجلُ بهم ، وبعثْ إلى البواب :
أنْ خلَّ سبيله .

فخرج عمرو وهو يلتفت ، حتى إذا أمِنَ ، قال : لاعدتُ إلى
مثلها أبداً .

فلما صالحه عمرو ودخل عليه العليج ، قال له : أنتَ هو؟ قال : نعم ،
على ما كان من غدرك .

١٦٨ — مر بن الخطاب وغنائم المسلمين*

بعث عمرُ سلمةَ بن قيس الأشجعيّ إلى طائفةٍ من الأكراد كانوا على الشرك؛ فخرج إليهم في جيش أرسله معه من المدينة .

فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الإسلام أو إلى أداء الجزية ، فأبَوْا ، فقاتلهم فنصره الله عليهم ؛ فقتل المقاتلة ؛ وسبى الذرية ، ووجد حليّةً وفصوصاً وجواهر ، فقال لأصحابه : أنطيب أنفسكم أن نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين ؛ فإنه غير صالح لكم ، وإنّ على أمير المؤمنين لشئونةً وأثقالا ، قالوا : نعم ، قد طابت أنفسنا .

فجعل الجواهر في سَفَط^(١) ، وبعث به مع واحد من أصحابه ، وقال له : سيرْ فإذا أتيت البصرةَ فاشترِ راحلتين فأوقرهما^(٢) زاداً لك ولعلاملك وسِرْ إلى أمير المؤمنين .

قال : فعلتُ فأتيتُ عمر وهو يُدبّي الناس قائماً متكئاً على عصا كما يصنع الراعي ، وهو يدور على التصاع ؛ فيقول : يا بَرّ فَا^(٣) ، زد هؤلاء لحماً ؛ زد هؤلاء خُبْزاً ، زد هؤلاء مَرَقَةً .

فجلستُ في أدنى الناس ، فإذا طعامٌ فيه حُسُونُهُ ، طعمي الذي معي أطيبُ منه . فلما فرغ أدبَرَ فاتبعتُهُ ، فدخل داراً ناستأذنت ، ولم أعلم حاجبه من أنا ، فأذن لي ، فوجدته في صَفَةٍ^(٤) جالساً على مِسْحَرٍ^(٥) متكئاً على وسادتين من

* ابن أبي الحديد : ١٥٣ : ١٥٧

(١) السَفَط : كالجوارق أو الكفنة ، جمع أسفاط . (٢) أوقر الدابة : حلها . (٣) برّاً : مولى عمر بن الخطاب . (٤) الصفة من البنيان : شبه البهو الواسع . (٥) المسح : ثوب من الشعر غليظ .

أَدَمَ^(١) مَحْشُوتَيْنِ لَيْفًا ، وَعَلِيهِ سِتْرٌ مِنْ صُوفٍ ، فَنَبَذَ إِلَى إِحْدَى الْوَسَادَتَيْنِ ، فَجَلَسَتْ عَلَيْهِمَا .

قَالَ : يَا أُمَّ كَلْثُومَ ، أَلَا تَتَذَوَّنَا ؟ فَأَخْرَجَتْ إِلَيْهِ خُبْزَةً^(٢) بَزِيَّتٍ فِي عَرَضِهَا مِلْحٌ لَمْ يُدَقَّ ، قَالَ : يَا أُمَّ كَلْثُومَ ، أَلَا تَخْرُجِينَ إِلَيْنَا تَأْكُلِينَ مَعَنَا ؟ فَقَالَتْ : إِنِّي أَسْمَعُ عِنْدَكَ حِسَّ^(٣) رَجُلٍ ، قَالَ : نَعَمْ ، وَلَا أَرَاهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ . فَقَالَتْ : لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى الرِّجَالِ لَكَسَوْتَنِي كَأَنَّ الزَّيْبُرَ امْرَأَتَهُ ، وَكَأَنَّكَ طَالِعَةُ امْرَأَتِهِ .

قَالَ : أَوْ مَا يَكْفِيكَ أَنَّكَ أُمُّ كَلْثُومِ ابْنَةِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَزَوْجَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ؟ قَالَتْ : إِنْ ذَاكَ عِنْدِي لَقَلِيلُ الْفَنَاءِ ثُمَّ قَالَ : كُلْ ، فَلَوْ كَانَتْ رَاضِيَةً لِأَطْعَمَتَكَ أُطِيبَ مِنْ هَذَا . فَأَكَلَتْ قَلِيلًا ، وَطَعَامِي الَّذِي مَعِيَ أُطِيبَ مِنْهُ . وَأَكَلْ ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ أَكْلًا مِنْهُ ، مَا يَتَكَلَّبُ^(٤) طَعَامَهُ بِيَدِهِ وَلَا فَمَهُ .

ثُمَّ قَالَ : اسْقُونَا ؛ فَجَاءُوا بِمُسِّ^(٥) مِنْ سُلْتٍ^(٦) ، فَقَالَ : اشْرَبْ ، فَشَرِبْتُ قَلِيلًا ، وَإِنَّ سَوِيْقِي الَّذِي مَعِيَ لِأَطِيبُ مِنْهُ ، ثُمَّ أَخَذَهُ فَشَرِبَهُ حَتَّى قَرَعَ الْقَدْحُ حَبِيَّتَهُ .

ثُمَّ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا فَأَشْبَعَنَا ، وَسَقَانَا فَأَرْوَانَا ؛ إِنَّكَ يَا هَذَا لَضَعِيفٌ الْأَكْلُ ضَعِيفُ الشَّرْبِ .

(١) الأدم : جمع للأديم : وهو الجلد . (٢) الخبزة : عجينة يوضع في الملة حتى ينضج ، والملة : الرماد والتراب الذي أوقد فيه النار . (٣) الحس : الصوت الخفى . (٤) لا يتوقف . (٥) المس : القدح العظيم . (٦) السلت : الصغير .

قلت : يا أمير المؤمنين؛ إن لي حاجة، قال : ما حاجتك، قلت أنا رسول سلمة ابن قيس . قال : مرحباً بسلامة ورسوله ، فكأنما خرجت من صُلْبِهِ - حَدَّثَنِي عَنْ المهاجرين كيف هم؟ قلت : كما تحبُّ - يا أمير المؤمنين - من السلامة والظفر والنصر على عدوهم . قال : كيف أسماؤهم؟ قلت : أرخص أسمار ؛ قال : كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا على شجرتها ؛ قلت : البقرة فيهم بكذا ، والشاة فيهم بكذا . ثم قلت : ميرتنا يا أمير المؤمنين حتى لقينا عدونا من المشركين ، فدعوناهم إلى الذي أمرت به من الإسلام فأبوا ، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا ؛ فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم ، فقتلنا القاتلة ، وسبينا الذرية ، وجعلنا الثروة فرأى سلمة في الأموال حليّة، فقال للناس : أنطيب أنفسكم أن أبعث بها إلى أمير المؤمنين؟ قالوا : نعم ! ثم استخرجتُ سَفَطِي ففتحتهُ .

فلما نظر إلى تلك النصوص من بين أحر وأخضر وأصفر ، وثب وجعل يده في خاصرته يصيح صياحاً عالياً ويقول : لا أشبع الله إذن بطن امرء ، يُكْرَرُهَا .

فظنَّ النساءُ أني جئت لأغتاله ، فجنن إلى السر فكشفتنه ، فسمعته يقول : لئن ما جئت به يا يرفأ ، جأ عنقه^(١) ، فانا أصلح سَفَطِي ، ويرفأ بجأ عنق .

ثم قال : النجاء النجاء ! قلت : يا أمير المؤمنين فاحلني ، قال : يا يرفأ ، أعطه راحلتين من إبل الصدقة ، فإذا لقيت أحداً أقفر إليهما منك فادفعهما إليه .

(١) وجاءت عنقه : ضربته .

وقال : أظنك سُبُطِيٌّ ، أما والله لئن تفرَّق المسلمون في مشائهم قبل أن
يُقَسَّم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفارقة^(١) !
قال : فارتحلتُ حتى أتيتُ إلى سلمة بن قيس ، فقلت : لا بارك الله فيما اختصصتني
به ، انقسم هذا في الناس قبل أن نصيبني وإياك فارقة ، فقسّمه فيهم ، فكان الفصُّ
يُبَاعُ بخمسة دراهم وبسطة وهو خير من عشرين ألفاً .

(١) الفارقة : الداهية .

١٦٩ — قد كاد أميركم يهلك*

لَمَّا تَسَكَّمَلَ لِلْمُسْلِمِينَ فَتُوحَ الشَّامِ وَأَقَامُوا عَلَى دِمَشْقَ شَهْرًا ؛ جَمَعَ قَائِدُهُمْ ...
أَبُو عُبَيْدَةَ - أَمْرَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي السَّيْرِ إِلَى قَيْسَارِيَّةَ^(١) أَوْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ،
فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ اكْتُبْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ ؛ فَيُخَيِّدُ أَمْرَكَ
فَامْتَنِلْهُ . فَقَالَ لَهُ : أَصَبَّتِ الرَّأْيَ يَا مُعَاذُ .

ثُمَّ كَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بِمِلَّةِ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلَ الْكِتَابَ مَعَ عُرْفَجَةَ
ابْنِ نَاصِحِ النَّخَعِيِّ^(٢) ، فَارْحَلْهُ وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَسَلَّمَ الْكِتَابَ إِلَى عُمَرَ .
فَقَرَأَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَشَارَهُمْ ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
مُرْ صَاحِبَكَ يَنْزِلْ بِجِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَإِذَا فَتَحَ اللَّهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ
صَرَفَ وَجْهَهُ إِلَى قَيْسَارِيَّةٍ فَإِنَّهَا تُفْتَحُ بَعْدَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
فَدَعَا عُمَرَ بِدَوَاةٍ وَكَتَبَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ عُمَرَ إِلَى عَامِلِهِ بِالشَّامِ
أَبِي عُبَيْدَةَ .

« أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي أَنُحَدِّثُكَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَصْلَى عَلَى نَبِيِّهِ . وَقَدْ
وَصَلَ إِلَيَّ كِتَابُكَ تَسْتَشِيرُنِي إِلَى أَى نَاحِيَةٍ تَتَوَجَّهَ ، وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ عُمَرَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسَّيْرِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُهَا عَلَى يَدَيْكَ ،
وَالسَّلَامُ » .

* المستطرف : ٢ - ١٥

(١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام * تمتد من أعمال فلسطين . (٢) النخعي : نسبة إلى
نخع ، وهى قبيلة باليمن .

(٢٨ - قصص العرب - ٢)

فلما وصل الكتابُ إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين؛ ففرحوا بالمسير إلى بيت المقدس وتقدمه الجيشُ إليها، وأقام المسلمون في القتال عشرة أيام، وأهل بيت المقدس يُظهرون الفرحَ وعدم الخوف.

فلما كان اليوم الحادي عشر أشرفت عليهم رايةُ أبي عبيدة، وخالدٌ عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر عن يساره؛ فضجَّ الناس بالتهليل والتكبير، ووقع الرغب في أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقبامة، وهي البيعة^(١) المظلة عندهم. فلما وقفوا بين يدي البطرك^(٢) قال لهم: ماهذه الصِّبَّة التي أستمع؟ قالوا: قد قدَّم أمير المؤمنين ببيعة المسلمين.

فلما سمع ذلك تربَّد^(٣) وجهه، وقال: إنا وجدنا في علمنا الذي ورثناه؛ أن الذي يفتح الأرض هو الرجل الأحمر، صاحبُ نبيهم محمد؛ فإن كان قدَّم عليكم فلا سبيلَ إلى قتاله، ولا بدَّ أن أشرِفَ عليه، وأنظر إلى صفته؛ فإن كان هو أحبُّه إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا بأس عليكم.

ثم وثب قائماً والقُس والرهبان من حوله، وقد رفعوا الصليبان على رأسه؛ فصدعوا إلى السور إلى أن ورد أبو عبيدة، فناداهم رجل من الروم: يا معاشر المسلمين؛ كفوا عن القتال حتى نسألكم.

فأمسك المسلمون عنهم فناداهم بلسانٍ عرَبِيٍّ: اعلَمُوا أن الرجل الذي يفتح

(١) البيعة: متبعة النصارى، وجمعها بيع، وقبامة: كانت كنيسةً للنصارى بدمشق، ولهم فيها مقبرة يسوونها القيامة، ويروون أن المسيح قامت قيامته فيها. (٢) البطرك: مقدم النصارى. (٣) تربَّد: قفِر.

بلدتنا هذه صِفَتُهُ عندنا ؛ فإن كانت في أميركم لم تقاتلكم ؛ بل نَسَلْ إليكم وإن لم تكن هذه صفته فلا نَسَلْ إليكم أبداً .

فأعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك ؛ فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذَاهُم ، فنظر إليه البَطْرُكُ مَلِيًّا ، ثم قال : ليس هو الرجل ؛ فأبشروا فأنزلوا عن دينكم وحرَّيْكُمْ .

وكان نزولُ المسلمين على بيت المقدس في فصل الشتاء والبرد ، فقاموا أربعة أشهر في أشدِّ قتال

فلما نظر أهلُ بيتِ المقدس إلى شدَّةِ الحصار ، ورأوا ما حلَّ بهم من المسلمين ، وقفوا بين يدي البَطْرُكِ ، وقالوا : قد عَطَمَ الأمر ، ونريدُ منك أن تشرفَ على القوم وتَسألَ : ما الذي يريدون ؟ فإن كان أمراً صَغِيلاً فتحننا الأبواب ، وخرَّجنا إليهم ، فإما أن نقتل عن آخرنا أو نهزمهم عنا .

فأجابهم البَطْرُكُ إلى ذلك ، وصعد في السور ، واجتمع القسيسون والرهبانُ حوله ونادى رجل : يا معشرَ الفُرسان ، مُعَذَّة دين النصرانية قد أقبل يخاطبكم ، فَلْيَدْنُ مِنَّا أميرُكم .

فقام أبو عبيدة يمشى ، ومعه جماعة من أصحاب رسول الله ، فلما وقف بإزائهم قال : ما الذي تريدون ؟ قال البَطْرُكُ : إنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تَصِلُوا إلى فتح بلدتنا ، وإنما يفتحها رجلٌ ليس معكم ا

قال أبو عبيدة : وما صفةُ من يفتحُ بلدكم ؟ قالوا : لا نخبركم بصفته . ولكن

قرأنا أن هذا البلد يفتحه صاحبُ محمد يعرف بالفاروق^(١) لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولنا نرى صفته فيكم .

فلما سمع أبو عبيدة كلامَ البطرُك تَبَسَّ وقال : فتحننا البلد وربَّ الكعبة ! ثم أقبل على البطرُك وقال : إن رأيتَ الرجلَ تعرفه ؟ قال : نعم ! وكيف لا أعرفه .

قال أبو عبيدة : هو والله خليفَتُنَا وصاحبُ نبينا . قال : فإذا كان الأمرُ على ما ذكرتَ فأخِرنِ الدماء ، وابعثْ إلى صاحبك ، فإذا رأيتناه وَتَبَيَّنَّا نَعْتَهُ ، فتحننا له البلد وأعطيناه الجزية .

فانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكفِّ عن القتال ، وكتب إلى عمر يعلمه بالخبر .

فلما وصل إليه الكتاب قرأه على المسلمين ، وقال : ما تَرَوْنَ - رحمكم الله - فيما كتب إلينا أمينُ^(٢) الأمة ؟ فكان أولُ من تكلم عُمَانُ بنُ عفَّان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أذلَّ الروم ، فإن أنتَ أفتَ ولم تَسِرْ إليهم علموا أنك بأمرهم مُسْتَخِفٌّ ، فلا يثبتون إلا يسيراً .

فلما سمع عمرُ ذلك من عُمَانِ جَزَاهُ خيراً ، وقال : هل عند أحدٍ منكم رأيٌ غيرُ هذا ؟ فقال عليُّ بنُ أبي طالب : نعم ، عندى غيرُ هذا الرأي ، وأنا أبذره إليك . فقال له عمر : وما هو يا أبا الحسن ؟ قال : إن القوم قد سألوك ، وفي سؤالهم ذلٌّ ، وهو على المسلمين فَتَحٌ ، وقد أصابهم جَهْدٌ^(٣) عظيم ، من البرد والقتال ، وطول المقام

(١) لقب عمر بن الخطاب . (٢) هو أبو عبيدة . (٣) الجهد : المشقة .

وإن سرت إليهم فتح الله على يدك هذه المدينة، وكان لك في مسيرك الأجر العظيم،
ولست آمن منهم أنهم إذا يتيسوا منك أن يأتيهم اللد من طاعتهم؛ فيحصل
للمسلمين بذلك الضرر. فالرأي أن تسير إليهم.

قال عمر: لقد أحسن عثمان النظر في السكينة للعدو، وأحسن على النظر
للمسلمين؛ جزاها الله خيراً، ولست أخذ إلا بمشورة على؛ فإنا عرفناه إلا محمود
المشورة، ميمون الطلعة.

ثم إن عمر أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه؛ واستخلف على المدينة
على بن أبي طالب، وخرج على بعير له أحمر، عليه غرارتان^(١)؛ في إحدىهما
سويق، وفي الأخرى تمر، وبين يديه قرينة، وخلفه جفنة للزاد.

وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس، فلقاه أبو عبيدة؛ فلما رآه أناخ قومه^(٢)
وأناخ عمر بعيره، وترجلاً، ومد أبو عبيدة يده، وصافح عمر، وأقبل المسلمون
يسلمون على عمر، ثم ركبوا جميعاً إلى أن نزلوا، فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر،
ثم خطبهم، فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم إلى أن
حضرت صلاة الظهر فأذن بلال في ذلك اليوم، فلما قال: الله أكبر! خضعت
جوارحهم، واقشعرت أبدانهم، وحينما قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد
أن محمداً رسول الله» بكى الناس بكاء شديداً عند ذكر الله وذكر رسوله، فلما فرغ
من الأذان صلى عمر وجلس، ثم أمرهم بالركوب.

وركب هو - وكانت عليه مرقعة الصوف - فقال المسلمون: يا أمير المؤمنين،

(١) الفرازة: الجوالى. (٢) القلوس من الإبل: الثابة.

لور كبتَ غيرَ بعيرك هذا جواداً ، ولبست ثياباً لكان أعظمَ لميبتِكَ في قلوب أعدائِكَ ! وأقبلوا يسألونه ويتلفحون^(١) إلى أن أجابهم إلى ذلك ، ونزع مرقعته ، ولبس ثياباً بيضا ، وطرح على كتفيه مندبلاً من الكتان دفعه إليه أبو عبيدة ، وقدم له يردوناً^(٢) أشهب من برّاذين الرّوم .

فلما صار عبر فوقه جمل البرذون يهملج^(٣) به ؛ فلما نظر عمر إلى ذلك نزل مسرعاً ، وقال : أيقولني ؛ أقال الله عثرانكم يوم القيامة القدكاد أميركم يهلك مما داخله من السكر .

ثم إنه نزع ثيابه وعاد إلى لبس مرقعته ، وركوب بعيره فملت ضجة المسلمين ، فقال البطرك لقومه : انظروا ما شأن العرب .

فأشرف رجل منهم ، فقال : يأمشر العرب ، ما شأنكم ؟ قالوا : إن عمر بن الخطاب قد قدم إلينا . فرجع هذا وأعلم البطرك ، فأطرق ولم يتكلم .

فلما كان القد صلى عمرُ بالمسلمين ، ثم قال لأبي عبيدة : تقدّم وأعلمهم أني قد أتيت .

فخرج أبو عبيدة وصاح بهم : إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أتى ، فما تصنعون ؟ قال البطرك : قل له يدنو منا ، فإننا نعرفه بصفاته ونمته ؛ وأفرِدوه من بينكم حتى نراه .

فرجع أبو عبيدة إلى عمر ، فأخبره بما قال ، فهمَّ عمر بالقيام فقال له بعض أصحابه : يخشى عليك من الافراد بلا عُدّة .

(١) تطفحوا وتلاطفوا : رفقوا . (٢) البرذون : الدابة . والبراذين من الخيل : ما كان من غير ناج العراب . (٣) المهملجة : حسن سير الدابة في سرعة .

قتال عمر: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.
ثم لبس مِرْقَعته وركب بعيره، وأبو عبيدة سائرٌ بين يديه إلى أن أتى إليزاءَ البطرركَ
قريباً من الحصن .

فقال أبو عبيدة: هذا أمير المؤمنين! فذُءَ البطرركَ عنقه ونظر إليه فزَعَقَ^(١)،
وَقَالَ: هذا والله الذي صَفَّتهُ في كَتَبِنَا .

ثم قال: يا أهل بيت المقدس، اترلوا إليه، وخذلوا منه الأمان، والدَّيْمَةُ، فهذا
والله صاحبُ محمد .

فترلوا مسرعين، وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدَّةِ الحصار، وفتحوا الباب،
وخرجوا إلى عمر يألونه العهد .

فلما رآهم عمر على تلك الجالة خرَّ لله ساجداً على قَبْ^(٢) بعيره، ثم أقبل عليهم
وقال: ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد .

فرجع القوم إلى البلد ولم يُفْلَقُوا الأبواب، ورجع عمر .

فلما كان الفد دخل عمر إليها، وخطَّ بها محراباً^(٣) وأقرَّ أهلها على عهدهم،
وأداء الجزية^(٤)

(١) زعق: صاح . (٢) القَبْ: البردة على قدر سنن البعير . (٣) المحراب: مقام الإمام
من المسجد، والموضع ينفرد به الملك فيقاعد عن الناس . (٤) الجزية: خراج الأرض، وما يؤخذ
من أهل الدمة .

١٧٠ - عند ملك الصين*

أَوْغَلُ قُتَيْبَةَ^(١) بن مسلم حتى قَرُبَ من الصين . فكتب إليه ملكُ الصين .
أن ابث إلينا رجلاً من أشرف من معكم يخبرنا عنكم ونُأثله عن دينكم .
فانتخب قُتَيْبَةَ من عسكره اثني عشر رجلاً ، لهم جمال وأجسام وأُسُن وشعور
وبأس ، فكلّمهم قُتَيْبَةَ وَقَاطَنَهُمْ^(٢) ، فرأى عقولا وجمالاً ؛ فأمر لهم بِدَّةِ حَسنة من
السلاح وللتأاع الجيد من الوَثَى والرقيق والنعال والمطر ، وحملهم على خيول مُطَمَّمة
تَقَادُ معهم ودوابّ يركبونها .

وكان هُبَيْرَةُ^(٣) بن المُشَرِّج السكلابي مَفْوَّهاً ، فقال له : يا هُبَيْرَةُ ؛ ماذا أنت
صانع ؟ قال : أصلح الله الأمير ! قل ما شئت أَقْلُهُ وَاخْذْ به ؛ قال : سبروا على بركة
الله والله التوفيق ، لاتضعوا المائم عنكم حتى تقدموا البلاد ، فإذا دخلتم عليه فأعلموه
أنى قد حلفت ألا أنصرف حتى أظأ بلادهم وأُجْبِي خراجهم .

فساروا وعليهم هُبَيْرَةُ بن المُشَرِّج ، فلما قدموا أرسل إليهم ملكُ الصين يدعوهم ،
فدخلوا الحُتَام ثم خرجوا فلبسوا ثياباً بيضاً تحتها الغلائل ، ثم مسوا الغالية^(٤) ،
ولبسوا النعال والأردية ، ودخلوا عليه ، وعنده عظام أهل مملكته ، فجلسوا ، فلم
يكلمهم هو ولا أحد من جلسائه . فمضوا .

* تاريخ الطبري : ٨ - ١٠٠

(١) أمير فاتح من رجال العرب ، اصل بالوليد بن عبد الملك فولاه خراسان ، وغزا أطراف
الصين وحرب عليها الجزية ، واستمرت ولايته ١٣ سنة وقتل سنة ٩٦ هـ . (٢) فاطنق الكلام :
راجع . (٣) كان من قتيبة حين غزا الصين وتوفى بفارس سنة ٩٦ هـ . (٤) الغالية : الطيب .

فقال الملك لمن حضره : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : رأينا قوما مامم بالأنساء ، ما بقي منا أحد حين رأيهم إلا وجد رأتهم .

فلما كان الغد أرسل إليهم ، فلبسوا الوشى وعمام الخنز والمطارف^(١) ، وغدوا عليه ، فلما دخلوا عليه قيل لهم : ارجعوا فقال لأصحابه : كيف رأيتم هذه الهيئة ؟ قالوا : هذه الهيئة أشبه بهيئة الرجال .

فلما كان اليوم الثالث أرسل إليهم فشدوا عليهم علاحهم ، ولبسوا البيش والنفار^(٢) ، وتقلدوا السيوف ، وأخذوا الرماح ، وتنكبوا^(٣) القسي ، وركبوا خيولهم وغدوا . فنظر إليهم صاحب الصين ، فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما دنوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا مشمرين ، فقبل لهم قبل أن يدخلوا : ارجعوا ، لما دخل قلوبهم من خوفهم .

فانصرفوا فركبوا خيولهم وحلوا رماحهم ، ثم دفعوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ قالوا : مارأينا مثل هؤلاء قط !

فلما أرسل إليهم الملك أن اهبوا إلى زعيمكم وأفضلكم ، بمثوا إليه هيرة ، فقال له حين دخل عليه : قد رأيتم عظيم ملكي ، وأنه ليس أحد يمكنكم مني وأنتم في بلادى ، وإنما أنتم بمنزلة البيضة في كفى ، وأنا سائلك عن أمر فإن لم تصدقني قتلتك . قال : سل ، قال : لم صنعتم ما صنعت من الزنى في اليوم الأول والثاني والثالث ؟ قال : أما زينا الأول فلبأسنا في أهاليها وربحنا عندهم ، وأما يومنا الثاني فإذا أتينا أمراءنا ، وأما اليوم الثالث فزينا لمدونا ، فإذا هاجنا هيج

(١) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام ، وجمه مطارف . (٢) البيضة : الخوزة ، وجمه بيض ، والنفار : جمع مففر : زرد من الدرع يلبس تحت القلنسوة ، أو حلق يتقع بها النسلح (٣) تنكب قوسه : ألناه على منكبه .

وَفَزَعُ كُنَّا هَكَذَا . قال : ما أحسن ما ذَرَّتمْ دَهْرَكُمْ ! فانصرفوا إلى صاحبكم ،
فَقُولُوا لَهُ بِنَصْرِف ؛ فَإِنِّي قَدْ عَرَفْتُ حِرْصَهُ وَقِلَّةَ أَصْحَابِهِ ، وَإِلَّا بَمَثُ عَلَيْكُمْ مِنْ
يَهْلِكُكُمْ وَيَهْلِكُهُ .

قال له : كيف يكون قليلُ الأَصْحَابِ مَنْ أَوَّلُ خِيَلِهِ فِي بِلَادِكَ وَآخِرُهَا فِي
مَنَابِتِ الزَّبْتُونِ ! وكيف يكونُ حَرْبُصًا مِنْ خَلْفِ الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَيْهَا وَغَزَاكَ ؟
وَأَمَّا نَحْوُيُفُكَ إِيَّانَا بِالْقَتْلِ فَإِن لَنَا آجَالًا إِذَا حَضَرَتْ فَأَكْرَمُهَا الْقَتْلُ ، فَلَسْنَا
نَكْرَهُهُ وَلَا نَخَافُهُ .

قال : فَا الَّذِي يُرْضَى صَاحِبُكَ ؟ قال : إِنَّهُ قَدْ حَلَفَ أَلَّا يَنْصَرِفَ حَتَّى يَطَأَ
أَرْضَكُمْ وَيُعْطَى الْجِزْيَةُ . قال : فَإِنَّا نَخْرُجُهُ مِنْ يَمِينِهِ وَنَبْعَثُ إِلَيْهِ بِتَرَابٍ مِنْ تَرَابِ
أَرْضِنَا فَيَطْلُوهُ وَنَبْعَثُ إِلَيْهِ بِجِزْيَةٍ يَرْضَاهَا ؛ ثُمَّ دَعَا بِصِجَافٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا تَرَابٌ ،
وَبَعَثَ بِحَرِيرٍ وَذَهَبٍ ، ثُمَّ جَزَاهُمْ فَأَحْسَنَ جَوَازِمَهُمْ ؛ فَسَارُوا فَقَدِمُوا بِمَا بَعَثَ بِهِ فَقَبِلَ
فَقَتِيئَةُ الْجِزْيَةِ وَوَكَيْطُ التَّرَابِ .

١٧١ — إِنْكَ ابْنِي *

قال رجل من أهل السكوفة: كنا مع مسلمة^(١) بن عبد الملك ببلاد الروم ،
فبسي سببياً كثيراً ، وأقام ببعض المنازل ؛ ففرض السبي على السيف ، فقتل خلقاً
كثيراً ، حتى عرض عليه شيخٌ ضعيف ، فأمر بقتله .

فقال : ما حاجتك إلى قتل شيخٍ مثلي ؛ إن تركتني جئتُك بأسيرين من
المسلمين شابين . فقال : ومن لي بذلك ؟ قال : إني إذا وعدتُ أوفيتُ . قال :
لست أثق بك . قال : فدعني أطوفُ في عسكري ، لعل أعرِفُ مَنْ يكفلني ،
إلى أن أمضي وأجيبُ بالأسيرين . فوكلَ به من طاف معه في عسكريه ،
والاحتفاظ به .

فأزال الشيخ يطوف ويتصفحُ الوجوه ، حتى مرَّ بفتى من بني كلاب قائماً
يحسنُ فرسه ، فقال : يافتي ، اضممِّي من الأمير ؛ وقصِّ عليه قصته . قال : أفعل .
وجاء الفتى معه إلى مسلمة فضمنه ، فأطلقه مسلمة . فلما مضى قال : أتعرفه؟ قال:
لا والله . قال : ولِمَ ضمنته ؟ قال : رأيته يتصفحُ الوجوه ، فاختارني من بينهم ،
وكرهت أن أخلفَ ظنه .

فلما كان من الند عاد الشيخُ ، ومعه أسيران من المسلمين شaban ، دفعهما إلى

* الفرع بعد الشدة : ١ - ٨٢

(١) أمير قائد من أبطال عصره ، ولده أخوه يزيد لأمرة المراقين ، ثم أرمينية ، ومات بالشام
سنة ١٣٠ هـ .

مسلمة وقال : يَا ذَنْنُ الْأَمِيرِ فِي هَذَا الْفَتَى أَنْ بَصِيرَ مَعِيَ إِلَى حِصْنِي لِأُكَافِتَهُ عَلَى فَعْلِهِ مَعِيَ . قَالَ مُسْلِمَةُ : إِنْ شِئْتَ فَأَمُضْ مَعَهُ .

فلما مضى وصار معه إلى حِصْنِهِ ، قَالَ لَهُ : تَعْلَمُ وَاللَّهِ يَا فَتَى أَنْكَ ابْنِي ؟ قَالَ : وَكَيْفَ أكونُ ابْنَكَ ، وَأَنَا رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ مُسْلِمٌ ، وَأَنْتَ مِنَ الرُّومِ نَصْرَانِي ؟ قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَمِّكَ مَنْ هِيَ ؟ قَالَ : رُومِيَّةٌ . قَالَ : فَإِنِّي أَصْفُهَا لَكَ ، فَبِاللَّهِ إِنْ صَدَقْتُ إِلَّا صَدَقْتَنِي . قَالَ : أَفْضَلُ .

فَقَبِلَ الرُّومِيَّ بِصَفِّ أُمِّهِ مَا حَرَّمَ مِنْ صَفَتِهَا شَيْئًا . فَقَالَ : هِيَ كَذَلِكَ فَكَيْفَ عَرَفْتَ أُنَى ابْنِهَا ؟ قَالَ : بِالشَّبهِ وَتَعَارُفِ الْأَرْوَاحِ وَصِدْقِ الْفَرَّاسَةِ . ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِ امْرَأَةً ، فَلَمَّا رَأَاهَا الْفَتَى لَمْ يَشْكُ فِي أَنَّهَا أُمُّهُ لَشَدَّةِ شَبَّهٍ بِهَا ، وَخَرَجَتْ مَعَهَا مَجْهُوزَ كَأَنَّهَا هِيَ ، فَاقْبَلْنَ بَقِيَّةَ رَأْسِ الْفَتَى ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : هَذِهِ جَدَّتُكَ ، وَهَذِهِ خَالَاتُكَ .

ثُمَّ خَرَجَ مِنْ حِصْنِهِ ، فَدَعَا بِشَبَابٍ فِي الصَّحْرَاءِ ، فَأَقْبَلُوا فَكَلَّمَهُم بِالرُّومِيَّةِ ، فَجَعَلُوا يَقْبَلُونَ رَأْسَ الْفَتَى وَبِيَدِهِ وَرَجْلَيْهِ ، فَقَالَ : هَؤُلَاءِ أَخْوَالُكَ وَبَنُو خَالَاتِكَ ، وَبَنُو عَمِّكَ وَالذَّنَّكَ ، ثُمَّ أَخْرَجَ جَلْبًا^(١) كَثِيرًا وَثِيَابًا فَآخِرَةً ؛ فَقَالَ : هَذَا لَوَالِدَتُكَ عِنْدَنَا مِنْذُ سُبَيْتٍ ، فَخُذْهُ مَعَكَ ، فَادْفَعْهُ إِلَيْهَا . فَلَمَّا اسْتَعْرَفَهُ ، ثُمَّ أَعْطَاهُ لِنَفْسِهِ مَا لَا كَثِيرًا ، وَثِيَابًا جَلِيلَةً ، وَحَمَلَهُ عَلَى عِدَّةِ دَوَابٍ وَبِغَالٍ وَأَلْحَقَهُ بِمُسْكِرٍ مُسْلِمَةٍ وَأَنْصَرَفَ .

فَأَقْبَلَ الْفَتَى قَائِلًا حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَأَقْبَلَ يَخْرُجُ الشَّيْءَ بَعْدَ الشَّيْءِ . مِمَّا عَرَفَهُ الشَّيْخُ أَنَّهُ لِأُمِّهِ ، فَتَرَاهُ فَتَبْكِي ، فَيَقُولُ لَهَا : قَدْ وَهَبْتَهُ لَكَ !

(١) الْجَلْبُ : كُلُّ مَا جَلِبَ مِنْ خَيْلٍ أَوْ غَيْرِهَا .

فلما أكره هذا عليها ، قالت : يا بني ؛ أسألك بالله ؛ من أى بلد صارت إليك هذه الثياب ؟ وهل قتلتم أحداً من أهل هذا الحصن الذى كان هذا فيه ؟ فقال لها الفتى : صفة الحصن كذا وكذا ، وصفة البلد كذا وكذا ، ورأيت فيه قوماً من عالم كذا وكذا ، ووصف لها أمها وأختها وأولادها وهى تبكى ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : الشيخ والله أبى ، والمعجوز أمى ، وتلك أختى . فقص عليها الخبر ، وأخرج بقية ما كان معه مما أنفذه أبوها إليه ، فدفعه لها .

١٧٢ - خذعة*

لَمَّا ذَهَبَ الرَّشِيدُ لَفَزُوا الرُّومَ أَخَذَ يَفْتَحُ الْمَدْنَ وَالْحَصُونَ وَيَجْرِبُهَا ، حَتَّى أَتَانَا
عَلَى هَرِقْلَةَ^(١) ، وَهِيَ أَوْثَقُ حَصْنٍ وَأَعَزُّهُ جَانِبًا ، وَأَمْنُهُ رُكْنًا ، فَتَحَصَّنَ أَهْلُهَا .
وَكَانَ بَابُهَا يُطَلُّ عَلَى وَادٍ ، وَلَهَا خَنْدَقٌ يُطِيفُ بِهَا - وَلَمَّا أَلَحَّ عَلَيْهِمُ بِالْجَانِيقِ
وَالسَّهْمِ وَالْمَرَادَاتِ^(٢) قُتِحَ الْبَابُ ، وَإِذَا بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِهَا كَأَكْلِ الرِّجَالِ ، قَدْ
خَرَجَ فِي أَكْلِ السَّلَاحِ فَنَادَى : قَدْ طَلَاتِ مُوَاَفَقَتُكُمْ إِنَّا نَا ، فَلْيَبْرُزْ إِلَى مَنْسِكُمْ
رِجَالَانِ . نَمَّ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ حَتَّى بَلَغَ عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ ؛ فَدَخَلَ وَأَغْلَقَ بَابَ
الْحَصْنِ .

وَكَانَ الرَّشِيدُ نَائِمًا فَلَمْ يَلَمْ بِخَبْرِهِ إِلَّا بَعْدَ انْصِرَافِهِ ؛ فَعَضِبَ وَلَامَ خَدْمَهُ وَغِلْمَانَهُ
عَلَى تَرْكِهِمْ إِنْبَاهَهُ^(٣) ، وَتَأَسَّفَ لِقَوَّتِهِ . فَقِيلَ لَهُ : إِنْ امْتَنَاعَ النَّاسُ مِنْهُ سَيَقُوبُهُ
وَيُطْفِئُهُ ، وَأُخْرِجَهُ أَنْ يَخْرُجَ فِي غَدٍ ، فَيَطْلُبَ مِثْلَ مَا طَلَبَ ؛ فَطَالَتْ عَلَى الرَّشِيدِ
لَيْلَتُهُ ، وَأَصْبَحَ كَالْمُنْتَظَرِ لَهُ ، ثُمَّ إِذَا هُوَ بِالْبَابِ قَدْ قُتِحَ ، وَخَرَجَ طَالِبًا لِلْمُبَارَاةِ ،
وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ ، وَجَعَلَ يَدْعُو بِأَنَّهُ يَثْبُتَ لِعَشْرِينَ مِنْهُمْ .

فَقَالَ الرَّشِيدُ : مَنْ لَهُ ؟ فَأَبْتَدَرَهُ جَمَلَةُ الْقَوَادِ كَهَرْمَةٍ ، وَيَزِيدُ بْنُ مَرْزُودٍ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَلْكَ وَغَيْرُهُمْ ؛ فَغَزَمَ عَلَى إِخْرَاجِ بَعْضِهِمْ ؛ فَضَجَّتِ الْمَطْوُوعَةُ^(٤) حَتَّى

* الْأَغَانِي ١٧ - ٤٦

(١) مدينة ببلاد الروم . (٢) المنجيق والمرادة : آلتان من آلات الحروب ترمى بها الحجارة
(٣) أنبهه : أيقظه من النوم . (٤) المطووعة : الذين يتطوعون بالجهاد .

سَمِعَ ضَجِيجِهِمْ ، فَأَذِنَ لِمَشْرَيْنِ مِنْهُمْ ، فَاسْتَأْذَنُوا فِي الشُّورَةِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَوَادُكَ مَشْهُورُونَ بِالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ وَعُلُوِّ الصَّيْتِ وَمُدَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَمَتَى خَرَجَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فَقَتَلَ هَذَا الْعِلَاجَ ^(١) لَمْ يَكْبُرْ ذَلِكَ . وَإِنْ قَتَلَهُ الْعِلَاجُ كَانَتْ وَضِيعَةٌ عَلَى الْعَسْكَرِ عَجِيبَةً ، وَتُلْمَةٌ لَا تُسَدُّ . فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَخْلِفُنَا نَحْتَارُ رَجُلًا فَنَخْرُجُهُ إِلَيْهِ ؛ فَإِنْ طَفَرَ عَلِمَ أَهْلُ الْحَصَنِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ ظَفِرَ بِأَعْزَمِهِمْ عَلَى يَدِ رَجُلٍ مِنَ الْعَامَّةِ وَمِنْ أَفْنَاءِ ^(٢) النَّاسِ ، لَيْسَ مِنْ بُوْهِنٍ قَتَلُهُ وَلَا بُوْهْرٍ ، وَإِنْ قُتِلَ الرَّجُلُ ، فَإِنَّمَا اسْتَشْهَدَ رَجُلٌ ، وَلَمْ يُوْثِّرْ ذَهَابُهُ فِي الْعَسْكَرِ ، وَلَمْ يَنْتَلِمْهُ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ بَعْدَهُ مِثْلُهُ حَتَّى يَمْضِيَ إِلَيْهِ مَا شَاءَ .

قَالَ الرَّشِيدُ : لَقَدْ اسْتَصَوْبْتُ رَأْيَكُمْ هَذَا ؛ فَاخْتَارُوا رَجُلًا مِنْهُمْ يَعْرِفُ بَابَ الْجَزْزِيِّ ، وَكَانَ مَعْرُوفًا فِي الثَّفَرِ بِالْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَنْتَخِرْ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَأَسْتَعِينُ اللَّهَ . فَقَالَ : أَعْطُوهُ فِرْسًا وَرُحْمًا وَسَيْفًا وَتُرْسًا . قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَا بِفِرْسِي أَوْثَقُ ، وَرِجْمِي بِيَدِي أَشَدُّ ؛ وَلَكِنِّي قَدْ قَبِلْتُ السَّيْفَ وَالتُّرْسَ .

فَلَيْسَ سِلَاحُهُ ، وَاسْتَدْنَاهُ الرَّشِيدُ فَوَدَّعَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ الدَّعَاءُ ، وَخَرَجَ مَعَهُ عَشْرُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُطَوَّعَةِ : فَلَمَّا انْقَضَى فِي الْوَادِي ، قَالَ لَهُمُ الْعِلَاجُ وَهُوَ يَمْسُدُهُمْ : إِنَّمَا كَانَ الشَّرْطُ عَشْرِينَ وَقَدْ زِدْتُمْ رَجُلًا . وَلَكِنْ لَا بَأْسَ ، فَنَادَوْهُ : لَيْسَ يَخْرُجُ إِلَيْكَ مَنَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَلَمَّا فَصَلَ مِنْهُمْ ابْنُ الْجَزْزِيِّ تَأَمَّلَهُ الرَّوْمِيُّ ، وَقَدْ أَشْرَفَ أَكْثَرُ الرُّومِ مِنَ الْحَصَنِ ، يَتَأَمَّلُونَ صَاحِبَهُمْ وَالْقِرْنَ ، حَتَّى غَلَبُوا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الْحَصَنِ أَحَدٌ إِلَّا أَشْرَفُ . ثُمَّ أَخَذَا فِي شَأْنِهِمَا فَاقْطَعْنَا ^(٣) حَتَّى طَالَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا ، وَلَيْسَ يَخْدِشُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ .

(١) العِلَاجُ : الرَّجُلُ مِنْ كِفَارِ الْعَجَمِ . (٢) لَا يَجْلُمُ مِنْ هُوَ . (٣) تَقْلَعَانَا .

ثم تحاجزا بشئ^١ فزج كل منهما برنجه ، وأصلت^(١) سيفه ، ففجأ لدا
ملياً ، واشتد الحز علىهما وتبلد^(٢) الفرسان ، وجعل ابن الجزرى يضرب الروم
الضربة التي يرى أنه قد بلغ فيها ، فيثقيها الروم ، وكان ترسه حديداً ، فيسمع
لذلك صوت منكر .

فلما يئس كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابن الجزرى ، فدخلت
السلدين كآبة لم يكتبوا مثلاً قط ، وعطم الروم^(٣) اختيالا وتطاولا ، وإنما كانت
هزيمة حيلة منه . فاتبه الملح وتمكن منه ابن الجزرى فرماه بوهق^(٤) فوق
في عنقه وما أخطأه ، ورأسه فلقاه عن فرسه ، ثم عطف عليه ، فما وصل إلى
الأرض حياً حتى فارقه رأسه ، فكبر المسلمون أعلى تكبير ، وانخذل الروم ،
وبادروا الباب يلقونه ، واتصل الخبير بالرشيد فصاح بالقواد : اجعلوا النار في
الحجائيق ، وارموها فليس عند القوم دفع . ففعلوا وجعلوا السكتان والنقط على
الحجارة وأضرموا فيها النار ، ورموا بها السور فكانت النار تاصق به وتأخذ
الحجارة ، وقد تصدعت فهاقت . فلما أحاطت بها النيران فتحوا الباب مستأمنين
ومستقبلين .

(١) أصلت السيف : جرده من غمده . (٢) التبدل : ضد التجلد . (٣) العطمة : تناه
الأصوات واختلاطها في الحرب وغيرها . (٤) الوهق يفتح الماء وإسكانها : الحبل يرى أندوطة ،
فتؤخذ به الدابة .

١٧٣ — وامعتصماه *

وقف رجلٌ على الممتصم^(١) فقال : يا أمير المؤمنين؛ كنت بمُورِية^(٢) وجارية^(٣) من أحسن النساء سيرةً ، قد لطمها عليّ^(٤) في وجهها ، فنادت : وَاْمُعْتَصِمَاهُ ! فقال المِلِج : وما بقدرُ عليه الممتصمُ ! يحى به على أبلقٍ وينصرك ! وزاد ضَرْبُهَا .

فقال للممتصم : وفي أى جهة عمورية؟ فقال له الرجل - وأشار إلى جهتها : هاهى ذى ؛ فردّ للمتصم وجهه إليها ، وقال : لَكَيْتُكِ أَيْتِهَا الجارية ، كَلَيْتُكِ ؛ هذا الممتصم بالله أجابك ، ثم تجهَّز إليها في اثني عشر ألف فرس أبلقٍ ، وحاصرها .

ولما طال مُقامه عليها جمع النَجْمَيْنِ فقالوا له : إنا نرى أنك ما تفتحها إلا في زمان تُضجُ العنب والثين ، فتوقَّ عليه ذلك وانغمَّ ، وخرج ليلةً مع بعض حَشَمِهِ متجسِّساً في المعسكر يسمع ما يقول الناس ، فرَّ بحِيمة حدَّادٍ يضرب نِمال الخيل ، وبين يديه غلامٌ أقرعُ قبيحُ الصورة ، وهو يضرب على السندان ويقول : في رأس الممتصم ! فقال له معلمه : اترُكْنَا من هذا ، مالك وللممتصم ! فقال : ما عنده تدبير ، له كذا وكذا يوماً على هذه المدينة مع قُوَّتِهِ ولا يفتحها ! تَوَّأ أعطاني الأمر ما بات غداً إلا فيها .

فتمجَّب الممتصمُ فما سمع ، وترك بعضَ رجاله موكِّلاً به ، وانصرف إلى خبائه ، فلما أصبح جاءوا به ، فقال : ما حملك يا هذا على ما بلفنى عنك ؟ فقال الرجل :

* محاضرات الأبرار : ٢ - ٦٣

(١) خليفة من أعظم خلفاء الدولة العباسية وهو قاضٍ عمورية توفى سنة ٢٢٧ هـ . (٢) عمورية : بلدة من بلاد الرُّوم . (٣) المِلِج : الواحد من كتفار الجمع .

نى بلفك حقّ ، ولو وليّني الحرب فإنّي أرجو أن يفتح الله عليك . فقال : قد ليّتك ، وخلع عليه وقّده على الحرب ، ففتح الله عليه ، ودخل المتصم المدينة ، لم يلبث قول المتجمين .

ثم دعا بالرجل الذي بلقه حديث الجارية ، فقال له : سرّني إلى الموضع الذي أبثها فيه ، فسار به ، وأخرجها من موضعها ، وقال لها : يا جارية ، هل أجابك تصم ؟ ثم ملكها المنج الذي لطمها ، والسيد الذي كان يملكها وجميع ماله^(١) .

(١) وفي هذه يقول أبو تمام قصيدته :

اليث أضدت أنباء من الكتب	في حده الحد بين الحد والعب
يبض الصفائح لا سود الصفائح في	متونهن جلاء الشك والريب
والسلم في شهب الأرماع لا معة	بين الخمين لافي البعة الصهب
وخولوا الناس من دهباه داهية	إذا بدا الكوكب الفرق ذو الذنب
رصاصاً وأحاديثاً ملفقة	ليست ينبع إذا عدت ولا غرب
أربخ للنجمين في الثين والذنب فقال :	جلودهم قبل فضح الثين والغب
ن ألفاً كآساد العرى تضجت	

فهرس القصص

الباب الأول

في القصص التي تعرب عما يقع بين العامة والملوك ، والقواد والرؤساء والقضاة
ومن إليهم ، من كل ذى صلة بالحكم والحكام ، مما يتناول حيلهم في المنازعات
والخصومات ، ويوضح طرائقهم في رفع الظلمات ورجع الحقوق وما يجري هذا
الجرى :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١	٨	مق تعبدتم الناس ؟
٢	٩	أحب الولاة إلى عمر بن الخطاب
٣	١١	عمر يتفقد رعيته
٤	١٣	عمر بن الخطاب يحاسب نفسه
٥	١٤	جثثك من عند أزهذ الناس
٦	١٦	تأديب عمر بن الخطاب لعماله
٧	١٨	أخطأت في ثلاث
٨	١٩	تنصرت الأشراف من عار لطفة
٩	٢٥	بصيرة العباس
١٠	٢٧	أثر المعروف
١١	٢٩	في البيمة ليزيد بن معاوية

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٢	٣٣	ذو الوجهين لا يكون عند الله وجهها
١٣	٣٤	الحجاج وأهل العراق
١٤	٣٩	نصيحة
١٥	٤١	من حيل الحجاج
١٦	٤٣	لا أحد إلا الله
١٧	٤٥	لا أسألكم عليه أجراً
١٨	٤٧	خليفة بين يدي قاض
١٩	٤٩	العهد لعمر بن عبد العزيز
٢٠	٥٢	عمر بن عبد العزيز يحمل الناس على الحق
٢١	٥٤	لا تلوّموا إلا أنفسكم
٢٢	٥٥	ذكرتني الطعن وكنت ناسياً
٢٣	٥٧	الولد سر أبيه
٢٤	٥٩	أوارث أنت بنى أمية
٢٥	٦١	حضر عيسى بن موسى
٢٦	٦٣	بقطة المنصور
٢٧	٦٥	المنصور في ساحة القضاء
٢٨	٦٧	بنى كما كانت أوائلنا بنى
٢٩	٦٩	هذهاني بين يدي للمنصور
٣٠	٧١	أمير في مجلس القضاء
٣١	٧٤	قاضي يطلب الإقالة من القضاء
٣٢	٧٥	أبو دلامة وابن أبي ليلى القاضي

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
٣٣	٧٦	صاحب شرطة المهدي مع الهادي
٣٤	٧٨	لا أفلح قاض لا يقيم الحق
٣٥	٨٠	الفادر مخدول
٣٦	٨١	رجل يقاضى المأمون
٣٧	٨٣	لا يخلو أحد من شعبن
٣٨	٨٥	كيف يعتذر إنسان من كلاب تسكلم به
٣٩	٨٨	غرس يدي وإلف أدبي
٤٠	٩٠	غسان بن عباد وعلى بن عيسى
٤١	٩٢	فطنة
٤٢	٩٣	لا تنبع الهوى
٤٣	٩٤	هشام بن عبد الرحمن الداخل وأحد صنائعه
٤٤	٩٦	قاضي لا يقبل شهادة خليفة

الباب الثاني

في القصص التي تصوّر احتفاظهم بأنسابهم واعتزازهم بقبائلهم ، وتمجيدهم للأسلاف ، وتمديدهم ما تركوا من مآثر ، وما أدى إليه ذلك من مفاخرات ومنافرات :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
٤٥	١٠٠	خاطرت على حسي وحسبك
٤٦	١٠٣	لا تجمعان هوازنا كدحج
٤٧	١٠٥	يتنازعان الزعامة

العنوان	رقم الصفحة	رقم القصة
أنت له	١١١	٤٨
أنت اليوم ذو جدّين	١١٦	٤٩
إن البلاء موكل بالمنطق	١١٨	٥٠
معاقرّة	١٢٠	٥١
قد كان يسوءني أن تكون أميراً	١٢٢	٥٢
لترجن بأكثر مما آب به مملى	١٢٤	٥٣
ما تكشف الأيام منك إلا عن سيف صقيل	١٢٧	٥٤
لولا ما جعل الله لنا في يديك ما أتيناك	١٣٤	٥٥
ذهبت قريش بالسكرم والملا	١٣٧	٥٦
لو ترك القطا لنا ما	١٤٠	٥٧
مفاخرة ربيعة	١٤٥	٥٨
أراك عالماً بقومك	١٤٨	٥٩
لقد خفت أن تشخر على	١٥٠	٦٠
بين عبد الله بن جعفر والحجاج	١٥١	٦١
إنها قريش يقارع بعضها بعضاً	١٥٣	٦٢
تستجير بقبر أبيه	١٥٤	٦٣
الفرزدق والأنصار	١٥٥	٦٤
الفرزدق عند سليمان بن عبد الملك	١٥٨	٦٥
الباهلي	١٥٩	٦٦
كلثوم المتنبّي	١٦١	٦٧

الباب الثالث

في القصص التي تنقل ما كانوا يتفكّمون به من أسرار ومطايبات ، ومناقشات وأفاكيه ، مما نال به المحدثون والندماء سنيّ الجوائز والتلّع من الخلفاء والوزراء ، وما ارتفعت به مكانتهم عند السادة والوجوه في المجتمعات والمنتديات :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
٦٨	١٦٦	يبيع اسمه
٦٩	١٦٧	أنا كنت أولى بهذا الشعر من أبيك
٧٠	١٦٩	عبد الرحمن بن الحكم يترضى ريادة
٧١	١٧١	أنا كم غريب الدار مظلوم
٧٢	١٧٢	أرى فيك موضعاً للصنمية
٧٣	١٧٣	الرثية
٧٤	١٧٥	ظرف عباد الحجاز
٧٥	١٧٦	جرير وجارية الحجاج
٧٦	١٧٨	أرادت عراراً بالهوان
٧٧	١٧٩	قد يموت
٧٨	١٨٢	ما أنا بيارح أو يرضى أمير المؤمنين
٧٩	١٨٦	أكل
٨٠	١٨٧	نزل أم حبيب
٨١	١٨٨	اسرأة تحاور كثيراً
٨٢	١٩٠	إفهام

رقم الصفحة	رقم الصفحة	العنوان
٨٣	١٩١	بين كثير وعزة
٨٤	١٩٣	حوار بين شعراء
٨٥	١٩٧	احتال حتى أقرأها رسالته
٨٦	٢٠٠	من لي بمثلك يُعْتَبِرُنِي إذا استعْتَبَتَهُ
٨٧	٢٠٣	ها قرا السماء وأنت نجم
٨٨	٢٠٥	نقى الأحوص
٨٩	٢٠٨	شهادة
٩٠	٢١٠	ففض الطرف إنك من مثير
٩١	٢١٣	لا أهجو شاعراً هذا شعره
٩٢	٢١٥	جارية
٩٣	٢١٦	قضعت شيفعاً من قريش وعذبتني !
٩٤	٢١٨	في دار هشام بن عبد الملك
٩٥	٢٢١	هروب الحكيم
٩٦	٢٢٦	وشاية
٩٧	٢٢٠	أشعب يبلغ رسالة
٩٨	٢٣٢	رُعِنِي رَاعِكَ اللَّهُ
٩٩	٢٣٣	كادت تموت فرحاً
١٠٠	٢٣٤	هلم إلى أكا فثك
١٠١	٢٣٧	بوزع
١٠٢	٢٣٩	للمنصور يطلب من يسليه بالشعر
١٠٣	٢٤١	صر إلى متى شئت
١٠٤	٢٤٣	أتذكر إذ لحأتك جلد شاة !

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٠٥	٢٤٥	لقد كان ذلك الرجل شؤماً
١٠٦	٢٤٧	حُبِسْتُ مع الدجاج
١٠٧	٢٤٩	ما ضره لو أن ذنوب العالمين على ظهري
١٠٨	٢٥٢	لو أن لي مهجة أخرى لجدتُ بها
١٠٩	٢٥٥	يهجو نفسه
١١٠	٢٥٧	كل امرئ يا كل زاده
١١١	٢٥٨	حمّاد والفضل
١١٢	٢٦٠	في خِباء الأعرابي
١١٣	٢٦١	دعا بفراق من تهوى أبان
١١٤	٢٦٢	راوية أبي نواس والمتأق
١١٥	٢٦٤	ألا موت يُباع !
١١٦	٢٦٥	قد وجدناك ممتعاً
١١٧	٢٧٠	تموتُ حسن الصبر حتى أنته
١١٨	٢٧٢	ملّ كتابي إحصاء ما يَهَبُ
١١٩	٢٧٧	اسمى مشتق من اسمك
١٢٠	٢٧٨	بديهة قَيِّنة
١٢١	٢٧٩	لا أذوق المدام إلا شمياً
١٢٢	٢٨١	إن بعد العصر يسرا
١٢٣	٢٨٣	رأوية مسلم بن الوليد
١٢٤	٢٨٥	لباقة
١٢٥	٢٨٩	لولا حقه وحق صاحبه لمت جوعاً

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٢٦	٢٩٠	إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ
		نصيب ولا حظ تمنى زوالها
١٢٧	٢٩٢	خَلَقَ دُعَيْل
١٢٨	٢٩٧	دَيْكُ دُعَيْل
١٢٩	٢٩٨	بين البادية والخضر
١٣٠	٢٩٩	الجاحظ في مرضه
١٣١	٣٠١	ظبي مذبوح ، ورجل جريح ، وفناة ميتة
١٣٢	٣٠٣	جوائز الصلاة
١٣٣	٣٠٤	ما معنى إلفاقى !
١٣٤	٣٠٨	قد شفى منه صدورنا !
١٣٥	٣٢٤	نقد شعر امرئ القيس
١٣٦	٣٢٦	لا وصل إلا أن يشاء ابن معمر
١٣٧	٣٢٧	الشعر بضاعة تجدى
١٣٨	٣٣٠	حديث جويرية
١٣٩	٣٣٢	أحلف وأنا في هذه السن !
١٤٠	٣٣٤	ضربتان
١٤١	٣٣٥	من كذب الأعراب
١٤٢	٣٣٦	قسم فأحسن القسمة
١٤٣	٣٣٨	زهد وأدب
١٤٤	٣٤٤	تشابه خاطرين
١٤٥	٣٤٦	إنما توجد في قعر البحار الفصوص

الباب الرابع

في القصص التي تؤرخ مذكور أيامهم ، وتفصل مشهور وقائهم ، و
كبرائهم ، ونصف الحروب والمنازعات التي كانت تدور بين قبائلهم ، أخذاً بـ
أو حماية للذمار :

رقم القصة	قم الصفحة	العنوان
١٤٦	٣٤٨	كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
		أنيس ولم يسر بمسكة سا
١٤٧	٣٥٢	ألا من يشتري سهرأ بنوم
١٤٨	٣٥٤	غنك خير من سمين غيرك
١٤٩	٣٥٦	مقتل كليب
١٥٠	٣٦١	المجوس بن كليب يثار لأبيه
١٥١	٣٦٣	قرباً مربوط النعامة منى
١٥٢	٣٦٧	ضيغى صغيراً ، وحنلى دمه كبيراً
١٥٣	٣٧٦	ما كان لولا غرة الليل يغلب
١٥٤	٣٨٠	لأقتله ولو كان في حجر النعمان
١٥٥	٣٨٣	وفاء وغدر
١٥٦	٣٨٥	يثأر لأبيه وجده
١٥٧	٣٨٩	بعد طعن عمر بن الخطاب
١٥٨	٣٩٣	للوتمرون بلى ومعاوية وعمرو
١٥٩	٣٩٨	بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد
١٦٠	٤٠١	الأخطل يفرق من الجحاف

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٦١	٤٠٣	قد أخرت الإذن عليه لتقتلوه
١٦٢	٤٠٨	آبى الضيم
١٦٣	٤١٢	مصرع الوليد بن طريف

الباب الخامس

في القصص التي تحكي ما كان للجند من أحداث وأحاديث في الغارات والغزوات والفتوح ، مصورة نفسياتهم وأحوالهم ، واصفة تطوراتهم العقلية والخلقية بنشأة الدولة العربية وانفاس رقمتها ، مفصلة عددهم وآلاتهم وأسلحتهم في حياتهم الجديدة :

رقم القصة	رقم الصفحة	العنوان
١٦٤	٤١٦	كلاب بن أمية وأبواه
١٦٥	٤٢٠	في يوم اليرموك
١٦٦	٤٢٣	في يوم القادسية
١٦٧	٤٢٥	في فتح نهاوند
١٦٨	٤٢٧	عمرو بن العاص وأحد كفار الأعاجم
١٦٩	٤٢٩	عمر بن الخطاب وغنائم المسلمين
١٧٠	٤٣٣	قد كاد أميركم يهلك
١٧١	٤٤٠	عند ملك الصين
١٧٢	٤٤٣	إنك ابني .
١٧٣	٤٤٦	خدعة
١٧٤	٤٤٩	وامتصمها !

فهرس الأعلام

أبو أيوب الأنصارى : ٣٩٣	(١)
أبو بكر الصديق ١١٨ ، ٤٢٠	أبان بن عبد الحميد : ٢٦١
أبو تمام : ٤٥٠	أبان بن عثمان : ٢٦٤
أبو جزء بن عمرو بن سميد : ١٥٩	أبان بن الوليد البجلي : ٢٢٢
أبو جهل بن هشام : ١٠٧	إبراهيم السويق : ٣٢٧
أبو دلالة : ٧٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٥	إبراهيم بن عبد الله بن الحسين : ٦٤
أبو ذؤيب الهذلى : ٢٣٩	إبراهيم بن عثمان : ٧٩
أبو السائب الخزوى : ٢١٦	إبراهيم بن محمد بن سعد : ١٥٥
أبو سفيان بن حرب : ٢٥ ، ٤٢٠ ، ١٠٧	إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٣٩ ، ٤٧
أبو طلحة الأنصارى : ٣٩١	ابن أبى لى : ٧٥
أبو الطيب اللقى : ٣٠٨	ابن بشير القاضى : ٩٦
أبو عبيدة عامر بن الجراح : ٤٢٠ ، ٤٣٣	ابن الجزرى : ٤٤٧
أبو المتاهية : ٢٧٠	ابن زبنج : ٢٣٤
أبو الملا هاعد : ٣٤٦	ابن ظافر : ٣٤٤
	ابن المدير : ٣٠٣
	ابن معمر : ٣٢٦
	ابن المازلى : ٣٠٤

أمية بن الأسكر الكنانى : ١	أبو على الحاتى : ٣٠٨
إياد (قبيلة) : ٣٧٢	أبو لؤلؤة المجوسى : ٣٨٩
إياس بن قبيصة : ١٠١	أبو محجن الثقفى : ٤٢٣
أيوب بن سليمان بن عبد الله : ٤٩	أبو موسى الأشعرى : ١٠
أيوب المورياتى : ٢٤٩	أبو نواس : ٢٦٢ ، ٢٧٩
(ب)	أحمد بن أبى خالد : ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩
بجير بن عمرو : ٢٦٤	الأحنف بن قيس : ١٣ ، ٣١
بديح (مولى عبد الله بن جعفر) : ٢٧٣	الأحوص : ١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢١٣
بسر بن أرطاة : ٣٩٣	الأخطل : ١٣٨ ، ٤٠١
البسوس : ٣٥٦	أزهر السمان : ٢٤١
بشار بن برد : ٣٦١	إسحاق بن الصباح : ٧٢
بكر بن وائل : ١٨٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٣	إسماعيل بن إسحاق القاضى : ٩٣
بنو آكل للرار : ٣٧٣	إسماعيل بن جعفر بن محمد : ٣٣٢
بنو أسد : ٣٦٧	أشعب بن جبير : ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤
بنو أمية : ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ٢٧٨	الأصمى : ٢٦٥
بنو تميم : ١٢٠	الأعشى : ١٠٩
بنو حرام : ٢١٣	امرؤ القيس بن أبان : ٣٦٤
بنو حية : ١٠١	امرؤ القيس بن حجر الكندى : ٢٦٩
بنو الديان : ١٠٣	أم عمرو ابنة منظور : ١٤٠
بنو عامر : ٣٨٠	أم كلثوم بنت على بن أبى طالب : ٢
	٤٣٠ ، ١١

جفنة (قبيلة) : ١٩

جليلة بنت مرة : ٣٥٨ ، ٣٦١

جندل بن عبيد بن الحصين : ٢١٠

(ح)

حاتم بن عبد الله الطائي : ٩٩

حاجب بن زراراة : ١١٦ ، ١٥٨

الحارث بن أبي شمر : ٣٧٣

الحارث بن ظالم : ٣٨٠

الحارث بن عباد : ٣٩٣

حبي بنت نكيف : ٢٢٢

حبيب بن عبد الله الصريمي :

الحجاج بن بديل : ٢٢٢

٣٩٣

الحجاج بن يوسف الثقفي : ٣٩ ، ٣٤

٤١ ، ٤٣ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٧٥

١٧٨ ، ١٨١

حجر الكندي : ٣٦٧

حرفلة بن الأشعر المري : ١٠٧

حربش بن عبد الله السعدي : ١٥٨

حسان بن ثابت : ٢٣ ، ١٥٥

بنو عبس : ٣٨٧

بنو لام : ١٠٠

بنو هاشم : ٢٣٩

٣٧٣ : ١٠١

(ت)

تأبط شراً : ١٦٦

تقلب (قبيلة) : ٣٥٦ ، ٣٦٣ ، ٤٠١

تيم بن زيد القيني : ١٥٤

تنوخ (قبيلة) : ٣٧٣

(ج)

الجاحظ : ٢٩٩

الجارود بن بشر بن الملا : ١٤٦

جبلة بن الأيهم : ١٩

الجعاف بن حكيم السلي : ٤٠١

جرهم (قبيلة) : ٣٤٨

جرير بن عطية الخطفي : ١٧٦ ، ١٨٢

٢١١

جساس بن مرة : ٣٥٦ ، ٣٦١

جعفر بن أبي جعفر للتصور : ٢٣٧ ،

٢٣٩

الطعيم بن عدى : ٣٨٥	حسان بن جبلة : ١٠٠
(د)	الحسن بن علي : ٣٩٦
داود بن يزيد بن هاشم : ٢٨٣	حسين بن عبدالسلام المصري : ٣٠٣
دريد بن الصمة : ٤٠٩	الحسين بن علي : ٣١
دعبل بن علي الخزاعي : ٢٩٢ ،	الحسين بن أسيد : ٣٧٨
٢٩٧	الحسين بن زهير : ٣٧٨
دغفل بن حفظة : ١١٨	الحكم بن أبي العاصم : ١٠٠
دكين الراجر : ٣٠٨	حكيم بن جبلة : ١٤٥
(ذ)	حكيم بن عباس السكلي : ٢٢١
ذورعين : ٣٥٢	حماد الراوية : ٢١٨ ، ٢٣٧
(ر)	حمزة بن بيبض : ٢٠٠
الراعي : ٢١٠	حمير : ٣٥٢
الربيع بن زياد الحارثي : ٩	(خ)
الربيع بن زياد العيسى : ١١١	خالد بن جعفر بن كلاب : ٤١٠ ، ٣٨٠
الربيع بن يونس : ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٨	خالد بن الوليد : ٤٣٠ ، ٤٣٤
ربيعة (قبيلة) : ٣٦٧	خالد بن يزيد : ١٥١
رجاء بن حيوة : ٤٩	خدائش بن زهير : ٣٨٩
رملة بنت الزبير : ١٣٧ ، ١٥٣	خزاعة (قبيلة) : ٣٥٠
روح بن حاتم : ٢٥٢	خزيمة بن خازم : ٨٠
روق بن عطية المذحجي : ٢٥٤	خزيمة بن عمرو : ١٠٧

سلمة بن قيس : ٤٢٩
سليمان بن عبد الملك : ٤٩ ، ٥٥ ،
١٨٦ ، ١٥٨

السموول : ٣٧٣
سيف الدولة بن حمدان : ٣٢٤

(ش)

شاس بن زهير : ٣٧٦
شبيب الأشجعي : ٣٩٤
شريك بن عبد الله : ٧١
شمر بن حرر : ٣٨٤

(ص)

صالح بن هلى : ٢٩٧
صمصمة بن صوحان : ١٢٢ ، ١٤٦

(ض)

الضحاك بن قيس : ٢٩
ضرار بن الخطاب : ٤٠٩

(ط)

طارق بن ديسق : ١٢٠
طاهر بن الحسين : ٨٣

رياح بن الأسك : ٣٧٤
ربطة بنت أبي العباس : ٢٥١
(ز)

زاذية : ٣٩٣
الزبير بن بكار : ٣٠١
الزبير بن العوام : ٣٩١ ، ٤١٦
زهير بن جذيمة : ٣٧٦ ، ٣٨٠
زباد بن أبيه : ١٢٧ ، ١٦١

(س)

السائب بن الأقرع : ٤٢٥
السائب (راوية كثير) : ١٩٢
سحيم بن وثيل الرياحي : ١٢٠
سمد بن أبي وقاص : ٣٩١ ، ٤٢٣
سعدة بن مالك : ٣٦٣
سعدة (زوج الوليد بن يزيد) : ٢٢٩

سميد بن خالد : ٥٠
سميد بن عبد الرحمن الداخل : ٩٦
سميد بن العاص : ١٢٧
سمية بن غريص : ١٦٧
سلمى بنت أبي حفص : ٤٢٣

عبد الله بن طاهر : ٨٦

عبد الله بن عباس : ١٥ ، ١٢٧

١٤٠

عبد الله بن علي : ٦١

عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٣٩١

عبد الله بن عمر العمري : ١٧٥

عبد الله بن عمرو بن عثمان : ٢٠٣

عبد الله بن مالك : ٧٦ ، ٤٤٦

عبد الله بن وهب : ٣٩٣

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز :

٥٧

عبد الملك بن مروان : ٣٤ ، ٣٩ ،

١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٧٣ ،

١٧٨ ، ١٨٢ ، ٣٦٨ ، ٤٠١ ،

٤٠٣

عبيد بن الأبرص : ٣٦٧

عبيد بن طيبان : ٧٨

عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : ٣٠٢

عبيد الله بن قيس الرقييات : ٤٠٣

عتاب بن ورقاء الرياحي : ١٥٨

طريح بن إسماعيل الثقفي : ٤٢٦

طلحة بن عبد الله : ٤١٦

(ع)

عائكة بنت يزيد بن معاوية

٣٩٨

عاقبة بن يزيد : ٧٤

عامر بن جوين : ١٠٢

عامر بن الطفيل : ١٠٣ ، ١٠٥

عباس بن عبد المطلب : ٣٥

عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٦

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

١٣٧

عبد الرحمن بن الحكم : ١٢٧

١٦٩

عبد الرحمن بن عوف : ٣٩٠ ، ٣٩٣

عبد العزيز بن مروان : ٣٩٩

عبد الله بن جعفر : ١٤٥ ، ١٧٣ ،

٤٠٤

عبد الله بن الحسن : ٦٣

عبد الله بن الحصين : ١٤٠

عبد الله بن الزبير : ٣١ ، ١٤٠

عبد الله بن سوار : ١٤٦

عتبة بن ألى سفيان : ١٦٩ ، ١٢٥
عتبة بن جعفر : ٣٧٨
عُمان بن عفان : ٣٨٩ ، ٢٤
عدي بن الفرج : ١٧٩
عدي بن زيد : ٢١٩
عدي بن عمرو : ٣٨٥
عرار بن عمرو بن شماس الأسدي :
١٧٨
عزة (صاحبة كثير) : ١٩٠ ، ١٩١
عطاء بن أبي رباح : ٤٥
عفير بن ذي يزن : ١٢٦
عك (قبيلة) : ١٩
عكرمة بن أبي جهل : ٤٣٠
علقمة بن علاثة : ١٠٥
علي بن أبي طالب : ٢٥ ، ١٢٠ ،
٣٩٣ ، ٣٩١
علي بن الجهم : ٢٩٨
علي بن سليمان : ٢٥٥ ، ٢٥٧
علي بن عيسى : ٨٨
عمر بن أبي ربيعة : ١٩٣ ، ١٩٧ ،
٢٠٥
عمر بن حفص : ٦٣
عمر بن الخطاب : ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٣ ،
١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٣٨٩ ، ٤١٦ ،
٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩
عمر بن عبد العزيز : ٤١ ، ٤٩ ، ٥٢ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ١٨٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،
٢٠٨
عمرو بن الإطابة : ٣٨٠
عمرو بن جابر : ٣٧٣
عمرو بن حريث : ٤٢٦
عمرو بن سعيد : ٢٩
عمرو بن سميد الأشدق : ٣٩٨
عمرو بن العاص : ٨ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ،
١٨٦ ، ٤٢٧
عمرو بن عتبة : ١٥٢
عمرو بن مسعود : ٣٦٧
عمير بن حباب السلمي : ٤٠١
عمير بن سعد : ١٤٠
عمير بن ضابئ الجرهمي : ٩
عنيسة بن سميد بن العاص : ٥٥ ،
١٧٦ ، ٢٢٤

٢٠٥

عويف القوافي : ٤١٠

عيسى بن جعفر : ٧٨

عيسى بن موسى : ٦١

عيننة بن حصن : ١٠٧

(غ)

غاضرة (أم ولد لبشر بن مروان) :

١٨٩

غالب بن مصعدة . ١٢٠

غسان بن عباد : ٩٠

غنى (قبيلة) : ٣٧٧

غيلان بن سلمة الثقفي : ١٠٧

(ف)

الفرزدق : ١٢٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨

٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١٣

الفضل بن الربيع : ٢٧٥

الفضل بن يحيى : ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧

(ق)

القاسم بن إبراهيم بن طباطبا : ٨٨

قبيصة بن ذؤيب الخزاعي : ٤٠٠

قتيبة بن مسلم : ٤٣ ، ٤٤٠

قطام بنت علقمة : ٣٩٤

القعقاع بن عمرو : ٤٢٠

قيس بن الخطيم : ٣٨٥

قيس بن زهير : ٣٨٠

قيس بن عامر : ١٥٨

قيس عيلان (قبيلة) : ٢٦١ ، ٣٦٧ ،

٤٠١

قيس بن مسعود : ١١٦

قيصر : ٣٧٤

(ك)

كثير بن عبد الرحمن : ١٥٥ ، ١٨٨ ،

١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣

كعب الأحبار : ٣٨٩

كعب بن جميل : ١٣٧

كلاب بن أمية بن الأسكر : ٤١٦

كلب (قبيلة) : ٤٠١

كثم بنت سعد الخزومية : ١٩٧

كلثوم بن عمرو العتابي : ١٦١ ، ٢٦٢ ،

كليب بن ربيعة : ٣٥٦

الكهيت : ٢٢١ ، ٢٢٢

مخلد بن يزيد بن المهلب : ٢٠٠
 مذحج (قبيلة) : ٣٥٤
 مرة بن ذهل : ٣٥٦
 مروان بن الحكم : ١٦٩
 مزاحم (مولى عمر بن عبد العزيز) :
 ٥٧ ، ٥٢
 مزيد اللدني : ٣٣٢
 مسلم بن الوليد : ٢٨٣ ، ٢٨١
 مسلمة بن هشام : ٢٢٤
 مصعب بن الزبير : ٤٠٣ ، ٣٩٨ ، ١٧٢
 مصقلة بن رة العبدي : ١٤٥
 مطيع بن إلياس : ٢٣٧
 مضاض بن عمرو بن الحارث : ٣٤٩
 معاوية بن أبي سفيان : ٢٨ ، ٣١ ،
 ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٤ ،
 ١٦٧ ، ١٦٩ ، ٣٩٣
 معاوية بن هشام : ٢٢٤
 معبد بن خالد : ١٤٨
 المعتصم : ٤٤٩
 المعتضد (الخليفة العباسي) : ٩٢ ،
 ٣٠٤

(٢١ - قصص العرب - ٢)

كنانة (قبيلة) : ٣٦٧
 (ل)
 ليلى بنت طريف : ٤٠٣
 (م)
 المأمون (الخليفة العباسي) : ٨١ ،
 ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٤
 مقم العبدي : ٣٣٠
 المتوكل (الخليفة العباسي) : ٢٩٨
 محمد بن جعفر : ٦٧
 محمد بن الحجاج : ١٨٢
 محمد بن عبد الله بن الحسن : ٦٥ ،
 ٤٠٩
 محمد بن عبد الله عليه السلام : ١١٨
 محمد بن عمران الطلحي : ٦٥
 محمد المهلب : ٢٦٤
 محمد بن موسى الضبي : ٢٩٢
 محمد بن هارون الرشيد الأمين
 (الخليفة العباسي) : ٨٠ ، ٢٧٩
 محبة بن زعيم : ٤٢١

(هـ)

المهادي (الخليفة العباسي) : ٧٦
 هارون الرشيد (الخليفة العباسي) :
 ٧٨ ، ١٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨١ ، ٢٩٤ ، ٤٠٣ ، ٤٤٦
 هاني بن عروة المرادي : ٢٧
 هبيرة بن الشمرج : ٤٤٠
 الهجرس بن كليب : ٣٦١
 هرثمة : ٤٤٦
 هرقل : ١٦
 هرم بن قطبة : ١٠٧
 هشام بن عبد الرحمن الداخل : ٩٤
 هشام بن عبد الملك : ٤٥ ، ٤٧ ،
 ٢١٨

هشام بن مرة : ٣٥٨

(و)

الوليد بن جابر : ١٢٤
 الوليد بن طريف : ٤٠٣
 الوليد بن عبد الملك : ٤١
 الوليد بن يزيد : ٢٢٦
 وهم بن عمرو : ١٠١

معد (قبيلة) : ٣٨٣

معن بن زائدة : ٢٤٣ ، ٢٤٥
 معن بن عطية المذحجي : ٣٥٤
 المغيرة بن شعبة : ١٢٧
 المغيرة بن نوفل : ٣٩٥
 المنفل الضبي : ٢٥٨ ، ٤٠٨
 ملاعب الأسنة : ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١١
 المنذر بن ماء السماء : ٣٨٣
 المنصور (الخليفة العباسي) : ٦١ ، ٥٩
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣
 المهدي (الخليفة العباسي) : ٧٤ ، ٧٦
 ٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦١
 مهمل بن ربيعة : ٣٦٤ ، ٣٦٦
 موسى بن عيسى : ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣

(ز)

نصيب بن رباح : ١٨٧ ، ١٩٣
 النعمان بن بشير : ١٣٨
 النعمان بن مقرن : ٤٢٥
 النعمان بن المنذر : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٦
 ٣٧٦ ، ٣٨٠
 نعيم المدي : ٦٥

يزيد بن مزيد الشيباني : ٢٨١ ،

٤٤٦ ، ٤٥٣

يزيد بن معاوية : ٢٧ ، ٢٨ ،

١٣٧ ، ٢٩

يزيد بن المقفع : ٣٥

يزيد بن المهلب : ١٧٩

يوسف بن عمر : ٢١٨

(ى)

يحيى بن أكنم : ٨١

يحيى بن سميد : ١٦٢

يرفأ (مولى عمر بن الخطاب) : ٩ ،

٤٢٩

يزيد بن عبد اللذان : ١٠٣

يزيد بن عبد الملك : ٥٠ ، ٥٦ ،

٢١٨ ، ٢١٥

فهرس الأماكن

(ف)	(د)	(ا)
قديد : ١٩٣	الزقة : ٢٨١ ، ٨٧	أتابة العرج : ٣٠١
القسطنطينية : ٢٠	الروحاء : ١٩٣	الأحص : ٣٥٧
قيسارية : ٤٣٣ ، ٤٢٧	(س)	أشبونة : ٣٣٨
(م)	السفد : ٢٦٦	أنقرة : ٢٧٥
المدينة : ١٥٥	السفد : ٢٩٩	(ب)
مصر : ٨	ساموس : ٢٨٦	البحرين : ٩
مكة : ٣٤٨	(ش)	البشر : ٤٠٢
مسكن : ٤٠٣	شبيب : ٣٥٧	بطان الجريب : ٣٥٧
(ن)	(ط)	(ت)
النحيلة : ٣٩٣	الطائف : ١٧١	تبالة : ٣٧٢
نهاوند : ٤٢٥	(ع)	تهامة : ٣٦٧
النهروان : ٣٩٣	المراق : ٣٩٨ ، ٣٤	نجا : ٣٧٣ ، ١٦٧
(هـ)	العرج : ١٩٣	(ح)
هرقلة : ٤٤٦	عسيب : ٣٧٤	حمص : ١٤
(و)	علي باذ : ٢٥٨	(د)
واسط : ١٧٦	عمورية : ٤٤٩	دمون : ٣٧٠
ودان : ١٩٣	عين اباغ : ٤٨٣	دهلك : ٢٠٥
(ى)	(غ)	(ذ)
البرموك : ٤٢٠	غزة : ٤٢٧	الذنايب : ٣٥٧

مراجع هذا الجزء

الأغاني	: لأبي الفرج الأصفهاني
الأمالي	: للقبلي
الأمالي	: للمرتضى
بدائع البدائنه	: لمطى بن ظافر الأزدي
بلوغ الأرب	: للألوسي
تاريخ الأمم والملوك	: لابن جرير الطبري
تزيين الأسواق	: لداود الأنطاكي
ثمرات الأوراق	: للحموي
الحيوان	: للجاحظ
خزانة الأدب	: للبغدادي
ذيل الأمالي	: لأبي علي القالي
ذيل زهر الآداب	: للحميري
رغبة الآمل	: للرصفي
زهر الآداب	: للحميري
سيرة عمر بن عبد العزيز	: لابن عبد الحكم
شرح سهج البلاغة	: لابن أبي الحديد
صبح الأعشى	: للقلقشندي

عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعي
العقد الفريد	: لابن عبد ربه
العقد الفريد	: للملك السعيد
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصاص الواضحة	: لأبي إسحاق الوطواط
الفرج بعد الشدة	: للتنوخي
السكامل في الأدب	: للمبرد
السكامل في التاريخ	: لابن الأثير
مجمع الأمثال	: للميداني
الحاسن والأضداد	: للبحاظ
الحاسن والمساوي	: للبيهقي
محاضرات الأبرار	: لابن عربي
المختار من نواذر الأخبار (مخطوط)	: لـ محمد بن أحمد الأنباري
مروج الذهب	: للسعدي
المستطرف في كل فن مستظرف	: للأبشيبي
مماهد التنصيص	: لبدر الدين العياشي
معجم الأدباء	: لياقوت الحوي
معجم البلدان	: لياقوت الحوي
مذهب الأغاني	: للشيخ محمد الخفري
نفع الطيب	: المقرئ
نهاية الأرب	: للنويري

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة	: للزخشرى
الأعلام	: للزركلى
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجى زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: الشيخ محمد الحففى
جمهرة أمثال العرب	: لأبى هلال العسكرى
رغبة الآمل	: للعصرى
شرح ديوان الخناسة	: للتبرىزى
شرح الأمالى	: للبكرى
طبقات الشعراء	: لابن سلام
الشعر والشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر فى الأمثال	: للضبى
فهرس خريطة الممالك الإسلامية	: للأمير واصف
القاموس المحيط	: للفيروز أباذى
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
م. الليد	: لابن هشام
وفيات الأعيان	: لابن خلكان

